فلسفة



مغامرة البشرية منذ البدايات الأولى إلى المعاصرة

تأليف: سيفي سيفي

(نظرية المُعلّم)
(مغامرة البشرية منذ البدايات الأولى إلى المعاصرة)
لـ «سيفي سيفي»

نظرية المُعلّم

مغامرة البشرية منذ البدايات الأولى إلى المعاصرة

تأليف: «سيفي سيفي»

الوقت.. أغلـى ما يملكه الحكيـم

الإهداء

إلى زوجتي العزيزة رباب بديع، عرفانًا بالجميل لما قدمته من خدمات جليلة وتضحيات رائعة وتفاني في توفير كل متطلبات العمل والدراسة والكتابة.

أهدي لها هذا الكتاب.

والشكر موصول للصديق الشاب النابه محمد خريبة لما قدمه من مساعدات تقنية وفنية وتوفير لمصادر الكتب.

لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصًا في قصده، بل عليه أن يترصد إخلاصه ويقف موقف المشكك فيه؛ لأن عاشق الحقيقة إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه، بل يهيم بها لذاتها، ولو كان في ذلك مخالفة لعقيدته، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه، وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد أن يأخذ بها[1].

نيتشه

* * *

إن سطح الكرة الأرضية هو شاطئ المحيط الكوني ومنه تعلمنا أغلب ما نعرفه، ومؤخرًا نزلنا قليلًا إلى البحر بما يكفي لتبليل أصابع أقدامنا فقط، أو ربما وصل الماء إلى رسغ القدم.

ولكن الماء يبدو جذابًا، والمحيط يدعونا اليه وثمة جزء من كياننا يدرك أننا جئنا من هذا المكان ونحن نشتاق إلى العودة[2].

كارل ساغان

* * *

غريب هو وضعنا على كوكب الأرض. كلٌ منا يأتي في زيارة قصيرة، لا يعرف لماذا ولكن نشعر في بعض الأحيان بأن هناك غاية.

من الحياة اليومية نعرف بأن هناك شيء مؤكد: وهو أن الإنسان هنا من أجل الإنسان الآخر وقبل كل شيء لأجل هؤلاء الذين سعادتنا تتوقف على سعادتهم وابتساماتهم[3].

ألبرت آينشتاين

* * *

الإنسان هو التاريخ والزمان والأرض؛ بل لا وجود للكون بدون قوة العقل والوعي والإدراك البشرية.

فلولا وجود العقل، لما وجد الكون ولا عُرفت الموجودات ولا سُميت الأشياء بمسمياتها.

* * *

إن أعظم الفلسفات والأديان والأفكار والنظريات، بدأت بشخص واحد.

* * *

اعتذار

يعتذر المؤلف للقارئ الكريم سلفًا، لما ورد من أخطاء مطبعية أو نحوية، وذلك لأن الكتاب يهدف إلى تقديم فكرة علمية فلسفية، وليس كتابًا في شؤون اللغة العربية وقواعدها وتصريفات مفرداتها.

إضافة لذلك، فالكتاب عمل فردي بحت لم يتدخل أي شخص بإضافة جملة أو رأي داخل فصوله.

المؤلف

تقديم

يمزج هذا البحث بين فكرتين أساسيتين في بوتقة واحدة ويجانس بينهما، الأولى قديمة قدم تاريخ البشرية، تبحث في كيفية بدء الإنسان استعمال عقله والتعلّم والاختراع. أما الثانية، فتتناول أحدث ما توصل اليه علماء الفيزياء والفلك من نظريات وبحوث عن بداية ظهور الكون بكواكبه ومجراته، أو ما يسمى بالانفجار الكوني الكبير.

إن ثورة المعلومات التي حصلت في العقود الأخيرة أدخلت البشرية في مرحلة حضارية جديدة لم يسبق أن مرت بها منذ وجد الانسان على الأرض، وهذا ما ساعد في بروز أفكار ونظريات وعلوم جديدة منذ بداية القرن التاسع عشر، ساعدت في تقوية جوانب هذا البحث، وأظهرت أن هناك العديد من الأفكار العلمية والنظريات الفلسفية، لم تعد تناسب مثل هذا التطور العلمي والاجتماعي.

ومن خلال الأدلة العلمية والعقلية التي يقدمها هذا البحث، نكتشف أن مسألة تعلّم الانسان في بداية ظهوره على الأرض، تخالف في تفاصيلها ما ينتشر اليوم من فرضيات وأفكار باتت كبديهيات مسلّم بها عند غالبية المتعلمين، حتى لا يحبذ البعض التطرق لمناقشتها، رغم عدم إمكانية برهنة صواب فكرتها، بل لو تمعنا في ثنايا طياتها لوجدناها مجرد تخمينات وضعت لتجنب مأزق كشف مثالبها.

إن دوام الحال من المحال، فكم من نظرية بقي العلماء يعملون بها مددًا وقرونًا طويلة ويتخذون منها أساسًا وركيزة لعلومهم ومعارفهم ونظرياتهم، لكن تقدم العلوم أثبت خطئها، مثلما كان الحال مع نظرية بطليموس، حينما بقي الفلكيون وعلماء الفيزياء مقتنعون قرابة خمس عشر قرنًا، أن الشمس وبقية الكواكب تدور حول الأرض، رغم أن هذا العالم والفيلسوف الفلكي عاش في مدينة الإسكندرية التي اشتهرت بالعلوم والمعارف والفنون، وتوفرت بين يديه مصادر هائلة من الكتب والأسفار في مكتبتها الشهيرة، ومن الجدير بالذكر أن البابليون قد سبقوه برأي مخالف تمامًا اتفق مع ما جاء به الفلكي كوبرنيكوس ليصحح نظرية بطليموس الخاطئة.

يتفق كثير من الفلاسفة والحكماء على عجز الانسان في التفكير الذاتي، إلا أن أحدًا منهم لم يقترب من تفاصيل هذه النقطة الجوهرية ليحاول تفكيك أسرارها، فالفيلسوف اشبنغلر يؤكد على استحالة قدرة الإنسان البدائي على التفكير بمستويات أعلى من واقعه، عندما قال: (فالرجل البدائي «وذلك الى أحط درجة يبلغها تصورنا لوعيه اليقظ»، والطفل «كما نستطيع ان نذكر»، لا يستطيعان أن يريا أو يدركا هذه الإمكانات «إمكانات امتلاك عالم خارجي» إدراكًا كاملًا. وتتمثل إحدى حالات الوعي الأعلى للعالم في امتلاك اللغة، ولا نعني باللغة مجرد النطق البشري، لكننا نعني بها اللغة الحضارية، ولا وجود لمثل هذه اللغة بالنسبة الى الرجل البدائي، وهي موجودة لكنها ليست بمتناول اليد بالنسبة الى الطفل. وبكلمات أخرى أقول بأن كلًا من الطفل والرجل البدائي هما مجردان من أي تصوّر واضح مُميز للعالم، ولا شك أن لدى كل منهما لمحة «عن العالم» ولكنهما لا يتمتعان بمعرفة حقيقية بالتاريخ والطبيعة)[4].

ويقول العالم جون فايفر في ذات المجال عن صعوبة تعلّم الرجل البدائي ذاتيًا، قال: (كانت مقدرة أولئك القوم من أشباه الإنسان على التعلم مقدرة بطيئة بالنسبة لمقاييس هذه الأيام ـ فقد استغرقت الأطوار الأولى لعملية الصيد حوالي ثلاثمائة ألف عام ـ وهذا تقدير متحفظ ـ إذ يجوز أن يكون ذلك التطور قد استغرق ضعف هذه الفترة)[5].

* * *

في فصل الكتاب الأول ـ بعد المرور على مجموعة من المواضيع، وجد المؤلف في تقديمها ضرورة أولية لعرض فكرة هذا البحث بطريقة موجزة ـ يتناول كيف وجد وظهر هذا الكون حسب نظرية الانفجار الكبير بأسلوب علمي مسرحي يقدم جانب رئيسي من فكرة البحث.

يناقش الفصل الثاني، موضوع ظهور الانسان من رحم تربة الأرض من خلال ما حدث من تفاعلات كيمائية بين جزيئات تربتها، مثلما حصل لبقية الحيوانات والنباتات، ويبتعد عن الفكرة القديمة القائلة بنزول إنسان كامل من عُلا السماء.

في الفصل الثالث، كان من الضروري للربط بين مواد فصول الكتاب، الميل نحو استعراض دور الشخصيات ـ حسب ما يطلق عليهم الفيلسوف توينبي ـ من الذين قاموا على رعاية عموم البشر وتعليمهم، وساهموا في بقاءهم وديمومتهم والمحافظة عليهم، كالشيوخ والآباء والرجال المميزون والشامان وغيرهم، يعرضها بتلخيص سريع غايته توضيح جوهر الفكرة دون إسهاب طالما تمتلئ كتب التاريخ بتفاصيلها.

أما الفصل الرابع (نظرية المعلّم)، فيعتبر محور فكرة الكتاب وأطول فصوله، حيث يتمحور على تقديم الأدلة العلمية والتاريخية والبراهين العقلية، على عجز الانسان التام في بداية وجوده، التعلّم بجهوده الذاتية، وأنه لا محالة لتعلمه إلا بوجود معلم أرقى منه علمًا ومعرفة لتعليمه، وأن العقل البشري المجرد عاجز عن التفكير والإبداع والاختراع، طالما كان خلوًا من مبادئ العلوم والمعارف، وبالتالي تأخذنا هذه الفكرة عميقًا الى بداية ظهور الوعي عند الانسان ومن كان أول معلم له مدعمة بشواهد ودلائل تاريخية على توقف البشرية عند أطناف سفوح مراحل الحضارات لا تلوي شيئًا ولا تتحرك قدمًا إلا بعد ظهور شخصية مميزة تأخذ بيدها لتحركها من جديد.

يستعرض الفصل الخامس كيفية التفكير عند الانسان وما هو العضو المختص داخل الجسم القائم على هذه العملية، حيث يفند فكرة تخصص كتلة الدماغ المادية داخل الجمجمة بعملية التفكير والابداع المعنوية ويقصر اختصاص هذه الكتلة المادية على ارسال واستلام المعلومات.

بانتقالنا الى الفصل السادس، يقدم الكتاب أهمية حاسة السمع في التعلّم كحاسة أساسية تسبق بقية حواس الجسد، وبالتالي تعتبر الحاسة الأساس في بدء عملية التعلم عند الانسان، طالما كانت الطبيعة البدائية خالية تمامًا من صور موجودات يمكن الاستفادة منها لكسب أية معلومات علمية، فيأخذنا ذلك الى ذات الهدف المطلوب اثباته من جديد.

أما الفصل السابع، فيناقش استحالة اختراع الانسان بجهوده الفكرية الذاتية فنون الرسم وأدواته ومستلزماته ليترك على جدران الكهوف تلك الرسومات الرائعة؛ وكذلك يتناول استحالة إمكانية اختراع البدائي لفكرة الكتابة العجيبة وتناول تحقيقها وتحويلها من حالتها المعنوية غير المحسوسة

الى الحالة المادية، ثم العمل بها وإيجاد «عصر الكتابة» الذي غير مجرى تاريخ البشرية، دون مساعدة معلم أعلى شأنا وعلمًا من عامة البشر، حيث ينفي فكرة التدرج في اختراع إشارات وصور الحروف والأرقام وتسلسل إمكانية القدرة على تطويرها بجهود البشر الذاتية.

ويتناول الفصل الثامن، كيف بدأ ظهور اللغات بين البشر، وكيف نظمت في أول ظهورها بأصوات وصيحات ومفردات بسيطة عند مجتمعات البشر البدائية الأولى المتفرقة في جميع أنحاء الأرض، مما أوجد لغات ولهجات كثيرة لا تحصى، ويبرهن على أنه لم تكن هناك عند البشر لغة واحدة مشتركة.

الفصل التاسع، يحاول التسلسل في اثبات عجز العقل البشري في الانتقال من عالم الماديات الى عالم الأفكار المعنوية، ويقطع سبيل فرضية توصله الى نتائج ساعدت في إيجاد الانسان القديم لألحان الموسيقى واختراع آلاتها وتعقيداتها مدعمة بفكرة عدم قدرة الانسان في الابداع الأولي دون اكتسابه معلومات أساسية.

ثم ينتقل الى الفصل العاشر ليفند بالأدلة والبراهين العلمية والتاريخية مجمل الأفكار المتداولة القائلة في كيفية اختراع الانسان أو اكتشافه النار والاستفادة منها عن طريق المراقبة او التأمل أو المصادفة، فمثل هذه الفرضيات هي أبعد ما يكون عن قدرات عقل البدائي الجاهلي.

اما الفصل الحادي عشر، يستعرض عمر الانسان في أزمان العصور الجليدية وما بعدها من أحوال البشر الاجتماعية المتدنية، ويفند مفهوم «الصدفة» والاعتماد على «المراقبة المستمرة» أو «التفطن الذاتي» وغير ذلك من الفرضيات غير العلمية في كيفية تعلّم الانسان فنون علوم الزراعة ومستلزماتها.

ينتقل التسلسل في دحض كثير من الفرضيات القديمة الى الفصل الثاني عشر، حيث يناقش معضلة كبرى يستعرضها البعض ـ بكل بساطة ـ ويقدمون لها مختلف التبريرات غير المقنعة في كيفية اختراع تقسيمات الوقت وأجزاء آلة الساعة الحجرية والترابية والشمسية ومعرفة توالي ساعات اليوم وأعدادها، وبالتالي توصل الانسان القديم الى استنتاج قسَّمَ فيه ساعات اليوم الى دقائق، وقفز بعقليته البدائية الى تقسيم الساعة الى ثوان! كل ذلك والانسان يعيش عصور البدائية الأولى!

ثم يأتي الفصل الثالث عشر ليدحض الفكرة المتداولة في كيفية ظهور علوم الطب والصيدلة وأدواتها واختراع الأدوية بمختلف أنواعها وصنوفها، ونسبتها الى قدرات العقل البشري الذاتية. ويقدم مقدار ما يواجه الطبيب أو الصيدلي من صعوبات في تهيئة وإيجاد مستلزمات هذه الدوية والمواد والمخترعات وسبل العثور على أصنافها في جذور النباتات وأزهارها وفي أنواع المواد الكيميائية وفي المعادن وأعضاء أجساد الحيوانات والزواحف والحشرات ومنتجاتها رغم ندرة تجمعها في مناطق محددة.

الفصل الرابع عشر، يعرض صعوبة واستحالة العقل البشري على الانتقال لتناول علوم الأفلاك والنجوم ومعرفة دوراتها ومددها، خاصة وهو البدائي الذي لم يكن في متناوله نسب من العلوم أو مقدار ضئيل من المعرفة، وكيف عاش في جاهلية تامة مظلمة، وبالتالي يأتي من يفترض قدرته على تناول علوم ومعارف فلكية دقيقة يصعب فهمها هذا اليوم حتى على أصحاب أعلى الشهادات

في اختصاصات ومجالات أخرى مختلفة. فيأتي البحث على تفنيد فرضية اكتشاف البدائي للأزياج والتقاويم ومعرفة طول أعمار وأزمان حركة الكواكب والنجوم القريبة والبعيدة منها. كل ذلك والانسان كان يعيش في ظلمات العصور البدائية.

الفصل الخامس عشر، يتناول الموضوع الشائك في أقدمية الدين أم السحر في حياة الانسان، الذي ما زال متداولا بين المفكرين حتى يومنا هذا. وبالاستناد الى فرضية وجوب المعلّم للتعلّم، يظهر أسبقية الدين على إنه الأقدم عمرًا من السحر، وأن الأخير ما هو إلا من مخلفات علوم الأديان المهملة.

أما الفصل السادس عشر، فنصل فيه بعدما أسهبنا في تقديم الأفكار والبراهين والأدلة على صحة فرضية عدم قدرة الانسان على التفكير الذاتي المجرد، وعدم قدرته على التعلم والاختراع إلا بوجود معلّم، لنقف عند أعتاب فكرة يوافق عليها غالبية المؤرخين والعلماء بأن أصل منبع علوم البشر قد ظهر من المعابد وأنه ليس سوى الكهنة ورجال الأديان القدماء بل وحتى السحرة والمشعوذين، هم من قاموا بتعليم الناس مبادئ مختلف العلوم والمعارف. لكنه طالما كان الكهنة بشرًا مثل غيرهم، إذن لا بد ان كان هناك من علمهم، وهنا نجد ظهور الآلهة في جانب صورة تاريخ الانسان البانورامية، ونكتشف أنه نتيجة لتطور اللغات واختفاء القديم منها، راح القدماء يطلقون على من كانوا يُعرفون في الأساطير القديمة بمصطلح (آلهة)، هو بذاته ما يعرف اليوم بمصطلح (الأنبياء). وبالتالي تعود روافد جميع مبادئ علوم البشر الى هذا المنبع الأساس.

يتناول الفصل السابع عشر، نبذ مختارة من أقوال بعض كبار الفلاسفة والعلماء واعترافهم بوجود ذات مدبر ومهندس بارع، أوجد هذا النظام الكوني البديع ورتب شؤون كل شيء بمقدار، ومن هؤلاء نستشهد بأقوال أفلاطون، أرسطو، بقراط، فيثاغورس، سقراط، البرت اينشتاين، كانت، وغيرهم الكثير مما لا تحصى أعدادهم.

المؤلف

سيفي سيفي

2019م

هذا الكتاب

الانسان.. هذا الطلسم الأعظم؛ هذا الكائن العجيب؛ هذا العقل الجبار؛ من أين جاء، وأين يذهب، وما غاية وجوده؟ هل هو كائن مادي، أم كائن روحاني، أم الإثنين معًا؟ ما دوره في هذه الحياة، وما المطلوب منه؟ من أين جاءه العقل والتفكير والإدراك والوعي، ومتى؟ ولماذا يختلف عن بقية الحيوانات والموجودات؟

حار الفلاسفة والحكماء بهذه المعضلات وغيرها وعجزوا عن معرفة أجوبتها، فكلٌ قال برأي وأدلى بدلو، لكنه مهما طال الوقت وامتد الزمان، كان لا بد من مجيء يوم تنكشف فيه الأسرار وتفك فيه الرموز وينجلي ظلام الليلة الليلاء ويشرق نور صبح يوم جديد ليظهر ما بقي مستورًا منذ الأزل، فقانون التطور الطبيعي يقضي أن لكل موجود موعد نضوج وثمرة، ساعتها يبصر الانسان طريقه ويعرف هدف وجوده وغايته ويسير نحو تأسيس حضارة عالمية متينة راقية تليق بشأنه ومكانته، تستند على أسس راسخة من مبادئ العلم والأخلاق والتفاهم لتعمّ مجتمعات البشريةأجواء السعادة والاستقرار.

يتناول هذا الجزء من الكتاب فكرتين جديدتين رئيسيتين، الأولى تعتمد على نظرية «الإنفجار الكبير» وما يبنى عليها من أفكار جديدة، والثانية نظرية (لزوم وجود المعلم) أو (لا متعلّم بدون معلّم)؛ فهاتين النظريتين تعيدان الفكر إلى ترتيب وتغيير كثير من الفرضيات والمعتقدات القديمة والموروثة التي ما زال العلم يعمل بها، إضافة لتعارضهما مع مجموعة من الأفكار التي تقبلها علماء الطبيعة وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) كبديهيات ثابتة. ولا غرو، فلقد سبق وبقي علماء الفلك يعملون بنظرية بطليموس لعهود طويلة ولم ينتبهوا لخطئها حتى مجيء كوبرنيكوس، فكان ما كان من فروقات بين علوم الفلك والفيزياء القديمين وبين ما بعد كوبرنيكوس ونيوتن واينشتاين.

هذا الكتاب، يوفّق بين أعظم رافدين لظهور حضارات البشر، رافد قوة العلم ورافد حكمة الماورائيات، مستعينًا بأقوال الفلاسفة والعلماء والبراهين العلمية والدلائل العقلية والإثباتات النقلية، فيلقي قبسًا من نور على حقائق جوهرية بقيت دفينة خفيّة لعصور طويلة؛كما يلفت الأنظار إلى لوحة فنية رائعة زاهية راقية جميلة مديدة العمر هائلة الحجم مفعمة بالحركة وقوانين الحياة؛ لوحة بوجهين متجانسين متناغمين يلتحم كل منهما بالآخر، يكملان بعضهما بعض بمنتهى التوافق والإنسجام، أبعادها النجوم والكواكب، حاشيتها الأفلاك والمجرات، أعماقها خطوط تاريخ الأكوان المزينة بعالم الزمان، أبدع في تنظيم وترتيب معالمها جميع الأنبياء والفلاسفة والحكماء والمفكرون والعلماء والكهنة والعرافون والسحرة والشامان والمبدعون والفنانون والأبطال وحتى القادة والجنود وبسطاء الناس وعامتهم من الرجال والنساء وساهمت في إنجازها مختلف الأمم والأقوام، عندما مكروا صبغتها وطلوا طلعتها بأزهى ألوان العلوم والأفكار والفنون والمعارف والحِرف والصنائع والمخترعات على مرّ الدهور والأحقاب، فظهر وتجلى مكنون سرّها الأزلي، وبانت معالم صورتها الجميلة الزاهية، كما وصفها أحد العلماء:

- (قد تبدو المسألة كما لو كان الناس ينظرون في الماضي إلى عدد من الأجزاء الصغيرة المتناثرة، فيرون كلًا منها على حدة دون ان يدركوا أنها تأتلف جميعًا لتكون صورة واحدة كبيرة، ولكن بعد أن تم تركيب أول قطعتين في موضعهما، وبينما كانت عملية تجميع الصورة لا تزال تسير باطراد، ولد العلم نفسه)[6].

لقد تسبب عدم نضوج جماعات الجنس البشري قديمًا، وكذلك طول المسافات بين الأمم وانعدام سبل الاتصال والمواصلات بين الشعوب القديمة منذ وجد الإنسان في مختلف بقاع الأرض، إضافة إلى اختلاف اللغات وتباين المعتقدات وتنوّع التراث والموروثات، كل ذلك وغيره تسبب بخلق صعوبات وعوائق جمّة،حالت ومنعت سبل التواصل والاتصال والتآنس بين جماعات البشر وقبائله، فلا عجب أن ساورت النفوس مشاعر التحفظ والحذر والنفور والتباعد والتواحش والاستغراب والعدائية حقبًا طويلة تمتد جذورها إلى عمق التاريخ، وبذلك شُيّد حاجزًا كؤودًا وسورًا وهميًا، أسهم في حجب جماعات البشر وقبائله عن بعضها البعض وأدى في كثير منالمناسبات عديدة لحالات من الصدام والحروب على مرّ التاريخ.

أما اليوم، وبعدما بدأت تظهر علامات النضوج العقلية والإدراكات المعنوية تجاه بعض جوانب الحقائق العلمية التي لم يكن في الإمكان تفهّمها قبل مجيء عصر الأنوار؛ بدأ الانسان يستقرئ بمنظار جديد مفاصل أحداث عصور الأمم الماضية ويدرك بعض حقائق ما عاشته من تاريخ اتسمت غالبية تصرفاته بصبغة مراحل الطفولة وعنفوان فترة المراهقة الفوضوية؛ فراح الحكماء والعقلاء يحاولون جمع الشتات ولملمة الشذرات لفهم مجريات هذا الترتيب البديع وحقيقة منهجه.

لم يسبق أن توفرت للبشرية فرصة بهذا الشكل والمقدار على مرّ التاريخ تدعو بقوة وشدة لدخول مرحلة الإتحاد العالمي، فجميع الدلائل الحضارية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والإقتصادية تشير إلى إمكانية الإتحاد في بيت عالمي واحد تعمّر صرحه وتشيّد بنيانه أسس المحبة والأخوة والاتحاد والتعاون بين جميع الشعوب، بعدما تفجّرت الأفكار العالمية وارتفعت دعوات المصالحة والتقارب في ضرورة المحافظة على الإنسان وغيره من موجودات الطبيعة وبعدما تنامى الشعور العام برفض مبادئ العنف والارهاب والحروب والتعصب تجاه الآخر والتأكيد على ضرورة تنظيم اقتصاد دول العالم للمساهمة في إطعام الفقراء والجياع والمعسرين وتوفير فرص العمل لهم، وتوالت النداءات الملحّة لتجنب الحروب وإحلال السلام العالمي والمطالبة بحقوق الطفل والمرأة وفسح المجال لمشاركتها في تبني دورها في عملية البناء والتنمية[7] وضرورة المحافظة على بيئة الأرض وثرواتها والبحث عن أفضل سبل العناية بتربية الأطفال، وضرورة ترك إرث حضاري سليم لأجيال المستقبل، والمناشدات الصادقة لنزع الاسلحة النووية وضرورة تقليل كميات الأسلحة التقليدية والذخائر ووقف حمّى التسلح وهوس زيادة أعداد الجيوش والحد من أحجام مؤسساتها، إضافة إلى أهمية تقبل أفكار ومعتقدات الآخرين والوقوف في وجه مد الفكر الإرهابي بجميع أشكاله.

إن ظهور معجزة شبكة الانترنت العالمية وعجيبة البريد الالكتروني والهواتف النقالة والأجهزة الذكية وغير ذلك من سبل الاتصالات الفورية وما سيظهر لاحقًا من مخترعات واكتشافات لم

تشهدها الأرض من قبل، ما هي إلا دوافع عالمية تحث عقلاء البشر وحكمائهم ورؤسائهم على ضرورة التوجه نحو تأسيس صرح الوحدة والاتحاد العالمي. وكما قال أحد الحكماء:

- (يوجد توقّع لنهاية سعيدة تُزهر وتبرز إلى الوجود انطلاقًا من البدايات المؤلمة بالضرورة، يوجد وعد بأنه سيتم احتواء الصعوبات الإنسانية في النهاية والتغلب عليها)[8].

إن ما حصل من تقدم علمي في مختلف مجالات العلوم خلال القرنين الماضيين، أثبت بما لا يقبل الشك أن عمر الأرض ومخلوقاتها عميق جدًا غائر في مجاهل التاريخ البعيد بما يزيد على بلايين السنين. فمثل هذه الحقائق المستندة على علوم الفيزياء والجيولوجيا والحضارات كشفت خللًا في أفكار وفرضيات قديمة اعتبرت بديهيات مسلَّم بها لا حاجة لإعادة مناقشتها، كونها أسّ أساس علوم الحاضر وحجر زاويته، مثل مخترعات وعلوم الفلك والتنجيم والزراعة والنار والعجلة واللغة وغيرها التي سعى علماء الطبيعة على تثبيتها. لكن نظرية (الإنسان لا يتعلم إلا بمعلم)، تهدم كثيرًا من المعتقدات الجوهرية والفرضيات القديمة بعدما لم تعد توافق العقل والمنطق السليم مثلما ثبت عدم توافق تفاسير كتب الأديان القديمة مع دقائق العلم والعلوم والبراهين المختبرية الأخيرة. وبهذا سنرى في فصول أجزاء هذا الكتاب ما يفتح أبوابًا علمية جديدة تختلف كثيرًا عما هو متداول.

منذ قرون قريبة اكتشف الرحالة والعلماء بشرًا حفاة عراة في منتهى حالة البدائية في قارة استراليا وجزر المحيط الهادي وداخل غابات أفريقيا وفي الأمريكيتين، ينتمون إلى قبائل وأقوام مختلفة متعددة الأجناس كبيرة الأعداد، فوجدوا أنهم لا يعرفون طريقة بناء المساكن الحجرية ولا كيف يوجدون النار ولا يملكون فكرة عن فائدتها ولا يعرفون شيئًا عن العجلة الدوارة وقرصي الرحى ولا شيء عن الزراعة والري ولا علم لهم بالقراءة والكتابة والحساب ولا حتى بالخربشات والرسوم، ناهيك عن معرفة التقاويم والأزياج الفلكية والرياضيات والموسيقى والفنون وآلاتها، كما اتضح أنهم لا يعرفون شيئًا عن الطب والعلاج والأدوية والملابس وغير ذلك الكثير؛ لقد كانوا - وما زالوا - يعيشون في منتهى البدائية، مصداقًا لما قاله الفيلسوف ويل ديورانت عن قدرات الإنسان الحقيقية:

- (الإنسان البدائي لا يصوغ شيئًا من قوانين علم الطبيعة، ويكتفي بممارستها من الوجهة العملية)[9].

فهل نفهم من ذلك إن عقل الانسان عاجز في حالات وظروف معينة عن اختراع او اكتشاف متطلبات الحضارة وتبعاتها رغم امتلاكه ذات الجسد وذات العقل ونفس الدماغ واليدين والحواس! وإذا كان هذا هو حال قدرات البشر العقلية العامة، فكيف يمكن تفسير ظهور حضارات الكتابة والمخترعات القديمة بين شعوب العالم قبل آلاف السنين؟يؤيد ذلك ما ذكره العالم جون كيرتشر بقوله:

- (في الوقت الذي تمّ فيه اكتشاف أمريكا، كان الهنود الحمر غرب نهر ميسوري يعيشون بأعلى مرحلة من مراحل البدائية والهمجية، أمّا شرق النهر فكان الهنود يعيشون أدنى مرحلة من مراحل البدائية... ما يصحّ عن الهنود الحمر يصحّ أيضًا على الفايكينغ، وجميع الشعوب الأخرى فيما يخصّ هذه المسألة)[10].

إن المرء ليحار حين ملاحظة البون الحضاري والعلمي الشاسع بين هذه الأقوام البدائية وبين مستويات إنسان الحضارة في بقية بقاع الأرض، كما كان الحال عليه في وادي الرافدين ومصر وفارس والصين خلال العصر الحجري الحديث؛ وبهذا يتضح أن هناك حلقة مرحلية حضارية مفقودة أعجزت عقول هؤلاء البدائيين ومنعتهم عن اللحاق ببقية حضارات البشر، وأنه لا بد وأن كان هناك سببًا وتعليلًا آخر غير ما دأبنا على ترديده، ساعد انسان الحضارات القديمة على التقدم وإيجاد مخترعاته وتسبب في حصول كل هذه الفجوة الحضارية العميقة.

فما هو سرّ ذلك يا ترى؟!

يحاول الكتاب الخوض في عمق هذا السؤال وبداياته الأولى.

عتبة أولى

سؤال الوجود: بما أنه!

بما أن الكون قد وجد بجميع مجراته وشموسه وكواكبه قبل نحو 15 إلى 20 مليار سنة... لذا لا يمكن الظن أنه ظهر من فراغ، فالمادة لا تخلق ولا توجد من العدم حسب قانون المادة الطبيعي، ولا بد أن كان موجودًا بشكل ما، في مكان ما، في وقت لا يعرف له بعد تاريخي. وبهذا لا بد أن تكون للكون بداية قبل ذلك التاريخ السحيق بطريقة لم يتوصل العلم لمعرفتها بعد.

وبما أن الحياة على الأرض بدأت قبل 4 مليار سنة تقريبًا[11]، ولم يكن موجودًا قبلها غير الماء والهواء والصخور والتراب والأحجار...

إذن فكل كائن حيّ (إنسان/ حيوان/ نبات) قد ظهر وتشكل من مواد هذه الجمادات وعناصرها غير الواعية[12]. فظهر النبات ثم الحيوان ثم الإنسان[13]، تحت مبدأ قانون التطور الطبيعي من الأدنى إلى الأرقى ومن البسيط إلى المعقد ومن السفل إلى الأعلى[14] فكل ما في الوجود، يبدأ صغيرًا ثم يكبر، أو ضعيفًا فيقوى، كما في حالة التناسل والولادات والنمو بشكل عام عند الإنسان والحيوان والنبات.

وطالما وجد الإنسان القديم من مكونات تربة الأرض مثل غيره من بقية الموجودات...

فهذا يفسر سبب انتشار وجوده في جميع أنحاء القارات والجزر النائية منذ قديم الأزمنة، وهذا يخالف الفكرة المتداولة إن الإنسان ظهر في مكان محدد مثل أفريقيا أو آسيا أو غيرها، ثم انتشر في أرجاء الأرض نتيجة الهجرات.

وطالما ظهر البشر من تربة الأرض...

إذًا لا بد أن كان لكل مجموعة متقاربة منهم لغة وحضارة خاصة مثلما كان لكل جماعة آلهتها أو طوطمها الخاص.

وبما أنه كانت تفصل بين مجاميعهم مسافات وشعوب كثيرة وكانت حتى وقت قريب لا تعرف علوم التنجيم والتعدين والزراعة أو صناعة العجلة والعربات، بينما اخترعتها شعوب الحضارات القديمة منذ آلاف السنين.

إذا هناك فجوة علمية وتاريخية واضحة بين مستويات عقول البشر بحاجة إلى تفسير علمي غير ما ينتشر عمومًا، فعقلية الانسان هي هي في كل مكان؛ فلماذا استعصى اختراع كل ذلك على أمة، بينما تمكنت أخرى منها؟

وبما أن فكرة (الانسان هو مخترع الإله...) تنتشر اليوم بين شعوب العالم..

إذًا.. لماذا يعجز اليوم علماء المادة والطبيعة بكل جبال علومهم ومخترعات تقنياتهم المعقدة عن إثبات وجود الإله أو تأكيد نفيه؟

وبما أن فكرة (الإنسان قد علّم نفسه بنفسه) من خلال الحاجة والتجربة والتكرار والمصادفة، تخالف حقيقة قدرات وعي وقوى البشر العقلية البدائية في أول وجودهم، فحياتهم كانت أشبه بحياة حيوانات عاجزة عن تعلم أبسط سبل المعيشة وطرق المحافظة عليها...

لذا لا بد أن يكون هناك سبب علمي جوهري يفسر سبب الفارق الكبير بين مستويات البشر قديمًا ولاحقًا.

وبما أن الطبيعة كانت في بداية نشوءها خربة جرداء ليس عليها شيء مميز...

لذا لا يمكن أن يكون الإنسان قد استمد معلوماته المعنوية والعقلية منها حتى أمست خميرة لحضاراته المتأخرة.

وبما أنه قد اكتُشِف قبل عدة سنوات بشر في مجاهل الغابات والجزر النائية لا يعرفون صناعة النار أو فوائدها...

الهنود الحمر في أمريكا الشمالية وهم يستعملون الخيل للنقل بدون عربة.

فلا بد أن الفكرة القائلة بأن الانسان أوجد النار أو اخترعها، فكرة لا بد من إعادة النظر بها، فالمفروض أن تكون مخترعة أو مكتشفة عند جميع البشر في كل مكان، أو لا تكون، فلا فرق بين انسان قارة آسيا أو شمال أفريقيا عن إنسان قارة استراليا أو الأمريكتين فالجميع يملكون ذات القوى العقلية والحواس الجسدية.

وبما ان الكتابة كانت موجودة عند أمم الحضارات منذ أربع أو خمس ألف سنة قبل الميلاد...

رجل بدائي من قبيلة (Toulambi) في غينيا الجديدة يحاول اختبار نار عود كبريت لأول مرة فيحرق اصابعه عام 1993م.

إذًا فلماذا بقيت أمم عديدة غيرها حتى أزمان قريبة لا تعرفها، أو تستعمل الرموز والاشارات والخيوط والخرز والألوان في مراسلاتها، ولم تتمكن من اختراع الحرف والكتابة؟ مع أن عقلية الانسان القديم واحدة ومتشابهة في جميع العصور والأصقاع[15]؟!

وبما أن العقل لا يمكنه التفكير ذاتيًا إلا بعد تزويده بمعلومات...

لذا لا بد أن كان هناك من قدَّم له أوليات علوم ومعارف.

وبما أنه لا بد لكل عالِم أو مخترع من التعلّم لتكوين فكرة علمية قبل الشروع في تنفيذها...

إذا لا بد لهذا التسلسل أن ينتهي إلى إنسان أول الذي لم يعلمه أحد، أي الإنسان البدائي الذي لم يكن يعرف شيئًا على الإطلاق. فمن علَّمَ ذاك؟

وبما أن الانسان عاجز عن الخروج بتفكيره من واقعه المادي إلى عالم المعنويات، باعتبار أن الفكرة حالة معنوية وليست مادية، بدليل بقاء شعوب الأمم المتأخرة على حالتهم المادية البدائية لم يتمكنوا من استنباط مُختَرع ذا قيمة علمية حتى وقت قريب...

إذا كان لا بد أن احتاج العقل لمعلومات معنوية لاستظهار معلومات علمية. وهذا يدعو للاعتقاد أن هناك من ساعد الإنسان على تجاوز هذه النقلات الحضارية العلمية الرائعة في أرض الحضارات القديمة منذ بداية تاريخ ظهور الإنسان على الأرض أو فيما بعد ذلك.

فمن تكون هذه الشخصيات؟

هذه المواضيع وغيرها ما ستتطرق إليه أجزاء هذا الكتاب.

الباب الأول

(1)
بداية الوجود

إن كوننا في بعثه الحديث على الأقل يبلغ من العمر نحو 15 أو 20 مليار سنة، وهذا الزمن محسوب منذ ذلك الحدث التفجيري الاستثنائي الذي يعرف بالانفجار الكبير (The Big Bang) وفي بداية الكون لم تكن هناك مجرات ونجوم أو كواكب أو حياة أو حضارات، بل مجرد كرة نارية مشعة منتظمة الشكل تملأ الفضاء كله[16].

كارل ساغان

قبل بلايين السنين وفي أعماق بحور الأزلية في وسعة اللامكان داخل أعماق بعيدة مديدة مجهولة القياسات والأبعاد والزمان حيث لن يُعرف كُنه حقيقة ما حدث ولن يسبر له غور[17]، التقى «عَدم» مع «قِدم»، فتناغما وتوافقا واتحدا وارتبطا لينجبا توأمًا لطيفًا، أسمياهما: «زمان» و«مكان»[18].

بمرور أزمان طويلة أخرى، كبر الوليدان وظهر جمال وروعة «مكان» وفتوة ونشاط «زمان»، فاتفقا على التلاقي والإتحاد، وارتدت العروس «مكان» في يوم زفافها فستانًا واسعًا طويلًا شاسعًا ممتدًا في أعماق الكون لا تبدو له نهايات[19]، طرزت والدتها «قِدم» مختلف أرجاءه وحواشيه بألوان تنسجم مع بقية أشعة نجوم وكواكب جميع المجرات المنيرة وشموسها الزاهية. ولا زالت تزينه بمزيد منها في جميع أرجاء الكون[20].

حينما بدأت جزيئات وذرات سديم هذا الكون الهائل تتبلور وتتجمع مكوّنة مجاميع متفرقة لا حصر ولا عدّ لها من المجرات الكونية، أوجدت من ضمن ما أوجدت مجرة درب اللبانة وغيرها الكثير.

وبهذا.. فكل ما هو مشهود في الطبيعة اليوم من نباتات وحشرات وحيوانات ودرّة تاج رأسها الانسان، كل ذلك ظهر أصلًا من ذرات غبار وتراب وغازات وأحجار كانت تسبح قديمًا في فضاءات الكون اللامتناهي. فقوة الإنجذاب والتجاذب هما أصل ظهور كل شيء. وبتعريف آخر، هي قوة (المحبة)[21] بين أجزاء الوجود وذراته طرًا[22]. وبذا تبدو قوة مشاعر المحبة والتجاذب والاتفاق والتواصل والاتحاد تجاه الطبيعة والحياة بين جميع المخلوقات، إنما هي مشاعر وقوى فطرية صميمية وجدت في داخل ذرات ومكونات هذا الوجود الكوني، تعود في جوهر حقيقتها إلى قوة «المحبة» الموجودة أصلًا في تكوين كل شيء من أصغر الذرات إلى أكبر الأجرام السماوية. أما ما يخالف هذه الطبيعة اللطيفة أو يناهضها من مشاعر التنافر والتفرق وما شابه.. إنما هي مظاهر سلبية تخالف حقيقة أصل جوهر وجود الكون وتناغم مكوناته[23] ومن ضمنها حقيقة تكوين ذرات وخلايا جسد الانسان وجوهر فطرته ومبدأ ظهوره[24]. وبهذا.. فإن

فطرتي المحبة والاتحاد وقوتيهما تقضيان بضرورة السعي الجاد في بذل كل الهمّة لتجنب كل ما يخالف طبيعة غريزة أصل قوة المحبة.

بمرور بليارات السنين، ظهرت على أطراف ذيل فستان ذلك السديم الكوني الشاسع الأبعاد، «سحابة» ملونة جميلة هائلة منفردة عن غيرها تخلل ذراتها غبار كوني وغازات خفيفة تسبح وتدور حول نفسها هائمة في فضاء لا متناه، راحت تتجمع وتتكاثف لتشكل مجموعة من الشموس والكواكب يتوسطها شمس لامع بقلب ناري بقي ينادي بلسان المحبة على أصحابه ليتجمعوا حوله، فاستجابت مجموعة من أمراء وأميرات الكواكب من ضمنها أميرة جميلة إسمها «أرض» يرافقها خادمها الوسيم «قمر»[25].

أعجب شمس بالأميرة أرض وهام عشقًا بها وبقي يبعث لها باشارات المحبة مبتغيًا قربها ووصالها؛ فتهادت وهي تتمايل في مشيتها مزهوة بدلالها ورقتها باتجاه أشعته حتى استقرت بالقرب منه وراحت تدور وتلف حوله مثل فراشة هائلة، وهذا ما دفع بالفتى «شمس» للمسارعة بإحاطتها بكامل دفئه وحرارته ويغدق عليها وافر عنايته ومحبته.

كان هيكل «أرض» حيويًا في صميميته متفاعلًا في خصائصه فريدًا في سمات ذراته، وهذا ما زاد في جمالها وإشراقها كل يوم بعدما استعانت بأشعة زوجها الناري وحرارة محبته[26]، ثم ما فتئ يظهر على هيكلها الحيوي الرقيق تضاريس جديدة من مواد مختلفة الأشكال والأحجام والألوان ليستنير به وجهها وتتزين به معالم جسدها[27].

كان من الطبيعي أن يعقب هذا اللقــاء، فترة حمل طال أمدها، حتى جاء اليوم الذي وضعت فيه الأميرة «أرض» توأمها «هواء» و«ماء»، فراح «ماء» يحبو ويسيل ويتجمع بهدوء على صفحات جسد والدته اللطيف ويتغلغل بين ثنــايا ذرات ترابهــا.

تمرّ بلايين سنين أخرى.. فيعشق «ماء» «تراب» ويهيم بحبها، فيتحدا في حفل بهيج رائع أحياه العريس برقصات هدير أمواجه وأبخرة غيومه وسحبه المتصاعدة وبما أنزله من حبات لؤلؤ أمطاره الغزيرة وأنوار بروقه اللامعة وصرخات رعوده المدوية، حتى غمرها بجداول وأنهار مياه محبته التي سالت فوق صفحات سهوبها وخدود أراضي سهول بواديها ووديانها.

وتمر عصور تلو أخرى وسنين بعد سنين.. حينما تمخضت «تراب» عن جنين رائع لطيف راح ينتشر هنا وهناك بألوان خضراء زاهية نضرة، أسمتها «نبات» بعدما ظهرت معالمها على جميع أرجاء جسدها. ومنذ تلك اللحظة بدأت المولودة الخضراء تنتشر زاحفة بلطف وهدوء في كل مكان حيثما وجدت مجالًا مناسبًا على أرجاء سطح جسد والدتها «تراب»، بينما تكفل والدها «ماء» باستمرار تغذيتها وتقديم فائق العناية لها. فراحت نبات تنشر بذورها وفسائلها وتنوع أغصانها وتبدع بأفنانها وتمد بجذورها وتعمّقها، مما نوّع ألوانها وأشكالها وأحجامها لتعكس بصفحات أوراقها وأزهارها أنوار أشعة جدّها القوي «شمس».

تلاحظ الجدّة «أرض» مرة أخرى حركة مولود جديد ينمو بين أحشاء إبنتها «تراب»، مما أفرحها وهزّها طربًا بعد مشاهدتها «كائنات»[28] عجيبة تتحرك وتلعب سابحة على ضفاف شواطئ

ولدها «ماء» وعلى حافات ضفاف أنهاره وبحيراته وتحت وارف ظلال حفيدتها البكر «نبات»[29]. وراحت هذه الكائنات تنمو وتتنوع؛ فكان منها فطريات وجراثيم وفايروسات وخلايا أحادية[30]، ثم حشرات دقيقة وصغيرة وأسماك هلامية رقيقة وزواحف وحيوانات لا تفصح عن هوية محددة، وفراشات وطيور من جميع الألوان والأشكال وبمختلف الأحجام، حتى ملؤوا سطح جسد «أرض» بالحركة والضجيج والنشاط في الوقت الذي ما زالت شقيقتهم «نبات»، تهتم بهم وترعاهم وتغذيهم ممهدة لهم سبل النمو والبقاء والاستمرار[31].

انتعش وجه الجدّة «أرض» وبانت حيويتها وامتلأت بالحركة والنشاط ودبّت بين خصلات شعراتها الخضراء حركات أحفادها في كل مكان، وانتعش قلبها وكامل وجودها وكيانها؛ فمن هذه الدواب والطيور والحشرات ما كان يستمر في النمو والتضخم والتوالد، ومنها ما كان ينام ويتلاشى ويختفي[32].

كانت «نبات» منشغلة برعاية إخوتها والعناية بهم، حينما انتبهت لمجاميع أخرى صغيرة الأحجام بدأت تنتشر في كل مكان طافية عند حواف جداول المياه والأنهار والبحيرات، فتظهر تارة وتختفي أخرى حذرة متجنبة غيرها قدر استطاعتها، تبقى تحت طبقات الطين أو داخل جحورها وتحت الصخور وبين الحصى هادئة لا تظهر إلا لتناول شيء مما تجود به نبات ثم تعود مسرعة من حيث جاءت.

كان زمن تواجد هذه المخلوقات الصغيرة المميزة على حواف شواطئ المياه منذ أمد بعيد جدًا[33]، مثلما كان هو الحال مع بقية أشقاءها من صغار الحيوانات والطيور والنباتات والحشرات، ولقد حدث ذلك الإيجاد والظهور في خضم تلك الفورة الأولى من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية الفريدة طويلة الآماد التي عمّت سطح الارض بمجمله[34]، لقد كانت عملية كيميائية وحيدة فريدة طويلة الآماد تمت داخل رحم سطح الارض الدافئ[35]، وكأنها مجموعة مواد كيميائية أولية وضعت داخل بوتقة فوق نار هادئة لتتفاعل فيما بينهما لمرة واحدة فقط، ومن ثم استنفدت قوة تفاعل موادها وانتاجها ولن تتكرر[36]. وبهذا.. فهذه المخلوقات كانت مختلفة مستقلة منفردة في تكوينها ونوعيتها، رغم وجود شيء من التشابه في التركيب بينها وبين مجموعات أخرى قريبة الشكل منها[37]، لكنها كانت ما تزال في طور النمو وتحسن التكوين وبانتظار ملايين السنين كي تتشكل هيئتها البشرية.

وهكذا بدأ ظهور الإنسان على الأرض[38].

(2)
ظهور الإنسان

(نتجت أفكار كثيرة عن نشأة الكائنات الحية ومنها الانسان، منها أن بِدء التكوين كان كتلة لزجة بلا شكل أو صورة تحتوي على نفثة من الخالق، ثم تعرضت لتأثير الطبيعة، فتطورت في أطوار من النشوء حتى بلغت حدها الأخير في الصورة البشرية)[39].

تشارلس داروين

هذا الكائن المتحرك العجيب المُميز الصغير الذي سيغير شكل الأرض ويوجد الحضارات العظيمة ويبني صروح المدنية ويسبح بين الأفلاك، من الوارد أنه بدأ وجوده مثل نبتة صغيرة بحجم ضئيل ينتشر في كل مكان، أو مثل خلية أحادية تسبح على ضفاف البحيرات والأنهار، أو كحشرة دبّت على سطح الأرض بهدوء طالما أنه خرج من مركبات وعناصر تربتها. لقد كان قريب الشبه بغيره من الموجودات الصغيرة والطفيليات البسيطة لا يميزه شيء عنها ويتحرك في محيطه المحدود يدور بعينيه متلفتًا برأسه يمينًا ويسارًا مستشعرًا بمجساته مستعينًا بذيله[40] حذرًا يقظًا يخشى خطر بقية الحيوانات والحشرات التي سبقته إلى الوجود والنمو، وبعبارة اختصرها ساغان:

ـ (لقد نشأنا من الميكروبات والوحل)[41]. لقد كان دائم البحث عن غذائه، يزحف ويسبح مستعينًا بأطرافه التي لم يكن قد أحسن استخدامها لضعفها وعدم إدراكه لأهميتها وفائدتها بعد، ويتناول طعامه بفمه مباشرة مثل بقية الحيوانات، وكما يقول العالم كولن ولسن:

ـ (قدِم الانسان أصبح من الحقائق الراسخة التي لا يدانيها شك)[42].

بقي هذا الكائن على هذه الحالة الأولية لفترات امتدت ملايين السنين[43]. كان ما يزال في بداية نشأته وأول وجوده. لكن هذا الكائن العاري الضعيف في قوة تفكيره وعضلاته، والبسيط في تكوين هيكليته، هو ذات الكائن الذي سيرتبط بوجوده العالم وما يحتويه بمجمل مكوناته.

كان ضئيل الحجم كثيف الشعر مكللًا بالتراب وبقع الطين، ومنذ أول وجوده شعر بالضعف وقلّة الحيلة بين غيره من بقية الضواري والمخلوقات، وكان من أسباب نجاته واستمرار وجوده كثرة أعداده الهائلة وانتشاره في كل مكان على الأرض لا فرق بين قارة مستقلة أو جزيرة نائية طالما توفرت مادة الأرض الصالحة كيمياويا لإنبثاقه من تربتها، فهو لم يبدأ كما تقول الفكرة القديمة، بشخصي «آدم وحواء»، فهذه أسطورة دينية تكلمت عن مراحل تاريخية لاحقة جدًا وحديثة نسبيًا زامنت كور تعدد الآلهات[44]، ناسبت فكرتها عقلية إنسان الماضي بعدما بدأ يتساءل عن زمن بدء وجوده على الأرض ومن أين جاء[45].

ذات زمن من الأزمان البعيدة، دخل هذا الكائن مرحلة جديدة حينما بدأ يشعر بقوة انجذاب غريبة بقيت تتفاعل في أعماقه دفعته للتقرب من شبيه له كي يتفاعل ويتجانس معه[46]. وبمرور الزمان، لاحظ ظهور كائنات صغيرة تولدت كما هو الحال مع بقية الحيوانات. في البداية لم يكن يهتم كثيرًا لأمرها، ومن الوارد أنه كان يتناولها كنوع من أنواع الغذاء؛ ثم تبعتها مرحلة نشوء رغبة للبدء برعاية هذه المواليد وتغذيتها، لكن ذلك لم يمنع حيواني الطباع هذا من الاستمرار في أكل صغاره عند انتفاء الطعام وندرته خلال فترات الجوع التي كانت تمتد طويلًا وهو منزوي داخل مخابئه

اتقاء برودة الطقس وانتشار الثلوج[47]، خاصة بعدما كبر حجمه وزادت حاجته للطعام وانتقل ليتخذ من الكهوف والمغارات وقمم الأشجار مكانا لاستقراره بدلا من حافات السواقي وتشققات الصخور وتجاويفها.

كان الزمان يمضي والانسان لا يدرك حقيقة ما يجري حوله خلال فترات أول وجوده، فاذا تفقدنا العصر الحجري القديم «البالولتيك» Palaeolithic ـ قبل حدود مليوني سنة ـ لوجدناه يعتمد على تناول الثمار البرية والتنقل من مكان إلى آخر داخل محيط محدود يطارد الحيوانات لصيدها؛ لذا فليس من المستغرب أن كان يأكل بعضه بعضًا طالما أكدت كتب الحضارات والجيولوجيا استمرار هذه الحالة حتى قرون قريبة. لكن ما يجلب الإنتباه، أن نراه خلال العصر الحجري الحديث يتحول بشكل مفاجئ إلى إنسان جديد قبل حدود (عشرة آلاف سنة قبل الميلاد)، حينما بدأ يوجد مخترعاته البدائية العظيمة ويتفنن في صنعها، مثل الكتابة والزراعة وتدجين الحيوان وغيرها[48]؛ فمثل هذا التحول والتطور العجيب جالب للانتباه ويستغرب له طالما بقي على حالة الوحشية لملايين السنين ثم ينقلب فجأة إلى حياة الاستقرار والزراعة والرعي والإختراعات؟! فما الذي حدث حتى حصل مثل هذا الإنقلاب الاجتماعي في نظام حياة البشر قبل زمن ظهور حضارات الكتابة ببضعة آلاف من السنين!

كان الإنسان مثل طفل رضيع حديث الولادة غير مدرك لما يدور حوله من أحداث وأخطار رغم كبر حجمه، ولم يثر اهتمامه أو تساءله أمرًا أو حدثًا محددًا من مجريات الطبيعة حوله، فغاية همومه هو بحثه الدائم عن الطعام، أما تكرار حالات الولادة والموت والمنازعات وتبدل أحوال الطقس فلم تكن تثير فيه إلا دوافع غريزته البسيطة[49] التي اكتسبها خلال فترة وجوده السابقة كردود أفعال في الابتعاد للفرار من الأخطار، ومع ذلك كان لا يتوانى في مشاركة بقية الحيوانات صراعها وقتالها غير مدرك لخطورة منازلتها ونتائجها المميتة حيث كان الموت بالنسبة له حالة طبيعية لا يفهمها ولا يخشاها أو يخافها لاستمرار تكرارها أمامه طوال الوقت، وبقي يعتمد في تعامله مع مكونات الطبيعة مثل بقية الحيوانات على فطرة الغريزة البسيطة التي اكتسبها بالمشاهدة منذ ظهوره على الأرض، فلم تكن مَلَكة الوعي والتمييز قد نشأت في كيانه بعد حتى يعطي للموت مفهومًا محددًا، ولم يكن بإمكانه فهم حقائق الموجودات ولا معاني الأحداث ولا امتلاك إمكانية التفرقة بينها. لقد كان في مرحلة طفل رضيع لا يعي مجريات ما يحدث حوله، يقول عالم وظائف الأعضاء العصبية روث بليير (Ruth Bleier) إن الإنسان لا يمتلك خصائص بشرية «فطرية»[50].

مرت مئات آلاف سنين أخرى و«الإنسان» يتجنب أمثاله[51] ويبتعد عن بقية الكائنات حذرًا من الاحتكاك بها، وبقي يجاهد كثيرًا للمحافظة على نوعه، ومع ذلك كانت هناك خسائر هائلة في أعداده، ولولا حذره وكثرة تناسله، لأنتهى أمر وجوده بسبب ضعف جسده وقلّة حيلته، وقد يكون ذلك الضعف من أسباب خشيته في الوقوف منتصبًا والمشي على قدميه في زمن أول وجوده، مفضلًا الزحف والحبو مخافة رؤيته واكتشاف أماكن اختباءه. لكن ذلك لم يكن يجدي نفعًا في غالب الأحيان.

ساد تلك الأحقاب السحيقة، قانون البقاء للأقوى والأكثر تحملًا للجوع ولتقلبات الطقس الشديدة، وتشير الدراسات الجيولوجية إلى حصول تغييرات كبيرة على الأرض في بداية العصر الحجري الحديث، أدت إلى إختفاء كثير من أنواع الحيوانات الضخمة آكلة اللحوم والأعشاب، وهذا ما يدعو للاعتقاد أيضًا أنه تسبب في تناقص أعداد كثيرة من بقية الكائنات الضعيفة والصغيرة واختفاء وانقراض أنواع أخرى لم ينج منها إلا ما نجح بالمحافظة على نفسه لأسباب مختلفة، ومن ضمنها «الإنسان»[52].

من غير المستبعد أن ظهر الإنسان في أول وجوده على شواطئ الأنهار وسواحل البحيرات وضفاف جداول المياه على شكل خلية صغيرة يصعب تمييزها، تتلاعب بها حركة أمواج المياه وهي تحاول الاختباء بين أتربة وحصى حواف الشواطئ، ومن الوارد أن كان شبه سمكة صغيرة ضئيلة شفافة لا تكاد ترى بالعين[53] تسبح قرب أماكن اختبائها وكأنها مشدودة اليه بخيط خفي؛ أو على شكل كائن برمائي غريب الملامح يدخل ويخرج من المياه باحثًا عن طعامه، أو بهيئة سحلية صغيرة تزحف برباعيتها متنقلة بين أماكن طعامها وملجئها، أو على شكل ضفدع صغير الحجم يتنقل بين البر والماء. وبالاختصار يمكن تتبع ما كان من شكله أو هيئته ومراحل تدرج نموه وأشكاله المختلفة، من خلال مراقبة مراحل صور أطوار نموه داخل رحم الأم[54]، فهو تجسيد حيّ قد يكون مقاربًا لأصل تطور هيئة الانسان في مراحله القديمة الأولى داخل رحم الأرض قبل ملايين السنين[55].

تمر السنين ويمتد الزمان بهذا المخلوق العجيب وهو يتوالد ويُصنَّع ويُكوَّن من أصل عناصر مواد الطبيعة الكيميائية ومن طين الأرض ومائها (ان البشر الأوائل قد ولدوا من الأرض)[56]، فتتغير أشكاله بالتدريج ويتنوع في منظره وهيئته أطوارًا. لقد كان ظهوره ووجوده وانبثاقه نتيجة ما حصل على سطح الأرض من تفاعلات كيميائية بين ذرات التراب والمياه والغازات بعدما طبختها حرارة الأرض وأشعة الشمس الشديدة، بمثلما ظهرت بقية الكائنات بمختلف أحجامها وأشكالها.

إن تفاعلات هذه العملية الكيميائية الفريدة العجيبة داخل تربة الارض كانت من الأسباب الرئيسة في إيجاد جميع الأحياء وظهور مختلف أنواع النباتات والحشرات والحيوانات ومن ضمنها الانسان الذي ظهر باعتباره ثمرة الوجود وغايته بعد أن تمّ ظهور بقية الكائنات بزمن طويل جدًا[57]، لقد حصل كل ذلك بعدما أزف الوقت وتم النضوج المناسب لكيميائية مواد طبيعة تربة الأرض وغازاتها، فكان هذا التفاعل الكيميائي العجيب لمرة واحدة فقط رغم طول مدته، ولن يتكرر مرة أخرى ولن تتواجد كائنات أخرى جديدة على الأرض مستقبلًا، وذلك بسبب إنتهاء حيوية كيميائية التربة في الإيجاد، وتلاشي قوة التفاعل والإندماج، مثلها كمثل عملية خلط وامتزاج وتفاعل عناصر مواد كيميائية مختلفة في بوتقة زجاجية على نار هادئة، فهي تتفاعل وتتجانس وتتفق وتتحدد وتترتب لتنتج مادة جديدة لمرة واحدة، وهذا يدل على أن تربة الأرض ومحيطها وكيميائيتها هي تربة فريدة نادرة بين كواكب مجموعتنا الشمسية، لكن ذلك لا يمنع من تكرار حصوله على سطح كوكب آخر مشابه للأرض في خواص تربته ومناخه، يدور حول شمس

مشابهة لشمسنا ويتمتع بذات مقدار حرارتها؛ عندها يمكن التكهن بوجود مخلوقات أخرى في هذا الكون[58].

هناك آراء لبعض العلماء توافق فكرة ظهور البشر من تربة مختلف أركان الأرض، حيث يشير وليام هاولز أن (لدى الدكتور فايدنرايخ Weiden - reich، عالم الحفريات البشرية العظيم تفسير سهل لذلك؛ فهو يرى أن كل شكل من الأشكال السلالية الحديثة، ظهر وتطور في مكانه الخاص من العالم. فإنسان جاوة تطور إلى إنسان صولو ثم إلى الأستراليين ذوي الجماجم الضخمة نسبيًا، وإنسان بكين الذي كانت أسنانه وفكه تتميز ببعض المغولية تطور إلى الجنس المغولي، وإنسان روديسيا انحدرت منه أجناس وسلالات جنوب أفريقيا. وإنسان النياندر القديم ظهر منه الجنس الأبيض. وعلى ذلك فالإنسان الحديث ليس سوى آخر صورة متطورة نشأت عن تطابق عدة سلالات لكل منها تاريخها المستقل)[59].

فلم يبدأ ظهور الانسان على الأرض كما تقول الفكرة القديمة، بشخصي «آدم وحواء»، فهذه أسطورة قديمة تناسبت مع عقلية إنسان الماضي البدائي، وكانت بالفعل فكرة كافية مقنعة أجابت على كثرة تساؤلاته، دليل ذلك استمرار اعتقاد مليارات البشر بها حتى اليوم. لكنها أصبحت لا تناسب عقل رجل الفضاء وابن عصر الأنوار والتكنولوجيا، فالآثار التاريخية دلّت أن الانسان تواجد وسكن في جميع مناطق الأرض البعيدة والقارات النائية واستقر حتى عبر المحيطات، مما حيّر علماء الأنثروبولوجيا في كيفية تفسير هذه الحالة، وراح كلًا منهم يقدم تعليلًا بشكل من الأشكال. لكن فكرة انبثاق الانسان من تربة الأرض كغيره من بقية الموجودات - كما أثبتها علماء الفلك والفيزياء والفضاء - تعلل سبب ظهوره في تلك المناطق النائية وتقدم جوابًا طبيعيًا يتفق مع المفاهيم العقلية والعلمية، إذ لا يعقل أن اخترع الإنسان البدائي في تلك الأزمنة السحيقة مراكب قوية وسفن سريعة بتقنيات عالية تحدّت أهوال البحار والمحيطات ونقلته إلى مثل هذه الأبعاد الشاسعة[60].

أما عندما يفترض علماء الجيولوجيا والأنثروبولوجيا إن انسان الأمريكتين جاء من أفريقيا أو من شرق آسيا إلى آلاسكا عبر مضيق بيرنج[61] أو عبر سلسلة جزر ألوتيان Aleutian[62]، فهذه مجرد تخمينات غير مثبتة تحاول إيجاد نوعًا من الحلول المقبولة، لكن يبدو تأثرها واضحًا بالفكرة الدينية القائلة أن «آدم»، هو أبو البشر، أو بفكرة نزول الانسان الأول من جنة السماء إلى جنة عدن أو إلى أرض ما بين النهرين أو أواسط أفريقيا ثم تكاثر وانتشر في أنحاء الأرض[63].

ومع ذلك، فمهما جدَّ من اكتشاف آثار قديمة تشير إلى قِدم استقرار الانسان في الامريكتين أو على جزر البحار والخلجان النائية، فذلك لا يقوض نظرية انبثاقه من تربة الأرض، كما هو حال ما حدث على بقية القارات في أرجاء الارض، فاكتشاف هياكل عظمية بشرية تعود لعشرات الألوف من السنين في أمريكا، تؤيد فكرة إنبثاق الإنسان من تربة الأرض[64].

لم يمنع ظهور الإنسان من تربة الأرض، حدوث عمليات هجرات فيما بعد من مهد المَواطن الأولى، نتيجة تغييرات جيولوجية ومناخية والإرتحال إلى مناطق أخرى لأسباب مختلفة بعدما

كثرت أعداده وقلّت موارد غذائه، ومن المحتمل أن فضلت مجاميع أخرى البقاء في مناطقها أو لنقل لم تسعفها السبل أو الظروف للهجرة والانتقال، فوجدت نفسها مستقرة في أماكنها منعزلة عن غيرها تتدبر شؤون حياتها مستعينة بنصائح الشيوخ وكبار السن بينها، جاهلين أمر تواجد بشر آخرين في مناطق وقارات أخرى بتوالي تجدد أجيالها[65].

من الأفكار المتداولة، فرضية انحدار أصل الانسان من سلسلة فصائل القرود ثم تطوره في الهيئة والشكل في فترات دامت ملايين السنين حتى استقر على شكله الأخير المتفرد بهيئته. مثل هذه الفكرة تقابلها فرضية أخرى تختلف عنها بالتمام، حيث من المحتمل أيضا أن يكون تواجد هذين المخلوقين معًا (الانسان والقرد) قد حدث نتيجة تفاعل مواد كيميائية متشابهة تمامًا داخل تربة الأرض بنسب متقاربة جدًا لبعضها، وهذا التشابه والتقارب في نسب المواد الطبيعية والكيميائية وخضوعها لذات درجات الحرارة والظروف المناخية الطبيعية ولّد تقاربًا في الهيئة والشكل واليدين مما أوحى لبعض المفكرين بعدما شاهدوا كثرة أنواع فصائل القردة، «إنحدار أصل الانسان من فصيلة القردة» بعدما شاهدوا شدة التشابه بين الإنسان وأحد أنواعها[66]. وهذا ما دفع ببعض علماء الأجناس للقول بوحدانية أصلهما[67]. لكن ذلك ليس بمبرر كاف للظن بأنهما من جنس واحد، فهنالك الكثير من الحيوانات والطيور والحشرات المتشابهة في الأجسام والهيئات والصفات، رتَّب ونظّم علماء الأحياء والحيوان حقول مجموعاتها في جداول وتصنيفات مختلفة متباينة، لكل منها صنف خاص بمميزاته واسلوب حياته. إضافة لذلك، ظهور الكثير من الأدلة العلمية والمختبرية في علم الأجناس والأنثروبولوجيا تؤكد الإختلاف التام بين حقيقة تكوين أجساد الإنسان والقرود البايولوجية.

لذلك فتشابه شكل هيئة الانسان القديم وطريقة مشيته وحجم رأسه وشكل جمجمته وإنحناءة ظهره التي كانت مشابهة للقرود في يوم من الأيام، لم يكن إلا لمروره في مرحلة من مراحل تطوره طويلة الآماد حتى جاء وقت الاختلاف التدريجي الواضح بينهما. فمسألة تشابه بعض الصفات فيما بينهما ليست دليلا على أنهما من أصل واحد، خاصة في أقوى قوى الإنسان المعنوية، ألا وهي قوة العقل والتفكير والإبداع، أما جسد الانسان فهو خاضع مثل غيره من أجساد بقية الحيوانات لمراحل تغيير متعددة قابلة للتحول والتطور شكلًا ومضمونًا لينحى في النهاية إلى هيئة مختلفة تماما عن بقية أنواع القردة التي استمرت على ذات الأشكال تقريبًا وذات درجات الوعي. وتبقى الفوارق الجوهرية بين الانسان وحيوان القرد ثابتة ليس فقط في شكل الجسم بل بالقدرة على التفكير والاختراع وقوى الحافظة والذاكرة والمتصورة وإبداعات لغات التخاطب، ولقد أجريت العديد من التجارب على القردة لتعليمها طريقة الكلام والحفظ، إلا أنها باءت بالفشل جميعًا ولم يكن لها ثمرة تذكر[68]. والحقيقة إن مجرد محاولة الإنسان تعليم القردة لغة البشر وفشلها في النهاية، لهو دليل كاف على إنها نوع مختلف عن جوهر الإنسان لا يمت له بصلة.

الخلاصة.. يتفق علماء الانثروبولوجيا والجيولوجيا، أن عمر الإنسان على الأرض مجهول التاريخ ومن الصعوبة تقدير زمن تقريبي له، إضافة إلى اختلاف الآراء حول أول أماكن تواجده، إذ ليس هناك مكان محدد لبداية ظهوره، وكل ما قدمه العلم من أدلة، اعتمد على ما توفر لحد الآن من

المكتشفات الأثرية، وهذه اللقى والآثار وخاصة القديمة منها، تخضع لأعمار محددة لها نهاية لا بد أن تصلها، عندها ستتلاشى وتختفي.

(3)
الشخصيات والآباء والشيوخ

(إن هؤلاء الأفراد الذين يدفعون إلى السير في عملية التقدم في المجتمعات التي ينتسبون اليها، هم أعظم من كونهم رجالا عاديين. فإن في وسعهم إنجاز ما يظنه غيرهم معجزات. مثل هؤلاء الأفراد عباقرة بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي فحسب... قد تكون الطبيعة قد فعلت ما أمكنها فعله للنوع البشري. لكن؛ كما أن العباقرة قد وُجدوا ليدفعوا حدود الذكاء البشري وراء ظهرانيهم؛ برزت كذلك نفوس أحسّت بأنها تُنسب إلى النفوس جميعها؛ وعوضًا عن أن تبقى في نطاق جماعتها، وتحافظ محافظة مطلقة على تضامنها معها، هذا التضامن الذي أقامته الطبيعة؛ فإنها ـ تحت سطوة العشق الصوفي ـ وجهت كلامها إلى البشرية بوجه عام. ويعتبر تجلّي كل هذه النفوس، بمثابة خلق نوع جديد، قوامه فرد فذ. قد يُطلق على الصفة النوعية المعينة لهذه النفوس القدسية التي تحطم الحلقة المفرغة للحياة الاجتماعية البدائية البشرية، وتتابع عمل الابداع، اسم «الشخصية». وجدير بالذكر أنه بفضل التطور الداخلي «للشخصية»، أمكنت الكائنات البشرية، أن تُنجز أعمال الابتداع في ميدان الفعل الخارجي الذي يقوم عليه ارتقاء المجتمعات البشرية) [69].

آرنولد توينبي

من هي تلك «الشخصية» التي يشير اليها الفيلسوف توينبي؟

وما هو دورها في (ارتقاء المجتمعات البشرية)؟

وكيف كانوا (أعظم من كونهم رجالا عاديين)؟

وما معنى كونهم (عباقرة) قدموا (معجزات)؟

وكيف كانوا سببًا في (ارتقاء المجتمعات البشرية)؟

وما شكل تأثير (سطوة العشق الصوفي) ومساهمته في تقدم أمم الحضارات؟

لا بد أن هناك أمرًا جللًا فاتنا بينما أدركه هذا العبقري وأمثاله!

بعدما ظهر الإنسان على سطح الأرض، بقي لفترات طويلة يعيش وحيدًا دون أن يأنس أحدًا من جنسه أو من بقية الأجناس، بسبب ما كان ينتابه من مشاعر الحذر والتوجس وطباع الشراسة والتوحش التي اعتاد عليها منذ بداية وجوده. وبدافع من الجوع والعطش استمر يقتات على ما وفرته موجودات الطبيعة وما صادفه من نبات وحيوان، لا فرق بين رجل أو امرأة، فالجميع كان يعيش حياةً متشابهة لم يفهم شيئًا من علاقاته العابرة مع الجنس الآخر، ولم يكن يعلم سببًا لظهور الأطفال ولا عن مفهوم الاستقرار والعائلة، وبهذا بقي يعيش وحيدًا حرًا طليقًا دون قيود تحدُّ من حريته البدائية.

لكن متطلبات الحياة من شراب وطعام وأماكن منام كانت تضطره بين الفينة والأخرى للالتقاء بشبيهه ـ رجلًا كان أم امرأة ـ عند موارد المياه لإرواء عطشه أو داخل الكهوف والمغارات ابتغاء قضاء ليلة دامسة الظلام بعيدًا عن مهاجمة الوحوش والضواري، أو احتماءً من مطر أو دوي أصوات رعود أو بريق صواعق، وقد يفاجئ بتسلل دخيل لمغارته وموقعه خلسةً لذات الأسباب أو لمحاولة سرقة أو اغتصاب ما يتوفر لديه من بقايا الطعام.

بتكرر حالات المقابلة واللقاء، بدأت جدران الحذر والتوجس والوحشية والعداء تتصدع بالتدريج، لتظهر حالات من التوقع والإنتظار والتفحص مصحوبة بنوع من الترقب والريبة والحذر والإنتباه بين الرجال أو النساء عند الشعور برغبة اللقاء بين الجنسين. وبتكرار اللقاء، بدأت هذه الفترات تطول وتمتد لتأخذ وقتًا يكفي لظهور رغبات تعارف بسيطة يتفحص الطرفان بعضيهما، أو حين الشعور بالعجز في التغلب على حيوان كاسر كبير أو اللحاق بحيوان سريع يصعب اصطياده بجهود فردية؛ من هنا بدأ الإنسان يتقرب من غيره ويجالسه ويبادله الإشارات والأصوات ويقاسمه طعام صيده.

لم تخل عمليات الصيد والقنص وجمع البذور والثمار، من احتكاك وشجار وعراك تبرز خلالها فروقات قوى وقدرات الصيادين من الرجال والشباب والنساء وسرعات الركض والجري ومقادير الشجاعة والبأس وشدة الحذر والإنتباه، وهذا ما لفت أنظار المجموعات نحو قدرات قصّاصي الأثر والأقوياء منهم والشجعان بينهم وتوقع نجاح محاولاتهم لإمتلاكهم صفات ومميزات ذاتية كلما تهيئوا لعمليات البحث والصيد والقنص، مما فتح مجالًا مبدئيًا لظهور شخصية يعتمد عليها في تدبر الأمور وإدارة عملياتها وترتيب أوقاتها وتحديد أماكن تجمعاتها. وبمرور الوقت تنبه الجميع لفائدة عمليات الصيد الجماعي مع وجود رأس مدبّر مميّز، بعدما لمسوا فارقًا في نسب نجاح نتائجها، فاستمرئها الإنسان البدائي واستحسنها مما أطال فترات التواصل وتوثيق العلاقات بين الجميع بوجود الشيخ أو الرئيس. ورويدًا رويدًا ظهر هيكل الأسرة البدائية ثم العشيرة الأولى مما زاد في أعداد المتجمعين[70].

كان من الطبيعي مع مرور الوقت ظهور تفاوت في الأعمار ومقادير القوى بين الجماعات البشرية، ومن الطبيعي أن نال كبار السن قبل غيرهم شيئًا مبسطًا من خبرات التعامل مع أمور الحياة البدائية وسبل المحافظة على النفس وكيفية جمع الطعام وطرق قنص الحيوان وتحديد أماكن تواجدها وانتشارها، وأهمية الإستفادة من عظامها كسلاح للدفاع عن النفس وغيرذلك، ومن جلودها لحمايتهم من برودة الشتاء وثلوجه، فزاد ذلك في تثبيت دور القائد داخل العائلة والعشيرة، وفي في نفس الوقت زاد من خبراتهم ومَلَكاتهم ولفت إنتباه الآخرين لأهمية وجودهم. وطالما حصلت تلك الأحداث قبل ملايين السنين، فمن الطبيعي أن يصعب الجزم بصواب مجريات تلك الأحداث وتسلسل تطوراتها بدقة، إذ أن مجمل تاريخ الماضي البعيد هو نوع من التصورات والظنٌّ والخيال، كما قال الفيلسوف ديورانت:

- (فهذه البدايات هي أسرار التاريخ التي سنظل نضرب حولها بمجرد الايمان والحدس، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين)[71].

إذن.. فاحتمال أن تكون بداية ظهور «شخصية» القائد أو الرئيس قد بدأت نتيجة حاجة البشر الطبيعية بالتدريج منذ قدم عصور التاريخ بتدبير وترتيب كبار السن والآباء بعد انتباههم لأهميتها وفوائدها في عمليات الصيد وحماية النفس وخدمة تجمعاتهم.

بعدما نال القائد شيئًا من الاستحسان تقديرًا لما امتاز به من نسبة ذكاء وتدبير ولما يقدمه من نصائح وإرشاد واهتمام بمجموعته، راحت تتسع فكرة القيادة بالتدريج ويزداد تقليدها بين بقية الجماعات، مما أوجد نقلة نوعية بسيطة ولكنها هائلة في سلّم التطور الاجتماعي خلال مراحل تطور بدائية حياة البشر. وبمرور الوقت ترسخ دور الرئيس ومكانته وراح الجميع يلتجئون اليه طالبين مشورته كلما ضاقت بهم السبل وشعروا بالعجز أمام مواقف الحياة وصعابها[72].

كان من الطبيعي أن يشعر الآباء والقادة و«الشخصيات» قبل غيرهم بأولى بوادر مشاعر الرعاية والإهتمام وامتلاك قوى الوعي ومَلَكة الحس الجماعي وفائدة التعاون والإتحاد[73]، نتيجة امتداد أعمارهم وطول فترات خلوتهم وإنعزالهم، وبسبب بعادهم عن مخاطر الصيد ومشاغل جمع البذور والفواكه وما تستغرقه من طول بحث ووقت، وهذا ما وفّر لهم أوقات إنزواء وبعاد وفترات تأمل وجلوة صاحبها حالات رؤى ومنامات كانت الشرارات الأولى لظهور مشاعر روح المحبة والإيثار عندهم[74]. فمثل هذه الأحاسيس كانت نوعًا إيجابيًا طبيعيًا في الاستجابة لما فرضته قوانين الطبيعة من مشاعر التعلق بأسباب الحياة المادية. (إنه الشعور الداخلي للمسؤولين تجاه الجيل الصاعد، الذي يميز الإنسان عن الحيوان. ومن هنا لم يكن على هذه الدرجة من الأهمية أن الكلمة المنطوقة كانت تحل لدى الشعوب البدائية مكان الكتاب المطبوع وأن معلم الحرفة بمفهومها المعاصر لم يكن له وجود آنذاك، لأن الآباء والأمهات، وبشكل خاص المسنين من الرجال، هم الذين كانوا يديرون دفة سفينة التربية بحكمة ووقار فوق تيار تقاليد القبيلة المتوارث)[75].

انتبه الآباء والقادة لأهمية عاملي الصوت والإشارة في جلب انتباه من حولهم، وبذلك ظهرت أولى بوادر استعمال اللغات البدائية البسيطة. وكان من الطبيعي أن تتنوع وتختلف وتتمايز هذه اللغات لكثرة أعداد الجماعات البشرية وانتشار أماكنها، مما لفت انتباه القادة وزاد من حرصهم على تثبيت أصواتها وتطوير مفرداتها وإشاراتها لما أوجدته من مبادئ علامات التفاهم البسيط والإئتلاف والتعاون بين أفراد جماعاتهم. وكان من الطبيعي أيضًا أن تتم عمليات التقليد وجلب الإنتباه للتفاهم عن طريق استعمال أعضاء الجسد والحواس، فهي وسائط متوفرة للمحاكاة والتعلم قبل ظهور قوة الوعي والتفكير، كما هو الحال مع الطفل عند أول ولادته. ومن خلال عملية التقليد، نقل الآباء والقادة ما كانوا يعتبرونه ضروريات مبادئ الكلمات ومعاني الإشارات وبسيط الأفكار، حيث لم يكن هناك الكثير حتى يصعب على عقل البدائي تعلّمه في العالم القديم، كما لم يكن بإمكان عقل البدائي التفاعل والتفكير لاستيعاب ما هو أبعد من موجودات محيطه وأعمق من مشاعر حواسه الجسدية لخلوه من بدائيات المعلومات[76].

إن ما شعر به الآباء والرؤساء من مفاهيم وإدراكات معنوية بسيطة مثل العطف ومحبة الآخر والإيثار والتعاون والإتحاد في بداية ظهور حالات الوعي والإنتباه لديهم، لا بد وأن ألهمتهم للشروع في تقديم أنواع مبسطة لتعليم مجموعاتهم البشرية كيفية تقليدهم وبداية الشروع في عمليات

التفكير داخل عقولهم، بل قد تكون هذه التفاعلات هي بالذات بوادر تجلي هذه القوى المعنوية البسيطة في أول ظهورها لتخص الآباء والقادة دون غيرهم في استقبال قوى الإلهامات والرؤى[77] والمنامات والأحلام المعنوية[78]. فإذا كانت الأسماك تمتلك قوى ملهمة معنوية تقطع بهديها آلاف الأميال ذاهبا وإيابًا من والى أماكن ولادتها مطمئنة بتتبع قادتها، وإذا كانت الطيور تمتلك هذه القوة وتستعين بها لتهاجر خلف رؤسائها قاطعة مسافة قارية شاسعة دون الإعتماد على خرائط وبوصلات، وإذا كانت السلاحف والجراد والنحل وبقية الحشرات والحيوانات تعتمد على قوى الإلهامات الخفيّة في تدبر شؤون حياتها ومعيشتها وسبل بقائها منذ بداية وجودها، فلم لا يمكن تصور امتلاك قادة ورؤساء وآباء البشر في الأزمنة القديمة لمثل هذه القوى المعنوية الملهمة، فقد ذكرها وأكد على وجودها رجال عرفوا بالصدق الخالص وبأنهم أنفسهم كانوا ملهمون من قوى غيبية فوقية كانت السبب الأول في سلوك البشرية سبل الترقي والتقدم ونيل أوليات مبادئ المعلومات والمعارف لتبدأ البشرية من خلالها تأسيس حضاراتها منذ أول استواء الإنسان على قدميه؟ وكيف نبرر امتلاك الحيوانات والطيور والأسماك والحشرات لهذه القوى الفوقية، ولا نتقبل امتلاك أرقى موجودات الطبيعة (الإنسان) لها؟ إنه لأمر بحاجة كبيرة إلى إعادة نظر وتفكير[79].

لقد ساهمت مَلَكات «الشخصيات» المعنوية في تعليم الإنسان البدائي تدبير شؤون حياته منذ أول وجوده ـ فمسألة امتلاك البشر لفروقات بين قواهم المعنوية هي حالة طبيعية، كما هو حال وجود فروقات مادية بين قوى أجساد جميع الكائنات ـ فطالما عجز البدائي عن فهم حقائق موجودات الطبيعة المادية بحواسه الجسدية فقط، أما التعامل معها فلا يعني فهم حقائقها، فهما أمران مختلفان متباينان لا يمكن الربط بينهما إلا من خلال التعقّل والتفكير، وبما أنه لم تكن هناك في البدء معلومات أولية تساعد على التفكير، لذلك استحال على الانسان البدائي الشروع في عملية التفكير، فكان لا بد عليه من الاستعانة بمن سبقه وامتلك قدرًا من الإلهامات والقدرة على التفكير. لذا كان من الأهمية بمكان تقوية عملية الوعي والتعقل لدى البدائي من خلال استمرار تزويده بمعلومات معنوية أولية تمكنه من إدراك أهمية عملية تقليد الآباء والقادة لتدبير شؤونه بشكل بدائي. ومثل هذه الخاصية ـ التعلّم وحفظ المعلومات ـ لا يشارك الانسان بها كائن آخر. لذلك انفرد بتأسيس الحضارات وإيجاد المخترعات.

وهذا ما يدعو لافتراض وجود إنسان مميّز أعلى من غيره في امتلاك قدرات معنوية تمكنه من الربط بين مفاهيم عالميّ الماديات والماورائيات. هذا الإنسان المميّز هو الذي علّم الهمجي سبل التعامل مع الطبيعة ودلّه على كيفية استعمال أشياء الطبيعة المادية والتوفيق بينهما. وهذا يفسر سبب استمرار دور القائد والحكيم ونجاح مهمتهما في نشر مبادئ التعاون والإتحاد وأهمية قوة الجماعة واتحادها في الأزمان اللاحقة. فالانسان الطبيعي في بداية عصور طفولة بدائيته[80] كان عاجز تمامًا عن مساعدة نفسه، والاستفادة من ماديات الطبيعة، لانفصال عالمه المادي عن عالمه المعنوي (العقل). دليل ذلك امتداد فترة همجيته لملايين السنين دون تطور يذكر لعدم امتلاكه قوة الوعي ـ خاصة وميوله كانت تتجه أساسًا نحو تلبية رغباته الجسدية الطبيعية من أكل وشرب ونوم وما إلى ذلك، فمثل هذه الأحاسيس الجسدية والمشاعر المادية كانت تضع ساترًا كثيفًا بين قوى

عالميّ الماديات والمعنويات تمنع التواصل بينهما[81]، لذا شمل دور القادة إضافة إلى تدبير أمور الحياة المادية، المساعدة في تخفيف كثافة هذا الساتر قدر الممكن وصقل مواهب الإنسان المعنوية للرقي بوعيه تدريجيًا حتى يتمكّن من الإتصال بعالم المعنويات[82].

مع مرور الأحقاب والدهور كان لهذه الأحاسيس والمشاعر الفوقية لدى الشخصيات دور كبير في تقدم حضارات البشر البدائية الأولى قبل التاريخ، ومن الوارد أن ظهور دور القائد والرئيس والملك والكاهن والساحر فيما بعد قد جاء تطورها تدريجيًا عن هذا السبيل، خاصة وآثار التاريخ وعلم الأركولوجيا لا تحدد ولا تجزم بزمن محدد لظهور المعتقدات الدينية، فقد وجدت آثارها في مقابر انسان نياندرتال وطرق دفنه قبل حدود مائة ألف سنة. وهذا ما أشار اليه الفيلسوف ديورانت في قوله:

- (أما في فترات السلم، فقد كان أكثر السلطة والنفوذ للكاهن أو رئيس السحرة؛ فلما تطور نظام الحكم، وأصبحت الملكية هي الصورة المألوفة لدى أغلب القبائل، اشتقت الملكية وظائفها من وظائف هؤلاء، وجمعت تلك الوظائف كلها في يدها: وظائف المقاتل والشيخ الوالد والكاهن)[83].

فطالما لم يتعلّم الإنسان في أول ظهوره أو ساعة ولادته إلا من خلال استعمال حواس جسده، وطالما كان الواقع الطبيعي البدائي خلوًا من أية معلومات معنوية مفيدة، لذلك بقي الإنسان عمومًا بحاجة مستمرة لتعاليم الآباء ونصائح الشيوخ ولتقليدهم حتى يترقى جسديًا وعقليًا واجتماعيًا، فكلما ارتقت قدرات الإنسان، كانت الشخصيات «القادة» تقف على استعداد لتقديم مساعداتها له كي يحث الخطى نحو النمو والترقي.

لذا لا يوجد ما يمنع الاعتقاد أن أصل رقي البشرية وتعليمها منذ بداية وجودها، كان مصدره دور «الشخصيات» والقائد، وليس عن طريق مفهوم مبدأ التجربة والتكرار وتراكم الخبرات أو تدخل المصادفات، حيث لم يكن متوفرًا بين موجودات الطبيعة المادية ما تقدمه للتعلم من خلال هذه السبل، فالقوة الفوقية للشخصيات، هي التي وفرّت القدرة على استشفاف متطلبات حياة البدائي. ما يؤيد ذلك، عملية التطور الانساني المادية والمعنوية المستمرة لحياة الشعوب منذ بدائيتها، حيث لم تخل عائلة أو قبيلة أو تنظيم اجتماعي أو سياسي أو عسكري من شخصية الرئيس أو القائد أو الكاهن والساحر، فما أن تحظى قبيلة أو أمة بظهور شخصية مميزة بينها، حتى تأخذ دورها القيادي أو الحضاري بين بقية القبائل والأمم، وما استمرار وجود دور القائد والملك بعد نشوء النظم السياسية وحضارات الأديان القديمة والمتأخرة عند جميع الشعوب حتى هذا اليوم، إلا دليل على ذلك.

تقول غالبية كتب التاريخ والحضارات إن الإنسان استمر يعتمد على الصيد والقنص ويأكل من كلأ الأرض ويتنقل من مكان إلى آخر دون مستقر قبل وخلال العصر الكمبري حتى دخوله العصر الحجري الحديث (قبل اثنى عشر ألف سنة تقريبًا) حيث لاحظ علماء الآثار والحضارات والأنثروبولوجيا الفروقات الحضارية الشاسعة بين المرحلتين، فقد تحول الانسان من السعي والركض وراء صيده وقوته، إلى مرحلة الاستقرار وإنشاء القرى والمجمعات السكنية قرب ضفاف الأنهار، مثل دجلة والفرات في أرض الرافدين ونهر الغانج في الهند والنهر الأصفر في

الصين والنيل في مصر وغيرها من بقية مصادر المياه في العالم. فأينما وجدت آثار حضارة، نجد نصب سرادقها قرب نهر من الأنهار وبين مجتمعات سكنية واضحة الآثار. فساعدت هذه المرحلة على بروز دور الشخصيات والشيوخ بصورة أوضح عن سابق عهدها. وبالتدريج توافدت العوائل وتكونت المجاميع لتشكل أولى لبنات العشائر والقبائل والقرى والمدن المسوّرة. إلا أن هذا التقارب لم يمنع بقاء روح التنافس بين بني البشر[84]، لا فرق بين رجل أو امرأة، فالجميع كانوا على ذات مستويات الشراسة والهمجية[85]، وهذا ما زاد من حجم مسؤولية الشيوخ والشخصيات والملوك؛ فكانت مرحلة جديدة بدأت بتحويل طاقات الأفراد وتعليمهم كيفية الزراعة واستئناس الحيوان وشق الأرض وفتح قنوات مياه الري والشرب، وهذا ما ساعد على ظهور لغات أكثر وضوحًا وزيادة في سبل التفاهم وظهور المخترعات ونشر ربوع السلام النسبي بينهم، حتى لنجد من يصف قديم تلك الأزمان بـ «العصور الذهبية»؛ لكن ذلك لم يمنع قيام نزاعات وحروب وغزوات في مناطق دون أخرى نتيجة روح التنافس والأطماع السياسية والحاجة إلى الأسرى والعبيد للسخرة في البناء والزارعة بين فترة وأخرى.

من هنا بدأت الأنظار تتجه بمزيد من الاعجاب نحو الشخصيات حينما ظهرت فوائد تعاليمهم وإرشاداتهم؛ ومع ذلك لم يكونوا في حرز عن المعارضة والمواجهة المندفعة بروح العناد بسبب ترسخ روح الشراسة والعداء في جوهر نفس الإنسان، فليس من اليسير إقناع ذلك الهمجي بالتعلّم والتقليد والمشاركة في بناء المجتمعات أو اتباع سبل التفاهم ومنطق العقل لتحقيق غايات اجتماعية عمومية وهو ما زال في طور الطفولة، فلقد جُبل على تفضيل النفس والأنا والسعي لتلبية حاجاته الجسدية. لذا لا غرو أن تستمر طبيعته المادية في تفضيل نفسه على الآخرين.

لقد شدّ انتباه الإنسان الأول «ابن التراب» منذ البدء، مغزى إشارات وأصوات «الشخصيات المميزة»[86]، لكنه لم يكن يملك إدراكًا كافيًا ليفهم منها إلا ما يوافق عالمه البدائي، فلقد كان طفلًا كبير الحجم لم يسبق له أن استعمل لوحة عقله البكر البيضاء ليرسم أو يكتب عليها سوى ما كان يحيط به من صور موجودات الطبيعة البسيطة، مما أوجد لديه شيء من الاستحسان والتقدير لنصائح وتعليمات الشخصيات لتتحول فيما بعد إلى نوعًا من التبجيل والتقديس، ثم تدرج ذلك إلى نوع من المعتقدات الدينية ليعقبها ظهور مصطلح الآلهة وأساطيرها؛ يؤيد ذلك روبرتسن سميث (1846 - 1894م)، بقوله:

- (وقد استخلص سميث من دراسته بعض الفروض النظرية بصدد شخصية «الانسان البدائي» وإمكاناته العقلية والنفسية، فوجده عاجزا عن التفكير التجريدي، وأنه لا بد له من المرور بمراحل من التطور والترقي قبل أن تتواجد لديه تلك الأخلاقيات ومشاعر الحب ونوعية المعتقدات الدينية، التي كانت حينذاك لدى الأوروبيين)[87].

تفتقر هذه المقارنة للواقعية بعض الشيء، فهي تبدو كمقارنة طفل رضيع برجل حكيم، حيث اختصر هذا المفكّر ملايين سنين تلك العصور البدائية الطويلة، ولم يتطرق لكيفية تعلّم الانسان الهمجي ولا كيفية تدرج سبل تفكيره وكيف استطاع النهوض بعقليته وتطويرها، وما سبب ذلك، وما هو الدافع النفسي لتوجهه نحو العلم والتعلّم وسعيه نحو التطور وبناء الحضارات؟ فهي مراحل

تاريخية عميقة خفية ليس من السهل سبر أغوارها والبحث عن حقائق جذورها. فمن أين جاءت رغبات التطور للبدائي، وما هو الحافز الذي حرك فيه قوة التعلّم، طالما شأن طبيعة البشر مواجهة كل جديد وغريب بعين الريبة والتحفظ وأحيانًا بالعداء والتخريب، فالإنسان عدو ما جهل، وهذه المسألة حيرت علماء الأنثروبولوجيا (علم الانسان) لدرجة أن صرحت إحدى المؤرخات بعجزها عن الخوض في هذا المضمار الشائك، بقولها:

- (سأحذف من الاعتبار نظام.. العلم وأصله في فكر الشرق الأدنى والفكر اليوناني، لأنه يقع خارج نطاق هذا الكتاب ويتجاوز قدرتي وتدريبي)[88].

عند حلول بداية العصر الحجري الحديث، لم يجد الشخصيات والشيوخ تلميذًا أفضل من المرأة لتلقينها وتعليمها، وذلك بسبب تواجدها الدائم في محال سكناها. فكانت أول تلميذ وأول مزارع ظهر بين بني البشر[89]. وعندما أراد «الشخصيات» الانتقال نحو مرحلة جديدة أخرى لزيادة نسبة التواصل والتفاهم بين بني البشر، عادوا لاختيار النساء لتلقينهن وتعليمهن معاني بعض الأصوات ومفردات الكلمات البسيطة والاشارات الجديدة ومبادئ الصناعات والحِرف بشكل أوسع، كما أشار لذلك الفيلسوف ديورانت:

- (إن معظم التقدم الذي أصاب الحياة الاقتصادية في المجتمع البدائي كان يعزى للمرأة أكثر مما يعزى للرجل.. كانت «المرأة» تطور الزراعة على مقربة من محال السكنى، وتباشر تلك الفنون المنزلية التي أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات. وهي التي تقدمت بفنون الحياكة والنسج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء)[90].

من هنا ظهر دور المرأة في عملية تقدم الجنس البشري، فقد بدأت تنقل ما تتعلمه من بسيط المعارف لأطفالها وزوجها ومجتمعها بالتدريج، فكانت أول من مارس مهنة التعليم والتلقين بعد الشخصيات والآباء والشيوخ[91]، مثلما كانت المغارات والكهوف أول مظاهر المدارس وأشكال دور التعليم والمعابد على الأرض.

يقول ديورانت مرة أخرى:

- (ولما كان يُعهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات، فقد كان تنظيم الأسرة في أول أمرها «ما استطعنا أن ننفذ بأبصارنا خلال ضباب التاريخ» قائمًا على أساس أن منزلة الرجل في الأسرة كانت تافهة وعارضة، بينما مهمة الأم فيها أساسية لا تعلوها مهمة أخرى)[92]، وهكذا بدأت تظهر بالتدريج أولى حالات التجانس في أصوات كلمات اللغات ومفردات جملها البسيطة بين مجتمعات البشر في مختلف أرجاء الأرض، كل في منطقته وبين جماعته، وذلك لارتباط تطور اللغات طرديًا بتطور المجتمعات. فكثر تباين اللغات وموروث المقدسات والطقوس وتعددت الآلهة والطواطم والشامان والتابوهات[93] ودخلت البشرية مرحلة جديدة تكونت فيها القبائل لتتحول فيما بعد إلى شعوب ذات سمات خاصة. وبهذا كان لا بد من ظهور مرحلة جديدة ـ مادية تاريخية، ومعنوية دينية وروحية[94] ـ انتقل اليها البشر بعدما بقي ساكنًا بحالة أقرب إلى

الجمود لملايين السنين على سفح جبل حضارات البدائية، ظهرت خلالها شرائح بشرية منظمة امتازت بمكانتها التعليمية والقيادية، وهكذا بدأت تختفي مسميات المعبودات القديمة كالطواطم والتابوهات[95] والشخصيات والآباء تضمحل، لتظهر بدلًا منها مسميات جديدة لها علاقة أوضح بالمعبودات والأديان كالرائين والشامان (الطبيب الساحر) والآلهة والكهنة[96]، وعبادات الشمس والقمر وكواكب أخرى[97].

بتقديس الإنسان البدائي للشخصيات والآلهة والشامان والكهنة والملوك، وبعد ملاحظة قدراتهم المميزة في حلِّ مشاكله الاجتماعية ومعالجة أمراضه واستجلاب الأمطار ودرء أخطار الفيضان وزيادة موارده الغذائية، راحت أعداد الآلهة والشامان والكهنة المختصين بالقدرات الروحية ورعاية مصالح البشر تزداد بغض النظر عن صحة قدراتهم أو زيفها. ونتيجة لاستمرار الاختلاط والتقارب والزيجات، صارت كل مجموعة تتفاخر بما لديها من عبادات وتراث وأساطير آلهة[98].

امتدت ذيول مرحلة تقديس البشر للآلهة حقبًا زمنية طويلة حتى شملت مرحلة ظهور المدينة/ الدولة، دليل ذلك ما تركته أمم حضارات ما قبل وبعد مرحلة الكتابة من كثرة أسماء الآلهة. ثم بدأت تتبدل هذه الأسماء والصفات مع تطور المجتمعات وتحسن اللغات وتجدد أنواع العبادات وتطور الأديان إلى مصطلحات لم يسبق استعمالها، مثل:

- (الأنبياء والمتنبئين والرائين)، كما تدرجت في ترتيبها نزولًا ليصل أمر التبجيل والتقديس إلى رجال الكهنة والسحرة والعرافين حتى شملت الملوك والأباطرة[99].

أدى تعاقب موت المسنين والأجداد والآباء[100] ومن بعدهم الآلهة/الأنبياء، وتوالي مجيء واختفاء أجيالهم؛ إلى الانتباه لما يتركونه من فراغ روحي وتباين في إجراءات التعبد وممارسة الطقوس؛ وبعدما كانوا يدفنون ممتلكاتم معهم ويتخذون مواقع القبور أماكن لتجمعاتهم[101]، راحوا يحتفظون بها ومن ضمن ذلك جماجمهم[102]، لعل ذلك يسهم في استمرار زيادة هطول أمطار التأييد وشآبيب البركات واستمرار وفرة الكلأ والمراعي؛ عندها ظهر الاهتمام بترسيم وتعليم أماكن جثث الآباء والأجداد ومواقع دفنها حفاظًا عليها من الدرس والإندثار؛ فظهرت أول وظيفة اجتماعية دينية بعد شريحة الشخصيات اهتمت بالمحافظة على أماكن الدفن والمتعلقات؛ ولم يكن هناك أفضل من اختيار كبار السن والعجزة لهذه المهمة باعتبارها مهنة لا تتطلب جهدًا جسديًا[103]؛ ومن هنا، ومع مرور الزمان، زاد اختصاص كبار السن (الكهنة) بأداء شعائر الطقوس الجماعية والمحافظة على التراث والتقاليد وكيفية أداء العبادات واحتلال موقع الوساطة بين الناس وآلهتهم، وبهذا ظهرت مهنة (رجل الدين) الكاهن بعدما جمع كل تلك المهام بين يديه، وتعينت المدافن كأماكن عامة للتعبد وممارسة الطقوس، فانتقلت تجمعات العبادة ومواقع دفن الشخصيات والآباء بالتدريج إلى معابد يديرها كاهن أو ساحر. وهكذا وصلتنا شذرات ما كان من

أخبار بذرة شجرة نظام حكم الكهنة والسحرة والأمراء والملوك[104] في المجتمعات القديمة وما رافق بداياتها.

كان لا بد لهذه الأماكن وخاصيتها أن تثير ذكريات الناس لأفعال ونصائح الآلهة وتعاليمهم وقصصهم وأساطيرهم؛ فانتبه القائمون عليها لتبوئهم بؤرة الاستقطاب ومركز المشورة؛ وفي المقابل، وجد الناس في حكايات كهنتهم مادة جديدة أثارت انتباههم لما تحويه من متعة وغموض وخبرات ونصائح، فظهرت أهمية قصص تراث القدماء وروايات الأموات ومفاخر الأقدمين وأساطير بداية الخليقة ومواجهات وحوش الحيوانات وقوى الطبيعة، وبهذا أدرك الكهنة والشيوخ أهمية دور الراوي والقاص والساحر (رجل الدين) ومدى تأثيرهم على عقول الناس لبثّ روح الجماعة والتعاون وحفظ قصص الأساطير وحكايات الأبطال وملاحمهم، كما برز أهمية تفسير الأحلام والرؤى ومساعدة العامة في أداء سبل تعبد آلهتهم. ومع مرور الزمن، أصبح الكاهن محور الروايات العجيبة وقصص الأحلام وتفاسيرها المثيرة. فاستحب هذه المهنة المريحة وأغرته مكاسبها المادية وشؤونها المعنوية وراح يبحث عن كل ما يطورها ويثبتها ويغني رواياته وقصصه الخيالية. وبمرور الوقت اكتسبت الأساطير نوعًا من التقديس لتتحول إلى تراث خاصة بكل أمة. من هنا ظهرت مهنة الكاهن والرائي والساحر[105]، فكانت سبيلًا هيّنًا لتبوّء مكانة اجتماعية مميزة، زادت من أعداد الآلهات المساعدة حتى بلغت المئات والألوف[106].

لذا كان من الطبيعي أن يشعر «الآباء والشيوخ والأجداد والشخصيات» ومن ثم الشامان والرائين والأنبياء قبل غيرهم من عامة البشر، بأول بوادر ظهور قوة الوعي ومَلَكة الإحساس، بسبب امتلاكهم جوهر روح المحبة المتغلغلة بين خلايا وجودهم بعدما تنامت قوتها بالتدريج داخل كيانهم. فما هذه المشاعر والأحاسيس، إلا نوعًا إيجابيًا من الاستجابة لما تفرضه قوانين الطبيعة على الأجساد المادية، فهو شكل من أشكال قوى الجاذبية بين الماديات والمعنويات[107].

(4)
نظرية المُعلّم

(لا روح مخلوقة تنفذ إلى قلب الطبيعة)[108]

هالر

(كل ما نستطيعه هو التخمين والظن؛ فيجوز أن يكون العلم ـ شأنه في ذلك شأن المدنيّة بصفة عامة ـ قد بدأ مع الزراعة؛ فالهندسة في أولها كانت عبارة عن قياس الأرض المزروعة؛ وربما أنشأ علمَ الفلك حسابُ المحصول والفصول الذي يستدعي مشاهدة النجوم وإنشاء التقويم؛ ثم تقدم الفلك بالملاحة، وطَورَت التجارة علم الرياضة، كما وضعت فنون الصناعة أسس الطبيعة والكيمياء)[109].

ويل ديورانت

يقول المثل الشائع:

- «الحاجة أم الاختراع». ولكن هذا المثل ـ وإن كان ينطبق على عصرنا ـ إلا أنه لا ينطبق على الكثير من الاختراعات الكبرى[110].

محمد رياض

من المؤكد أن القراء الكرام، علمانيين كانوا أم أصحاب عقائد أم ملحدين، قد قرأوا عن مراحل ظهور قوة الوعي عند الإنسان وتدرج مستوياته في قديم الزمان وكيف صنع الحضارات بقوة عقليته لاحقًا، وما كان من شأن علوها ورقيها ومن ثم توقفها في كل مرة عند مفاصل حضارية وعلمية محددة، ثم تبدأ مراحل إنحدارها وتلاشيها بسبب ما كان يواجهها من مصاعب انتقالات مفصلية لمستويات أعلى، دليل ذلك إختفاء حضارات وادي الرافدين والفرس والعرب والصينيين والهنود والرومان والإغريق واليونان والمصريين وحضارات أفريقيا وأمريكا الجنوبية وغيرها، وكيف سادت ثم بادت ولم تقم لها قائمة طالما لم تحض برافد حضاري جديد أنعش روحها[111].

إن العقل والمنطق يقولان إن ما توصل اليه أصحاب حضارات الكتابة من رفعة علوم، كان لا بد وأن استند على معارف وصلتهم من أهل الحضارات السابقة لهم بعدما خاض القدماء ذات سلسلة التجارب العلمية والاجتماعية. تتبع تلك المنجزات المعرفية تراجعًا زمنيًا، لا بد وأن يعود ليرتبط بأول الحضارات البدائية البسيطة حيث كان الإنسان لا يعلم من أمره وما حوله شيئًا. ومن الأمثلة المشيرة على هذا الترابط العلمي في تدرج علوم الحضارات واستناد بعضها على علوم بعض، ما ورثته حضارات السومريين والآشوريين والبابليين والفراعنة واليونان والإغريق وغيرها من علوم الأمم التي سبقتها[112].

لذلك سنتطرق إلى فكرة تسلسل علوم الإنسان وحتمية تعلّمه من معلّم أرقى منه علمًا، لأنها ستأخذنا إلى نتائج عقلية وعلمية غاية في الأهمية والخطورة، مستندين على أسس أفكار جديدة قد تخالف ما وصلنا من فرضيات قديمة/حديثة، ومن الوارد الوصول من خلالها إلى نتائج تعارض ما دأبنا على ترديده لسانًا عن لسان دون التجرؤ على تمحيص أفكارها الموروثة بعدما قلبت ثورة المعلومات الحالية لوحة الحضارات البانورامية وبانت معالم وجهيها المادي والروحي بشكل أكثر وضوحًا، مما أدخل البشرية لمرحلة جديدة من التفتح العقلي والعلمي خلال القرنين الأخيرين لم يسبق أن مرت بها منذ وجود الانسان على الارض.

يظن الكثيرون ـ حكماء وفلاسفة ـ أن العقل البشري قادر بقوته الذاتية المجردة على التفكير والاستنتاج والإبداع والإختراع دون الاستعانة بالقراءة والبحث والتعلم، وأن ذلك كان السبب الرئيس في ظهور المخترعات والمكتشفات. لكن تفحص هذه النقطة البسيطة في ظاهرها، تخالفها حالة الإنسان في أول ولادته، حيث نجده طوال الوقت بحاجة تامة إلى تلقين وتعليم والديه لبناء عقليته، لدرجة أن يأخذ منهما غالبية الاهتمام والوقت، فلولا وجود هذه العناية وأهميتها، لما استطاع أي طفل الاعتماد على نفسه والترقي والتقدم في معارفه، بل ولما استطاع الحفاظ على حياته في الأساس، حيث سيموت بعد عدة أيام إذا ترك بمفرده. وكذلك هو الحال مع تلاميذ المدارس، إذ ليس بمقدورهم تجاوز مستويات مراحلهم الدراسية والذهنية البسيطة دون الاعتماد على معلمين ليزيدوا من علومهم وتقوية قدراتهم العقلية بمناهج تعليمية وفكرية جديدة حتى يرتقوا إلى مستويات علمية أعلى.

وهكذا كان الحال مع تمام الجنس البشري قبل ملايين السنين أو عند أول ظهوره من رحم تربة الأرض، فلولا وجود المربي والمعلم الذي أرشدهم ورعاهم وعلّمهم طرق البحث عن الطعام وكيفية المحافظة على كيانهم ووجودهم، لما استطاع طفل البشرية البقاء على قيد الحياة. دليل ذلك، عجز أي طفل عن رعاية جسده ومعرفة طريقة تناول طعامه وشرابه والاهتمام بنظافته حين أول ولادته واستمرار ذلك العجز لعدة سنوات، ناهيك عن حالات مرضه وسبل شفاءه، فبدون رعاية شخص راشد، لما بقي أثر للبشرية على الأرض. فالعقل والمنطق يقولان بحتمية وجود راع للانسان أطعمه واهتم به منذ أول وجوده وظهوره. وهذا أمر منطقي، فلو كان باستطاعته الاعتماد على نفسه في تربية ذاته وتعليمها، لما شيّدت المدارس والكليات، ولما كتبت البحوث والكتب والمجلدات والأسفار، طالما هو قادر على تعليم نفسه بنفسه، ولتركت العوائل أطفالها تلعب وتمرح داخل البيوت وفي الحارات والأزقة لتتعلم ذاتيًا. يقول أحد المفكرين بهذا الخصوص:

ـ (بإمكاننا أن نلاحظ كيفية عمل هذا المبدأ من خلال متابعتنا لطريقة تربيتنا لأطفالنا. لكي نساعد أطفالنا على النمو، فإننا نقدم لهم ألعابًا تتحدى قدراتهم. وتجعل رغبتهم في الفوز باللعبة، يفكرون في طرق جديدة للمواجهة، وهذا يؤدي إلى تقدم نموهم. ومن وقت إلى آخر، نقوم بتصعيب اللعبة عليهم لمساعدتهم على التقدم في النمو وعدم الوقوف في نفس المكان)[113].

إن كبار فلاسفة اليونان والإغريق والرومان، أمثال أفلاطون وسقراط وأرسطو، وحكماء بقية الشعوب في شتى بقاع الأرض، بل وجميع قدماء الآباء والكهنة والسحرة والشامان في كل زمان ومكان، أمضوا حياتهم في تعليم مجتمعاتهم مبادئ العلوم والمعارف المفيدة وكانوا أول معلمو

البشرية، وينسحب هذا الحال بالضرورة إلى عمق التاريخ البشري حتى وصولنا إلى البدائيين الأوائل، فلو كان في الإمكان اكتساب الانسان للعلم ذاتيًا، لما ظهر على مر التاريخ رجال اهتموا بالتعليم والتدريب والعناية، فلقد أدرك الإنسان منذ القدم، أن التعلّم هو السبيل الأوحد لرقي الانسانية[114]. يشير لذلك الفيلسوف ديورانت بقوله:

- (وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلّم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب، ويغرسون في نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتابة. ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرب والقسمة، والجذور التربيعية والتكعيبية، ومسائل في الهندسة التطبيقية)[115].

من الجميل أن يضرب العالم الفلكي «كارل ساجان» مثالًا يتوافق مع هذا الرأي، حينما أكد أن الانسان عاجز عن الإختراع إلا بوجود معلومات مسبقة، وبالتالي لا يمكنه الاختراع إلا بوجود كتابٍ أو معلّم، ويبقى بحاجة مستمرة إلى خزين معلومات متجدد يعتمد عليه، مع أنه تناول في مثاله فترة قريبة أصبحت فيها عملية التعلّم والاختراع والإبداع أمرًا يمكن تناوله من خلال الاستعانة بما تراكم من كتب وبحوث؛ أما ما يؤاخذ على مثاله، فهو عدم تعمقه إلى أقدم من ذلك التاريخ، ولم يتطرق إلى ما نحن بصدد مناقشته وكشف النقاب عنه، قال:

- (وتأتي المشكلة حين تأمر شخصًا ما بأن يذهب ويخترع اختراعًا معينًا، فحتى إذا كان الثمن غير ذي أهمية، فإن هذا لا يكاد يضمن أن الاختراع سوف يتم. إذ قد تكون هناك أسس من المعرفة غير متاحة، وبدونها لا يستطيع أحد أن يشيّد الاختراع الذي تحمله في عقلك... افترض أنك ترأس القوة التكنولوجية الرائدة في العالم؛ وافترض أيضا أنك في عام 1860م، وقد واتتك فكرة تخيلية كانت من الجرأة أنك تريد آلة تحمل صوتك، وتحمل كذلك صورًا متحركة «ترسل» إلى داخل كل منزل، والأكثر من ذلك، أن هذه الأصوات والصور لن تأتي عبر موصلات أو أسلاك ولكن تأتي بكيفية ما من الهواء، بحيث إن الناس في أعمالهم وفي حقولهم يمكنهم استقبال المعروضات الإيحائية الفورية المصممة. لذا يمكنك عقد مجلس وزراء بمساعدة رئيس الوزراء وهيئة الأركان العامة وكبار العلماء والمهندسين، وإخبارهم أنك سوف تخصص لهم مليونًا من الجنيهات ـ وهو مبلغ كبير بمعايير عام 1860م ـ وإذا احتاجوا إلى المزيد، فما عليهم إلا أن يطلبوا، ولا يهمك كيف يصنعون ذلك، المهم أن يتم المطلوب. من المحتمل أن تسفر مثل هذه المحاولة عن بعض المخترعات المفيدة «نواتج ثانوية»، فهذا ما يحدث دائمًا حين تنفق أموالًا طائلة على التكنولوجيا. غير أن المشروع سوف يفشل تقريبًا بالتأكيد، لماذا؟ لأن العلم الأساسي المختص به لم يتم التوصل اليه بعد. حيث يمكنك تخيل أجهزة البرق «التلغراف» في كل منزل والناس يبعثون برسائل بطريقة مورس بحلول عام 1860م، غير أن هذا شيء آخر غير المطلوب، فقد كانت الإذاعة والتليفزيون بعيدي المنال)[116].

إذًا.. فعندما يكون هناك نقص نسبي في كمية المعلومات، سيتعذر على الباحث أو المخترِع العثور على بداية لبحثه، هذا اذا افترضنا تحديد المطلوب كما في مثال ساغان؛ أما في حالة جهل الإنسان البدائي التام لحاجته وبغيته ولمتطلبات تطوير حياته، فلن يكون هناك ما يدفعه للتفكير في إيجاد

مختَرَع جديد لتحسين واقعه، خاصة وهو يفتقر للمعلومات الأولية والمخيلة العلمية الخلّاقة، وسيكون من المستحيل عليه تصوّر شيئًا عن علم الميكانيك لتركيب آلة خشبية أو حجرية لحراثة الأرض أو سقايتها. فالحاجة إلى معلومات أولية للشروع في إيجاد أي نوع من المخترعات هو أمر أساسي جوهري، وهذا يؤكد أن فرضية تكرار المحاولات والإصرار على استمرار التجارب وما يركن عليه من مُسمى عامل الصدفة، يمهد للعثور على مخترعات محددة ما زالت مجهولة في علم الغيب، هو أمر افتراضي وهمي لا يمكن الأخذ به والاستناد عليه في تفسير ظهور الاختراعات وتقدم الحضارات البشرية القديمة.

يعتمد الانسان على حواس جسده الخمسة في اكتساب علومه ومعارفه، ومن دونها يعجز العقل عن التفكير والقياس والاستنتاج تمامًا؛ ومرة أخرى، لو ولد ـ على سبيل المثال ـ مجموعة أطفال في مكان منعزل عن العالم الخارجي، فمن المؤكد انهم سيعجزون عن تعلم أي شيء، وسيبقى مستواهم المعرفي مقارب لمستوى الحيوان طوال حياتهم ولن يستطيعوا الرقي عن هذا المستوى إطلاقًا. والمثال الحيّ على ذلك، هو العثور قبل قرون قليلة على قبائل تعيش في منتهى البدائية في استراليا والأمريكيتين وأواسط أفريقيا وغيرها من المناطق والجزر النائية، في الوقت الذي تربعت فيه أمم أخرى على قمم الحضارات والاكتشافات والمعارف الرفيعة وارتقت لمستويات علمية عالية منذ آلاف السنين. فلو كان باستطاعة العقل البشري الاعتماد على ذاته في التفكير والقياس والاستنتاج والاستجابة لمبدأ «الحاجة أم الاختراع» أو الاعتماد على نظرية «التجربة والتكرار» أو عامل «المصادفة» ـ كما يقول بعض الفلاسفة الماديون حينما ينسبون لذلك أسباب تقدم البشرية من حالة الهمجية والبدائية والعصور الحجرية إلى مستوى الحضارات الراقية ـ لما وجد ذلك الفرق الشاسع بين مستويات تلك الشعوب البدائية وبين غيرهم من أمم الحضارات المتقدمة، لأن شكل كتلة الدماغ وتركيبته داخل جمجمة الإنسان، متساوية ومتشابهة عند جميع البشر، والعقل البشري عمومًا كان بدائي التفكير وبسيط ومتقارب في قواه، حينما كان مستوى نسبة التعلّم والتعليم المكتسبة في العصور الأولى نادرة، لا فرق بين شخص آسيوي أو أفريقي أو أوروبي أو غيرهم، فالجميع كان يعيش في بيئة بدائية متقاربة، دليل ذلك ما لوحظ على تلك الأمم بعد اكتشافها ودخول معالم الحضارة إليها وتعلمها لاحقًا في العقود القريبة الماضية، أن ظهر منهم علماء ومفكرون ومخترعون ومبدعون وتطوروا ليسابقوا بقية الأمم بالعلوم والمعارف والصناعة والاختراعات. فإذا كان مبدأ «الحاجة أم الاختراع»، أو عامل «المصادفة» أو غيرها، هي قوانين أو فرضيات صحيحة وأن جميع الأمم والشعوب شعرت بذات الحاجات الاجتماعية والحياتية في أوقات متقاربة قبل دخولها عصر الحضارات، وجميعهم كانوا يتعلمون من الطبيعة من خلال تكرار الفعل وتجربته والتحقق من نتائجه، فكيف يفسّر كل هذا التباين بين الأمم البدائية في وقت اكتشافهم وبين الأمم المتقدمة؟ فالشعوب البدائية مؤلفة من قبائل عديدة وأجيال متتالية مثل غيرها من بقية شعوب الارض في مختلف القارات، ولم يكونوا بضعة أفراد مشتتين حتى يمكن الافتراض أنهم أخطئوا القياس والاستنتاج وعازهم الابداع والاختراع وتكرار التجارب، إن عامل الصدفة والتصادف قد خذلهم بينما خدم غيرهم. والمفروض ـ على اعتبار أن العقل البشري متماثل القوى تقريبًا في بداية وجود الانسان أو في مراحل بدائيته الأولى أو خلال مرحلة ظهور الوعي وما بعدها خلال العصر الكمبري وما قبله ـ أن تكون مقدرته على الابداع والاختراع ذاتية وبنفس قوة الاستنتاج عند جميع

البشر، ويفترض أيضًا تمكن العقل من التأمل والتفكير والقياس وتكرار التجارب دون الاستعانة بعلوم المحيطين به، باعتبار أن الإنسان كان يعيش منعزلًا فريدًا على الغالب ومن ثم في جماعات صغيرة متناثرة. فلو كانت فرضية التفكير والاستنتاج الذاتي صحيحة، لكانت تلك الأمم البدائية المنعزلة قد نهضت من بدائيتها ورفعت مستواها الاجتماعي والعلمي والحضاري مثلما نهض غيرها من أمم الكتابة منذ أزمان بعيدة، ولتساوت أو تقاربت ـ على أقل تقدير ـ في مستوياتها الحضارية مع غيرها. ومن الأمثلة الأخرى على ضرورة تعلم الانسان من غيره، فرديًا كان أم جماعيًا، أن هناك العديد من الأمم لم تستطع الإبداع أو الإختراع إلا بعدما شاهدت مخترعات الأمم الأخرى وفهمت طريقة إبداعاتها الصناعية وكيفية صناعتها. فأهل البنجاب في شبه

القارة الهندية، لم يتعلموا فنَّ النحت على الصخور إلا بعد احتلال الاسكندر المقدوني لبلادهم (وفي عهد السليوكيين ذاع الفن الاغريقي صوب الشرق في القارة الآسيوية. ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الاغريق الذين حكموا لمدة قصيرة في البنجاب، أن الهنود تعلموا نحت الحجر وإقامة الأبنية به)[117]. ورغم أن البعض قد يتصور سهولة عملية نحت الصخور وبساطة فكرتها، إلا أنها في الحقيقة تعتبر اختراعًا عظيمًا في ذلك الزمان، لم يخطر على بال أمة بأكملها حتى اقتبست فكرته من أمة غيرها سبق وتعلمته هي أيضًا بالتأكيد من مصدر آخر. وكذلك لو جئنا على الأوروبيين، فلقد أخذوا الكثير من علومهم من العرب والمصريين والفرس والصينيين، مثل صناعة الورق والبارود وغيرها[118].

يؤكد الفيلسوف اسوالد اشبنغلر ما جئنا عليه في استحالة تفكير الإنسان البدائي بمستويات أعلى من واقعه، عندما قال:

ـ (فالرجل البدائي «وذلك إلى أحط درجة يبلغها تصورنا لوعيه اليقظ» والطفل «كما نستطيع ان نذكر» لا يستطيعان أن يريا أو يدركا هذه الإمكانات «إمكانات امتلاك عالم خارجي» إدراكًا كاملًا. وتتمثل إحدى حالات الوعي الأعلى للعالم في امتلاك اللغة، ولا نعني باللغة مجرد النطق البشري، لكننا نعني بها اللغة الحضارية، ولا وجود لمثل هذه اللغة بالنسبة إلى الرجل البدائي، وهي موجودة لكنها ليست بمتناول اليد بالنسبة إلى الطفل. وبكلمات أخرى أقول بأن كلًا من الطفل والرجل البدائي هما مجردان من أي تصوّر واضح مُميز للعالم، ولا شك أن لدى كل منهما لمحة «عن العالم» ولكنهما لا يتمتعان بمعرفة حقيقية بالتاريخ والطبيعة)[119].

ويقول العالم جون فايفر في ذات المجال عن صعوبة تعلّم الرجل البدائي ذاتيًا:

ـ (كانت مقدرة أولئك القوم من أشباه الإنسان على التعلم مقدرة بطيئة بالنسبة لمقاييس هذه الأيام ـ فقد استغرقت الأطوار الأولى لعملية الصيد حوالي ثلاثمائة ألف عام ـ وهذا تقدير متحفظ ـ إذ يجوز أن يكون ذلك التطور قد استغرق ضعف هذه الفترة)[120].

ولإبن خلدون رأي مشابه حينما استشهد بعبارة الحكماء القديمة وأطرى عليها، بعدما قدمها غير مكتملة، قال:

- (أول العمل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل)[121]. فهذه الحكمة رغم صوابها، إلا أنها ما تزال مبتورة غير مبلورة، فهي تعني:

- أن كل عمل يدوي مادي، يبدأ بفكرة معنوية في العقل، وعند اختمار الفكرة والتأكد من صوابها، يُشرَع بتنفيذ العمل من بدايته. مثل هذا الاستنتاج يبدو ناقصًا تتخلله ثغرة علمية، حيث هناك دائمًا بداية أولية قبل بزوغ الفكرة داخل العقل، إذ لا يمكن أن تأتي الفكرة من الغيب واللامكان بمجرد التأمل والتركيز، أو من الفراغ واللاشيء دون الاستعانة بحواس الجسد المادية لالتقاط معلومة أولية مبدئية مسبقة من الواقع الطبيعي مهما كانت صغيرة ولها علاقة بتفاصيل الاختراع، إذ لا بد للفكرة أن تبزغ من صورة لشيء ما أو من معلومة مسموعة من المحيط الاجتماعي أو الواقع الطبيعي حتى تكتسب بعض الأوليات والتفاصيل لتشكل أولى الأبعاد والرؤى الفكرية ليبدأ الانسان بالتفكير والقياس والتشبيه والتصوّر حتى يستنتج فكرة باكرة. فالتفكير في أمر معدوم غيبي غير موجود، هو أمر محال معدوم التحقق، ولو صح ذلك، لاستجلب انسان اليوم جميع علوم ومخترعات المستقبل القادم التي ما زالت خفيّة ولم تظهر بعد. أو لتسنى للإنسان البدائي القديم ـ وعلى ذات القياس ـ اختراع كل ما نملكه اليوم من مخترعات حديثة.

يؤيد الأستاذ جون كيرتشر مسألة استباق الفكرة لظهور المختَرع، ومن قبلهما ضرورة توفر معلومات أولية، لكنه يصطدم بعقبة مجهولية مصدر الفكرة وكيفية تجاوزها، قال:

- (لا يمكن إنكار حقيقة أنّ الأفكار تسبق الأفعال. على سبيل المثال، لا يمكننا أن نحصل على منزل حتى نمتلك في عقولنا فكرة عنه. يمكننـــا تخمين أو تصوّر الشكل الذي سيبدو عليه قبل البدء ببناءه. يمكن للمهندس المعماري أن يرسم مخطّطًا، إذ بإمكانه تصوّير المنزل قبل بناءه. فبإمكانه أن يريك كيف سيبدو بعد الانتهاء منه. ليس فقط أول طاولة من نوعها تمّ تصوّرها بل كل طاولة يتمّ إنتاجها. ففكرة الطاولة ربما قد تولّدت أساسًا من عملية وضع الطعام على صخرة مسطّحة أثناء تناوله. إنّ تطبيق هذا المفهوم على جميع الأشياء والأمور، نحن ملزمون للاعتراف بأنّ الفكرة جاءت قبل صنع الطاولة. فإذا استعرضنا التاريخ من خلال وجهة النظر هذه عندها نكون مجبرين على الاستنتاج بأنّ كشفها يعني كشف الأفكار الإنسانية وسبرها. ليس هناك أي خطأ يتخلّل هذه النظرة حتى هذا الحد، لكنها لا تمضي إلى أبعد من ذلك، حيث أنّنا نواجَه من قبل سؤال غاية في الأهمية:

- «إذا كانت كافة إنجازاتنا هي نتاج أفكارنا، إذًا كان التاريخ ما هو إلا النتيجة الحتمية للأفكار الإنسانية، فمن أين جاءت هذه الأفكار أصلًا؟»)[122] ويستطرد القول:

ـ (فالدماغ لا يمكنه عكس ما هو غير موجود. فهو لا يعكس إلا الأمور الحقيقية والواقعية)[123].

أما المؤرخة غيردا ليرنر[124] فتضيف في نفس المجال:

ـ (إن منبت أية فكرة هو الواقع، فالبشر لا يستطيعون تصوّر شيء لم يجرّبوه بأنفسهم، أو على الأقل جربه أشخاص آخرون قبلهم. هكذا، إن الصور والاستعارات والأساطير كلها تعثر على التعبير في أشكال «تمَّ تصوّرها» عبر تجربة الماضي)[125].

ولنضرب مثالًا آخر على عجز الحواس البشرية عن تخطي حاجز موجودات الطبيعة إلا بعد توفر المعلومات الأولية، فلو أن كوكبًا من الكواكب المجهولة موجود الآن في البعد اللامتناهي داخل فسيح فضاء الكون، فلا يمكن والحالة هذه معرفة شيء عن وجوده وخاصية تربته أو مناخه أو موقعه أو كائناته، إلا بعد اكتشافه والتعرف عليه؛ وكذلك لو أن حيوانًا مجهولًا يتواجد الان داخل أعماق مياه المحيطات، فلا يمكن وصفه وتعريفه وتسميته والتحقق من شكله وتفاصيل أعضاء جسده، إلا بعد اكتشافه والتعرف عليه ومعرفة شكله وحجمه وألوانه وأماكن تواجده. وفي المقابل، لا يمكن اختراع زورق على سبيل المثال، إلا بعد مشاهدة حيوان أو حشرة تطفو على قطعة خشب أو عود غصن فوق سطح الماء. في هذه الحالة فقط يمكن للفكرة أن تقدح داخل العقل لصناعة زورق، فبدون الاستعانة بالحواس المادية واقتباس معلومات سمعية أو بصرية أو وجود نسبة ضئيلة من معلومات أولية أو فكرة مسبقة داخل الطبيعة، لا يمكن لفكرة صناعة الزورق أن تبزغ وتخطر داخل الذهن البشري. كما علينا التذكر أن صناعة الزورق هي أيضًا بحاجة إلى توفر مخترعات مسبقة من أدوات نجارة وحدادة مخترعة جاهزة، خضعت بحد ذاتها لذات تسلسل تولد فكرة اختراع الزورق، أي أن أدوات النجارة واختراعها احتاجت لإيجادها ذات مراحل نظرية توالد الفكرة وتبلورها ومن ثم العمل بها.

يخبرنا رياض عن صعوبة اكتشاف المعادن أو اختراع عمليات التعدين، وكم هي أفكار بعيدة عن متناول عقل الإنسان البدائي؛ فنراه لا يجد سبيلا لتفسيرها، إلا باعادتها لعامل الصدفة أو تكرار التجربة، أو نسبتها لعقلية الرجل البدائي المتطورة! فيقول:

- (من المشاكل المحيرة في تاريخ الكشوف أن نعرف الوسيلة التي اهتدى بها الإنسان إلى المعادن. فلا شكّ في أنه يوجد فرق كبير وشاسع بين معرفة الإنسان استخدام الحجارة في تشكيل أدواته الحجرية المعروفة وبين استخدامه للمعادن لتشكيل هذه الأدوات... إن الخامات المعدنية أقل انتشارا من الخامات الحجرية، وهي كذلك لا تظهر واضحة للعين على أنها خامة معدنية، بل لا بد لعين مدربة أن تعرف أن تركيبًا ما يحتوي على خامة معدن ما؛ ذلك أنه باستثناء حالات شاذة فإن المعدن في حالته الطبيعية يوجد متداخلًا مع تركيبات حجرية متنوعة، وهو أيضا لا يظهر لنا في القرن العشرين إلا بعد إجراء الفحوص في المختبرات. وليس ثمة شك في أن عامل الصدفة وحده، بالإضافة إلى مقدرة الإنسان الفكرية على استيعاب التجربة تلو التجربة، هي التي أدت إلى اكتشاف عناصر المعادن داخل التكوينات الحجرية. فالسؤال إذن هو كيف تعرف الإنسان ـ بتكنولوجيته الحجرية ـ على التكوين المعدني في صورته الطبيعية؟)[126].

وهذا ما يدفع للقول إن الإنسان البدائي كان عليه إذا شاء صناعة أداة أو آلة صلبة معينة لاستخدامها في عملية اختراع وصناعة حاجة أخرى مهما كانت بساطة فكرتها، البحث قبل كل شيء عن أماكن تواجد المعادن المناسبة وأن يكون لديه علم مسبق في كيفية تصنيف الصخور الحاوية للمعادن المطلوبة وأنواعها، مع العلم أنها تكون متفرقة في أنحاء الطبيعة مما يصعب حتى الإفتراض المسبق في تحديد أماكن تواجدها، كما كان عليه التفكير أيضًا في اختراع أفران صهر المعادن واختراع فكرة «الكور» بالضرورة، لمرور تيارات الهواء أثناء عمليات الصهر، إضافة إلى فنون طرق وهندسة أشكال الأدوات المطلوبة.

فتصور عزيزي القارئ صعوبة ـ بل استحالة ـ بزوغ فكرة المخترعات التقنية البدائية على العقل البشري دون تعليم مسبق في ذلك العالم الخالي من المعلومات الأولية ومن أي محفزات للاختراع. يؤيد ذلك أيضًا ما ذكره «ولسن» في قوله:

- (أيا كانت كثرة المعلومات التي نستطيع التوصل اليها، فإننا لا نستطيع أن نستخدمها إلا بمراجعتها مراجعة دقيقة على المعلومات التي بداخلنا، وعلى سبيل المثال، إذا واجهت إنسانا سيارة معطلة، وكان هذا الانسان لا يعرف شيئًا عن السيارات، فإنه سيقف أمامها عاجزا حتى لو كان لديه مرجع ضخم عن السيارات، ذلك لأنه قبل أن يستطيع استخدامه، يحتاج إلى معلومـــــات أساسية معينة عن السيارات داخل مخه)[127].

أما في حالة المخترعات الأساسية الأولى الأكثر استحالة، مثل اختراع قرصي الرحى لطحن الحبوب والبذور، أو اختراع العجلة أو الرسومات والكتابة أو مختلف أنواع العلوم والمعارف في أول ظهورها، فمثل هذه المخترعات المعدومة أصلًا في الطبيعة الخارجية والتي لا يوجد لها شبيه أو مثيل قبل اختراعها ولا يوجد دافع يوحي للعقل ويحفزه على التفكير والتشبيه أو القياس كي تقدح شرارة فكرة صناعتها داخل عقل الانسان، وينتقل ـ حسب فرضية ابن خلدون ـ إلى بداية مرحلة الشروع بالعمل، فبداية الفكرة هي بداية تجمع المعلومات الضرورية الملزمة، وما دام لا توجد معلومات أولية، فلا يوجد موجب أو محفز لبزوغ الفكرة أو تبلورها[128].

يؤيد ذلك أيضًا قول الفيلسوف ابن سينا، حيث ينسب ظهور الفكرة الكاملة إلى قوة غيبية بعدما أدرك استحالة استنباطها في العقل المجرد، حينما قال:

- (والفطرة الإنسانية غير كافية في التمييز بين هذه الأصناف إلا أن تكون مؤيدة من عند الله عزّ وجل)[129].

هنا يؤيد ابن سينا ما جئنا عليه في عدم إمكانية ظهور الفكرة المعنوية المجردة من العدم وتبلورها داخل العقل البشري ولا حتى إمكانية تصورها أو التفكير بها مسبقًا، لأن الفطرة الانسانية عمياء وعاجزة عن التمييز بين حقائق أصناف موجودات الطبيعة المادية ما لم يسبقها تعليم في كيفية استعمال حواس الجسد المادية للاستعانة بالقياس والتشبيه ومعرفة الفوارق بين موجودات الطبيعة للتعرف على خصائصها أو لاختراع شيء ما. فإذا لم يوجد للفكرة المعنوية شبيه في الخارج المادي، وكان مثيلها معدومًا في الطبيعة ولا دلالة عليه البتة، فسيستحيل على العقل البشري في مثل هذه الحالة تصور أو تخيل المطلوب إثباته، وستبقى شرارة الفكرة المعنوية معدومة وخفية بل وعصيّة على الإنقداح والظهور إلا بعد توفر المعلومات الأولية.

ويأخذنا التفكير أبعد من ذلك ـ وقد يثير هذا الرأي كثيرًا من الغرابة والجدل ـ فحتى عندما كان الإنسان البدائي يشاهد حوله قرون الحيوانات والعظام والأحجار بمختلف أشكالها الحادة والمدببة، ويرى الأصداف والأشواك ومخالب الحيوانات وجلودها، فكل هذه المواد المطروحة في الطبيعة أمام عينيه، لا يمكنها الإيحاء له بفكرة الاستفادة منها أو استعمالها لأي هدف كان، فالمسألة ذهنية معنوية بحتة، لأنه لا بد من التفكير بالنتيجة مسبقًا ونوعية الأداء والغاية المرجوة من الإختراع والهدف من استعماله قبل التفكير في تناول العظام أو القرون وتحويرها، لأن هذه الفكرة هي

معنوية غير ملموسة في أصلها ومنفصلة تمامًا عن الحاجات المادية حتى يمكن إنبثاقها من صور الموجودات المادية. أما أن يظن البعض بخطأ هذا الرأي، فما عليهم إلا تجريد أفكارهم تمامًا من علوم واقعهم المتقدم وعدم الاستعانة بما بين أيديهم وفي عقولهم من معارف وعلوم وتصور موقفهم بذات حالة ذلك الانسان البدائي الأول في تلك الطبيعة الجرداء البكر، ثم محاولة التفكير لاختراع شيء جديد لم يسبقهم اليه مخترع ولا توجد أمامهم مواده أو شيء من أجزاءه الأولية، وقبل كل ذلك، عدم الاستعانة بأية معلومات أولية مسبقًا، مهما صغرت نسبتها. وكما قال الفيلسوف ويل ديورانت:

- (إن «الوعي العادي»، عاجز عجزًا ميئوسًا منه ويقف تحت المستوى الطبيعي للأشياء)[130].

مثل هذه النظرية تخالف تمامًا ما جاء عليه ذات الفيلسوف في مقام آخر ـ رغم إنه تكلم عن زمن بداية العصر الحجري الحديث، وهي مرحلة تاريخية متقدمة نسبيًا ـ حينما ذكر أن البدائي كان بمقدوره التفكير والاختراع، قال:

- (على أن الإنسان، إذ هو لم يزل في مراحل الصيد والرعي والزراعة، ما أنفك مخترعًا، فكان الإنسان البدائي يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية في وجهه من مسائل)[131]. لقد كان الأجدر بهذا الفيلسوف المبدع التوغل في عمق التاريخ القديم أكثر من ذلك ليحصل على نتائج أفضل، ولا يكتفي باتخاذ مرحلة الصيد والقنص مقياسًا مرحليًا لفكرته.

إذًا وبالإجمال، تكون فكرة تعلّم الإنسان بالتجربة والتفكير المباشر الحرّ من محيطه البدائي الطبيعي في الاستفادة من أغصان الأشجار ليعمل منها مساكن له، ومن الثمار بذورها ليزرعها ثم يقتات عليها، ومن سيقان الأشجار ليعمل منها أبلامًا وزوارق ليبحر بها، أو حينما يستفيد من عظام الحيوانات وقرونها أدواتًا يقتنص ويصطاد طرائده بها، إنما هي أفكار خيالية بعيدة عن الواقع، لأنها تدخل ضمن إطار المعنويات غير الملموسة، فهي مخالفة للواقع الطبيعي القديم ولمستوى قدرات العقل البشري البدائي البسيط. والحقيقة لو دققنا النظر لوجدنا أن جميع المخترعات البدائية العظيمة كانت أفكارًا معنوية صرفة في أول أمرها يصعب التقاطها من حيز الواقع المادي آنذاك، إلا من خلال عملية التفكير المعنوي، وحيث أن أولئك البدائيين كانوا بحاجة إلى معلومات معنوية أولية، وهذه المعلومات كانت بحاجة إلى تعلّم وتفكير وتدبّر وتدريب، هنا يصعب افتراض تفكير أحدهم في إيجاد هذه المخترعات والمكتشفات، وإن الأمر قد احتاج إلى رجل مميز بقدرات عقلية عبقرية أرقى مستوى من عقلية أقرانه البشر، وهذا لن يكون إلا إذا كان حائزًا على معلومات فوقية غير طبيعية ليكتشف مثل هذه الأمور الخفيّة العظيمة ويتمكن من نقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

من الغريب أن يمزج الفيلسوف ديورانت بين فكرتين متناقضتين نسعى للتفريق بينهما، حينما يقول إن الانسان البدائي القديم كان بمستوى عقلي يفوق عقلية إنسان ماهر في هذا الوقت، ثم يعود ليعزو معارف الأجيال الحاضرة إلى (ما تجمع لدينا من معارف وأدوات ومواد). ولا أظنه صرح بمثل هذا التصريح الخطير إلا لتخطي أس أساس المعضلة التي يتناولها هذا الكتاب، حينما قال:

- (إن مهارة الإنسان البدائي توازي على الأرجح ـ بل ربما تفوق ـ مهارة الإنسان المتوسط في عصرنا الحديث، فلئن كنا نختلف عن هؤلاء الأولين، فما ذاك إلا بفضل ما تجمع لدينا من معارف وأدوات ومواد، ولا يُعزى الفرق بيننا وبينهم إلى تفوق فكري امتازت به طبائعنا من دونهم؛ الحق أن أبناء الطبيعة أولئك يغتبطون أيما غبطة كلما سيطروا على موقف اعترضهم، سيطرة أعملوا فيها أذهانهم المبدعة)[132].

وها نحن بحاجة مرة أخرى إلى وقفة لتحليل فكرة ديورانت، فبقوله أن الانسان البدائي كسب عقلية راقية خولته ايجاد تلك الاختراعات البدائية «العظيمة»، قصد من ذلك أن البدائي قد فاق انسان اليوم متوسط القدرات العقلية رغم ما يتمتع به ويستخدمه من مخترعات وعلوم ومكتشفات. وهنا يظهر السؤال الذي نسعى لجوابه:

- إذا كان إنسان اليوم يعتمد في مخترعاته على ما تراكم من علوم وخبرات؛ فمن أين كانت للبدائي كل تلك القدرة والموهبة على الإكتشاف والاختراع وقد عاش في طبيعة بدائية جرداء صمّاء خلت من التحفيز على التفكير والإبداع ومن خزين المعلومات؟! فإما ان يخضع الطرفان (إنسان اليوم وإنسان الماضي) إلى ذات القانون الطبيعي في تراكم كميات العلوم المطرد، أو لا يخضعان. فالمفروض بالبديهة أن يكون إنسان اليوم أكثر علما ومعرفة من ذلك البدائي طالما يعيش في عالم متطور ويكتسب مختلف المعارف من الجو العام المحيط به؛ وفي المقابل كان المفروض بالرجل البدائي أن يعجز تمامًا عن إختراع أي شيء طالما عاش في عالم طبيعي بكر مجدب من العلوم والمعارف، كما وصفه أحد العلماء، بقوله:

- (لم يكن معلمو الفيزياء لدى الإنسان البدائي سوى الأغصان التي تنحني صدفة نحو الأسفل ثم تعود إلى وضعها الطبيعي، وجذوع الأشجار التي تتدحرج بعد عاصفة على منحدر، والحفر الأرضية المليئة بأوراق الأشجار المتساقطة)[133].

وعندما يذكر أن (بعض الشعوب البدائية ـ مثل الفيداويين في جزيرة سيلان ـ لم يكن لهم دُور للسكنى، واكتفوا بالأرض وطاء، والسماء غطاء، وبعضها أووا إلى جذوع الشجر الخاوية)[134]، يعيدنا ذلك إلى التفكير في مستوى التباين بين هؤلاء البدائيين وأمثالهم وبين انسان الحضارات الكبرى في الصين والعراق ومصر وفارس قبل آلاف السنين، ونتساءل كيف نتج هذا الفرق الشاسع في العلوم بين هذه الأمم، والانسان هو الانسان بما يملكه من يد وأصابع مبدعة وقوة تفكير، إلا إذا كان هناك فارق جوهري غفل عنه علماء الاجتماع والحضارات والانثروبولوجيا ولم يتوجهوا إليه بعين الاهتمام. فحتى القصة البائدة عن تعلم الانسان من الحيوان كيفية دفن موتاه، تبدو هزيلة غير واقعية، حينما نرى داخل الغابات والأماكن المهجورة جثث الحيوانات وغيرها ملقاة هنا وهناك، فلماذا تركت ولم تدفن إذا كانت تمتلك هذه الغريزة منذ آلاف السنين! يؤيد هذا قول الأستاذ ولسن، فيقول:

- (فلقد توصل إنسان نياندرتال «حوالي 50,000 سنة قبل الميلاد» إلى دفن موتاه «وهو ما لا يفعله حيوان آخر»)[135]. وعندما يذكر الأستاذ السواح أن إنسان نياندرتال كان يدفن موتاه مع

الزهور والورود منذ مائة ألف سنة[136]. فعملية دفن الموتى بمثل هذا التاريخ القديم، تخالف تماما ما ورد في القصص الدينية حينما ذكرت تاريخ وجود قابيل وهابيل بحدود الستة أو سبعة ألف سنة الماضية وجهل الأول بطريقة دفن أخيه. وعندما يقول الماجدي:

- (نزعم أن الدين ابتدأ عندما أدرك الإنسان الموت، وبدأ يدفن موتاه حيث وجد، في كل أنحاء العالم، ما يشير إلى أن إنسان النياندرتال هو الذي ابتدأ الدين؛ لأنه دفن موتاه، ووجههم نحو شروق الشمس، أملًا في انبعاثهم مع شروقها، وكانت هذه أول الأفكار عن الموت)[137]. فهذا لا يعني بالمطلق إمكانية الجزم بعدم وجود أديان بدائية قبل ذلك التاريخ القديم ولو بأشكال وطقوس أخرى مختلفة وبسيطة في أماكن لم يتم اكتشافها بعد أو تلاشت آثارها بفعل قوة تأثير عوامل الطبيعة. يؤيد ذلك ما ذكره السواح:

- (في الواقع، فإنه من غير المجدي التفتيش عن دلائل وآثار الحياة الدينية لبشر ذلك الزمان، بسبب غموض الوثائق وتبعثرها، وصعوبة الربط بينها... إن كل ما أستطيع قوله هنا، هو أن الحياة الروحية المتطورة نسبيًا لإنسان النياندرتال اللاحق، لا يمكن أن تكون قد انبثقت فجأة ومن العدم، بل لا بد من وجود جذور لها في ذلك القاع السحيق للثقافة الإنسانية)[138]. وهنا نلاحظ أن هذا المفكّر قد أيّد مفهوم استحالة بزوغ الفكرة المعنوية في العقل البشري لارتباطها بعمق تاريخ الإنسان.

كما أدرك الفيلسوف ابن سينا كذلك، قصور العقل البشري وظلاميته واستحالة انقداح شرارة فكرة معنوية داخل بكرية العقل دون خزين معرفي، وهذا يفسر سبب بقاء البشرية على حالتها البدائية الأولى طوال فترات عهود البدائية المظلمة المجهولة التي امتدت لملايين السنين ـ لذلك فهو يفلسفها ويجد لها مخرجًا، عندما نحى إلى ضرورة وجود ما أسماه «التأييد الإلهي» الذي يأتي من خلال الإلهامات والرؤى والإيحاءات للانسان المميز، وهذا الإنعطاف في التحليل والتوجه نحو الغيبيات الروحانية، يرفضه دعاة المادية حينما يدّعون أنه بالتفكير المجرد والاستنتاج العقلي البحث وكثرة تكرار التجربة وتدخّل عامل المصادفة، تمكن الانسان من اختراع ما شاء من مخترعات نتيجة شعوره بالحاجة اليها، «فالحاجة أم الإختراع».!

يعود الفيلسوف ديورانت مؤيدًا، عند تشبيهه حالة الانسان البدائي بحالة طفل صغير:

- (الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الانسان)، وبقوله أيضًا على ضرورة حاجته للتعلم والتربية، بقوله:

- (من بين واجبات الوالدين أن ينقلوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق، لأن الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الانسان؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئًا فشيئًا كلما تلقى جانبًا من التراث الخلقي والعقلي الذي خلفه له الأسلاف؛ والطفل من الوجهة البيولوجية سيئ الإعداد للمدنية، لأن غرائزه تهيئه للمواقف الرئيسية والتقليدية ولا تشمل إلا على الاستجابة للمثيرات التي توافق الغابة أكثر من موافقتها للمدنية)[139].

إن مثل هذا التباين الشاسع بين مستويات أمم عاشت لمئات الآلاف من السنين تحت أدنى مستويات الجهل والبدائية كالاستراليين وهنود الأمريكتين، وبين أمم أخرى إرتقت إلى قمم العلوم والمعارف والفنون، كما حصل لشعوب حضارات الكتابة المعروفة في الشرق الأوسط[140]، هو من الأدلة العقلية الواضحة على عجز العقل البشري عن التفكير والاستنتاج والابداع الذاتي دون عملية تغذيته بالمعلومات المعنوية أو الاستفادة من تكرار التجارب المستندة على معرفة مسبقة بالهدف والغاية المطلوبة منه، إضافة لأهمية التزود بالمعارف والعلوم مهما كانت ضئيلة من المحيط العام. وبهذا يثبت بالدليل الواضح إن إنعزال تلك الشعوب البدائية عن العالم المتحضر هو السبب الرئيس في بقاءها على حالتي البدائية والجهل، حيث ثبت إنه لم يسبق أن زارها انسان متحضر حتى وقت اكتشاف وجودها. لكنا نجد أن أحوالها الاجتماعية قد تغيرت بسرعة عجيبة نحو الأفضل بمجرد اختلاطها بالشعوب المتحضرة وتلقي علوم حضاراتها. من هذا يمكن الجزم، أن عملية التربية والتعليم التي نالتها أمم الحضارات في الشرق الأوسط والأقصى وغيرها، كان مصدرها معلمين أعلى مستوى من البشر، هم أساس نهضتها الحضارية، وإلا فالعقل البشري البكر المجرد عاجز عن التفكير الذاتي الخلاق؛ والتاريخ البشري بما تركه من لقى ولفافات وأساطير تشهد على أن الآلهة والكهنة ورجال الدين (السحرة) كانوا هم المعلمون الأوائل للبشر، ولو لم يحصل ذلك، لبقيت أمم حضارات الكتابة على ذات مستويات شعوب أفريقيا وقبائل مجاهل الأمزون البدائية وأهالي استراليا المتأخرة، مثلما هو حال بعض القبائل البدائية المتواجدة حتى اليوم.

نعود لإبن خلدون حينما ينسب ظهور منجزات الصناعة والاختراعات إلى مرحلة استيفاء حاجات الانسان الأولية، بمعنى ضرورة وجود مخترعات أولية بسيطة مسبقًا كي تستند عليها الأمم للرقي الحضاري كخطوة تالية، أي أن مفكروها لا يلتفتون إلى تشييد العمران والأبنية ومن بعدها التدرج بالارتقاء كي يدخلوا مرحلة الصناعة والاختراع، إلا بعد استيفاء حاجاتها الجسدية من طعام وغذاء ولباس وتوفر المتطلبات اليومية، قال:

- (إن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته، والسبب في ذلك أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة، إنما همّهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش. ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مُقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري)[141].

لا يتسم هذا الرأي بالكمال أيضًا في بعض جوانبه، حيث لا يتفق مع واقع أحوال ما جرى لأمم الفرس والرومان والإغريق واليونان وما وصل اليه شعب أرض الرافدين والفراعنة من عظمة وسؤدد لحضاراتهم وروائع هندسة قصورهم ومعابدهم، فهؤلاء وغيرهم شيدوا «عمرانًا حضارية» ما زالت آثارها باقية حتى اليوم تشهد بعلو كعبهم، ومع ذلك انحدرت تلك الأمم واختفت عظمتها وزالت حضاراتها واندرست آثار بعضها رغم توافر الغذاء وتشييد العمران، وما هذا إلا دليل على عدم صواب رأي إبن خلدون، فمقاساته الفكرية اعتمدت على منظوره المادي أثناء حياته ولم يتعمق إلى قديم الأزمنة البدائية، فجاءت فكرته لتوافق واقع الحال الذي عاشه حينما شاهد

الشعوب والحكومات والجيوش مرتبة ومنظمة على أفضل حال؛ ومع ذلك لم يكتب لتلك الحضارات العظيمة الاستمرار والبقاء ولم تستطع الصمود أمام متغيرات الزمن، وزال عمرانها واختفت قوتها واندثرت أنظمتها. ولو كان هذا الرأي صحيحًا، لوجدنا تلك الأمم وغيرها ما زالت موجودة حتى اليوم وعلى مستويات حضارية أعلى بكثير، ولإستمرت حكوماتها وأنظمتها وقدراتها في تطوير أدواتها ومخترعاتها لتتصل حلقات تطورها مع ما ظهر لاحقاً من اختراعات ومنجزات علمية تقنية في القرون الأخيرة. فرغم هيمنة وعظمة حكومات تلك الامبراطوريات وقوة جيوشها وسعة مساحات أراضي زراعاتها وما شيدوه من عمران وبناء، إلا أن أقصى ما توصلوا اليه من اختراعات، كانت السيوف والرماح وعربات تجرها الخيول. وهنا نتذكر عظمة الامبراطورية الرومانية وما كان من شأن قوتها وسطوتها ومقدار ما استعبدته من شعوب الأرض، ومع ذلك اختفت وانتهى أمرها. وكذلك حالة الامبراطورية العثمانية، فلقد كانت من أقوى دول العالم وحكمت نصف مساحة الأرض حتى وقت قريب وسخرت لخدمتها جميع طاقات وعقول الشعوب المحتلة، ومع ذلك أصابها الوهن والضعف ولم تستطع مساعدة نفسها والنهوض حتى وهي ترى ظهور امبراطوريات جديدة تنافسها في الرقي وتخترع شتى أنواع الأسلحة والمستلزمات العسكرية والمدنية، بل لم تستطع حتى الاستفادة من تقليد مخترعات جيرانها الأوروبيين، وبالتالي تقلصت مساحتها وانهارت دولتها دون رجعة، ولم يعد لها شأن يذكر بين الأمم المتقدمة، وما ذلك إلا بسبب بعادها عن حركة التطور العلمي وتبنيها لمنهج الاستعلاء الجنسي والتعصب الديني.

لقد تناول إبن خلدون فكرة التعليم خلال مراحل تاريخية متقدمة نسبيًا، بعدما ظهرت شخصيات الآلهة والأنبياء والفلاسفة والحكماء والكهنة وتعدد الأديان العالمية ووجود المدارس والمعاهد العلمية والدينية وزوايا المساجد والتكايا، ولم يتعمق أو يتتبع جذور أصول تعليم الإنسان إلى الأزمان البدائية، مكتفيًا بمشاهداته الشخصية المحدودة لواقعه الحضاري واتخاذ ذلك مقياسًا لأساس اطروحته ـ كما هو حال بقية الفلاسفة الماديين المعاصرين ـ وكان المفترض به تتبع آثار أسباب ظهور الحضارات البشرية منذ بدائياتها لمعرفة كيف تمّ للانسان التعلّم في أول البدء، ومن ذا الذي علّمه وأخذ بيده. لكنه ظن أن تعليم البشر قد بدأ منذ «نزول» آدم من الجنة قبل ست ألف سنة تقريبًا حسب تراثه ومكتسباته الأيمانية، أو لنقل أنه حاول اختصار تعقيدات هذه المسألة العصية بعدما أعياه حلها، فقدم حلًا مؤدلجًا لمجتمع ديني ذا مستوى حضاري بسيط حيث قوبل بالحمية والتعاطف والاستحسان. وبذلك لم يختلف عن علماء الكتب المقدسة في اطروحاتهم أو تبنيهم للتفاسير البشرية.

من المحاولات الأخرى لمعرفة كيفية بداية ظهور العلوم والمخترعات، ما تناوله العالم «بروديل»، حينما نسب علة تأخر ظهور المخترعات والمكتشفات العلمية لأمم الحضارات القديمة، إلى انشغالها بالحروب والفتوحات وبملذات الحياة والرفاهية وعدم توجهها نحو المخترعات والتقنية التي انتبهت لها مجتمعات القرن التاسع عشر والعشرين بعد الميلاد، وكأنه يقول أن عملية الاختراع والإبداع ليست بحاجة إلى تدرج في كميات المعارف والعلوم أو تسلسل تدرج ظهور الاختراعات وتراكمها واعتماد كل عالِم مخترع تالي على منجزات سابقه. فحسب رأيه، كان كل المطلوب من الأمم القديمة مجرد الانتباه لهذا المطلب الجوهري والسعي خلفه، ولو انتبهوا، لبادروا في التصنيع والاختراعات السلمية لرفاهية الانسان منذ زمن بعيد ولاختصروا

زمن البدائية كثيرًا.! (أما المجتمعات القديمة من يونانية ورومانية فلم تدرك منزلة الصناعة إذ انغمست في الاستحواذ على العبيد واستخدامهم في الترفيه والخدمات فلم تزدهر هاتان الحضارتان بل كان مآلهما الاندثار وكذلك الحضارة الفينيقية التي نشأت قبل القرن الثالث عشر بمفاهيم روحية راسخة لولا أنها للأسف لم تدرك خطر التقدم الصناعي التقني وبذلك ظلت مجتمعاتها تعج بجماهير هائلة لا قيمة لها لم تستطع برغم الكم الهائل من روحانياتها تخطي عتبة التصنيع الحديث وتركت لأوروبا تلك الميزة وهذا الشرف وذلك المكسب)[142]. وهذا رأي تتخلله فجوات علمية واضحة أيضًا، حيث لم يعط هذا المفكّر لعملية تراكم العلوم أهمية أو دور يذكر. وبهذا لم يلتفت إلى إلزامية مرور العقل البشري بمراحل «الطفولة والصبينة والمراهقة» التي من علاماتها الفوضى والتخريب والقتال، ثم مرحلة النضوج المرحلي لاستكمال عملية تراكم العلوم. فلو كانت كثرة أعداد النفوس أو الحروب من أسباب التأخر الحضاري، فلقد امتاز القرن العشرين بكثرة أعداد البشر بشكل غير مسبوق وبحروب رهيبة لم يسبق أن خاضتها البشرية من قبل، أو لأصبح عائق الحرب مانعًا أمام تقدم أمم كثيرة دمرت تمامًا أثناء الحروب، لكنها سرعان ما نهضت من جديد لتستعيد توازنها العلمي، مثل اليابان والمانيا وبعض شعوب أوروبا.

ثم يعود ليؤكد على قوله أيضًا:

- (وقد شهدنا في أوروبا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وباء الطاعون الأسود وما أعقبه من مجاعات. جعل المجتمعات التي اجتازت تلك الدورات من الانحسار فعاشت في ظروف أفضل وأيسر مما سبقها بما استأنفت من أسباب الازدهار حيث قلت أعداد السكان وظلت تتمتع به أمدًا غير يسير وكأنما كان ذلك دورة حضارية طبيعية من ازدهار ثم تدهور يعقبه ازدهار)[143]. ما يفند هذا الاستنتاج الواهن ويدحضه أيضًا، هو التوافق الطردي الواضح بين نسبة عدد السكان المهول حاليًا مع ازدياد حالة الازدهار العلمي والاقتصادي العالمي وتدفق الأموال وكثرتها لدى الشعوب والحكومات، فلو كانت كثرة السكان تؤدي إلى التخلف الحضاري، لما تقدمت بعض الدول ذات الكثافة السكانية العالية مثل الهند والصين وغيرها.

لنأخذ مثالًا آخر بطريقة أخرى على ضرورة وجود المعلّم لتعليم الإنسان.. فلو تركنا مجموعة أطفال حال ولادتهم دون تعليم ولا تربية ودون اعتناء من المحيطين بهم، وافترضنا توفر الحليب والماء لهم بشكل ما، فالنتيجة أننا سنحصل على كائنات مسخ أحط درجة من الحيوان في جميع شؤونهم وتصرفاتهم عند كبرهم، لأن سبيل الانسان في البقاء على قيد الحياة، يختلف عن سبيل الحيوان، فالانسان لا يتعلم إلا من خلال التلقين والاكتساب[144]، بينما يمارس الحيوان حياته نتيجة غرائز محدودة القدرات معجونة داخل فطرته منذ فجر التاريخ، وهذه الغرائز توقفت عن الارتقاء عند حدود معينة لم تستطع تجاوزها لعدم امتلاكها قوتي العقل والتفكير[145]. وهذا يفسر بشكل ما، سبب انقراض الكثير من أنواع الحيوانات عندما احتاجت إلى مستوى أعلى من التفكير والإبداع للمحافظة على بقاء نوعها. فمن الأمثلة على امتلاك الحيوان لطبائع الغريزة، أن يكسر الطائر وهو ما يزال داخل البيضة قشرتها دون تعليم خارجي، وينهض الحصان ويركض حال ولادته دون تعليم، وتخرج السلاحف من بيوضها متوجهة إلى المياه لتسبح وتعوم ولم يسبق لها

تعلّم ذلك من قبل، والأمثلة على ذلك كثيرة، فجميع الحيوانات تبدأ حياتها بالرضاعة والحركة والسباحة دون تعليم؛ إلا الانسان، فهو عاجز تماما عن رعاية نفسه إلا بوجود راعٍ ومعلم له، بل حتى عملية الرضاعة لا يتعلمها في أول ولادته إلا بإرشادات والدته وتلقيمه حلمةً ثديها، وكما قالت المؤرخة غيردا:

- (كان ذراعا الأم ورعايتها فحسب تحمي الرضيع من البرد؛ وكان حليب ثدييها فقط يمكن أن يقدّم الغذاء الذي يحتاجه للبقاء. إن لا مبالاتها أو إهمالها كانا يعنيان الموت المحتم)[146].

وبالمناسبة، نتذكر قول العالم «جون كيرتشر»:

- (عندما يولد الإنسان يكون عقله صفحة بيضاء ناصعة لم يدوّن عليها أي شيء بعد). وهذا أمر متفق عليه، لأن المعلومات تأتي إلى العقل من الواقع المادي المحيط به عن طريق حواس الجسد، فطالما كان الوليد البشري حديثًا في عالمه، فهو لا يعلم مسبقًا شيئًا عنه إلا بعد التعامل معه. وعندما يستطرد بالقول:

- (وأنا هنا لا أقول أنّ عقله خال، بل غير قادر على أداء عملية التفكير)[147]. فهنا نجد تناقضًا واضحًا في فكرته، إذ كيف يكون الطفل حديث ولادة، ولا يكون عقله خاليًا تمامًا من المعلومات؟! إذ لا يعقل أن نفترض اكتسابه لبعض العلوم وهو داخل رحم أمه. أما قوله إن عقل الوليد غير قادر على أداء عملية التفكير، فهذا أمر صحيح وطبيعي، لأن عملية التفكير لا تجري إلا بوجود (وقود) أي معلومات أولية للبدء في التفكير، وطالما أن عقل الوليد ما زال صفحة بيضاء وبكرًا في أول ولادته ولم يكتسب من المعارف المحيطة به شيئًا بعد، فبالضرورة يكون عاجزًا على التفكير إلا بعدما تنقل له حواسه ما تستشعره من واقعه المادي والاجتماعي؛ عندها يبدأ بالربط والتفكير.

لو شبهنا البشرية بتلاميذ مدارس، فسنجدهم بحاجة ضرورية إلى المعلم لينجحوا ويتجاوزوا مراحلهم الدراسية؛ وبدون ذلك، لن يتمكنوا من الانتقال لمستويات ذهنية ومعرفية أعلى مما هم عليه مهما أعادوا قراءة منهجهم الدراسي المقرر كرات ومرات، وذلك بسبب محدودية مستوى ما بين أيديهم من منهج تعليمي. يشهد على ذلك الفيلسوف إرنست رينان (1823 - 1892)، بقوله:

- (لا يهذب الإنسان نفسه، ولا ينال الطلاب قسطا من التربية اذا ما جلسوا مع بعضهم بدون معلم يلعبون ويضيعون وقتهم، كذلك لا يمكن أن ينبثق عن الجمهور تعقل كاف لحكم الشعب واصلاحه)[148]. وهكذا هو الحال مع العقل البشري عموما، فنتيجة علاقته بمجتمعه وبما يحيطه منذ أول وجوده، وبعدما مرّ به من مراحل بدائية عديدة وتوقفه في نهاية كل مرحلة عاجزًا عن تخطيها إلى مستوى أعلى منها، وحينما لم تنجده وتغنيه محاولات حث عقله الذاتي ومجهوداته الفردية بأفكار ابداعية خلال تلك الفترات الانتقالية المفصلية، كان لابد من تدخل «المعلم»، ومدّ يدّ العون لاستمرار تقدمه. ينقل عن الفيلسوف كانط رأيه:

- (لذلك فرّق كانط بين الأشياء في ذاتها والأشياء في ظاهرها، وبيّن أن العقل غير قادر على إدراك الأولى لأنه محكوم بالتجربة ومحدود بحدودها، ولا يستطيع بحث موضوع يتعالى تماما على التجربة. ثم حتى في موضوعات الإدراك الحسي يتحدد عمل الذهن بالمقولات والصور، فهذه

كما أنها تسمح بتوحيد الظواهر ثم تعقلها، بحيث لا يمكن إدراك العالم بدونها... فإنها ـ من جهة أخرى ـ تفرض على الإنسان أن يرى التجارب على نحو محدد ومعين... فهي قوالب وأطر تدفع المعرفة في اتجاهات مرسومة سلفا... بحيث لو فرضنا أنها تغيرت لتغيّر معها إحساسنا بالوجود) [149]. دليل ذلك ما حصل قديمًا من رحلات علماء مختلف الأمم والشعوب إلى مدن العلم الشهيرة مثل بغداد والقاهرة لغرض التعلّم وكسب المعرفة، وما كان من أمر رحلات فلاسفة اليونان والرومان والإغريق إلى مناطق الشرق الأوسط لذات الغاية. كما أكد على ذلك الأستاذ الياس بلكا حينما قال:

- (العقل يدخل في عالم من الظلمات بمجرد أن يتجاوز حدود ما هو تجريبي أو قابل للتجربة) [150] فيا ترى، من ذا الذي كان يأخذ بيد البشرية عمومًا في قديم العصور البدائية وينقلهم لمراحل لاحقة أكثر رقيًا؟! ومن ذا الذي كان أكثر علمًا ومعرفة من غيره ليتولى هذه المهمة المفصلية؟ لا شك أنه المعلم المميز.

إن الأمر أكبر من مجرد تجربة أو محاولة تكرار، وأكبر من عملية تأمل أو تفكير، كما أنه بعيد عن تدخل عامل المصادفة. فإذا دققنا النظر واكتشفنا صواب فرضية (عدم إمكانية تعلّم الانسان إلا بمعلم)، سنصل لطريق واحد لا ثاني له؛ فحسب تسلسل التاريخ التراجعي، يكون المعلم الأول هو ذلك الإنسان «المُميز» المتصل بالقوى الغيبية العليا من الآلهة والشامان والمتنبئين، فهم الذين ساعدوا على تعليم البشر وكشفوا لهم بالتدريج العلوم المستورة بنقلها إلى عالم الشهود وكيفية التعامل معها وتطويرها، وهذا ما بقيت تخبرنا به الأساطير وكتب الأديان على مر التاريخ القديم.

الهنود الحمر في أمريكا الشمالية وهم يستعملون الخيل للنقل بدون عربة حتى وقت قريب

ومن نافلة القول، أن فكرة اختراع «حجر الرحى»، قد تبدو لبعض القراء فكرة بسيطة في أول وهلتها، لكنها تعتبر من أمهات الإختراعات العظيمة الأولى حينما ظهرت من عالم الغيب إلى حيز الشهود، ولقد دخل هذا الاختراع بالتدريج إلى كل بيت وقرية واقتنته ربات البيوت ليساعدهن في طحن الحبوب والبذور وتهيئة الطعام مثلما هو حال الأجهزة الاوتوماتيكية في هذا اليوم. لقد كان من الصعوبة أن يفكر إنسان باختراعه من خلال قوى إدراكاته الذاتية وهو على حالته البدائية الجاهلة، فهو يفتقر للمعارف الأولية من مبادئ الفيزياء، ولا يعرف شيئًا عن أسباب الظواهر الميكانيكية، ولا بد أن اختراع حجر الرحى قد خضع لذات قانون الاستحالة، باعتباره اختراعًا أوليًا أصيلًا، بل ومفصليًا في تاريخ الحضارات البشرية، حيث يعجز عقل الانسان عن تصوّره دون وجود من يوحي له بمثل هذه الفكرة، لأنه لا بد من سابقة علمية أو معرفية لإكتسابها والهدي بهداها. ولولا اختراع الرحى ومتعلقاته الأولية، لما أمكن التفكير لاحقًا باختراع العجلة الدوارة ومن ثم اختراع العربة ومن بعدها السيارة والقطار. فكيف خطرت فكرته على العقل البشري البدائي وهو لم ير من قبل آلـة بهذا الشكل؟!

ومرة أخرى، قد يعترض البعض وينسب ذلك إلى تكرار التجربة أو إلى مقولة الحاجة أم الإختراع[151]. لكن كل هذه المعاذير والآراء يمكن تفنيدها بسهولة حينما نرى بقاء أمة الهنود الحمر وقبائل استراليا وغيرهم من الأمم البدائية حتى وقت قريب يسحبون حاجاتهم وينقلونها على

عمودين أو وتدين خشبيين بعد شدّهما إلى ظهر حصان تجمعهما قطعة جلدية كبيرة. فلو كان بالإمكان اختراع الرحى والعجلة من بنات أفكار العقل المجرد، لأخترعتها تلك القبائل واستعملتها بدلا من ربط وتدين إلى ظهر حصان، لأن المفروض بعقل الانسان ودماغه وأعضاء جسده، أن تتماثل قواها المعنوية والجسدية عند جميع الشعوب في مختلف أنحاء الأرض، وما سبق وابتدعه أو اخترعه إنسان مناطق الحضارات قديمًا، فبالضرورة يتمكن من اختراعه إنسان المناطق المنعزلة بأوقات متقاربة نسبيًا.

ولنأتي على تنور الطين أو (الموقد الحجري)، وهو اختراع قديم آخر، فرغم بساطة منظره وفكرته، إلا أنه يبدو من العجيب تصوّر قدرة عقلية ذلك البدائي لاستنباط فكرة عمليته المعقدة المتسلسلة، من زرعه للحبوب والبذور وجمعها وطحنها وعجنها ـ بعد اكتشاف النار ـ وامتلاك الجرأة لمد يده داخل لهب النار ـ وهو الذي كان يبتعد عنها ويخشاها أشد الخشية ـ ليلصق عجينة الخبز بجدار التنور الداخلي كي يحصل على خبز طازج يأكله. مثل هذا الاختراع المركب، هو عبارة عن سلسلة متعددة المراحل من المخترعات الرائعة، فلا يمكن الظن أن تخطر فكرته على عقل بدائي بمثل هذه البساطة بمجرد محاولات التجربة او المصادفة، لولا وجود معلّم أعلى مرتبة في قدراته العقلية ساعده على تسلسل اختراع وترتيب مراحله المتعددة.

تنور الخبز

وقد يظن البعض، ان مثل هذه الأمور بسيطة لا ترقى تسميتها إلى إبداعات ومخترعات، لكن علماء الحضارات والاجتماع والأنثروبولوجيا يعتبرونها من أعظم اختراعات البشرية على الإطلاق، وما ذلك إلا بسبب عدم استنادها على علوم أولية مسبقة مهدت لاختراعها، بينما اعتمد كل ما اخترع لاحقًا ـ رغم كثرتها وتعقيداتها ـ على ما توفر من علوم وشوهد وسمع من صور ومعلومات وأجهزة، تناول مخترعوها مبادئ علومها المتسلسلة في مراحل زمنية سابقة، ليخرجوها من حيز الغيب إلى عالم الشهود مستندين على خزين قراءاتهم وإبداعات أذهانهم. وكم هي أعداد البشر الذين دخلوا أحواض السباحة للاستحمام في قديم الزمان؟ ومع ذلك، لم ينتبه أحدهم لقانون الطفو والإزاحة ووزن المادة وكتلتها وحجمها، إلا رجل واحد بعد آلاف السنين، هو «أرخميدس»[152]؛ وبالتحقق من شخصيته، نجد أن والده كان عالمًا فلكيًا كبيرًا، وهذا يعني أن لأرخميدس صلة مسبقة بالعلوم والمعارف منذ نعومة أظفاره، ومن الوارد جدًا أن تكون لَبَنات هذه المكتسبات المعرفية الأولى، وما قرأه من بحوث علماء سابقين، هي ما أَسَسَّ عليها أبنية مكاسبه العلمية، لذلك فهو عالم واسع الاطلاع والمعرفة بعلوم الفيزياء والرياضيات والفلك وغيرها، ولولا سعة علومه ومعارفه واستناده عليها، لاستحال عليه التوصل لاكتشاف هذا القانون.

أما العالم الفيزيائي الشهير اسحق نيوتن، فمن أقواله التي يعترف فيها بأهمية فكرة تراكم العلوم وأنها السبب الرئيس لما توصل اليه شخصيًا من اكتشافات واختراعات، قوله:

- (إن توصلت لشيء، فذلك لأني أقف على أكتاف العمالقة). ونقرأ أيضا عن أيام طفوله وشبابه أنه كان (يتوجه من فوره إلى غرفته القديمة فوق الصيدلية، فيمضي سحابة النهار في قراءة الكتب التي خزنها هناك شقيق الملك السابق، وهو أستاذ مساعد في مدرسة كنغ، أو أن يكتفي بالانتحاء

إلى موضع مريح تحت سياج الطريق حيث يقرأ)[153]. وجاء عن تراكمات علومه ودراساته الواسعة أيضا:

- (درس نيوتن في جامعة كامبردج وعاش فيها لأكثر من أربعين سنة، حاصلًا على معونة مالية منها. درس الآداب والفنون اليونانية والرومانية أي في فلسفة أفلاطون وأرسطو، والبلاغة والمنطق والأخلاق والتاريخ وما شابه ذلك. وكان عليه أن يحضر المحاضرات)[154].

إن ضرورة المعرفة المسبقة وعملية تراكم كميات العلوم، لهي حاجة أساسية وجوهرية في سبيل الإختراع والإبتكار، ولنتذكر أيضًا مخترع آلة الطباعة الألماني «يوهان جوتنبرغ»، وهو بدوره كان رجلًا متعلمًا وحرفيًا ماهرًا عمل في بدء حياته في صياغة المعادن الثمينة، وورث المهنة عن والده، فاستطاع التدرج بفكرة الحفر والنقش على المعادن لينقش عليها لأول مرة أحرف الكتابة ويجسّمها ثم يطوّرها، بعدما انتبه إلى التصاق صور نتوءات الحروف على باطن أصابعه وراحة يده، وبذلك أوجد آلة الطبع بشكلها البدائي لأول مرة.

إذن.. لولا اعتماد جوتنبرغ أيضًا على علوم مسبقة سمعها أو شاهدها ثم فكر بها وتأملها، لما قدحت شرارة فكرة ماكنة الطباعة في ذهنه، وهذا ما ألمّح اليه الأستاذ جبرا، حينما ربط بين فنون ومهن وحِرَف فلاسفة الإغريق وبين إبداعاتهم:

- (لو تأملتم لرأيتم أن الذين يدعوهم الإغريق بالحكماء السبعة كانوا كلهم تقريبًا أناسًا اشتغلوا في الحياة العامة)[155].

ومن المناسب أن نذكر هنا أن أصل اختراع فكرة الطباعة كان في أرض العراق في زمن الأكاديين والبابليين عندما اخترع الفنان الرافدي القديم الختم الاسطواني من الطين المفخور واستعمله كأختام حكومية وشخصية[156]. وهذا يعود بنا إلى فكرتنا الجوهرية حيث لا بد من توفر المعلم بالدرجة الأولى ومن ثم توفر مواد أولية أو معلومات أو أفكار أو مخترعات مسبقة تشجع على إنبثاق فكرة جديدة تؤدي إلى اختراع جديد. ورغم وجود الختم الاسطواني منذ آلاف السنين، إلا أن طباعة الكتب والصحف والمجلات تأخرت آلاف السنين، وما سبب هذا التأخير إلا عدم توفر مجموعة من المهن والمخترعات الأخرى، مثل صهر المعادن وصبّها بأشكال هندسية دقيقة، وعدم توفر مسلتزمات الطباعة مثل الأحبار والأوراق وماكنات الطباعة والرقائق المعدنية (الكليشهات) والأفلام الحساسة للضوء وآلات التصوير وغيرها الكثير خلال تلك الأزمنة القديمة؛ لذلك لم تنبثق فكرة الطباعة الميكانيكية والأوفست، إلا بعدما توفرت كل هذه المخترعات وتطورت بالتدريج وبنفس طريقة تراكم العلوم.

ومن المناسب ذكر شيء عن تدرج العالم الانثروبولوجي «سير جيمس فريزر»، مؤلف كتاب الغصن الذهبي الشهير في كيفية تعلمه واكتساب علومه ومعارفه. حيث ذكر العالم (تشارلز داروين) في كتابه أصل الأنواع مقدار المساعدات والتسهيلات التي نالها فريزر. فلقد تولى رعايته وتعليمه وتدريسه ثلاثة من كبار العلماء آنذاك، وأولهم:

- (جورج جيلبرت رامساي، ويعترف فريزر بأنه يدين له في توجيه تفكيره لعدة سنوات نحو الكتابات الكلاسيكية القديمة. والعالم الثاني هو جون فايتش، أستاذ المنطق والميتافيزيقا. أما العالم الثالث فهو الأستاذ لورد كلفن، عالم الفيزياء الذي تأثر به منذ عهد تلمذته الأولى بجامعة جلاسجو، ثم أضاف إلى هذا كله في مرحلة تالية، اهتمامه بالدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية التي يدين بالفضل فيها إلى اتصاله بـ «روبرتسون سميث»، حين التحق بجامعة كمبردج، كما ساعده للمضي في هذا الطريق اتصاله في الوقت ذاته بكتابات العالم البريطاني أدوارد بيرنت تايلور، الذي يلقب عادة «أبي الأنثروبولوجيا البريطانية». إن طبيعة الحياة التي عاشها فريزر في كمبردج والظروف التي أحاطت به والتسهيلات التي قدمتها له هذه الجامعة تعتبر كلها مسؤولة بشكل رئيسي إلى حد كبير عن الإنجازات الهائلة التي حققها في مجال الدراسات الأنثروبولوجية النظرية وبخاصة في مجال الدين والفولكلور. والواقع أن فريزر كان قد حصل على الشيء الكثير منذ صباه قبل أن يلتحق بجامعة جلاسجو ذاتها. فقد وجد في بيته مكتبة زاخرة بشتى الكتب ومختلف فروع المعرفة لا في الدين وحده. فأبوه دانييل فريزر كان يملك متجرًا للعقاقير والكيماويات في جلاسكو ولكنه كان رجلا واسع الاطلاع محبًا للقراءة، وكانت لديه مكتبة خاصة ممتازة وبخاصة في الأدب الانجليزي. غير أن كل هذا لا يقاس إطلاقًا بما وجده في جامعة كمبردج التي قدمت له كثيرًا من المنح الدراسية لكي ينقطع في مكتبتها للقراءة والاطلاع، ثم منحته آخر الأمر منحة مدى الحياة)[157].

ولكي لا نذهب بعيدًا، ففي هذا اليوم لا نجد مكتشِفًا أو مخترِعًا نابهًا، إلا واستعان بعدد من المعلمين والمدرسين وبكتب الإختصاص وبكثرة القراءة والدراسة وبما يتوفر من العلوم والمعارف والبحوث في ايجاد اختراعه أو كتابة مؤلفاته، بل وحتى في مجال الشعر وكتابة القصص والمسرحيات. ولنأخذ على ذلك مثلًا:

- تشارلز داروين، مؤسس نظرية التطور وكتابه الشهير «أصل الأنواع» الذي أصدره (بعد ما يزيد على عشرين عاما من الدراسة)[158]. فلقد كان جدّه إراسموس داروين (1731 - 1802م)، قد درس في جامعة أدنبرة وكان عالم أحيائي وطبيب وعالم نبات وكاتب وفيزيائي وفيلسوف ومخترع وشاعر. أما والده (فكان طبيبا معروفا وكانت والدته من أسرة غنية... واتخذ والده قرارا بأن يصبح ابنه من رجال الدين، فأرسله إلى كامبريدج، للحصول على المؤهل اللازم. أدى تشارلز واجبه نحو والده واندمج في الدراسة بغير حماس واجتاز الامتحانات اللازمة وحصل على المؤهل. تعرف داروين في أثناء دراسته بكامبريدج على العديد من علماء النبات والحيوان، وقرأ الكثير من الكتب في هذه المواضيع. وجاءت لداروين فرصة العمر، فقد تقدم للانضمام كباحث بدون مرتب إلى طاقم سفينة الأبحاث «بيجل» وقبُل طلبه. في الجزء الأول من الرحلة قرأ كتابا لعالم الجيولوجيا الشهير «سير شارلز لايل»)[159].

ولننتخب مجموعة من أسماء علماء وفلاسفة وحكماء ومفكرين ـ لا على التعيين ـ من الذين تعلموا على معلمين، حيث نلاحظهم جميعًا دون استثناء، قد سبق وقرأوا وتتلمذوا على يد آخرين أو كانوا أولاد علماء أو واتتهم الفرص المناسبة للحصول على مساعدات مالية أو منح دراسية، إن كانت

من شخصيات كريمة محبة للعلم أو من جامعات علمية أو جهات حكومية، فلا يوجد على الأرض متعلّم قط ـ لا من قبل ولا من بعد ـ إلا ودرس أو كان هناك من علّمه. منهم:

- چوهان وولفجانج جوته «Goethe, jahann wolfgang»، المفكر الألماني الشهير، فقد ولد في فرانكفورت في 28 أغسطس 1749، وكان صبيا نابها تلقى العلم عن والده الذي كان محاميا وعن مدرسين آخرين[160].

و(هيربرت سينسر «Spencer Herbert»، عالم انجليزي، ولد في دربي في 27 أبريل 1820، وكان والده ناظرا لمدرسة ومهتما بشكل كبير بعلم الحشرات..)[161].

ولنتذكر العالم الشهير ألبرت انشتاين (1879 - 1955م)، ولد في ألمانيا وأكمل دراسته في سويسرا ودرس في معاهدها[162].

والفيلسوف الألماني مانويل كانط (1724 ـ 1804)، كان دائم التواجد في مكتبة الجامعة الملحقة بالكاتدرائية اللوثرية و(كثيرًا ما كان كانط يؤمها للدراسة، وخدم فيها كأمين مكتبة لفترة من الزمن. وكان الراعي الروحي لعائلة كانط، فرانز آلبرت شولز، هو أيضًا رئيس كلية فريدريك المؤسسة حديثًا، وعندما لاحظ على هذا الابن الثاني لعائلة كانط المتواضعة أمارات الذكاء والعبقرية، أتاح له فرصة نادرة للتعلم لم تكن تعطى بالتأكيد لأطفال من مستوى الطبقة الاجتماعية لوالديه. وفي الكلية الفريدريكية، تعلم كانط اللاتينية، وتعلم أيضًا ما يكفي لالتحاقه بالجامعة وهو في السادسة عشر من عمره)[163].

ولوي باستور (1822 ـ 1895م)، عالم الكيمياء والحياة، درس العلوم في باريس، وحصل على الدكتوراه سنة 1847[164].

ونأتي على كارل ماركس (1818 ـ 1883م) الذي درس في جامعة بون ثم في جامعة برلين، ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فينا، وأمضى معظم الوقت يدرس ويكتب[165].

وجاليليو جاليلي الشهير (1564 ـ 1642)، الفيلسوف وعالم الفلك والفيزياء، ولد في ايطاليا في مدينة بيزا، ودرس في جامعاتها[166].

أما أنطوان لورين لافوازييه، فكان والده محاميًا وأمه إبنة محامي. حصل على أفضل تعليم ابتدائي متاح، ولما حان وقت اختياره للتخصص، بدأ بدراسة القانون. لكنه تحت تأثير صديق الأسرة الجيولوجي «جيوتارد» على الأرجح، التحق بدراسة الكيمياء في الحديقة الملكية، حيث كان الأستاذ «بورديلان» هو المحاضر الأساسي[167].

أما عن الفيلسوف العظيم أفلاطون (427 ـ 347ق.م.)، فنقرأ:

- (ودخل افلاطون إلى هذه الرياضة «الفلسفة» التي كانت أشد خشونة من المصارعة. وراح تحت رعاية سقراط وارشاده ينتقل من مجرد النقاش إلى تحليلات دقيقة ومحادثات مثمرة، وأصبح مشغوفًا بالحكمة وبمعلمه سقراط، واعتاد أن يقول أشكر الله الذي خلقني يونانيًا لا بربريًا، حرًا لا

عبدًا، رجلًا لا امرأة، ولكن فوق الجميع أنني ولدت في عصر سقراط... سافر في عام «499 ق.م.» والواقع اننا لا نستطيع أن نقول أين ذهب في رحلته، ويبدو أنه قد سافر أولًا إلى مصر وتأثر عندما سمع من طبقة الكهنة التي كانت تحكم مصر يومئذ أن اليونان دولة وضيعة تنقصها التقاليد الثابتة والحضارة العميقة، وكان فلاسفة النيل في ذلك العهد لا يعيرون اليونان أهمية بالغة أو اهتمامًا جديًا... إن ذكريات هذه الفئة المثقفة المستنيرة التي كانت تحكم شعبًا زراعيًا ساكنًا بقيت حيّة في تفكير أفلاطون، ولعبت دورًا في كتابته عن الدولة الفاضلة المثالية. ثم أبحر إلى صقلية وايطاليا، وهناك التحق لفترة من الزمن في المدرسة أو المذهب الذي أنشأه فيثاغورس... لقد تجول اثنتي عشر سنة مرتشفًا الحكمة من كل نبع ومنهل، وجالسًا في كل كعبة ومزار، متذوقًا كل شريعة وقانون. وقد ذكر البعض أنه ذهب إلى فلسطين وانعجن فترة من الوقت في طينة الأنبياء الذي كان معظمهم من الاشتراكيين، وإنه شق طريقه إلى ضفاف الغانج وتعلم التفكير والتأمل من الهندوس)[168].

والفيلسوف الإغريقي أرسطو العظيم (384 - 322 ق.م.)، كان أبوه طبيبًا شهيرًا. ذهب في السابعة عشر من عمره إلى أثينا ليتتلمذ على الفيلسوف العظيم أفلاطون. ولعل أرسطو قد تعلم الملاحظة والبحث من والده. وتعلم التأمل والتفكير الفلسفي من أستاذه أفلاطون[169]. كان موقف أرسطو غائيا ـ أي أنه كان يؤمن بأن العالم محكوم بغرض معين ـ وكان يفسر الظواهر في ضوء الكيفية التي تحتل بهذا هذه الظواهر مكانها ضمن خطة عامة. كان هذا المنطق الديني متناغمًا مع اللاهوت العبري، ثم من بعد ذلك الفكر المسيحي والفكر الإسلامي[170].

أما فيثاغورس فقد ولد على جزيرة في بحر إيجه، تمرس في تعاليم الفلاسفة الأيونيين واطلّع على الرياضيات البابلية والمصرية خلال رحلاته. وقد دفعه هذا المزيج من المؤثرات إلى جماعة سرية نذرت نفسها للتفكير الرياضي والتأمل الديني[171].

ونأتي على الراهب الألماني مارتن لوثر (1483 - 1546م)، مؤسس مذهب البروتستانتية، درس في جامعة وبتشجيع من والده درس القانون، ثم حصل على الدكتوراه في اللاهوت أي في الشريعة المسيحية من جامعة فيتنبرج ثم عمل مدرسًا لها[172].

ونيكولاس كوبرنيكوس (1473 - 1543م)، فلكي بولندي شهير، درس في جامعة خاركوف، ذهب إلى ايطاليا وتخصص في دراسة الطب والقانون في جامعتي بولونيا وبادوا، حصل على دكتوراه في التشريع من جامعة فرارا، أمضى وقتًا طويلا في هيئة تدريس كاتدرائية فروانبرج. درس أعمال الفيلسوف الإغريقي أرستارخوس ووجده يقول بأن الأرض وبقية الكواكب تدور حول الشمس. بمعنى أنه اقتبس فكرة مركزية الشمس من عالم آخر سبقه بثلاثة عشر قرنا[173].

وننحو إلى جيمس وات (1736 - 1819م)، مخترع الآلة البخارية، فقد تلقى تدريبه عند صانع للأدوات، وكانت له صداقة قوية مع الفيزيائي جوزيف بلاك، واعتمد في تطوير اختراعه على ما اكتسبه من علوم سابقيه، مثل توماس ساندي ومخترع انجليزي اسمه توماس نيوكر[174].

ونمرُّ على الفيلسوف ابن رشد:

- (فهو الفيلسوف الوحيد في أسرة من الفقهاء والقضاة، كان أبوه قاضيًا، وكان جده قاضي القضاة بالأندلس. نشأ بقرطبة وتعلّم الفقه والرياضة والطب)[175].

والفيلسوف ماركوس «شيشرون»، ولد عام 106 ق.م. قضى المرحلة الأولى من حياته في مدارس روما، ثم رحل في طلب العلم خارج وطنه، جريًا على سنة أبناء أرقى الطبقات في روما، وأصاب حظًا وافرًا من ثقافة اليونان والرومان معا، وحذق اليونانية. كان كلفا بالعلم والفلسفة، فلما بلغ السادسة عشرة من عمره، قدمه والده إلى «سكايفولا» أحد المشتغلين بفن العيافة ليتلقى على يده القانون الروماني، ويفيد من ثقافته الغزيرة وولع بدراسة الفلسفة منذ صغره، فتلقاها على يد أساتذة من الأبيقوريين والرواقيين وأتباع الأكاديمية الجديدة.. فإذا قذفت به تيارات السياسة بعيدا عن محيطها، ألقى بنفسه في أحضان الكتب والتمس منها السلوى والعزاء[176].

وقبل أن نختم الكلام، نتذكر الفيلسوف أبيقورس، فرغم أنه أنكر تعلّمه عن غيره:

- (كان تلميذًا ثائرًا يدعي في إحدى رسائله إلى أوريلوك أنه لم يكن له أي معلم، على الرغم مما يدين به لديمقرطس)[177]. إلا أن المشهور عنه (كان والده يمارس مهنة التدريس)[178]. وهذا يفند إدعائه.

لنتوقف برهة عند هذا الإدعاء غير المنطقي ونقدّر مدى تأثيره على سمعة فيلسوف مثله، ولنتصوّر مقدار حجم ما ألحقه من تأثير سلبي على عقول كل من استوثق كلامه، فكم من نفس موهوبة وعقلية لمّاحة داخلها الشك والريبة في قدراتها الذاتية وأحجمت عن تقديم أي مشاركة أو مساهمة أو مخترع تستفيد منه البشرية حينما تأثر بفكرة أبيقورس وظن أن العبقرية والذكاء هي مَلَكةَ نادرة وهبة ذاتية يختص بها بضعة أفراد لا غيرهم لا يمكن اقتباسها بالتعليم؟

وهذا فرنسيس بيكون (أعظم عقل في العصور الحديثة)[179]، والده السيد نيقولاس بيكون، الذي كان في العشرين سنة الأولى من حكم الملكة اليزابيث حارسًا للختم الملكي الأعظم... وكانت أمه السيدة آن كوكي عديلة السير وليام سيسل لورد بورغلي أمين خزينة الملكة اليزابيث، وكان من أعظم الرجال سلطة وقوة في انكلترا. كان والدها المعلم الأول للملك وارد السادس. وكانت هي نفسها عالمة بلغات كثيرة ومعلمة لاهوت. وجعلت من نفسها معلمة لابنها، ولم توفر وقتًا في تعليمه وتثقيفه. ولكن عصر الملكة اليزابيث كان المربي الحقيقي والمعلم الرئيسي لعظمة بيكون. أرسل بيكون عندما بلغ الثانية عشرة من عمره إلى كلية الثالوث في جامعة كمبردج حيث بقي فيها ثلاث سنوات، وعلى الرغم من كونه يافعًا في السادسة عشرة من عمره، فقد عرض عليه وظيفة مع السفير الانكليزي في باريس[180].

من خلال الأمثلة والأدلة التاريخية والمقاييس العقلية السابقة، يتضح أن مبادئ العلوم المكتسبة، هي الأساس فيما ظهر من مخترعات وعلوم قديمًا وحديثًا، ولو تعمقنا وتدرجنا في ماضي الزمان، لوصلنا إلى تلك المرحلة التاريخية الخالية من العلوم والمعارف تمامًا، حيث الجهل المطبق لانسان

الغابات والصحارى والسهوب. فمن علّم هؤلاء آنذاك وهم لم يشاهدوا ولم يسمعوا ما يدلهم على أي معلومة علمية أو خطوة حضارية، إلا أن يكون إنسانًا مميزًا.!

من هذا، يمكن القول إن الانسان في أي مرحلة من مراحل وجوده على الأرض، كان عاجز تمامًا عن اختراع أو اكتشاف شيء جديد إلا بعد الحصول على معونة أو استعانة من شخص أذكى أو أعلى مرتبة منه في درجته العلمية أو المعرفية، فجميع الاختراعات والاكتشافات، كان سببها التعلّم المسبق مما توفّر من كميات العلوم والمعارف والصنائع داخل المجتمعات، وهذا يعيدنا بالتدريج - مرة بعد أخرى - إلى المعلم الأول في نهاية حلقات سلسلة تعلّم الانسان. فالعقل والمنطق يقولان باستحالة إبداع أي نظرية علمية أو إيجاد أي إختراع أو ابتكار، إلا إذا استند مسبقًا على مقادير كافية من كميات العلوم، لأن الجهلاء والعامة من البشر لا يبدعون ولا يخترعون، ولو كان ذلك ممكنًا، لكان أول من توصل لاكتشاف قانون الجاذبية أو دوران الأرض حول الشمس، جماعات البدو الرحّل أو رعاة الماشية أو الفلاحين والزراع والحطابين أو البحارة وصيادي الأسماك في قديم الزمان، لأنهم كانوا دائمي النظر منذ ملايين السنين إلى عملية سقوط الفواكه من أشجارها وطلوع الشمس وغروبها؛ ولاكتشف كثير من عامة البشر قانون الطفو واخترعوا علم الفلك والتنجيم ورتبوا التقاويم السنوية والأزياج الفلكية.

أما الرد على كيفية تفسير ما نجده اليوم من مخترعات واكتشافات ونظريات لا حصر لها، والقول إن مخترعوها أوجدوها من العدم وأظهروها من بنات أفكارهم المجردة ولم يكن ذلك نتيجة تراكم كميات العلوم لأنه لم يكن لها مثيل من قبل؟ فالجواب:

- إن مثل هذا الرأي والتصوّر لا يرقى عن مجرد وهمٌ تام، إذ أن هؤلاء المخترعون قد اعتمدوا بالتأكيد على دراسة ما توفر من علوم وأبحاث خضعت لذات المقاييس والقوانين الشرطية السابقة، فما من جهاز أو اختراع أو فكرة ابداعية، إلا وسبقتها قراءات وبحوث وعمليات مراقبة وتفحص وتجارب في مجالات العلوم المتعلقة بذات الشأن، فكانت هي السبب المباشر في تراكم كميات المعارف المتخصصة في عقول المكتشفين او المخترعين المعاصرين مهدت لهم سبل الاختراع. فلا يوجد مُخترع على وجه الأرض بين جميع الأمم وفي جميع الأزمان والعهود، إلا وسبق أن قرأ ودرس في ذات إختصاصه.

نعود للمفكر جون كيرتشر حينما قدم مجموعة أمثلة جميلة تؤيد فكرة هذا البحث في عجز العقل البشري على الإبداع والاختراع إلا بمساعدة معلّم، قال:

- (إذا لم يدخل المعدة أي طعام، لا يمكن أن تكون هناك عملية هضم. وإذا لم تدخل الدماغ أيّة مستقبلات حسية، فلا يمكن أن يكون هناك فكر... لا توجد صور فكرية في الدماغ إلا تلك التي يوجد لها مقابل في مكان ما من العالم الخارجي. بمعنى آخر، كافة الأفكار، مهما كانت معقدة أو غامضة، لها مصادر مادية خارجية، ويجب أن تكون مادية في أصلها. لا يمكن أن ينبثق الفكر من أي شيء إلا المادي. ولا يمكن أن ينبثق من لا شيء... إذا رأيت كابوسًا وكنت تحلم بفيلة ذات أجنحة خضراء، أو أيّة خيالات وأحلام من أي نوع كانت، ومهما كانت خيالية، فيمكنك أن ترجع جميع هذه الصور الفكرية المركبة إلى مصادرها المادية. في الحقيقة، من المستحيل التفكير في أي شيء ليس له مصدر مادي. لم يكن هناك أي فكر في عقل الإنسان سوى ذلك الذي يمكن إرجاع

أصله إلى الطبيعة ذاتها. لا يمكننا التفكير بلا شيء. حاولوا ذلك وانظروا بأنفسكم إلى أي مدى ستبلغون. فالشيء الذي لا يدخل إلى العقل لا يمكن استحضاره منه. فإذا أردنا أن نمتلك معرفة حول موضوع معيّن علينا أن نعود إلى مصادره المادية ورصده بحواسنا، أو علينا الرجوع إلى الكتب أو وسائل أخرى لتحصيل تلك المعرفة التي عمل آخرون قبلنا على تحصيلها ومراكمتها باستخدامهم لحواسّهم وتسجيلها في الكتب. ينبغي أن يتّضح أمام ناظريّ كل إنسان يمتلك ذرّة ذكاء أو عدم تحيّز، أنّ البيئة المادية هي أساس ومصدر جميع الأفكار)[181].

نعم إن جميع الاكتشافات والاختراعات على مرّ التاريخ، وجدت بسبب تراكم معلومات من سبقهم ومن خلال تحصيل وتجارب القدماء العلمية، وكما قال الطبيب الإغريقي سكستوس الذي عاش في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد:

- (لا يوجد شيء يمكن تعليمه أو تعلمه، وأنه لا يمكن لنا أن نتعلم شيئًا إلا ما سبق أن عرفناه)[182] وكما ذكر الفيلسوف أفلاطون نقلا عن لسان أستاذه سقراط بخصوص الاستناد على تراكم المعرفة السابقة حينما أشار:

- (إن هناك مذهب قديم يقول..)[183] فهذه العبارة تشير إلى سابق المعارف. وكذلك حين تأكيده على عملية الاقتباس من الأقدمين حينما قال:

- (وتلك الفكرة كانت سائدة في الفلسفة الطبيعية قبل سقراط)[184]. فعندما ينقل سقراط علومًا عن سابقيه من الفلاسفة، يمكننا تصور قدم علوم الأولين أولًا، وثانيًا، نعلم إن المعارف لم تبدأ منذ عهد قريب زامن عصر الإغريق او اليونان، بل سبقتهم حضارات علمية كثيرة لا بد أنهم استمدوا بعض معارفهم منها. وإذا تعمقنا أكثر، لوجدنا أن بعض المؤرخين ينسب للحضارة السومرية ـ وهي من أقدم حضارات البشر ـ اقتباسها علومًا وفنونًا ممن سبق لهم الاستقرار في أرض الرافدين. فلقد جاء عن الدكتور هاري ساكز:

- (من الطين بنى السومريون حضارتهم، وعلى الطين بشكل رُقم كتبوا فاستطعنا أن نرى الماضي إلى بداية 5000 سنة تقريبًا التي تفصلنا عن الاستيطان السومري الأصلي. لم يكن جنوب العراق خاليًا حين وصل السومريون. فقد وجدت قرى مزدهرة، أصبح بعضها أساس مدن سومرية لاحقة. ويبين علم الآثار إن القادمين الجدد تبنوا كثيرًا من تقنيات بناء الشعب الموجود قبلهم وزراعتهم وريهم، ولو أنهم ادخلوا أو ابتكروا وسائل وتقنيات لم تكن موجودة سابقا في البلاد)[185].

وللأستاذ «طه باقر» رأي موافق لما ورد عن ضرورة استناد تدرج العلوم وتنامي المعارف على أسس علمية مسبقة وخبرات قديمة ناجحة لاستمرار توالي تناقل علوم الأمم وسبل تطويرها ورفعتها أثناء مجمل عمر الانسان، حينما قال:

- (ومع هذا القدم الواغل، فإن السومريين لم يتصوروا أنفسهم محدثي عهد في المدنيّة والحضارة، بل كانوا ينظرون إلى أنفسهم بصفتهم ورثاء ماض بعيد مجيد)[186].

إن الغاية من هذا الفصل، هي التوغل في أعماق مجاهل التاريخ للوصول إلى بدايات نهضة الذهن البشري وظهور الوعي والإدراك عند البشر قبل ملايين السنين، وتصحيح مفاهيم الفرضيات الوهمية المطلية بصبغة العلم. فما سقناه من أمثلة، وهناك الكثير غيرها ـ يمكن للقارئ الكريم المتفحص استنباطها بنفسه ـ تبرهن بالقطع والجزم على أن أي اكتشاف أو اختراع لأي فكرة أو جهاز أو آلة أو علم جديد، بل وأية معلومة بكر مفصلية، لابد وأن سبقها تراكم معرفي في ذات المجال أو في مجـالات أخرى من ذات العلاقة بقدر مقدور. وما يؤكد ذلك أيضًا، ما نجده من حالة ركود البدو والرعاة والقرويون العلمية والمعرفية المنعزلين عن مجريات الحضارة في قراهم وقصباتهم النائية وأحوال معيشتهم المتأخرة حتى هذا اليوم.

من هذا يتضح أن هناك حلقة جوهرية مفقودة في تاريخ الانسان، لم توضح كيف بدأ تعليمه وكيفية أقدامه على اختراع أولى أدواته وآلاته ومبتكراته البدائية والحجرية التي كانت هي الأساس في تقدم تقنيته. فلقد حاول الفلاسفة وعلماء الاجتماع والحضارات، إيجاد تفسير علمي لها، إلا أنهم أخفقوا وذهب كلًا منهم في اتجاه مختلف، ولم يقدموا رأيًا متفق عليه، مما حدى ببعض الطبيعيين في نهاية الأمر، تخطي هذه العقبة الكأداء وتجاهلها أو نسبتها إلى عامل «الصدفة» أو مبدأ «الحاجة أم الإختراع»، أو ترك حلولها لأجيال علماء المستقبل. يؤيد ذلك المفكر وليام هاولز بقوله:

- (إن عملية اكتساب «الإنسان» المبكر جدًا للثقافة لابد أن تكون قد تمت بالتدريج المتناهي وليس عن طريق الوثبة أو الطفرة؛ كما أنها كانت مجردة تماما من كل إدراك أو تفطن واضح للفوائد التي كان يمكن اجتناؤها، حتى ولو كانت تلك الفوائد ذاتها حافزًا كبيرًا على استمرار العملية) [187].

إن الانسان بحاجة لمن يعلمه ويقوم على تربيته طوال مدة وجوده، إذا كان ذلك في هذا اليوم أو مستقبلًا أو في قديم الدهور، وأنه لا يتعلم من تلقاء نفسه (فالبيئة تضع في العادة حدودًا لا تستطيع الثقافة تخطيها ما لم تتطعم بتغييرات جذرية تأتيها من الخارج)[188]. وبهذا لا بد من وجود مصدر خارجي، تعلّم الانسان القديم منه ما لم يعلم، ومهما بحثنا فلن نجد في كتب التاريخ والتراث والحضارات والأساطير وقصص الشعوب القديمة غير ذكر أسماء الآلهة/الأنبياء (الرجال المميزون) من فعلوا ذلك، وهذا ليس بسرّ يذاع، حيث نجد علماء الحضارات والأديان يعترفون ـ بشكل من الأشكال ـ أن مبدأ ظهور العلوم كان في أساسه من رجال الدين والكهنة والسحرة والشامان والمتنبئين، دون أن يضعوا هذه المعلومة موضع التمحيص.

نأتي الآن على آراء بعض العلماء ممن أيدوا نظرية (لا تعليم بدون معلّم)، فهذه النظرية كما لاحظنا قد سحبتنا إلى أول تاريخ ظهور البشرية قبل ملايين السنين. ولكن لنأخذ شؤون الحضارات القريبة. إن الظن بأن شريعة حمورابي (1792 - 1750ق.م.) كانت من أوائل الشرائع التي ظهرت على الأرض، هو أمر لا يؤيده التاريخ، حيث نجد ما هو أقدم منها، مثل تشريعات الملك أورو والملك اورنمو[189]، ومن الوارد جدًا أن هناك أقدم وأقدم من هذه الشرائع والقوانين في العراق أو في بقية أرجاء الأرض بمقاييس مختلفة لم يكتشفها علم الآثار الحديث بسبب تأثير

عوامل الطبيعة من تآكل وإندثار، بل وقد يمتد زمن تلك الشرائع المختفية إلى ما قبل حقبة اختراع الكتابة بأزمان بعيدة، حينما كانت العلوم تنقل شفاهة وبالتلقين، ومن الوارد ـ كما ثبت تاريخيًا ـ أن الشعر المغنى والأساطير والمأثور الشفهي، كانت من وسائل نقل العلوم والتراث بين الأجيال والمجتمعات القديمة حيث كان الاستظهار هو السبيل الوحيد لنقل معارف الشعوب وتراثها.

عندما يؤكد الفيلسوف توينبي على وجود شرائع وقوانين سابقة لشريعة حامورابي مقاربة لها بالقوة والمتانة، فبهذا يمكن الاستدلال على احتمال وجود قوانين لشرائع قديمة ـ قد تكون أقل تنظيمًا وقوة ـ ولكنها كانت موجودة وعمل بقوانينها بالفعل. يؤيد ذلك أورده:

- (تم تجميع القوانين في الامبراطورية السومرية «وهي ما كانت تعرف بمملكة الأركان الأربعة» في وقت مبكّر، تحت إشراف الأباطرة السومريين في عاصمتهم أور. وقد تبين أن

هذا التجميع هو أساس عملية التجميع التي تولاها فيما بعد حمورابي البابلي الذي استعاد الامبراطورية السومرية. ولقد كشف عالم الآثار الغربي الحديث ج.دي. مورجان هذه المجموعة في عام 1901م)[190].

رغم إن ما سبق الاستدلال به كان من آثار زمن حضارات الكتابة قريبة العهد ـ حيث لم تكشف لنا الآثار أدلة على وجود شرائع وقوانين موثقة قبل عصر الكتابة ـ إلا أن الغاية من الاستشهاد، هي الاشارة إلى أن مثل هذه المكانة العلمية في مجال تشريع أحكام القوانين المختلفة، لا بد وأن سبق واستندت على مستويات علمية وخبرات فاعلة متقاربة وتجارب حياة شعوب تسلسلت بقوتها وسعتها وتطبيقاتها تراجعًا وضعفًا كلما توغلنا في عمق التاريخ بُعدًا، حتى نصل إلى مراحل الانسان الجاهل البدائي الذي عاش على الطبيعة البكر مثل بقية الكائنات قبل ملايين السنين، وإلا فالمنطق يقضي باستحالة ظهور مثل هذه القفزات العلمية الرفيعة في الألف الثانية أو الثالثة قبل الميلاد أو ما سبقها دون المرور بالتدرج العلمي والتسلسل المعرفي وتراكم الخبرات طويل العهد، كما جئنا على تأييد ذلك من قبل كثير من الحكماء. وكل ما يمنع اثبات ذلك أو التأكد منه، هو ضعف أو عدم بقاء أدلة مادية أثرية لتلك الأحقاب المجهولة. نعم ان آثارها وشواهدها المادية قد اختفت عن الأبصار، لكنها واضحة المعالم للعقل والبصيرة، إذ لابد أن يكون هناك تسلسل في رقي المجتمعات ووجود معلم وراء كل متعلم، حيث لا يعقل أن يحدد العلماء أعمار ظهور الحضارات بهذا الوقت القريب (عشرة ألف سنة قبل الميلاد)[191]، ويترك تاريخ البشرية القديم بملايين سنينه دون تقديم أي دور أو دليل واضح على مساهمات الأقدمين في تقدم الأمم مهما كان بسيطًا، فعلوم القدماء التي توارثتها أمم الحضارات في الطب والصيدلة والزراعة والفلك والتنجيم والرياضيات، كانت علوم لا يستهان بها؛ لكن السؤال هو:

- ماذا كان يفعل الانسان قبل عشرة آلاف سنة؟ هل كان يرعى ويتجول في الصحارى والبراري والغابات مثل بقية الحيوانات؟ أو هل نزل عليه الوعي والعقل فجأةً وبدأ يوجد العلوم والفنون والمخترعات؟ فلو كان تحديد بدء ظهور العلوم والمخترعات في العصر الحجري الحديث صحيحًا، لكان ذلك أمرًا محيرًا! فماذا حصل حينئذ لينقلب الانسان بشكل فجائي من حالة الطفولة الهمجية والبدائية إلى حالة شبه ناضجة ويبدأ بتأسيس العلوم والمخترعات ويتهيأ لدخول مرحلة

حضارات الكتابة؟ لذلك عندما نقرأ تحديد العلماء لأزمان بداية المخترعات ببداية العصر الحجري الحديث، نجده أمرًا غريبًا ملفتًا للنظر والتفكّر، إذ لا بد وأن يكون قبل ذلك تدرج نزولي متسلسل في المكتسبات العلمية والمعرفية، وإلا فسيكون هناك تفسير آخر وهو حصول أمر كوني قاهر (مادي أو معنوي) زلزل رتابة ذلك التسلسل في تدرج ظهور علوم البشرية ونباهة عقولها[192].

في مقام آخر، يؤيد الفيلسوف ابن خلدون شرط ظهور الصنائع البسيطة الأولى (الاختراعات) على أساس حتمية تراكم العلوم والمعارف المسبقة بتوالي الأزمنة ويؤكد على حتمية تدرجها المطرد في الزيادة والنمو، لكنه يربطها كعادته باستنباطات الفكر البشري، حينما قال:

- (ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكماليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقًا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصًا. ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئًا فشيئًا على التدريج حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة، وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الأمور الصناعية فلا بد له إذن من زمان)[193].

كما يحدد الأستاذ فتوحي أزمان ظهور المبتكرات العلمية خلال عصر حضارات الكتابة، فيقول:

- (أن العلوم التي تشكل حجر الزاوية في حياتنا المعاصرة إنما قد ابتكرت وتطورت خلال ما يزيد على خمسة آلاف عام ق.م.)[194]. إن مثل هذا التقدير الزمني المحدود، إنما هو للدلالة على أهمية طول فترات الأحقاب والأعصار كي تتطور معها العلوم والمعارف بالتدريج، ولا يعني ذلك بالضرورة تقديرًا زمنيًا دقيقًا، بل هو تقريبي قد يمتد ليتصل بما سبقها من عصور حجرية قديمة.

ويشارك فراس بالقول:

- (ولقد أثبتت الدراسات اليوم، أن أرض سومر لم تكن خالية من السكان قبل قدوم السومريين، بل كانت مسكونة بأقوام ساميين، ذوي لغة وثقافة سامية لا نعرف عنها الكثير ولا نعرف ماذا أعطت للغزاة الآسيويين)[195].

مثل هذه الآراء التاريخية والعلمية والعقلية، تؤكد على وجود حضارات قديمة سبقت ظهور أمم حضارات الكتابة بأزمان قديمة جدًا، كان لها مستويات علمية توافق أزمانها. لكنه ومهما كان مستوى علّوها ورفعتها، فلا بد وأن تسلسلت في قِدمها تراجعًا إلى زمن إنسان الكهوف والمغارات وما قبله حيث الانسان البدائي الهمجي الجاهل تمامًا. ومع ذلك، فهذا لا ينفي وجود طفرة علمية حدثت في بداية العصر الحجري الحديث مهدت لظهور حضارات الكتابة.

لقد قدر علماء الجيولوجيا عمر (الفترة غير الجليدية الرابعة - الهولوسين) بقرابة 12,000 سنة، وهي ذات الفترة التي ينسبون لها ظهور الانسان العاقل ومعرفته الزراعة في الثلث الأول منها. وهنا يجب التفريق بين الانسان العاقل ومسألة الاختراع، لأن هناك كثير من العقلاء يعيشون اليوم حياة بدائية في القرى والأرياف دون تقديمهم أية مخترعات، لأن المخترعات مسألة مرتبطة بتراكم العلوم. وبهذا يفترض ضرورة وجود مجاميع لحضارات بشرية أخرى عاقلة سبقت ظهور

«حضارات الاستظهار»، حيث لا يمكن الاستغناء عن حتمية حالة التدرج العلمي ودور عامل الاستمرارية وتراكم العلوم في توالي انتقال المعارف بين البشر الأوائل، فكل أمة تستمد وترتكز في معارفها على علوم ومعارف من عاصرها أو سبقها من الأمم، ثم تضيف إليه علومها ومبتكراتها. فحضارات وادي الرافدين اعتمدت حتمًا على ما سبقها من حضارات بدائية ـ إذا كانت من نفس المنطقة أو من مناطق أخرى مجاورة ـ ثم أثرت لاحقًا في حضارات الفراعنة والفرس والرومان والإغريق التي أثرت بدورها في حضارة الهند والصين والشرق الأقصى، كذلك ما كان من تأثير الحضارة الإسلامية على حضارة أوروبا وغيرها خلال عهودها المظلمة. وهكذا كانت جميع الحضارات تتأثر واحدتها بعلوم الأخرى لدرجة أنه يمكن القول بعدم وجود حضارة نقية مئة بالمئة لأمة من الأمم، فعملية ظهور الحضارات تعتمد في الأساس على تراكم وتناقل العلوم والمعارف وتلاقح أفكار جميع البشر[196].

ليس من الحكمة أو الإنصاف ولا من سبل البحث العلمي المنزّه، أن يدفعنا التعصب ضد الأديان عموما، أو ضد تصرفات أتباعها خصوصًا، إلى نكران دور «الانسان المميز» أو التغاضي عن دور الذين وصلتنا أخبارهم وأدوارهم التاريخية مهما كانت ضبابية وغير واضحة المعالم، مثل مردوخ وبعل وجلجامش وتموز وعشتار واخناتون وشيفا وإدريس ونوح ويونس وكونفوشيوس وبوذا ومن سبقوهم بعشرات الألوف من السنين من المتنبئين والشامان والبدد وغيرهم من الذين لم يأت علماء التاريخ المحدثين على ذكرهم، لا لسبب سوى صلتهم بالأديان، فبخسوا أدوارهم وشاحوا بوجوههم عن أعمالهم ومشاركاتهم العظيمة ونسبوا أصالتها تعسفًا إلى عامل الصدفة أو الحاجة أم الاختراع أو التفكير البشري المجرد أو إلى آلهات وطواطم وهمية خرافية، باعتبار أن مفاهيم العقل المادي ترفض مساهمة الأديان ورجاله في إيجاد العلوم الأولية الأساسية ولا تتقبلها. أما إذا لزم الأمر لذكرهم، فيتعاملون معها بطريقة تدخل في عقول الأجيال متاهات وأحاجي توصلهم إلى نتائج خطيرة مشوهة وكأنها مجرد تراث تاريخي وقصص مسلية لا قيمة علمية لها.

لقد كان هؤلاء الرجال المميزون علماء حقيقيون خلد التاريخ ذكراهم، ظهروا قديمًا في كل وقت ومكان لمد يد العون لمجاميع البشر في كل بقعة من بقاع الارض لحثّها على سلوك سبل العلم والأخلاق والأعمال النافعة ورعاية القانون والصالح العام وتخطي ما واجه تلك الأمم القديمة من عقبات علمية واجتماعية كلما كانت تتوقف في مسيرتها الحضارية، فما كان بمقدور البشر اجتياز جميع تلك العقبات الفكرية بمجرد الاعتماد على عقولهم لولا مساعدة تلك النفوس العظيمة. وإلا.. فمن أين للانسان البدائي ذلك التصوّر المستقبلي المسبق لنتائج تجاربه العلمية أو الفكرية المعنوية التي لم يكن باستطاعته استنباطها أو التعامل معها لولا أن تعلّم من معلّم شجعه على سلوك سبيل العلوم؟ فلو عللنا سبب ظهور تلك التطورات الاجتماعية والقفزات العلمية بمثل هذه الإطروحات البسيطة، أعني «قدرات العقل البشري الذاتية أو عامل الصدفة أو الحاجة»، لما حار المفكرون والفلاسفة بجواب السؤال:

- كيف تعلم الانسان الأول، ولماذا فكر وبحث عن التطور وبالتالي تميز عن الحيوان بعقليته المبدعة؟ كما قال الدكتور حسين:

- (فقد شغل بال المفكرين عامة، ومن بينهم علماء الاجتماع والجيولوجيا بصفة خاصة، سؤالا محيرًا، وهو:

- كيف نشأت ثقافات حضارات العالم وكيف تطورت؟)[197]، فبقاء هذا التساؤل دون جواب، يعني في حقيقته، أن ما يقدمه علماء الطبيعة المعاصرون من فرضيات، ما زالت إجابات مجانبة للصواب أو غير كاملة، والباحث في تاريخ تطور علم الأنثروبولوجيا يرى بوضوح تلك الطفرة العلمية الكبرى بين عقلية إنسان ما قبل وما بعد العصر الحجري الحديث، وكما ذكر الفيلسوف ديورانت:

- (لسنا نستطيع الجزم برأي في هذا، لأن البدايات لا تمكننا من معرفتها، سواء في العلم أو في غيره)[198].

إن قوس الصعود والنزول المرحلي لحضارات البشر خلال مجمل التاريخ، يؤكد دون شك أن الأمم لا تبقى ثابتة على قمم جبال الحضارات، فلا بد وأن تنحدر عاجلًا أو آجلًا بعد وصولها إلى علا قمم الابداع النسبي حسب مستوى خزين علومها الفعلي، وعندها يحصل توقف ثم تراجع متدرج لعمليتي الابداع والترقي نتيجة استفراغ الخزين المعرفي العام وظهور الحاجة لموجة جديدة من المعارف، تكون الأمة حينها في أمس الحاجة لظهور معلم جديد يأخذ بيدها نحو حضارة جديدة ليجري عليها مرة أخرى ذات قانون الترقي. فمبدأ البقاء والخلود على قمة جبل الحضارة أمر محال كما حصل مع كبريات أمم الحضارات. فاذا علمنا أن علماء التاريخ والحضارات والاجتماع اسهبوا في شرح وتوضيح أسباب انهيار الحضارات وتفننوا في توضيح مستويات تدرجات انحداراتها، علمنا بالمقابل أن لا أحدًا منهم استطاع التأكيد أو تقديم سبب رئيس علمي أو عقلاني محدد لأسباب ظهور الحضارات وبزوغ شموسها، وكل ما جاؤوا به، مجرد احتمالات ورجمًا بالغيب وفرضيات غير مؤكدة نسبوا غالبيتها إلى عامل الصدفة أو قوة عقل الانسان المجرد أو هندسة تركيبة يديه الميكانيكية، أو كما نسبها الفيلسوف توينبي إلى فرضية «التحدي والإستجابة» أو غير ذلك من الفرضيات المحتملة، مما جعلهم يقفون حيارى أمام هذه المعضلة العويصة، مثلهم كمثل طبيب حاذق يستمع لشرح مفصل دقيق من مريض أمي جاهل عن أعراض علته وإنحدار صحته، بينما يقف هو عاجز تماما عن معرفة العلاج والدواء المناسبين. لقد أمعن العلماء في وصف وتفصيل أسباب انهيار الحضارات وزوالها، لكنهم جميعا دون استثناء عجزوا عن معرفة أسباب ظهورها الحقيقية، مما دفع بالفيلسوف جان جاك روسو، للقول بعدم إمكانية انقاذ حضارة البشرية اليوم لرقيها مرة أخرى وخلاصها من مصيرها المشؤوم:

- (إن الإنسانية تسير نحو طريق مسدود ولا مجال للاستمرار نحو التقدم والكمال)[199]. وما سبب هذا التشاؤم إلا لكونه لم يستطع معرفة أسباب ظهور الحضارات الحقيقي، وذلك بسبب تقيده بالمفهوم المادي البحت، حيث يرفض وغيره فكرة ظهور رجل مميز بقوى فوقية غيبية، رغم إعترافهم الصريح بالعجز التام عن تقديم علاج ناجع لمشاكل البشرية مع جميع العلوم المتوفرة في هذا اليوم.

نقطة أخرى كانت من أسباب رفض علماء «قرن الأنوار» الحالي، لدور «الرجل المميز» في تعليم البشر قديمًا، وهو ما حصل أخيرًا من تطور هائل للعقل البشري واتساع علومه ومعارفه؛ فبعدما استنارت العقول بالعلوم والمعارف التجريبية وصارت المعلومة متوفرة وقريبة المنال للجميع، وجدوا في الكتب المقدسة نصوصًا عصية الفهم تعتمد في الأساس على تفاسير مشوهة لرجال دين عاشوا منذ آلاف السنين، علاقتها وسِمتها الظاهرة هو التشابه مع إسلوب الأساطير القديمة الموروثة من الأمم القديمة، فأدركوا بسهولة تفوقهم العقلي على مستويات تفاسير أولئك اللاهوتيين الركيكة. ومن هنا بدأت الفجوة فيما بين الفريقين تكبر وتتسع مما أدى في النهاية إلى تفوق رجال العلم ونظرياتهم وإنزواء اللاهوتيين وتفسيراتهم.

لكن ما يدعو للانتباه، أن علماء الطبيعة ومن خلال توجههم التام لإنكار كل ما هو مقدس بسبب جمود علوم الأديان، هو تماديهم غير المنصف ـ بل قل تعصبهم ـ ضد كل ما يتعلق بالأديان جملة وتفصيلًا، بعدما لم يجدوا في مؤلفات العقائديين غير علوم وبحوث لا تناسب تطور عقل الانسان المعاصر. فمثلها مثل ملابس أطفال صغار، يدعو اللاهوتي أتباعه لإرتدائها بعدما بلغوا مبلغ الرجال، فكان لا بد من تمزق أقمشة تلك المفاهيم وملابس قوانينها وزيّ أفكارها. وهذا ما سبب التوجه واللجوء نحو العلوم الطبيعية والتركيز عليها والابتعاد عن علم اللاهوت بل وإزدرائه.

أما النقطة التي فاتت على عدد كبير من علماء الطبيعة، أنه ورغم مناداتهم بالتحرر من علوم الأديان، إلا أن نسبة منهم ما زالوا يرزحون وفي غفلة منهم ـ بشكل أو بآخر ـ داخل إطار الفكر الديني، ومن بينها على سبيل المثال فكرة ظهور الإنسان الأول من منطقة محددة على الأرض ثم تكاثره وانتشاره وهجرته إلى مختلف الأرجاء[200]. فهذه الفكرة ما زالت تأطر أفكارهم وتعليلاتهم، كما نلاحظ ذلك عند بعض علماء الأنثروبولوجيا والحضارات، لكنهم يجهدون ـ في الوقت نفسه ـ على انتقاد وتكذيب مناهج الأديان حينما يمرون على تعقيداتها الأدبية وضعف مستوياتها العلمية؛ ناهيك عن الإستهانة بجميع ما ظهر بعد كتب أديانهم المقدسة من كتب ديانات أكثر حداثة[201].

فعلى سبيل المثال نجد الفيلسوف فيورباخ يسلك هذا المنحى في تعرضه لفكرة الأديان والمقدس وعلم اللاهوت، حينما إنكب على دراسة الكتب القديمة مثل التوراة والإنجيل والزاندفستا، وتشبّع بأفكارها وتحقق من عدم موافقتها وتناسب أفكارها وأحكامها مع تطور مجتمعه، ما جعله ينكر وجود مساعدة علوية أو فوقية متطورة لتعليم البشر، واستنتج إن الانسان بإمكانه الاعتماد على نفسه للقيام بخلق عالمه المتقدم، حينما قال:

- (إنها لفكرة خيالية تلك التي تقول بأن الانسان لم يتمكن إلا بواسطة الرعاية الإلهية ومن خلال مساعدة الكائنات الخارقة مثل الآلهة والأرواح والجن والملائكة ليرفع نفسه فوق مستوى الحيوان) [202].

أما حين النظر في واقع حياة هذا الفيلسوف، فنجد مسيرتها وتسلسلها يخالف أفكاره وما ورد عنه، حيث اعتمد في سعيه العلمي شخصيًا على فلاسفة وأساتذة علماء يقف في مقدمتهم والده الذي كان عالم قانوني ألماني مشهور، كرّس سنينًا طوال من حياته لدراسة اللاهوت في جامعة هيدلبرج

متتلمذًا على يد الأستاذين «كارل دووب» و«هـ. ج. بولس»[203]. فلو تدرجنا نزولًا وقِدمًا، لوجدنا والده قد تعلّم من أستاذ آخر أو مما قرأ من كتب علمية، فإذا دأبنا في التعمق سنصل حتمًا إلى جده البدائي الأول حيث سينقطع تسلسل التعلّم والتعليم في تلك المرحلة. وبهذا يظهر فضل الأديان والمعتقدات، أو فضل قدماء الكهنة والشامان والرائين في نقل العلوم والمعارف اليه، لأنهم كانوا أول المعلمين لذلك الجدّ البدائي. أيد ذلك العالم كارل ساغان تعليقًا على ما كان متوفرًا للأوربيين من أعمال ووظائف بسيطة خلال القرن التاسع عشر:

- (لم يكن متاحا أمامهم أي عمل آخر. وكانوا ينفقون الوقت متبطلين على شاطئ النهر، ينادون على أسعار النقل للشط المقابل، متفاخرين أمام الزبائن المحتملين بمدى تفوقهم في إنجاز عملية النقل. لقد كانوا يؤجرون أنفسهم، تماما مثل الدواب التي تسير على أربع. وعليه كان جدي بهيمة لحمل الأثقال)[204].

وحينما يقول الأستاذ فيور باخ، إن الانسان تعلم ممن يدنوه في المستوى:

- (ليست كائنات تعلوه وإنما تدنوه.. وكل هبة وعطية لا تأتي من أعلى ولكن من أسفل فهي لا تأتي من فوق وإنما من أعمق أعماق الطبيعة)[205]. فهذا منطق يخالف الواقع ويتعارض تمامًا مع تسلسل تدرج العلم والتعلم بشكل مطلق. فلو تفحصنا موجودات الطبيعة الجرداء في بدايتها، لن نجد سوى الحيوان والنبات والحشرات، فماذا تعلم الانسان منها؟ هل نعود للقول أنه تعلّم بالملاحظة والمراقبة! فهذا لا يصح مع طبيعة ضعف قوة عقل الانسان البدائي، حيث لا قدرة له على التفكير والابتكار والتعلم بالملاحظة، بعدما وجدنا حتى وقت قريب أممًا بدائية تعيش على حالتها الهمجية الأولى دون تغيير يذكر في أحوالها الاجتماعية. أو هل يمكن القول أن الإنسان تعلّم من خلال مشاعر الحاجة؟ وهذا لا يتحقق أيضًا إلا إذا شعر بنقص وعوز في أدواته الحياتية ومتطلباته اليومية، وطالما كانا الإنسان البدائي مكتفيًا بما يتوفر حوله من موجودات الطبيعة، فمن المؤكد أنه لن يشعر بالحاجة لأدوات أو مخترعات طالما لم يشاهد شبيه لها ولم يتعرف على فوائد استعمالها في مجتمعات أرقى ولم يتصور إمكانية تحقيق وجودها.

ثم ما هي علاقة قوانين الطبيعة المادية وموجوداتها بالمُثل العليا والأخلاق السامية ومبادئ العدل والحرية وقوانين تنظيم المجتمعات، وكيف استنتجها البدائي الهمجي من كل ذلك؟ فما كان يسود من قوانين التوحش والقتال والبقاء للأقوى والتنازع على الطرائد والأرض ومياه الشرب، وتفشي روح التوحش والعدائية باعتباره القانون الأبرز في الطبيعة، فمن أين تعلم ذلك البدائي مساعدة الضعفاء والفقراء والمعوزين ونشر مبادئ الخير والفضيلة واستحسان أعمال الخير واحترام القانون وبناء هيكلية المجتمعات؟ فلو كانت الطبيعة هي مصدر العلوم، فهذا يعني أنها الأقوى وهي المعلم الأذكى، أو على الأقل أنها واعية وأكثر تدبيرًا في المحافظة على موجوداتها. وطالما يفترض الماديون إنها مصدر العلوم ومنبع ملَكَة الوعي، فلا يمكن للجزء (الانسان) السيطرة على الكل (الطبيعة) والتحكم بها، كما لا يمكن للجزء إمتلاك قوى معنوية مثل التفكير والتعقّل والتصوّر والإبداع غير متوفرة أو موجودة عند الكل. فمما لا جدال فيه أن العقل البشري هو القوة المسيطرة على الطبيعة، بينما الطبيعة ساكنة محرومة من الوعي والإرادة، فكيف وفّرت للانسان الصفات

المعنوية وهي لا تملكها (إن فاقد الشيء لا يعطيه)، بل كيف استسلمت للانسان بكل هذه الوداعة والخنوع ليفعل ما يشاء في مظاهرها وموجوداتها وقوانينها، فيشق الجبال ويحفرها ويعبر البحار ويغوصها ويشق الأنهار ويغير مجاريها ويوسع البحيرات ويطمرها ويطير في السماء ويكسر قانون جاذبيتها ويقضي على فايروساتها وجراثيمها ويخترع الأدوية والأمصال والمضادات الحيوية ويقضي على أوبئتها ويبتكر أنواعًا جديدة من الفواكه ويكبّر أحجامها ويزيد من أنتاج الارض ويستخرج كنوزها!. كل هذا والطبيعة تقف جامدة مستسلمة خانعة دون اعتراض!

أما عندما ينكر المفكّر فيور باخ ومناصري أفكاره، وجود الآلهة والأرواح والملائكة والجان، فهذا دليل على أنه ما زال يسبح داخل إطار موروثات فكره الديني القديم ويخلط مفاهيم رموز هذه الكائنات وأساطيرها مع مفاهيمه الذهنية والعلمية العالية[206].

وعندما يستغرب متسائلًا:

- (ما هو الفرق بين كمال وحب الحياة بين الإغريق وزهد واحتقار الحياة بين الهنود؟)[207]. يتضح حقيقة شططه في مفاهيم الأديان القديمة التي ناسبت في وقتها عقول ونفوس الأمم القديمة قبل آلاف السنين، ولعَلِم أنه لن يجد بين مفاهيمها اللاهوتية القديمة المرمّزة ما يتوافق مع عقليته المتنورة، فهو مثل رجل راشد ينظر بعين الانتقاد لمفاهيم طفل بدائي، فيستصغرها. لقد كانت تلك المعتقدات سليلة أساطير الأولين، وكانت في وقتها متناسبة مع عقلية القدماء ومستويات تفكيرهم وكانوا معجبين بها ويتفانون في تطبيقها ويحرصون أشد الحرص على إجراءها وهي أس أساس ما نحن فيه من رفعة علمية. ولعَلِم فيور باخ أيضًا أن علوم الحضارات اللاحقة ظهرت وتطورت من صميم معارفها. ومن ناحية أخرى لم ينتبه - مثل كثيرين غيره - إلى أن معتقدات الأديان المعنوية، لها أعمار وحياة تناسب وتوافق عقول البشر في أوقاتها، وهي أيضًا تولد وتنمو وتكبر وتعجز وتموت لتحل محلها مفاهيم معنوية أخرى أكثر حداثة منها، مثلما هو حال قانون كائنات الطبيعة العام. وحقيقة ما كان يفعله فيورباخ هو البحث عن معالم الحياة في رمم أجساد أديان توفت منذ عهود طويلة، فلما خاب ظنه وتعثر جواد بحثه، اعتقد أن الأديان ولدت في الأصل ميتة، ولم ينتبه إلى أنها كانت أدوية وعلاجات حيّة ناجعة لمشاكل المجتمعات القديمة بقيت تساهم بنسب مختلفة في تقدمها، وإن تركيب كيميائية إكسيرها بقي يتغير باستمرار كلما تغيرت أنواع أمراض المجتمعات وأسقامها، وأن علاج أمراض أمسها كان يختلف عن علاج داء غدها، وذلك ما ساعد على استمرار الكائن البشري وبقاءه.

إن تلك المفاهيم الدينية البدائية التي بحث فيور باخ ونقَّب بين سطور أسفارها، جاءت من قديم الأزمنة، فقد امتزج راحها بماءها في كؤوس عقول الأمم القديمة بعدما وصلتهم من مفاهيم شعوب بدائية عاشت قبلهم، فكان من الصعب عليه تمييز اسلوبها الأدبي ومفاهيمها الروحية القديمة وما كان من حقيقة معتقدات أساطيرها، وغفل أن كل تراث حضاري لأمة من الأمم يحمل نوعًا خاصًا بها يصطبغ بألوان أدبياتها وتراثها وتاريخها ومعتقداتها. لذا كان من المؤكد أن يكون هناك فارق كبير بينها وبين مستوى عقليته، وهذا ما دفعه للاستغراب والسخرية والعجب من مفاهيمها، كما هو الحال في موقفه من مفاهيم الملائكة والجن والآلهة حينما تناولها بمسطرته العلمية الحديثة فأوجدت لديه كل ذلك الشك والخلط والتشتت.

إن الأفكار والمفاهيم تتطور من عصر إلى عصر، فما ينتشر في وقت قد يختلف في مدلولاته عن وقت آخر، وما تقدسه أمة قد تستهجنه أمة أخرى، ودواء مرض اليوم، قد يكون سمًّا قاتلًا لمرض الغد، وهذا ما سجل وقائعه تاريخ الشعوب حينما كانوا يدمرون معابد آلهات غيرهم خلال غزواتهم وحروبهم ظنًّا بكفرهم وإشراكهم، فاختلاف المستويات الحضارية ومشاعر العداء بين الأمم كان من أسباب هدم صرح كثير من الحضارات وتخريب منشاءاتها وحرق كتب فلاسفتها وقتل علماءها، ومن المؤكد ان ما كان يُعتقد به البشر قديما من مفاهيم روحية استماتوا في الدفاع عنها، قد لا تتناسب مع مفاهيم أمم أخرى حتى في زمانها، فما بالنا وقد دخلت البشرية في هذه القرون المنورة بمصابيح العلوم والفنون؟

لقد غفل هذا المفكر ومن سار على خطاه أهمية البحث عن جوهر سرّ هذا التجديد الدائم للمعتقدات الدينية، طالما أن جميع الشواهد التاريخية تشير إلى تواليها وتعددها وتباين مواقعها الجغرافية واختلاف شخصيات رجالها، وكان من الضروري الانتباه لكيفية بدايتها وطرق نموها واتساع رقع انتشارها، بل وقدرتها العجيبة على البقاء والاستمرار في تلك العهود المظلمة، فمجرد بقاءها واستمراريتها بحد ذاته، هي معجزة تلفت الانتباه إذا تمعن الانسان بتفاصيل تاريخ رواد أمم الأديان وما واجههم من تعذيب وقتل. إن قيام رجل واحد من عامة الناس على دعوة غريبة مخالفة لواقع مجتمعه وتراثه بالكامل، ليغيّر ما في أعماق نفوسهم من معتقد قديم إلى معتقد آخر حديث، ونجاحه، لهي حالة إعجازية تستحق التوقف والتحليل؛ بينما نجد في المقابل، عجز كبار فلاسفة وحكماء التاريخ بجميع صروح علومهم وأسفار مؤلفاتهم على الإتيان بمثل ذلك.

يولي هذا المفكّر أهمية فائقة لانتقاد المفاهيم الدينية القديمة، فيستهجنها كل الاستهجان عندما يقرأ عن الفوارق بين أيمان المسيحي بقصة بداية الخلق مع (آدم) وبين سبل عبادة الوثني ومقدساته للأوثان والأصنام في قدم الأزمان، ويركز على انتقاد قصة بداية الخلق ويرفض نسبة وجود البشر إلى مخلوق واحد (آدم). ومن الواضح أنه تجاوز في خلط هذه الأمور كلما وجد تباينًا بين عقليات الشعوب وتراثها ومفاهيمها وتربيتها واختلاف نِسبْ حضاراتها ومقدار تأثرها واتصالها ببقية حضارات الأمم من حولها، وكان من الأولى به الابتعاد أو الارتفاع قليلا مثل فنان مبدع يتفحص معالم لوحته ليستوعب بشكل أوضح ما فاته من دقائقها. فتربية طفل البشرية في بدائيته لا بد وأن يختلف ويتباين حسب المكان والزمان، مثلما لا تتساوى مناهج تربية ابن الصحراء مع الجبلي، والبدوي مع الحضري. فمن الطبيعي أن تختلف مناهج التربية والتعليم فيما بين الأمم القديمة، وهذا بالضرورة يؤدي إلى كثرة عدد معلميهم وتنوع مناهجهم، فلكل مرض نوعًا مختلفًا من الدواء ولكل طبيب قدراته وعقليته وسعة علمه، ولما ثبت وجود الاختلاف بين عقول ومفاهيم وعادات الأمم وموروثاتها، فبالضرورة أن تختلف مناهجها التربوية والتعليمية لتصل إلى نتيجة حتمية في اختلاف الثقافات والعبادات، فهذا يقدس الحيوان والوثن، وذاك يقدس الغيبيات، وهذا يعبد الحجر والمدر وذاك يعبد السيد المسيح وآخر الإله يهوه. إنها موروثات قديمة أصغرها عمرًا جاوز الأربعة عشر قرنًا. فكيف غفل عن هذه الفروقات حتى يوجه انتقاده إلى نوعية الأدوية الروحية وقدرات قدماء الأطباء الحكماء؟ فلكل حالة علاج متباين؛ لكن التعرف على حاصل مجهودات أولئك الأطباء الفوقيين ونجاعة أدويتهم، هو في تقييم ثمرة مجهوداتهم ونجاحهم في استمرار بقاء أجساد تلك الأمم القديمة ودوامية روحانيتها وموروثاتها الفكرية حتى اليوم والتي أخرجت فيما بعد

فلاسفة عهد التنوير وحكماء عصر النهضة، ومن قبلهم حكماء الفرس والصين واليونان والإغريق والمصريين وأبناء بلاد الرافدين؛ إن ما تركه هؤلاء الأفذاذ من آثار تعاليمهم، تشهد على علو شأنهم ونجاح اسلوبهم وسؤدد تربيتهم وتعاليمهم، فلولاهم لما وصلت البشرية إلى هذا المستوى العلمي ولما جابت مركباتهم الفضاء سابحة بين الكواكب والأفلاك.

إنه لمن الخطأ البيّن مقارنة تصرفات طفل صغير بعقلية انسان راشد، والاستهزاء بتصرفاته الصبيانية ثم البناء عليها في استنتاج مستقبله والقول انه طفل متهور كثير الحركة لا يعرف الهدوء ومن المؤكد أنه سيفشل في كبره مثلما كان فوضويًا في صغره. لكن هذا الطفل المشاكس، هو ذات الرجل الحكيم الذي سيرفد المكتبات بمؤلفاته الفكرية العظيمة بعد عدة عقود.

إن من ينتقد معتقدات وأفكار الأمم البدائية القديمة، عليه أن يتذكر أنها كانت علوم ناسبت أزمان طفولتهم وفوضويتها، وليس من العدل مقارنتها مع رشاد عقلية مفكري اليوم، فلكل حقبة زمانية مستواها التعليمي والتربوي، فلم يكن من الممكن ولا من المعقول إطعام طفل البشرية أغذية علمية معقدة، لأنه لن يستهضمها ولن يتقبلها لافتقاره إلى دور النضوج وقدرة الإستيعاب، لذا كان لا بد من التدرج والتسلسل بالتربية وانتظار كل هذه الأزمنة الطويلة حتى يكبر طفل الإنسانية ليتقبل معقدات المفاهيم العلمية العالية.

كما أنه من الخطأ الظن ان بداية الانسان كانت فردية مطلقة بدأت قبل ست أو سبع ألف سنة تقريبًا، فليس بإمكان الانسان الاستمرار على البقاء لو عاش وحيدًا، لذا لا بد وان كان هناك من اعتنى بهذا المخلوق العاجز وأخذ بيده وقام على رعايته، فلا معقولية للظن بفردية الانسان الأول مطلقًا، لأن الانسان ظهر من رحم تربة الأرض بمجاميع مهولة كما هو الحال مع ظهور النبات والحشرات والفايروسات والخلايا الأحادية، وكان من الضروري ان يكون هناك معلم خاص لكل مجموعة بشرية منعزلة عن غيرها، وهذا يفسر انتشار البشر في جميع أنحاء الأرض، ويفسر في نفس الوقت اختلاف عادات وتقاليد الشعوب وعباداتهم لاحقًا، إضافة إلى ما كان من أعداد الآباء والأجداد والشامان الهائلة.

كما لا يمكن استهجان مبدأ تقديس القدماء لأنواع الحيوانات والنباتات والطواطم والتابوهات واعتبارها مفاهيم سلبية ممجوجة لا معنى لها، فلو عدنا مرة أخرى إلى حالة طفل البشرية في مراحل وجوده الأولى، فسيتضح جهله بفوائد الحيوان والنبات بغية استمرار حياته وبقاءه، وكان لا بد من تعريفه بأهميتها بسبل بسيطة تناسب مستوى تفكيره، لذلك كانت هناك فكرة المقدس والدنس والتابو والمحرّم، حيث لا يمكن شرح أهمية النظافة والتعقيم وخطورة أنواع المكروبات والفايروسات للبدائي الأول ومن عاش لاحقًا حتى وقت قريب، مثلما لا يمكن شرح أهمية وفوائد حيوان البقرة والكلب والحصان والحمار والدواجن وأمثالها في بداية زمن

الاستفادة منها. فالانسان في أول عهده لم يكن يعرف من أمر فوائدها شيئًا، وكان لا بد من تحبيبها اليه بطريقة من الطرق حتى يحافظ عليها ويستأنسها ويستكثرها لتكون رفيق مستقبله وجزءًا من حياته وسببًا في دوامية بقاءه وظهور حضاراته. إلا أنه لم يكن يملك ذلك البعد التصوّري ليفهم أهميتها. لذلك واستنادًا إلى مسيرة عقليته البسيطة المتذبذبة في الطلوع والهبوط، راح «الإنسان المميز» يرفع من شأن هذه التوصية ليوصلها إلى مقام المقدس ويجعلها نوعًا من أنواع التابو

والعبادة مؤكدًا على وجوب رعايتها، ومع مرور الزمن تحول هذا الارتباط إلى نوع من التقديس أو العبادة المباشرة للحيوانات ورموزها؛ ومع ذلك لم يكن في ذلك كثير ضرر، فبقاء الانسان واستمرار وجوده دليل واضح على نجاعة اسلوب التربية البدائي وصحة منهجه وفائدته، فذلك المعلم الأول كان مدركًا لتسلسل المنهج التربوي الطويل وحتمية ظهور معلمين جدد لاحقًا من بعده يأخذون بيد طفل البشرية إلى مستويات أعلى حتى يصل لمرحلة الاعتماد على النفس، وسيعلم عند دخوله مراحل التطور والعلوم، إن ما كان من أمر تقديس أجداده القدماء لهذه الحيوانات ورعايتها، ما كان إلا للمحافظة على استمرار الأجيال، فلم يكن بالإمكان الاستغناء عن قوة الثور في الحراثة ولا عن لحوم البقرة والخراف والمعيز وحليبها وبيوض الدواجن ولحومها، ولا كان في الإمكان الاستغناء عن دور الكلب في المحافظة على حياته وحياة عائلته وبقاء ماشيته، ولا تفهّم أهمية الحصان والجمل والحمار والبغل (العشار) كوسيلة لانتقال العلوم والحضارات من أمة إلى أخرى، ومن خلالها سيستفيد من عملية تلاقح الحضارات ويكتشف أهمية سرعة التنقل. كل هذه الأمور وغيرها لم يكن يعرف الانسان القديم حقيقة فوائدها لولا تعليم ذلك المعلم البدائي الأول لأجيال البشرية، كما ذكر ذلك أحد العلماء:

- (وتقوم أحيانًا بعض الأفكار الثاقبة ـ من قبل رجال الدين أو الزعماء ـ بالمحافظة على بعض المصادر المهددة بالتناقص السريع في صورة إعلان تحريم Taboo ديني على صيد نوع من الحيوان أو الأسماك أو كثرة استخدام نوع من النبات، ويتم ذلك التحريم لفترة قد تمتد إلى جيل أو تمتد إلى أكثر من ذلك؛ حتى ينسى الناس أصل التحريم ويتحول التحريم إلى جزءٍ من الطقوس الدينية)[208].

إن جهل الأمم البدائية لحقيقة الوجود وشؤون الحياة، دعى لتعليمها حسب مستوى مداركها لتحافظ على مقومات دوامية حياتها، فالهدف الجوهري هو المحافظة على بقاء هذا الانسان، باعتباره سبب الوجود، ولولاه لما كانت هناك حضارة ولا علم ولا معارف، بل ولا حتى ذات الوجود نفسه. لأن الموجودات تعرف بالعقل، ولا يمتلك العقل إلا الانسان، فاختفاء الانسان هو اختفاء للعقل، وبالتالي اختفاء للوجود. لذا يصح القول أن الانسان هو الوجود، والوجود هو الانسان. فلولاه ما كان أي شيء.

لقد كانت عملية بناء العقل عملية مرحلية طويلة متدرجة، ولم تكن فجائية لمرة واحدة، وهذه فكرة تتفق مع حقيقة قانون الوجود المتدرج في كل أنظمته، فلا يوجد شيء ظهر وتكوّن بعيدًا عن قانون التدرج، بدءًا من تكوّن الأرض والشمس والقمر وبقية الكواكب إلى عمليات شروق الشمس وغروبها وحلول الليل ومجيء النهار مرورًا بدوران القمر وتدرج أشكاله وتكوّن الصخور والجبال ونمو الأشجار وولادة الانسان والحيوان إلى تركيب عناصر مواد الطبيعة، والأمثلة على ذلك لا تحصى. فبعدما ظهر الانسان بشكله الصغير البسيط من تربة الأرض، حيث لم يكن (على شاكلتنا ومثالنا) أو (على أحسن تقويم) بل كائنا بسيطًا بدائي التركيب يحمل عقلًا وروحًا بشرية مختلفة بتكوينها وطبيعتها عن أرواح بقية المخلوقات، واحتاج مثل غيره من بقية الكائنات إلى أحقاب طويلة ودهور مديدة ليتكامل هيكله وتنمو أجزاء جسده ـ مثلما هو الحال في عملية تكوين الجنين في رحم الأم ـ ومن الصعب أو من المستحيل معرفة ما كان من أمر مكملات أجزاء جسده

ونوعيتها وأحوال تطورها[209]، فقد تكون اختفت بعد زوال حاجتها والفائدة منها. وبما ان الانسان لم يكن يفقه من حياته ومن موجودات الطبيعة شيئًا، لذلك كان لا بد من وجود معلم أرشده لما حافظ به على حياته ومد في عمر بقاءه ودلّه على أهمية مواد الطبيعة وعناصرها في تحسين تركيبة جسده ونمو قواه العقلية ونضوجها. من هنا جاء الاهتمام بتعليمه أهمية موجودات الطبيعة من أنواع النبات والحيوان والأثمار، وأهمية الاستقرار والسكن قرب مصادر المياه، إذ كان لا بد من مرافقة هذا المخلوق العاجز ورعايته وتعليمه حتى يكبر وينمو ويصل إلى مصاف الفلاسفة والحكماء.

إنه الإنسان، طفل الوجود المدلل وجوهرته.

والخلاصة أن أية فكرة معنوية أولية أو أي اختراع أولي، يصعب تتبع كيفية اختراعه وظهوره عند الأمم البدائية الأولى، كان بالضرورة من اختراع الرجال المميزون. وهذا ما سنتناول شرحه في الفصول القادمة.

(5)
كيف يفكّر الإنسان

يزخر العالم المادي بالقوى الفيزيائية الخفيّة غير المحسوسة التي لا تخضع لمقاييس حواس البشر، دليل ذلك ما اكتشفه الإنسان من قواها وطاقاتها في القرون الأخيرة، مثل الجاذبية والكهرباء وحزم الإشعاعات الأثيرية والضوئية والذرية والأشعة فوق البنفسجية وغلاف الأوزون وغيرها. يؤكد ذلك سميث، بقوله:

- (الى عهد قريب كان العلم الحديث يبدو مشككًا بحقيقة كل الكائنات غير المرئية «الغيبية»، ولكن بعد ملاحظة «إيدينغتون» Eddington أن العالم أكثر شبهًا بعقل منه بآلة، وبعد تقرير علماء الفيزياء الفضائية Astrophysicists أن 90% من المادة في الكون غير مرئية، بمعنى أنها لا تؤثر ولا تدخل ضمن أي من أدواتهم التي يستخدمونها)[210].

ومن ناحية أخرى تعتبر مشاعر الإنسان النفسية والروحية والعقلية وقدرات الذكاء والنباهة وسرعة البديهة وقوة الذاكرة والإحساسات والمشاعر القلبية كالمحبة والعطف والبغض والكراهية وما إلى ذلك الكثير، قوى ومَلكات خفية أيضًا لا يمكن التعامل معها بحواس الجسد المادية إلا بعد ترجمتها إلى أفعال وتصرفات.

إن أعظم قوة في جسد الإنسان، هي قوة كتلة المخ (الدماغ) الموجودة داخل الجمجمة، فهي تقوم على تنظيم عمل أعضاء الجسد وكذلك عملية استقبال ما يصلها من إشارات ورموز من العالم الخارجي عبر حواس الجسد وإرسالها على شكل اشارات معنوية غير مادية إلى العقل كي يفهمها ويعقلها ويستجيب ويرد عليها. وبذلك يكون العقل هو القائم الأساس على عملية التفكير والتحليل والتصوّر والتخيّل، فالعقل هو مخزن المعارف والعلوم والصور والمعلومات التي يكتسبها الإنسان

خلال حياته. لذا فإن موقع هذا الأرشيف الهائل أو المخزن العظيم من صور الأشياء ومفاهيم المعلومات والحسابات والذكريات، لا يكون في جهاز المخ داخل الجمجمة، بل في العقل خارج جسد الإنسان، على اعتبار أنه نوع من التفاعل بين شبيهين ـ المعلومات المعنوية والعقل المعنوي ـ دليل ذلك عدم عثور علماء الفسلجة وجراحي الدماغ حتى اليوم على مكان محدد تتجمع فيه المعلومات والصور داخل الجمجمة ولا في أي عضو آخر داخل جسد الإنسان، وكل ما يقال في ذلك هو نوع من الحدس والتخمين ليس إلا، إذ لم يسبق أن أكد وجزم أي عالم من ذوي الإختصاص برؤية أو سماع أية صورة أو معلومة مخزنة في مخ أي إنسان.

قد نجد بعض المعقولية وكثير من الحلول العسيرة التي تفسر كثير من المعضلات وتفتح أبوابًا واسعة لمجالات العلوم البكر لو افترضنا ـ على سبيل المثال ـ أن العقل هو كائن معنوي متعلق بروح معنوية غير خاضع لمقاييس المادة وحدودها. بمعنى أن التعقّل والتخيّل والتصوّر والتأمّل وعملية التفكير وخزين المعلومات وصور الموجودات وغيرها، إنما هي طاقات وقوى معنوية خارجة عن حدود القوانين المادية الطبيعية، أي ليس لها أبعاد مادية مثل الكتلة والوزن والطول والعرض والارتفاع والعمق، ومن الأدلة على أن العلم والمعلومات ليست من المادة في شيء، عدم وجود فروقات في أوزان أدمغة الناس رغم حجم الفارق العلمي الهائل بين عقول كبار العلماء والفلاسفة وبين بسطاء البشر. فلو كان العلم ماديًا، لأختلف أوزان الدمغة بشكل واضح لا جدال فيه. فالعلوم معنوية، مثلها مثل مشاعر المحبة والعشق والكراهية والحسد والبغضاء والحزن وغيرها. فهذه المشاعر لا تخضع لحدود هندسية وقياسات مادية أيضًا، بل هي أمور معنوية متصلة بروح معنوي لا يمكن قياسها بعلم الحساب والهندسة والرياضيات، مثلها مثل علاقة قوة التصوّر المعنوية بالأشكال المادية، حيث يمكن تصوّر الإنسان لأشكال مختلفة ومجسّمات متنوعة كالهرم والمربع والمستطيل والمكعب والدائرة ومختلف أشكال وموجودات الطبيعة من حيوانات وطيور وأشجار وجبال وصخور وبحار وصحارى، وتبديل أشكالها داخل ذهنه خلال لحظات دون بذل مجهودات عضلية أو جسدية، بينما لا يمكن تغيير شكل شباك خشبي أو طاولة حديدية إلى شكل آخر، إلا اذا حطمنا الشكل الأول لتركيب شكل ثاني؛ كما لا يمكن ادخال أحجام كبيرة في فراغات صغيرة مثل بيت أو عربة في صندوق صغير، فمثل هذه التغييرات المادية تستغرق أوقات محددة ومجهودات عضلية. أما في حالة تناوب تغيير صور وأشكال المعنويات داخل العقل، فالأمر يختلف تمامًا، حيث يمكن إدخال صورة أي شيء بمختلف الأحجام والأشكال داخل العقل وتغييرها تكرارًا في أجزاء من الثانية دون الحاجة إلى إجراءات مادية تعسفية.

إن أصل الارتباط بين الماديات والمعنويات يبدأ في حقيقته من الواقع المادي الطبيعي، حيث تنتقل أصوات وصور أشياء الطبيعة المادية عبر السمع والبصر إلى جهاز الدماغ المادي داخل الجمجمة على شكل موجات غير مادية بالنسبة لهاتين الحاستين، ومن بعد استلامها يحولها هذا (الناقل) إلى اشارات روحية معنوية غير مرئية ثم يرسلها بسرعة كبيرة إلى العقل كي يحل رموزها ويفهمها، فلا سبيل لفهمها وتعقلها إلا بهذه الطريقة المعنوية، كما أشار إلى ذلك الفيلسوف أفلاطون:

- (وأقام «العقل في الروح، والروح في الجسد»)[211].

فالمعلومة تصل الدماغ داخل الجمجمة عن طريق الحواس، ثم تنقل إلى العقل داخل الروح باشارات معنوية غير مادية، لتتوقف عند هذا الحد كي تُصوّر وتُعقل وتُفهم، ومن بعدها يعيدها العقل المعنوي مرة أخرى على شكل إرشادات وأوامر أو نواه معنوية باتجاه عكسي إلى خلايا جهاز الدماغ المادي وأجزاءه ليحولها بدوره إلى حواس وأعضاء الجسد على شكل أوامر لتنفذها اليد أو القدم أو اللسان، كما جاء تأييد ذلك عن الفيلسوف كانط:

- (تبدأ كل معرفة بشرية بالحدوس الحسية، ثم تنتقل منها إلى المفاهيم أو التصورات الذهنية، لكي تصل في النهاية إلى الأفكار أو المبادئ العقلية)[212].

نلاحظ هنا أن هناك حلقتان متصلتان عند الإنسان لإكتساب العلوم والمعارف، الأولى معنوية روحية وهي مغلقة، تبدأ من إرسال إشارات الدماغ إلى العقل ثم عودتها إلى الدماغ مرة أخرى؛ ودورة ثانية مادية تبدأ من حواس الجسد حينما تنقل صور وأشكال وأصوات وأحوال موجودات الطبيعة المادية عن طريق الأعصاب والعضلات والخلايا الحسية إلى الدماغ، ثم تعود من ذات الطريق مرة أخرى كأوامر ونواه إلى أعضاء الجسد لتنفيذها. وهذا يفسر طول مدة بقاء الإنسان البدائي داخل اطار محدودية المعلومات والأفكار البسيطة لملايين السنين أثناء عصور البدائية والجهالة حينما بقي يدور في حلقة معلومات مادية مغلقة بسيطة محددة بمفاهيم واقعه البدائي البسيط معتمدًا بكل قدراته على موجودات الطبيعة الأولية البدائية وعلى ما يسمعه ويتصل به من واقعه المادي البكر، لذا لا عجب أن لم يستطع التطور والسمو إلى مرتبة مادية وروحية أرقى أثناء مراحل البدائية الأولى، ليس بسبب عدم قدرته العقلية على إجراء عملية التفكير، بل بسبب عدم وجود معلومـــات مادية في عالم الطبيعة لتتفاعل مفرداتها داخل عقله، مما منع القدرة على التفاعل والربط بين حلقتي الماديات والمعنويات. وهذا يفسر أيضًا سبب سكون جماعات الحضارات البدائية القديمة عند مستويات حضارية بسيطة محددة لم تستطع الخروج أو الإنفكاك عن نطاقها لترتقي إلى درجات أعلى من مستويات «دوراتها المعرفية المادية الجماعية» إلا بعد مجيء عصر الشامان والرائين والآلهات، حيث ظهرت أفكار وإبداعات بروح جديدة قدمها رجال بملكات معنوية روحانية فوقية «باراسايكولوجية» ساهمت في انبثاق قوة التفكير بشكل بسيط عند البدائي، فنهض ليبدأ مسيرة مراحل تقدمه وتطورها قبل وبعد عصر حضارات الكتابة. عندها بدأت الأمم في الإبداع والإختراع ثم التطور والرقي بشكل واضح إلى مراحل حضارية أعلى حيث تركت للأجيال كل تلك الآثار والعلامات عن مستوياتها الحضارية، يؤيد ذلك ما قاله أحد المفكرين:

- (فالبيئة تضع في العادة حدودًا لا تستطيع الثقافة تخطيها ما لم تتطعم بتغييرات جذرية تأتيها من الخارج)[213].

عندما يقول الفيلسوف أبيقور:

- (إن الناس هم بحاجة ليتلقنوا الدروس من الطبيعة)[214]، فمن الواضح أنه صاغ فكرته من النظر حوله ومن قياس مستوى علوم مجتمعه الذي كان في مرحلة متقدمة جدًا عن بداية زمن ظهور قوة الوعي والتفكير عند الإنسان البدائي الأول، فقد كان الفاصل الزمني بينهما يزيد على مئات الألوف من السنين، فلو دقق النظر، لوجد كل ما حوله من ثقافة ومخترعات وفنون وآلات،

إنما هي استنساخ وتكرار ـ مع قليل من التطوير ـ لما سبق واخترعته أقوام سابقة. أما اليوم فكثرة العلوم والبحوث والمؤلفات وتوفر وسائل التقنية الحديثة.. الخ، كل ذلك وغيره ساعد على الغور في عمق التاريخ للبحث عن أسباب وسبل تطور علوم الإنسان البدائي، وبالتالي توضح بطلان فكرة هذا الفيلسوف العملاق وتأكد عجز الإنسان البدائي الهمجي عن التعلّم والتلقّن ذاتيًا من الطبيعة، خاصة في أزمان مراحل تواجده الأولى قبل ملايين السنين، لأن الطبيعة ـ كما ذكرنا ـ كانت آنذاك فقيرة جرداء بكر لا تملك ما تقدمه للإنسان من علوم ومعارف مادية. وبذلك لا بد أن كان هناك سبيلًا أو سبل أخرى غير سبيل (الدروس من الطبيعة) اكتسب الانسان البدائي من خلالها علومه ومعارفه.

إن حقيقة اختصاص عمل جهاز المخ «الدماغ»، يقتصر على النقل والتوصيل (Connector) فقط ليس أكثر من ذلك، فهو مجرد جهاز آلي معقد جدًا يعمل بآلية مثل بقية أعضاء جسد الإنسان، حيث يقتصر عمله على توصيل المعلومات والأوامر من قوى حواس الجسد المادية إلى العقل المعنوي، ثم بالعكس، يستلم المعلومات من العقل ويعيدها للحواس المادية لتنفيذها، مثلما هو عمل جهاز عضلات القلب في ضخ واستلام سائل الدم أو مثل الرئتين وبقية أجهزة الجسد الأخرى؛ فعمليات التفكير والإبداع والتصور والتأمل المعنوية لا تتم داخل الدماغ المادي، بل تتم في حقيقتها داخل العقل المعنوي، لأن الأفكار والمعلومات هي بحد ذاتها أمورًا معنوية غير مادية، أي لا تخضع لنظام المادة (دخول الشيء في الشيء)، فالعقل هو مصدر نشوء الأفكار والإبداعات المعنوية وهو أساس ظهور جميع الاختراعات العظيمة ومؤسس الحضارات البشرية، لكنه مثل «جهاز» كومبيوتر عظيم لا يعمل إلا بوقود البرامج والمعلومات بعد توصيله بمصادر الطاقة الكهربية ـ بمعنى آخر، لا بد من وجود معلم يزود عقل الإنسان بالمعلومات ـ أو مثل مرآة لا تعكس الأنوار إلا بعد تسليط أضواء خارجية عليها. وما يثبت ذلك أن الفلاسفة الماديين وعلماء النفس والأعصاب وأخصائيو فسلجة جهاز الدماغ وكبار عظماء الجراحين، وبعدما عجزوا عن معرفة موقع استقرار المعلومات وأرشيف الصور ومواقع تكدّس العلوم والمعارف داخل كتلة الدماغ البشري المحدود؛ ما كان منهم للخروج من هذا المأزق العويص، إلا التخمين حدسًا وظنًا أن عملية التفكير تحصل إما بعمل كهربي مشترك لمجموعة الخلايا العصبية أو على سطح قشرة الدماغ الداخلية. لكن كل ذلك هو مجرد فرضيات وتخمينات لا تستند على أسس علمية مثبتة ولا يجزم أحدهم بصحتها، بل افترضت افتراضًا جزافيًا، مع إن علماء الطبيعة هم أول من يرفض أية معلومة علمية بغير التحقق منها مخبريًا وسريريًا. ومن الغريب أن يتبنى عالم الفلك كارل ساغان هذا التخمين الجزافي أيضًا، حينما يقول:

- (إن النظرة العلمية السائدة تنادي بأن العقل ما هو إلا كيفية إدراكنا لما يفعله المخ؛ بمعنى أنه خاصية من خواص مائة تريليون من الموصلات العصبية الموجودة في المخ)[215].

ومع إن الرجل مشهود له بالعلم ويحظى باحترام بالغ بين أقرانه من علماء الفلك النابغين، إلا أن رأيه جاء أيضًا مجرد تخمين ـ فقد عُرف عنه مناهضته للفكر المعنوي عمومًا ـ إضافة إلى أنه من غير ذوي الإختصاص في مجال علم فسلجة الدماغ والأعصاب، ولم يخرج رأيه عن كونه نوعًا من أنواع الاستنتاجات الظنية غير العلمية ومجرد مقولة إفتراضية غايتها على الأرجح إغلاق باب

البحث وقطع طريق الحوار في مناقشة هذه المعضلة المعنوية التي حيرت أولي الإختصاص من الفلاسفة والعلماء الماديين طرًا. كما أشار الأستاذ «بلكا» على صعوبة الخوض في مثل هذه المسائل الفلسفية ودعوته للكف عنها، بقوله:

- (أدى الوعي الفلسفي الحديث بقصور العقل عن اقتحام كثير من المجالات بنجاح... إلى دعوة الإنسان ألا يضيع جهده في هذه الظلمات العميقة التي لم يفلح يومًا في اختراقها)[216].

فلو كانت عمليات التفكير والإستيعاب والتأمل والتصوّر وغيرها من عمليات الفكر المعقدة تجري داخل خلايا الدماغ العصبية، فما هو العامل المشترك الذي ينسق وينظم بين أنشطتها؟ ألا يجب أن يكون لهذه العملية المعقدة مركزًا يتحكم بشبكتها العصبية المليونية، ألا يفترض وجود منظم عام لهذه الكمية الهائلة من الخلايا المنتظمة والمُنسَقة والمُبرمجة مثلما هو الحال مع جميع أجهزة وأعضاء الجسد اللاإرادية؟ كيف يكون الدماغ بهذا التنظيم والهندسة البديعة في التفكير والإنجازات العلمية الخارقة، ولا يوجد ما يشرف على تنظيمه؟ إن مجرد عمل خلايا الدماغ بهذا الإبداع، لهو دليل جليّ على دقة نظام عملها الذي يتطلب بالضرورة أن يكون لها رأس منظم ومدبّر، وإلا فالنتيجة الحتمية لقوة التفكير ستكون هي الفوضى والتخبط. فأين هو مركز تنظيمها؟ ولو كان الأمر بهذه السهولة، فهذا يعني أن كتلة جهاز المخ (الدماغ) داخل الجمجمة، هي الأصل وهي الجوهر، بينما يكون العقل أحد فروعها وقوة من قواها المادية، ولكان جهاز المخ أيضًا هو المسيّر الرئيس والمتحكم في إبداعات العقل ولكل ما يستنتجه، وبهذا يكون من اليسير على علماء فسلجة الدماغ معرفة مكان تواجد المعارف والعلوم وصور الموجودات داخل رأس الإنسان، باعتبار إن العقل فرعًا ماديًا من فروع المخ وجزءًا من أجزاءه. لكن هذا الظن يخالف سبيل العلم التجريبي العام الذي يعتمد على تتبع سير العلوم والمعارف والأفكار وأماكن تجمعها بالأدلة والبراهين العلمية، إذ لا يكفي مجرد القول أن العقل موجود في الموصلات العصبية أو في قشرة الدماغ الباطنية دون أدلة علمية محققة، ثم يترك الموضوع ويبعد جانبًا ويغلق عند هذا الحد والمقطع، فمثل هذه التخريجات ما هي إلا ضربًا من ضروب التنجيم والوهم، يرفضها الماديون والعلمانيون قبل الروحانيون.

(6)
حاستي السمع والبصر

(السمع والأبصار)[217]

(من له إذن فليسمع)[218]،

(من يسمع فليسمع)[219].

ما يُتفق عليه أن حاسة البصر هي أعظم حواس الجسد بعد جهاز الدماغ، فمن خلالها قرأت العلوم واكتسبت المعارف وتعلّم الانسان كيف يوجد النار ويزرع الحبوب ويبني البيوت ويوجد الحِرف والصنائع وينشئ حضاراته ويراكم علومه وينقلها من جيل إلى جيل. وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان.

ولكن لو عدنا في الزمن إلى بداية وجود الجنس البشري حيث لم يعرف ولم يع الإنسان من محيطه شيئًا، فسيختلف هذا الميزان وتختل موازينه ونجد صعوبة في تطبيق هذه البديهة على الواقع الإجتماعي القديم ونجد أن قناة أساس المعرفة كان من حاسة أخرى. لماذا؟ لأننا لو تصورنا حقيقة واقع الانسان البدائي في عالمه البسيط الخالي بأي شكل وصورة من معالم الحضارة والمعارف، فسنجد من الصعب الاقتناع أو تصور تعلمه شيئًا من خلال بصره، لأن ما كان يحيط به من موجودات لا تعدو كونها سماء مزينة بالنجوم والكواكب وأرض مفروشة بالأحراش والمياه والحجارة والرمال وأتربة وحيوانات مختلفة، وهنا نتسائل:

- ماذا يمكن للانسان أن يتعلم من مشاهداته تلك، وماذا يمكن لهذه الموجودات أن تثير فيه من عمليات التفكير وإبداعات التأمل؟ ولو كان هناك أي مجال لتعلم شيئ منها، لما بقيت البشرية على حالة البدائية التامة لملايين السنين حتى مجيء العصر الحجري الحديث.

إن مجرد النظر إلى هذه الموجودات البسيطة، لا يحث الذهن البشري على التفاعل والتفكير والإبداع والاستنتاج مهما طال الزمن، دليل ذلك ما نراه في الوقت الحاضر من فروقات شاسعة بين مستوى معارف إبن الصحراء والبادية والغابات المنعزل عن حواضر المدن وبين إبن المدينة، فالأول يبقى عقله بسيطًا ومعارفه واطلاعاته قليلة بما يوازي بساطة واقعه، بينما يتطور عقل ابن المدينة بنفس سرعة تطور حضارة مجتمعه.

أما بالنسبة لحاسة السمع، فطالما كان الواقع الطبيعي للإنسان البدائي خلوًا من المعارف والعلوم في أول ظهوره، ولغته لا تعدو عن إشارات وأصوات وصيحات غير مفهومة، لذلك لم يكن لحاسة السمع أيضًا نفع في اكتساب شيء من العلوم، وذلك بسبب حداثة وجوده على الأرض وعدم توفر علوم وأفكار يسمعها أو يتبادلها في كلامه مع غيره.

إذن.. فطالما كانت الطبيعة بدائية بكر جرداء جامدة المعالم لا تتغير ولا يتطور منها شيء، والإنسان حديث في وجوده لا يملك علومًا أو لغة يتحاور بها، فمن المؤكد أن الإنسان البدائي لم يستطع تعلّم شيئ من الطبيعة واكتفى بمشاهداته البسيطة فقط. وبهذا يكون مستوى فائدة حاستي السمع والبصر عند البدائي متساوية تقريبا، فلا هو قادر على التعلم من خلال سماع الأصوات والصياح، ولا هو مستفيد من رؤية مشاهد عالم الطبيعة، فالأرض خالية تمامًا من كل ما من شأنه تقديم أية معلومة جديدة أو متغيرة.

ما يترتب على هذه الحالة، أي (عدم استفادة البدائي الأول من حاستي السمع والبصر)، أن العقل أيضًا سيكون عاطلًا دون قدرة على التفكير ومن ثم الاستنتاج، لأن عملية التفكير لن تتم إلا عند تزويد العقل بالمعلومات، وطالما لم تكن هناك علوم أو معلومات، فستكون حالة الانسان في البدء، هي العجز التام عن التفكير او تبادل المعلومات مع غيره طالما ليس بمقدوره الاستفادة من حاستي السمع والبصر والعقل.

من هذا يمكن تقسيم مجمل تاريخ عملية تعلّم الجنس البشري إلى ثلاث مراحل، الأولى بدائية تامة امتدت لملايين السنين قبل ظهور مَلَكَة الوعي حينما كان يعيش مثل بقية الموجودات، جلَّ اهتمامه خلالها كان منصبًا على الطعام والشراب والمحافظة على وجوده؛ والثانية بدائية أرقى بنسبة قليلة جدًا، بدأت منذ مرحلة ظهور الوعي واستعمال الإشارات والأصوات امتدت لملايين السنين أيضًا حتى بداية العصر الحجري القديم تقريبًا، كان الدور الأعظم لطريقة التعلّم خلالها يعتمد على السماع بعدما تحسن أداء حنجرته وحبالها الصوتية وبدأ يستعمل بعض الأصوات والكلمات بشكل بسيط، بينما حالة الطبيعة كانت ما تزال بدائية على شكلها السابق القديم. أما المرحلة الثالثة فبدأت حينما حلّ العصر الحجري وظهرت المصنوعات الحجرية البسيطة وبدأ واقع الحياة ينال شيئًا من التطور البسيط جدًا والانسان يسمع المعلومة البسيطة ويستوعبها فيفاعلها في عقله البسيط لتعود على شكل أفكار بدائية تدفعه للتفكير، وكان من نتائجها استفادته من الأحجار والعظام والأغصان. وفي هذه المرحلة بدأت حاستي السمع والبصر تأخذان دورًا جديدًا وتتشاركان كمصدرين رئيسيين للعلوم والمعارف. وبهذا بدأ العقل أولى حالات التفكير البسيط.

نعود لنتذكر اننا نتكلم عن أحوال الإنسان قبل تحديد الأصوات واكتشاف أهميتها، ناهيك عن ظهور الكتابة، وقبل ظهور الحضارات المشهورة، وقبل مرحلة القنص والصيد وجمع الثمار البرية وسكن الكهوف وظهور الزراعة وبناء البيوت البسيطة واكتشاف النار، فالكلام هنا عن حالة الإنسان الهمجي عندما كان شبيهًا بالحيوان في عقليته وسلوكه؛ نتكلم عن إنسان ما قبل التاريخ حينما لم يكن هناك ما يتعلمه من الطبيعة الصماء الجرداء، ففي ذلك الزمان وفي تلك الحالة كان أشبه بطفل صغير مبصر لكنه أصمّ يعتمد تمامًا على تقليد ما يراه في الطبيعة حوله.

لإعطاء صورة شبه واضحة لهذه الحالة، فلو افترضنا ولادة طفل أصَم، فسيبقى جاهلًا عن العلم والمعرفة طوال حياته وسيكون جلَّ اعتماده على الرؤية والتقليد دون فهم حقيقة معاني ما يجري ويدور حوله، لأنه عاجز عن سماع الأصوات والكلمات ومن ثم تقليدها وتعلم النطق وبالتالي التدرج في مستواه المعرفي والعلمي، لذلك ترتبط حالة الخَرَس دائما بحالة الصَمَم، فطالما لا يسمع الإنسان، فهو لن يفهم ولن يقلّد ولا يجاري أقرانه في مستوياتهم العلمية. وهذا يؤدي حتمًا إلى

محدودية المعرفة لدرجة كبيرة بكل تأكيد، وهو أمر مثبت عند المختصين بهذه الحالات، ولولا ظهور لغة الإشارات لما خرجت شريحة الصمّ من جهالتها ولما استطاعوا بالتدريج ـ في بعض الحارت ـ تعلم النطق ـ ولو بصعوبة ـ وذلك لوجود علاقة قوية بين السمع ومحاولة استعمال الحنجرة وأوتارها. بينما على العكس من ذلك، يبقى الطفل الأعمى معتمدًا على السماع ويتمكن بمساعدة المحيطين به من تمييز الأصوات والحروف وبالتالي تعلّم نطق الكلمات وإدراك معانيها ومجاراة الآخرين في علومهم وحواراتهم مستعينًا ببقية الحواس مثل اللمس والشم والتذوق، وبذلك تكون له القدرة إذا سمحت له الظروف، أن يكون مفوّهًا أو شاعرًا أو حكيمًا أو فيلسوفًا.

تنقلنا هذه الفكرة إلى حالة الرجل البدائي، فلقد كان مبصرًا سميعًا كامل الحواس، ولكن ماذا كان يرى وماذا كان يسمع والوجود حوله خراب وبدائية، إضافة إلى أنه كان يفتقر إلى لغة ناضجة أو مفهومة ليتكلم بها. أما حاسة البصر، فلم يكن لها فائدة كبيرة تعينه إلا في تقليد الحيوانات حينما تأكل الحشائش والثمار وتشرب المياه وتفر من الأخطار. وهذا أقصى ما كان يمكن مشاهدته وعمله.

لهذا يمكن الاستنتاج أن حاسة السمع هي الطريق الأول لاكتساب العلوم حينما بدأ الإنسان في استعمال الأصوات، ولولاها، لبقي جاهلًا لا يعلم من أمره شيئًا حتى اليوم. أما حاسة البصر فيأتي دورها في المقام الثاني (المساعد)، فحتى عملية تعلم القراءة والكتابة فيما بعد، بدأت بسماع نطق الحروف أثناء مشاهدة أشكالها، ولولا تعلّم طريقة نطقها، لما تمكن المبصر التمييز بين تباين أشكالها وطرق نطقها خاصة مع تعقيدات سبل كتابة الحروف القديمة. بينما لا يؤدي ـ في المقابل ـ فقدان البصر إلى الجهالة، بل إلى عدم معرفة القراءة والكتابة وممارسة المهن الدقيقة.

لقد كان واقع الحياة البدائية بسيط جدًا ولا يمكن استخلاص الكثير من معلومات الطبيعة من خلال البصر، وهذا ما تسبب في عجز العقل البشري عن الإبداع والاختراع لملايين السنين لخلو الواقع من المعلومات الأولية.

إذن نستنتج بالضرورة أن الانسان الأول قد تعلم من خلال السماع. لكننا نقف أمام معضلة أخرى، فاذا كان عقل الانسان البدائي خال من المعارف الأولية ولغته بسيطة ساذجة تقتصر على الأصوات والصياح المبهم وتفتقر للمفردات المعقدة أو المركبة وجميع بقية البشر من حوله بذات مستواه، فماذا كان يسمع لكسب معارفه؟ ومن كان يعلمه ويزوده بجديد المعلومات؟ فمثل هذه الحالة التامة من البدائية المطلقة تبطل فائدة السمع مثلما تبطل فائدة البصر.

إذن كيف تعلّم الانسان في عصور ما قبل التاريخ وبأي وسيلة؟ صحيح أن البدائية استمرت ملايين السنين وهذا يفسر حداثة عمر اللغات الناضجة بعد زمن طويل من وجود الإنسان، وكذلك حداثة علوم البشر التي يقدر علماء الحضارات والأنثروبولوجيا أعمار بداية ثورتها بحدود عشرة ألف سنة قبل الميلاد، وفي الوقت نفسه يقدرون عمر ظهور الكتابة بأقل من ذلك، أي أن تناقل العلوم الشفاهية ظهر قبل اختراع الكتابة ومن بعد ذلك استطاع الانسان توثيق علومه وتدوينها بعدما ظهرت الكتابة. وطالما يتفق العلماء أن البشرية في البدء عاشت حياة بدائية شبيهة بحياة الحيوان. لذا نستنتج من ذلك، عدم وجود ما يستفاد منه للتعلم بالنظر أو يكتسب بالسماع، رغم امتلاك ووجود حاستي السمع والبصر وبقية حواس الجسد ومن قبلها قوتي التفكّر والوعي.

لم يشارك الفلاسفة وعلماء الاختصاص المعاصرين في الجواب على هذا السؤال بما يروي الغليل، وبقيت تعليلاتهم تتخللها فجوات واضحة. بينما بقيت كتب الأديان والحضارات والأساطير تعلن بشكل لا لبس فيه أن تعليم الإنسان بدأ من جانب الآلهة والملوك ومن بعدهم الكهنة والسحرة والشامان. يؤيد ذلك ما نجده بين صفحات هذه المدونات والأساطير، حيث لا يخلو كتابًا أو سفرًا قديمًا من الإشارة إلى دور تدخل الآلهة في توفير العلوم والمعارف وتعليم الحِرف واختراعها؛ فما من علم أو حرفة إلا ونسبت إلى آلهة قديمة إذا كان ذلك في أيام ملوك الفراعنة أو ملوك أرض الرافدين أو في الصين أو في حضارات أوروبا القديمة امتدادًا إلى حضارات الأمريكتين. ومع ذلك، أهمل المختصون هذه الإشارات المهمة ولم يولوها آذانًا صاغية مفضلين تفسير مجريات تاريخ الإنسان والطبيعة بمقاييس العلوم المادية. فالآلهة ـ كما تشير مدونات الأساطير القديمة ـ هم أول من ملك العلوم وأول من قدمها للبشر عبر العلاقة بين اللسان والأذن، فكان اللسان هو سبيل التعلّم ونقل العلوم وصنع حضارات الانسان. بل وأكثر من ذلك، حيث يبدو أن الآلهة هم من علَّموا البشر كيف يستعملون ألسنتهم ويحددون نطق الحروف والكلمات وهم الذين بدأوا بتمييز الأشياء وتسميتها كل في منطقته وبلغته، كما وردت الإشارة لذلك:

- (وقد كان الشامانات شعراء أيضا ورواة للقصص، وتشير الأليادة إلى أن أحد الشامانات كان يعرف من مفردات اللغة إثتي عشر ألف كلمة، وهو يماثل ثلاثة أضعاف ما تعرفه القبيلة)[220].

لكن هناك نقطة مهمة أخرى، فواقع قراءة التاريخ البشري يقول أن الحضارات بدأت منذ بداية العصر الحجري الحديث، وهذا يعني حتمًا أنه كان هناك بالفعل من العلوم ما يسمع وما يرى، وطالما أثبتنا إن الانسان لا يتعلم إلا بمعلم وعاش قبل ذلك حياة جاهلية مطلقة، وطالما علمنا من خلال اللقى والآثار أن علوم البشر وحضاراته بدأت تقريبًا بحدود بداية العصر الحجري الأخير؛ إذن هل يمكن تعليل ظهور العلوم بالقول أنه كانت هناك طفرة جينية أو عقلية حصلت للبشر قبل اثنى عشر ألف سنة تقريبًا؟ وإذا كان الحال كذلك، فما هو سبب بداية حركتها ونشاطها في هذه الفترة بالذات، بينما مرت على البشرية ملايين السنين، عاشت خلالها في حالة جهالة مطلقة دون إرتقاء حضاري ملموس؟ هل يمكن أن كانت هناك مرحلة روحية انبثقت مع مجيء كور التوحيد الذي ابتدأ بآدم وانتهى بالخاتم، لأنه من المستحيل التصوّر أو الاعتقاد أن تكون هناك قفزة علمية جبارة بهذا الشكل العظيم بعدما عاش البشر في همجية وبدائية تامة لملايين السنين، ثم فجأة يبدأ بإنشاء حضارات راقية في الشرقين الأوسط والأقصى[221]! فالقول إن كل ذلك لم يعتمد على خزين معرفي مسبق وإنه حصل فجأة مبتدءًا بممارسة علوم الفلك والتنجيم والطب والصيدلة والزراعة والهندسة واختراع النار والتعدين والعجلة والقوس والسهم، وإبداع وتأسيس حضارات راقية بعلوم ومخترعات أولية بقيت أساسًا لعلوم الحضارة الحالية، هو أمر لا يتوافق مع التدرج المرحلي العقلي والعلمي لحالة الإنسان عبر التاريخ، فهنالك طفرة علمية مرحلية غير عادية.

من الغريب أن نجد خلال مجمل تاريخ وجود الانسان، حصول قفزتان حضاريتان غريبتان، الأولى تلك الطفرة العلمية العجيبة في بداية العصر الحجري الحديث (قبل اثنى عشر ألف سنة تقريبا) والتي تبعها ظهور حضارات البشر القديمة، ثم الطفرة الجبارة الثانية خلال القرنين الماضيين (الثامن والتاسع عشر). فلو تفحصنا بداية هاتين الفترتين كلٌ على حدة، لوجدنا حركة

الخط البياني لمسيرة العلوم والاختراعات قبل بداية العصر الحجري الحديث يسير بمستوى أفقي تمامًا، ثم بدأ بالارتفاع بنسبة ضئيلة جدًا في بدايته حتى وصل إلى زمن ظهور حضارات الكتابة. لكن ما يثير العجب أن ينهض هذا التطور العلمي ليرتفع ويتوجه خطه البياني في مسيرته، منقلبًا نحو الإتجاه العمودي مع بداية القرن التاسع عشر تقريبًا، حيث بدأت الإنفجارات العلمية العجيبة وظهرت مخترعات الميكانيك العظيمة والتكنولوجيا وتطورت حينئذ جميع العلوم، بل وظهر كثير منها لأول مرة. حقًا إنه لأمر محيّر لا بد له من تفسير علمي، وإلا فلا يمكن حصول هاتين الطفرتين العلمية والعقلية وظهور جميع هذه الإكتشافات والمخترعات دون سبب واضح بعدما أمضى الإنسان تاريخه المليوني القديم أشبه بحالة الحيوان.

ذكر أحد العلماء أن حوادث فلكية وكونية عظيمة حصلت في بداية العصر الحجري الحديث، أثرت بأشكال عجيبة على جوّ الأرض وأحوال الكائنات وأهلكت الكثير من الحيوانات الضخمة. مما يدفع للتساؤل إذا صح ذلك:

- هل كان لتلك الأحداث الفلكية الكونية تأثير على تطور عقلية البشر أيضًا؟

يشرح العالم س. بريوشينكين ما جرى من أحداث حضارية وفلكية وجغرافية وبيئية حينذاك قائلًا:

- (ونذكر في هذا السياق أن الشعُرى لم يكن في العصر الممتد بين 13000 ـ 10600 ق.م. نجمًا مرئيًا بالنسبة للمصريين، أما آخر التبدلات الجيومغناطيسية فقد وقعت في حوالي الألف 11 ق.م. وقال هينكوك عن هذا في كتابه «آثار الآلهة» ما يلي: «حسب ما نُشر في مجلة «نيتشكور» ومجلة «نيوساينتس» إن آخر التبدلات الجيومغناطيسية حدثت منذ 12400 عام فقط:

- في الألف 11 ق.م. ومن الواضح أن هذا الألف هو نفسه الذي هلكت فيه ثقافة التياواناكيين الأنديزية القديمة... ووقتئذ انقرض في مختلف أرجاء العالم كم مهول من شتى أنواع الثدييات الكبرى».. وكان المؤلف قد أكد قبل ذلك على أنه من الممكن أن تؤثر انفجارات النجوم الفائقة الجدّة التي لا تقع بعيدًا عن النظام الشمسي، على العمليات التكتونية[222]، كما على التبدلات الجيومغناطيسية. وربما يكون أحد اشتعالات الشعُرى قد وقع بين الألف 13 والألف 11 ق.م.، وأدى إلى تبدلات جيومغناطيسية وانقراض أنواع من الحيوانات. وقد ساق أ. إ. بيتشينكين في كتابه «أسرار وادي الأهرامات» معلومات مفصلة عن تلك الكارثة: «حسب معطيات و. ف. ليبي، أنه منذ حوالي 10400 سنة خلت، اختفت آثار الإنسان في القارة الأمريكية. ويُرصد الفاصل عينه في أوروبا. وفي الكهوف الفرانكوكانتابرية تختفي الرسـومات في الفاصل نفسه 10 ـ 12 ألف سنة خلت. ويرصد هذا الانقطاع في مصر أيضًا، وفي آسيا الوسطى.. وكانت الألفان 10 ـ 9 ق.م. زمنًا هلكت فيه الحيوانات جماعات: الماموث، ووحيد القرن الأوبر، والمستودون، والميغاتير، والهيبتودون، والنمور ذات الأنياب النصلية ـ في اوروبا، وآسيا، وأمريكا الشمالية والجنوبية.. لقد أرخ عمر واحدة من أكبر مقابر الماموث في وادي نهر بيريلياخ في ياقوتيا بالعام 11830 ق.م.»)[223].

أما بالنسبة للقرن الثامن والتاسع عشر، فإن أحداثًا فلكية عجيبة حصلت في هذين القرنين، سجلها علماء الفلك ونشرتها الصحف والمجلات في وقتها بشكل مفصل لدرجة أن اعتبرها العديد من

سكان أوروبا وأمريكا من علامات حلول يوم القيامة بعدما أحدثت بينهم رعبًا كبيرًا. نقتطف منها التالي:

- «اليوم المظلم، 19 مايو 1780م، هكذا سمي في إشارة إلى ظلمة ذلك اليوم الذي شمل منطقةNew England في شمال شرق أمريكا. إن السبب الحقيقي لهذه الظاهرة النادرة غير معروف». وكتب Samuel Tenny في مجموعته لـ Massachusetts Historical Society سنة 1792م:

- «استمر هذا الظلام الدامس حتى الساعة الواحدة ظهرًا تقريبا، رغم أن القمر كان كاملًا في اليوم السابق». وكتب أستاذ الرياضيات البروفسور Denison Olmsted من جامعة Yale في American Journal of Science:

- «قدَّم صباح 13 نوفمبر 1833م، عرضًا مشهودًا لظاهرة سميت «قذائف النجوم»، ومن المرجح أنها أكثر شمولًا وروعة من أي ظاهرة مشابهة سجلت حتى اليوم.. ومن الوارد أنه لم تحصل من قبل مثل هذه الظاهرة السماوية في هذه البلاد منذ أول استيطانها، حيث استقبلت بقدر كبير من الرضى والســرور من قبل شريحة معينة من المشاهدين، أو بدرجة كبيرة من الغرابة والخوف من قبل شريحة أخرى. ولقد بقيت ظاهرة النيازك السماوية موضوعا رئيسيًا في محادثات الناس». ووصف Simon Newcomb في مجلة Astronomy for Everybody ظاهرة تساقط النجوم هذه:

- «أنها أغرب ما شوهد حتى الآن». وكتب عالم الفلك الفرنســي Flammarion فيPopular Astronomy:

- «لقد قارن المراقب Olmsted من بوسطن، في لحظة ذروة تساقط كرات النجوم، بنصف أعداد كرات الثلج التي تتساقط في يوم عادي مثلج». وقدّر البروفيسور Olmstedتلتي كملثلج وانا لات التي سادت آنذاك أعداد النجوم المتساقطة بـ 34,640 خلال الساعة الواحدة. وجاء تقديره هذا، بعد أن لاحظ تناقصًا في أعداد النجوم المتساقطة بدرجة تسمح له بعمل مثل هذه الحسبة. وقال الدكتور Humphreys رئيس كلية القديس يوحنا في «أنابوليس، ميريلاند» في تقريره لصحيفة العلوم الأمريكية: «بكلمات مختصرة، كان سقوطها مثل وفر الثلج»[224].

من جانبه، يصف الأستاذ كولن ولسن، القرن التاسع عشر بما يلي:

- (ألا يوحي ما حدث فجأة في القرن التاسع عشر بكل هذا؟ لقد كان القرن التاسع عشر هو عصر الرومانتيكية، ولأول مرة في التاريخ، كفَّ الإنسان عن التفكير في نفسه بوصفه حيوانًا أو عبدًا، ورأى نفسه بوصفه «إلهًا» محتملًا، أو كما لو كان قادرًا على أن يكون إلهًا، وقد كانت كل صيحات التمرد ضد «الله». من، دي ساد، إلى «مانفريد» بايرون، إلى «قطاع الطرق» عند شيللر، إلى «فاوست» جوته، إلى عباقرة هوفمان المجانين ـ هي التعبيرات المختلفة عن هذه الروح الجديدة.. كانت هذه هي اللحظة المناسبة الصحيحة، وكان الإنسان يشرع في فهم نفسه)[225].

الخلاصة:

- ما يمكن استنتاجه إن الإنسان البدائي كان عاجز تمامًا في بداية ظهوره على الأرض من تعلم أو تعليم أي شيء، لا عن طريق الرؤية ولا عن طريق السماع ولا حتى عن طريق العقل أو بقية حواس الجسد الأخرى.! ولم تبدأ مرحلة التعلّم الحقيقي الجاد، إلا مع مجيء زمن العصر الحجري، بينما كانت القفزة العلمية الكبرى خلال القرنين الماضيين.

فيا ترى ماذا حصل حتى انتقل هذا الكائن من مستواه الحيواني إلى مستوى إنسان يتحكم بقوانين الطبيعة ويمخر مجاهل فضاء السماء ويتنقل بين أفلاكها؟!

سنقرأ في الفصول اللاحقة بعض أجوبة هذه الأسئلة.

الباب الثاني
أساطير الإختراعات البدائية

(7)
اختراع الرسوم والكتابة

[الظاهر أن الكتابة من نتائج التجارة، وهي إحدى وسائل التجارة المسهلة لأمورها، فها هنا أيضا ترى الثقافة كم هي مدينة للتجارة؛ ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية، اتحدت الطائفتان: الدنيوية والدينية، وهما طائفتان متنازعتان عادة، اتحدتا مؤقتًا لتتعاونا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام][226].

ويل ديورانت

بعدما توضحت لنا سبل التفكير عند الإنسان البدائي ـ والإنسان عمومًا ـ وكيفية انقطاع علاقته بالمعنويات الفكرية طالما هو مرتبط بدورة الإحساسات المادية التي تبدأ بحواس الجسد ثم المخ، ثم تعود من المخ إلى حواس الجسد مرة أخرى. ننتقل إلى عدد من المخترعات والمكتشفات التي هي في أصلها معنوية أيضًا وكيف تسنى للإنسان البدائي معرفتها أو إيجادها. حيث يتفق علماء الاجتماع والحضارات والانثروبولوجيا طرًا على عظمة اختراعي الرسم والكتابة، وينسبون للثانية الفضل الأكبر في الفصل بين تاريخ البشرية البدائي القديم وتاريخ الحضارات الأخير، ومثل هذا الإنجاز الخارق، يستحق لقبًا أرفع بكثير من لقب «اختراع»، كما قال عنه أحد علماء اللغات وخبراؤها:

- (هي أقرب إلى ان تكون واحدة من المستحدثات ذات الانعطاف الحضاري الأعظم الذي قام به الإنسان في يوم من الأيام)[227]؛ لقد فَصَلَ اختراع الكتابة بين ملايين السنين البدائية القديمة منذ بدء وجود الانسان على الارض وبين تاريخ قريب نسبيًا لا يتعدى بضعة آلاف من السنين[228].

ومثل هذه النسبة المليونية بين الفترتين كما قدرها علماء الجيولوجيا والاجتماع[229]، تبدو غير منطقية ويصعب تفسير هذا الفارق الزمني الشاسع، وما سبب حدوثها؟

يجزم العلماء فيما يخص فنون الرسم والنحت أنهما اختراعان أقدم عمرًا من ظهور الكتابة، فقد وجدوا أدلة تثبت ذلك في عدد من كهوف العالم القديم، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- (سقف كهف ألتاميرا في أسبانيا الشمالية «عهد الباليوليت الأعلى، 20 ألف سنة قبل الميلاد») [230].

إنه لأمر غاية في الغرابة والتعقيد والإعجاز أيضًا أن يخطر في ذهن انسان بدائي تحويل موجودات الطبيعة المادية الملموسة كالأشجار والحيوانات والبشر، من واقعها الحركي المجسّد ذي الأبعاد الثلاثة إلى رسوم وأشكال سطحية ثابتة جامدة ذات بعدين على جدران الكهوف والمغارات! فيا ترى ما هو الدافع لهذا التحول، ومن أين جاءت هذه الفكرة العبقرية لتطرق عقل الانسان البدائي؟ ولماذا عاشت البشرية عصورها الهمجية والحجرية لملايين السنين وهي لا تعرف عن فن الرسم أو الكتابة شيئًا، و«فجأة» تتحول بهذا الشكل العجيب وتخترعها؟

إن ما يقدمه علماء النفس والجيولوجيا والاجتماع وعلماء الحضارات وغيرهم من تعليل بأنها نوع من تعابير الخوف أو إتقاء مخاطر الحيوانات الشرسة أو لغرض استدراج ما يقتات عليه الانسان من حيوانات لاصطيادها وأكلها، لهو تعليل بسيط لا يمكن تمريره بهذه السهولة، حيث وجد بين الرسومات المختلفة إضافة إلى صور الحيوانات الأليفة، كالغزلان والأرانب والمعيز والأبقار، صور أفيال ونمور ودببة وحيوانات كاسرة مختلفة، وبهذا لا نجد لفكرة «استدراج» الحيوانات لغاية الطعام سبيلًا لمعقوليتها. أما التعليل الثاني، فهي فكرة أكثر صعوبة وغرابة في تقبلها، إذ لا يمكن تصوّر هروب أو ابتعاد الحيوانات الشرسة من الكهوف لمجرد رؤية رسومات أشكالها في تلك الأماكن المظلمة. ثم لماذا تهرب هذه، بينما تتقرب الحيوانات الأليفة؟

بهذا لا بد أن كان هناك سبب معنوي آخر، دفع الانسان البدائي لتحويل أحاسيسه المعنوية وتصوّراته الذهنية إلى ملموسات مادية كالرسومات. وكما قلنا، بما أنه يصعب التقريب والربط بين الماديات والمعنويات عند الرجل البدائي دون امتلاك مفاهيم دقيقة شفافة لمعرفة حقائق المعنويات ثم استيعابها وترجمتها إلى شكل من أشكال الماديات مثل فن الرسم الجميل، خاصة إذا علمنا أن أماكن بعض هذه الرسومات كانت في أعماق ظلمات الكهوف ومنحنيات زواياها لدرجة أن يصعب الوصول اليها إلا بحركات جسدية شاقة. لذا فمسألة الخوف من الحيوانات والظواهر الطبيعية، تدفعنا لتقليب جوانب هذا التعليل، لأن الانسان الهمجي القديم لم يكن كما نتصور أحواله هذا اليوم ولا حتى قبل عدة آلاف من السنين، فقد سبق وقلنا أنه كان لا يعقل حقائق الأمور حتى يميّز بينها، فلقد كان كطفل صغير لا يفقه من واقعه شيئًا، وبذا كان من الصعب عليه تمييز حالات الخطر أو الشعور بالخوف، بل يمكن القول إن الأمر كان على عكس ذلك، فواقعه البدائي كان يتطلب منه الجرأة والجسارة والشجاعة لمقارعة تلك الحيوانات الشرسة لاغتصاب لقمته والحفاظ على حياته، لقد كان مثل طفل صغير يرمي بنفسه في المهالك وهو يلهو ويمرح غير مدرك للمخاطر. وعلى ذات المنوال، فالرجل الهمجي القديم لم يكن قد دخل مرحلة الوعي حتى يعرف الخوف والرعب أو

يستشعر برهبة الأخطار أو رهافة الأحاسيس واستذواق جمال الطبيعة والمحبة ثم القدرة على ترجمتها إلى صور ورسومات. وبهذا لا يبقى من دافع، إلا أن كان نوعًا من التابوهات والمقدسات والمحرمات كتعبير مرتبط بنوع من أشكال العبادات القديمة، خاصة بعدما وجد الآثاريون أدلة مادية تثبت وجود المعتقدات الدينية لدى إنسان نياندرتال قبل أكثر من ثمانين أو مائة ألف سنة، فلقد عثر الباحثون داخل أحد الكهوف في فرنسا على حجر (إنفصل وعليه صورة محفورة لامرأة ـ هي إله الخصوبة ـ حفرت حوالي عام 20,000 قبل الميلاد)[231]. وبهذا نستدل من ذلك على أمرين، قدم زمان العقائد الدينية وطول عمر كور عبادة تعدد الآلهة الذي سبق عصر أديان التوحيد العالمية.

وعندما نعلم أن هذه الرسومات كانت في غاية الإبداع والفن الرفيع حتى اعتبرها ذوو الاختصاص موازية لإبداعات أفضل فناني العصر، كما قال السير هربرت ريد:

-)إن أفضل رسومات كهوف ألتاميرا، ونيو Niaux، ولاسكو تكشف عن مهارة لا تقل عن مهارة بيزانيلو أو بيكاسو»)[232]. فبذا لا نجد لموقعها التاريخي من سبيل، إلا اعتبارها حلقة من حلقات فترات ابداعات الوعي البشري المتسلسل، وهذا يدفع للاعتقاد أنها لم تكن مجرد طفرة إبداع فردية، بل لا بد وأن تكون حالة عامة سبقتها عصور اكتساب خبرات وتعليم دام عشرات الألوف من السنين حتى بدأ ذلك البدائي الهمجي الإحساس بمشاعر الجمال والقدرة على التصوّر واستحسان وتعلّم فن الرسم وتقدير أهميته. وطالما علمنا من خلال اللقى والآثار أن إنسان نياندرتال كان من الهمجية والتأخر ما يتفق معه استحالة ظهور مثل هذه الفنون والتدرجات العلمية والقدرات الذهنية، لذا لا سبيل لتفسير ظهورها إلا ممن كانوا على مستوى فوقي أعلى مرتبة من عامة البشر، ولديهم معرفة بتركيب وخلط المواد الكيمياوية لصنع الأصباغ الثابتة وسابق معرفة بصناعة النار وإيجادها ليستضيئوا بها داخل ثنايا تلك الأماكن المظلمة، إضافة إلى حتمية ـ وهذا هو الأهم ـ امتلاكهم موهبة القدرة على الربط بين الماديات والمعنويات لإختراع فن الرسم التي يصعب على كثير من البشر اكتسابها إلا قلة قليلة من الموهوبين.

إن فكرة ظهور فنون الرسم والنحت، هي فكرة إعجازية لا تقل عظمتها عن فكرة اختراع الكتابة، إذا لم نقل أعظم منها، لأنها كانت البداية التي مهدت لظهور معجزة فن الكتابة. فلقد كان فن الرسم اختراعًا عظيمًا انبثق من فراغ وعدم، بينما يمكن اعتبار فكرة اختراع نحت الحرف وكتابة الكلمة مرحلة تطويرية متدرجة ربطت مرحلة الرسوم والصور بمرحلة الرموز والأشكال المقروءة، خاصة عندما وجد الباحثون أن طريقة الكتابة قبل أن يخترعها العراقيون ويطورها التجار الفينيقيون كانت تمتزج حروفها برسومات موروثة وعلامات سلع تجارية من حضارات سابقة لها[233]. فتحويل الواقع الملموس المجسّد بأبعاده الثلاثية إلى رسوم سطحية بأبعاد ثنائية مرمّزة، هي بحد ذاتها مرحلة عظيمة وقفزة علمية واسعة بحاجة إلى تتبع آثارها؛ أما لو توقفنا عند عملية الرسم والتشبيه ومَلَكة التصوّر العقلية، وقلنا أن الجسم المرسوم كان متوفرا في الطبيعة لذا كان يسهل رسم هيئته، فستبقى مسألة تحويل المجسم ثلاثي الأبعاد إلى لوحة ثنائية الأبعاد مسألة عسيرة لا تفسر بهذه السهولة، وتبقى بحاجة إلى عقلية أرفع وأسمى من عقلية رجل همجي بدائي، حيث من المفروض أن تسبقها الحاجة لاختراع أدوات رسم وألوان لها القدرة على الثبات والرسوخ أمام

تغيرات عوامل الطبيعة والى عقلية مبدعة ويد فنية ماهرة وخبرات موروثة، بل والى تجربة اختبار نوعية الأصباغ وقدرتها على تخطي تأثير عوامل الزمن والمحو والإزالة والإندثار ومقاومة درجة حرارة المكان ومقدار رطوبته خلال أوقات فصول السنة المختلفة. فكيف خطرت فكرة الرسم والتصوير واختراع مقوماتها ومستلزماتها على ذهن ذلك الانسان الهمجي البدائي الأول حتى تطورت إلى أدوات وألوان ومن ثم إلى أنواع رسوم مجردة تصويرية فيما بعد، وكيف أوحيت له فكرتها؟ وكيف تسنى له الوقت اللازم للتأكد من ثبات الألوان والأصباغ وطول أعمارها؟ خاصة وأن هناك فارق بين عملية الاختراع وبين عملية التطوير. فالاختراع هو إيجاد أمر لم يكن موجودًا بعد من حالة العدم إلى حالة الوجود، أي من الحالة المعنوية (فكرة) إلى الحالة المادية (تجسيد)، بينما عملية التطوير هو تحوير لحاجة موجودة أصلًا في الطبيعة أو قد سبق واخترعت من قبل ومن ثم تحوير هدف استخدامها لاستعمالات أخرى، كما حصل فيما بعد مع تطور حروف الكتابة واختصار أعدادها (وكانت العلامات المستخدمة في كتابات بعض المدن تقرب من ألف علامة وإذا ما قمنا بجمع كافة العلامات في مطلع هذه الفترة لرأيناها بحدود ألفي علامة)[234]. وبهذا يمكن تصوّر صعوبة اختراع فنون الرسم والتصوير دون أخذ سابق فكرة معنوية عنه. وقد سبق وأثبتنا أن العقل البشري عاجز عن اختراع المعدوم المعنوي (الفكرة) ليظهره إلى الوجود المادي إلا إذا كان هناك من علّمه مسبقًا وقدم له معلومات أولية بسيطة، هذا كله بالإضافة إلى استحالة اختراع أداة الرسم (حجر أم خشبة) أو التفكير في تحوير استخدامها وتنويع مواد ألوانها وأعوداها وأهميتها وأهدافها. فمن أين للانسان البدائي كل هذه المخترعات والاكتشافات وهذه التصورات وهو لا يملك إطلاقًا أوليات معرفة مسبقة، إلا إذا كان قد تعلّم من معلّم؟!

يشارك «حنا فتوحي» في رأي ملفت للانتباه عن حداثة بدايات ظهور الخربشات والكتابة التدريجي في أرض الرافدين حينما يصفها «بالمواهب الفكرية المتميزة»، فيقول:

- (ولأننا لا يمكن أن نعتبر التحزيزات والخربشات التي أكتشفت في بعض تلك الحلي البدائية نوعًا من البذخ الفكري، مثلما لا نستطيع أن نعتبرها ملامح أوليـة لفن الكتـابة، فإننا سنعتبرها نوعًا من المعرفة السحرية «الطقسية» التي تستدعي وجود مواهب فكرية متميزة، وقد تطورت هذه المعرفة لاحقًا... من الفترة الوسيطة بين العهدين الحجري القديم الميسوليتي والعصر الحجري الحديث النيوليثي، حيث وجدت أنواع من الحلي والأساور المتطورة علاوة على تماثيل الآلهة والحيوانات التي كانوا يصطــادونها أو يدجنونها، والى هذا الدور بحدود 6750 ق.م. تعود جذور الأشكال أو المحاولات الأولى المؤدية إلى الكتابة القديمة في وادي الرافدين وبخاصة في المنطقة التي أطلق عليها تسمية أكـد)[235].

إن تحويل الأصوات المنطوقة إلى أشكال محددة مصورة ورسومات مفهومة لتشاهدها العين ويفسرها العقل ثم يتعرف على منطوقها، لهي نقلة إبداعية ربطت بين المسموعات والمرئيات، وفي هذه الإنعطافة العجيبة، انبجزت جميع المخترعات البكرية وارتبط بها كل ما ظهر من علوم وفنون واختراعات واكتشافات أوصلت البشرية إلى ما هي عليه اليوم من تقدم وحضارة. فكيف تسنى لذلك الانسان البدائي في نهاية عصر الباليوليت الأوسط (100,000 - 30,000 ق.م.)،

التفكير بتحويل الأصوات إلى صور أو أشكال ورموز، ومن ثم إلى حروف وكلمات وعبارات وجمل مكتوبة مقروءة يمكنها نقل مكنونات العقل والمشاعر والأفكار، ومن أين انبثقت بواعثها! ومن قبل ذلك، تقف معجزة تحويل المجسمات إلى رسوم ثنائية الأبعاد؟ من أين جاءته هذه الأفكار وما هي دوافعها وما الغاية الأولية الدافعة لها؟ بالطبع إنه لم يكن نوعًا من أنواع الترف الفكري، لأن المتخصصون المعاصرون في فنون الرسم والنحت، أكدوا أن صاحب تلك الرسومات الصخرية، لهو فنان حقيقي وصل في إبداعه واختراعه إلى مصاف الفنانين العباقرة.

من الوارد أن استعمل الانسان البدائي صوته وحركات يده وإيماءات جسده في مراحل متقدمة أخيرة من بدائيته لإخافة الحيوانات أو لإبعادها عن أماكن إقامته أو للفت إنتباه غيره في علاقاته البسيطة بطرق بدائية بعدما بدأ يستفيد من تقليد ما تفعله بقية الحيوانات والطيور وغيرها، ثم توسع في تنويع أصواته لاحقًا بعدما وجد في ذلك فائدة كانت هي مرحلة تمهيدية لبداية فترة ظهور اللغات البسيطة، كما أشار لذلك أحمد أمين بقوله:

- (تدل اللغة على الحياة العقلية من ناحية أن لغة كل أمة في كل عصر مظهر من مظاهر عقلها، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة، ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة، إنما يَخْلق الناس في أول أمرهم ألفاظًا على قدر حاجتهم، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظًا جديدة، وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها، وهكذا اللغة في حياة وموت مستمرين، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهي أيضًا تنمو وترتقي تبعًا لرقي الأمة. هذا ما ليس فيه مجال للشك)[236].

ومن الوارد أيضًا أن خصص الانسان الأول بعض الأصوات للدلالة على مفاهيم ومعاني لمتطلبات حياته البسيطة:

- (من البديهي أن اللغة قد نشأت قبل الكتابة بزمن طويل، كما أن المحاولات الانسانية الأولى لتطوير معارفها إنما تمتد إلى عصور تسبق بكل تأكيد عصر تصاوير الكهوف)[237] لكن أن ينتقل الانسان هذه النقلة النوعية الإعجازية ويربط بين أعظم حاستين لديه ـ السمع والبصر ـ ليطورها إلى مدونات علوم ومعارف، فهذه مسألة لا يمكن تمريرها دون طرحها على طاولة البحث وتفحصها والتفكير بها. حيث لا بد أن دفعه أمر ما للربط بين حاستيه حتى خطرت على ذهنه المعنوي مثل هذه الطفرة الإعجازية، وإلا فمن المستحيل على الانسان إيجاد شيء أو اختراعه إلا بوجود أوليات مادية ملموسة تدفعه لاستغلالها أو تطويرها.

من الشواهد الدالة على عجز العقل البشري في تجاوز مثل هذه العقبات الحضارية، ما ورد عن «فتوحي»، بخصوص أصل لغة الفراعنة القدماء، حيث يفند فكرة الظهور الفجائي لها، قال:

- (إن الكثيرين من غير المختصين يعتقدون بأن الكتابة نشأت فجأة بشكلها الهيروغليفي في وادي النيل بحدود 2800 ق.م. وبقيت على وضعها الصوري حتى زمن إنقراضها دون أن تمر بالحلقات التطورية التقليدية اللاحقة!!)[238].

فمن هم أولئك الذين يُنسب إليهم فضل اختراع الرسوم والكتابة بمختلف أشكالها البدائية، وهل ظهرت في منطقة حضارية محددة أم عند عدد من الشعوب؟ إن ظهورها كان بحاجة إلى

استعدادات عقلية راقية ولعملية بلورة خزين معارف مسبقة، فتقارب قدرات البشر العقلية كلما عدنا أدراجنا في عمق التاريخ والزمان، إضافة إلى مستويات الأمم الحضارية القديمة، لم تختلف أو تتباين في مستوياتها الذهنية إلا بعدما مرت عليها قرون وأعصار من التعامل بالعلم والمعارف المقتبسة ونشوء الحضارات البدائية؛ فكيف حصل هذا الإنبثاق الذهني الخطير؟ ثم لماذا لم تترك لنا الآثار دليلا أو إسمًا واحدًا على شخصية المخترع، بينما كل ما نقرأه من أسماء قدماء المخترعين لا يخرج عن نطاق آلهات قديمة لا تنحصر أدلتها بين آثار حضارات مصر أو وادي الرافدين فقط، بل حتى عند بقية حضارات الأمم الأخرى في الشرق الأقصى أو اليونان والإغريق وأمريكا الجنوبية، فلو تفحصنا الأمر لوجدنا جميع القدماء ينسبون هذه المخترعات إلى نوع واحد من البشر، ألا وهم الآلهة والكهنة والمتنبئون؟ نعم إن الحضارات البدائية كانت متساوية المستويات منذ بداياتها بشكل تقريـــبي، لكن المؤكد إنه قد حصل تفاوت في مستوياتها لاحقًا بعد تراكم العلوم، مما يدعو للاعتقاد إن ظهور مخترع الكتابة قد ظهر عند أمم محددة متقدمة دون غيرها، وإن هذا التفاوت المعرفي لا بد وأن حصل عند أمم كَثُر بينها ظهور الآلهة والشامان والرائين. وطالما تأكد تاريخيًا أن أرض الرافدين كانت سبّاقة في مجال إختراع الكتابة ـ إذا لم يكن غيرها ـ لذلك لا يستبعد أن يكون هذا هو السبب الجوهري في تحديد ظهور مخترع الكتابة على أرضها، خاصة وأرضها تمتليء بقصص وأساطير الآلهة والملوك وقبور الأنبياء الذين ظهروا منذ قديم الزمان.

يحدثنا الأستاذ «هاولز» عن طريقة ظهور مُختَرَع الكتابة في الصين وغيرها من المخترعات الأخرى، وكيف تُنسب إلى عائلة من عوائل الملوك أو تربط بمنجزات الآلهة القديمة وما لها من علاقة متصلة بحضارة الشرق أوسطية، قال:

- (وقبل أسرة شانج ظهرت أسرة هسيا Hsia الخرافية التي يعزون إليها الفضل في ابتكار حساب جديد للزمن ويزعمون أن الإمبراطور الكاهن كان على عهدها يتولى مهمة قراءة وصية السماء مستعينا على ذلك بدراسة الفلك. ولذا كان الحكام من تلك الأسرة يشرفون على حضارة مدنية، كما كان عندهم جيش منظم تنظيما جيدًا وحاشية مترفة منعمة، وكانوا يدفنون في مقابر فخمة رائعة، كما كانت تدفن معهم القرابين البشرية والحيوانية مما يذكرنا بسومر ومصر. وربما كان ظهور الكتابة اختراعا وطنيا يرتكز على فكرة مستوردة. وقد عرفت الكتابة أولًا على عظام الكهانة... وهي طريقة قديمة للتنجيم والعرافة في الشرق الأقصى)[239].

عند تفحص العبارة السابقة، نجد هناك إشارة توحي بمشاركة الملوك في إيجاد المخترعات، وطالما كانوا يحكمون قديمًا بقوتي قانوني الأرض والسماء، ويطلق عليهم لقب «أبناء السماء»، لذا فمن غير المستبعد أن كان ملوك الصين في تلك الفترات من طبقة الآلهة/الأنبياء. ما يؤكد ذلك، عبارة «هاولز» حينما قال:

- (وأخيرا فقد أباطرة شانج عطف السماء فحلت محلهم أسرة شو Chou «1122 ق.م. أو بعدها»)[240]. ورغم أن التعليق قد يوحي بنوع من التشكيك في مساهمة القدرات الفوقية، إذ سيفهم المتتبع أن فكرة مساهمة الآلهة/الأنبياء في رقي الحضارات البشرية إنما هو نوع من الأساطير الخرافية توجب تجنبها والابتعاد عنها وضرورة الحذو حذو علماء الطبيعة باعتبارهم قد توصلوا إلى نتائج عقلية بعدم صدقيتها، وهذا ما نرى تأثير منهجه واضحًا في كتابات بقية الباحثين

ممن ظهروا لاحقًا، حينما لا ينفكون في الإشارة بطريقة ما إلى علاقة العلوم القديمة بالخرافات؛ إلا أن هذه الخرافات ـ كما قال ديورانت ـ هي التي أوجدت في الحقيقة كل ما نتمتع به اليوم من حياة تقنية عالية. فعلى سبيل المثال ذكر أحد العلماء على سبيل التشكيك:

- (وأحد أهم الاستحقاقات في هذه الحضارة هو ابتكار الكتابة الهيروغليفية المنسوبة للإمبراطور الخرافي فو ـ هي Hi ـ Fou؛ والتي اشتقت منها الكتابة الصينية الحديثة)[241]. وكان من الأجدر به الانتباه إلى هذا التكرار المتتالي في نسبة العلوم والمعارف إلى الآلهة والكهان ورجال الدين القدماء لدى الحضارات القديمة والبحث عن سرّ تلك العلاقة، ولماذا لا تذكر التواريخ أسماء غير أسماء الآلهة، مثلما أجهد نفسه في تتبع سير آثار الحضارات البشرية في طول الأرض وعرضها ولم يترك شعبًا إلا وبحث في أسباب ظهور حضارته، رغم أنه كان يختتم بحوثه في كل موضوع بعبارة (إننا لسنا واثقين من ذلك). وهذا يذكرنا بالعبارة الشرقية الشهيرة:

- (والله أعلم).

ما يلاحظ في أقوال هاولز، إشارته الغريبة إلى اسم العائلة الملكية الصينية حينما وصفها بـ «الخرافية»! مع ان الشعب الصيني هو الذي أرّخ لهذه العائلة ونسب جزء من حضارته إليها دون غيرها من بقية عوائل الشعب. ألا يذكرنا ذلك بما ينتشر بين أتباع الديانات العالمية الثلاث عن امتداد نسل النبي إبراهيم وما ينتشر عنه بين الماديين من دعاوى التشكيك بوجوده أصلًا؟ إضافة لذلك، لماذا اختص ملوك الصين بعملية دراسة علمي النجوم والكواكب، مع أنها عملية غاية في التعقيد والصعوبة وليس باستطاعة كائن من كان الولوج في بحور علومها وفنونها واستخراج تقاويم وحسابات وأزياج فلكية يستعملها البشر لسنين أو قرون طويلة ويعتمدون عليها بكل الرضى دون اعتراض. مع أن الملوك لهم سلطات زمنية تندثر حالة وفاتهم، بينما نجد سلطات الآلهات والأنبياء تستمر لقرون طويلة بعد مغادرتهم هذا العالم.

ما يلاحظ عن مكانة وأهمية علمي القراءة والكتابة ومدى انتشارهما بين أهل العراق القديم، أن قدماء كهنة أديان وادي الرافدين كانوا أكثر انفتاحًا من فراعنة مصر، عندما أجازوا تعليمهما لأفراد الشعب، وفي ذلك إشارة إلى معرفتهم المسبقة بفوائدهما للعامة، وما يؤيد ظهورها مسبقًا في وادي الرافدين، يذكر أحد علماء التاريخ:

- (لم يكن التعليم في بابل في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد مقتصرًا على النخبة، رغـــم الصعوبات الفعلية التي كان يجابهها التعليـم بسبب الاشكالات الكبيـــرة المتعلقة بعملية تعلم الكتابة. لقد دلت التنقيبات الأركيولوجية التفصيلية في الطبقات الحضارية التي ترقى إلى العصر البابلي القديـم، على أن الألواح الطينية التي دونت عليها النصوص الأدبية قد وجدت في الكثيـر من البيوت المتواضعة والميسورة والمتوسطة. كان سكان هذه البيوت مـن الكهنة وخدمة المعابد، والتجار والمرابين الصغار. وما كان لهؤلاء أن يخزنوا هذه الألواح في بيوتهم لو لم يكن فيها من يجيد القراءة... وتتوفر معطيـات تدل على أن التعليم شمل النساء أيضًا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد)[242].

إن مثل هذا المستوى في انتشار الكتابة بين عموم شعب وادي الرافدين، يدل على مستوى ثقافة هذه الأمة قديمًا وعلى مرحلة تاريخية متطورة، كما يمكن اعتبارها من المراحل اللصيقة اللاحقة المتصلة بظهور مُختَرع الكتابة، وكل الظن أنها استغرقت أجيالًا عديدة لتصل إلى ذلك المستوى، مما يدعو للاعتقاد بطول آمادها وترتيب توالي أزمانها القديمة، إذ من الوارد امتداد جذورها إلى حضارات أقدم من ذلك بكثير.

لكن الصورة تكون أوضح عن علاقة الأنبياء والكهنة بمُختَرَع الكتابة، عندما نعلم أن كهنة الفراعنة كانوا يحرّمون على العامة تعلّم القراءة والكتابة، مما يؤكد إنهما مُخترعات مختصة بالآلهة والرائين الأولين ثم انتقلت إلى الكهنة باعتبارهم الأقرب اليهم. يؤكد على ذلك الفيلسوف ديورانت بقوله:

- (كانت «عيلام» و«سومر» ومصر قد طوَّرت مجموعة من الصور التي يعبرون بها عن أفكارهم، وأطلقوا عليها اسم «الكتابة الهيروغليفية» لأن معظم من قام بها كان من الكهنة)[243].

ويقول أيضًا:

- (كان معظم علماء مصر من الكهنة، ذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان في عقائدهم من خرافات. وهم يقولون في أساطيرهم أن العلوم قد اخترعها من 18,000 سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصري في خلال حكمه على ظهر الأرض)[244].

ويأتي تأكيد آخر أن الآلهة كانوا هم المخترعون الأوائل للكتابة، حيث أن فكرة التعليم الجماعي «المدرسة» لم تكن قد ظهرت بعد بشكل عام بين شعوب كثيرة، بسبب إدراك الكهنة لأهمية العلم وخطورة الكتابة في السيطرة على عموم الناس، أو انها كانت بداية بوادر أول فترة إنتشارها ولم يكن قد حان وقت اكتشاف أهمية تعميمها بعد، حيث كانت بعض الأمم تعتبر الكتابة علمًا سريًا خاصًا وتحرم بل وتعاقب بالموت كل من يتعلمهما من عبيدها أو من عامة الشعب، مثلما كان القتل عقاب كل من يتعلم القراءة والكتابة من بني اسرائيل في مصر أيام الفراعنة. بل وحتى وقت قريب، حينما كان (الأمريكيين الأفارقة الذين كانوا ـ وجميعهم تقريبا من العبيد ـ يعانون الأمية قبل الحرب الأهلية مباشرة، حين كانت هناك عقوبات قاسية توقع على أي شخص يعلم عبدًا القراءة)[245].

ومن الأمثلة الحديثة التي تلقي بعض الضوء على هذا السر القديم، (سرّ ظهور اختراع الكتابة)، ملاحظة تاريخ الأمة اليهودية، حيث دونت أحكام شريعتها بلغة واضحة أمكن ترجمتها بشكل مميّز، مما يثبت تفوقهم في هذا المجال على بقية لغات الشعوب القديمة في أزمانهم، وفي نفس الوقت يعطي فكرة على النقلة النوعية لتحول لغة قديمة إلى لغة حديثة متطورة نسبيًا:

- (كان اليهود قديمًا ـ كجميع الأمم السامية ـ لا يكتبون الحركات المعروفة الآن، بل كانت لديهم حروف مجردة عن الحركات ثم أخذوا يستعملون بعض الحروف كعلامات للحركات تساعدهم على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف وكانت الألف والهاء والواو والياء هي التي تقوم

بهذه الوظيفة، فجرَّ ذلك إلى حدوث تغيير في هجاء الكلمات وزيادة في حروفها باعدت بينها وبين أصل اشتقاقها. ولكن بعد أن تشتت اليهود في أقطار العالم صارت هذه الحروف لا تكفي لضبط النطق في كل الكلمات وخشى اليهود أن تنقرض لغتهم بسبب ذلك، فاخترعوا نظام الحركات)[246]. من الضروري الانتباه هنا إلى الاشارة الأخيرة حين يُنسب اختراع حركات الحروف وتشكيلاتها إلى دوافع دينية، مما يشير مرة أخرى إلى شريحة الكهنة ورجال الدين كمخترعون بالضرورة.

أما عن اللغة العربية، فيقدم احمد أمين مثالًا على عدم نضوج اللغة العربية حتى وقت قريب، بقوله:

- (أليس الشعر الجاهلي قد ظل غير مكتوب نحو قرنين، وظلت تتناقله الرواة شفاها، ونحن نعلم ما في هذا من تعرض للخطأ والتغيير)[247]، حتى جاء القران ليصوغ اللغة العربية ويطورها ويرفعها إلى قمتها الجمالية ويدفع بالمسلمين قدمًا ويخلق فيهم روحًا إبداعية جديدة، فأضافوا التشكيل والتنقيط وأنواع الخطوط واخترعوا علم البيان والنحو والقواعد والصرف وغيرها لتظهر لغتهم العربية متكاملة تامة بشكل سليم، ناهيك عما أضيف إليها من التطعيم واقتباس بعض الكلمات والمصطلحات الحضارية من بقية اللغات المنتشرة آنذاك، وفي ذلك دلالة على ترابط القرآن والاسلام مع بقية الشرائع السابقة وحضارات الشعوب ولغاتها. ومما يذكر عن مساهمة القرآن في انتشار الكتابة والقراءة باللغة العربية بين مختلف الشعوب الإسلامية، إن عدد من كانوا يعرفون القراءة والكتابة وقت ظهور الاسلام قليل جداَ: (فاذا كانت قريش ـ وشأنها في الحجاز ما بينّا قبل من تقدمها في الشئون التجارية ـ ليس فيها إلا سبعة عشر كاتبًا، وكان الكتّابون في غيرها من القبائل المضر ية أندر)[248].

مما سبق، يمكن ملاحظة تأثير كتب الأديان (التوراة والإنجيل والقران) بشكل واضح على تطور اللغات العبرية والأرامية واليونانية والعربية وسبل تنظيمها، مما يدفع إلى استنتاج احتمالية حصول تأثيرات مشابهة لبقية كتب الأديان القديمة ـ إن وجدت ـ على تطور لغات أقوامها وترقيتها بنسب متقاربة تناسبت مع تطور العقول البشرية ومجتمعاتها. لذا ليس من الغريب أن يربط كل هذا الترقي الحضاري للشعوب، بالأديان ومؤسسيها، وبذلك يظهر مدى تأثير الأديان في رقي الحضارات البشرية من خلال مساهماتها في تطوير اللغات. إضافة لذلك، ما كان من تأثير تجمعات الحجاج يوميًا وسنويًا في الأماكن المقدسة لإداء فرائض الصلاة والحج في بلورة لغات الشعوب حين اجتماعهم، وكذلك ما لدور صلاة الجماعة في دور العبادة وكنائسها ومساجدها من مساهمات في وحدة المجتمعات البشرية. فلقد ساعدت هذه التجمعات واللقاءات المستمرة في التوصل إلى حالات من التفاهم والتوحيد بين الشعوب المختلفة ليتكلموا بلهجات ولغات موحدة متقاربة كلٌ حسب لغة كتابه المقدس. أما أماكن الحج فكانت مراكز إجتماعات ومؤتمرات عالمية سنوية بمواعيد ثابتة لم تكن بحاجة إلى اتصالات وإعدادات وترتيبات مسبقة. كل ذلك ساهم دون شك بتبادل الثقافات والخبرات وتناقل أخبار الشعوب، وبالتالي لفت الأنظار إلى مراكز العلم والمدن الشهيرة بعلمائها ومعارفها مثل أثينا وروما والقدس ومكة وبغداد والقاهرة، لشدّ الرحال اليها طلبًا لزيادة العلم والمعرفة ومن قبلها تعلم القراءة والكتابة بين الشعوب.

يشير أحد علماء اللغات إلى دور الأديان والآلهة القديمة في ظهور اللغات والكتابة وهذه إشارة تؤخذ بعين الاعتبار، حينما قال:

- (إن التصور المتعلق بالمغزى الهائل للكتابة كان أمرًا بالغ الحيوية في الأزمنة القديمة الغابرة ولقي انعكاسه في عدد من الأساطير التي تجزم بالمصدر الإلهي للكتابة، فنيبو البابلي وتوت المصري ـ إلهان كاتبان.. وكان قدماء العبريين يعتبرون كتابة الأسباط الأُول «كتابة إلهية».. ويعلمنا الإسلام أن الحروف خلقها الله ثم علّمها آدم بينما حجبها حتى عن الملائكة.. كما أن للكنائس المسيحية قديسيها الذين يلعبون أدوار مبدعي الكتابة ومخترعيها فالقديس ميسروب والكاثوليكوس ساحاق صاغا الأبجدية الأرمنية)[249].

وإذا تركنا الاختلافات المذهبية الشديدة بين مذاهب المسلمين جانبًا، نجد أن للإمام علي بن أبي طالب[250] دور كبير في تطوير اللغة العربية من حيث التنقيط والتشكيل والقواعد والنحو والصرف[251]، حينما أشار إلى عامله في البصرة أبو الأسود الدؤلي برسالة مكتوبة لينحو ذات منحى اسلوبها في ترتيبها اللغوي. وبهذا تعيدنا هذه النقطة إلى ذات الحلقة في مشاركة القديسين والآلهات بتعليم الانسان والمساهمة في تطوير حضاراته.

ان كثيرًا من تواريخ الشعوب تنسب إلى الآلهات أدوارًا في ظهور ورقي حضاراتهم، ويبدو أن «دوبلهوفر» قد انتبه أن الآلهة ما هم إلا بشر؛ لذلك قلل من الإشارة اليهم في إختراع فنّ الكتابة عند اليونانيين، لكنه استثنى «هرمز» باعتباره إله حينما قال:

- (فهم الوحيدون الذي يُشرّفون في تقاليدهم الفنية مجموعة كبيرة من مخترعي الكتابة وهم ـ دون استثناء ـ من البشر فلا يوجد بين مبدعي كتابتهم الممجّدين إلا واحد يُصادف مرة واحدة وهو هرمز، الإله الحاذق المتعدد المواهب الذي يسجّل له اختراع الكتابة كمأثرة من مآثره وهي ليست الأهم بينها)[252]. لو أخذنا بهذا الرأي، فقوله أن للإله هرمز دور في تعليمه الكتابة لليونانيين قد يكون هو رأس الخيط، لكن تأكيد ذلك بحاجة إلى أدلة أكثر مما توصل إليها دوبلهوفر. أما مترجم الكتاب الدكتور «عماد حاتم» فبدوره ينسب اختراع الكتابة إلى إله آخر من خلال ملاحظة جاءت في حاشية الصفحة، قال:

- (يبالغ المؤلف قليلًا في تصوير هذا «الفرق بين الشرق والغرب» وفي نسب الكتابة عند اليونان إلى البشر. فقدموس الفينيقي الذي حمل الحرف من سوريا إلى اليونان ـ إله، أو بطل رفع إلى مصاف الآلهة وترتبط بمأثرته هذه «أساطير طيبة» اليونانية ـ أما هرمز، فهو: ح ر ـ م س، أي ابن حر، وهو طائر «الحر» المعروف، وكان واحدًا من أكبر آلهة مصر القدماء)[253].

إلا أن دوبلهوفر يستدرك فيما بعد ويقول أن اليونانيين قد استعاروا الأحرف الأبجدية من الفينيقيين، (ذلك الوقت الذي قام فيه اليونان باستعارة وتحوير الأبجدية الفينيقية)[254]. وبذلك تعود البوصلة لتشير إلى مساهمة آلهة الشرق وأنبياءه وكهنته بإيجاد مخترع الكتابة.

ويشارك الدكتور لويس عوض بالقول:

- (وفي طور سيناء كان ذلك المعمل الأول الذي تحولت فيه الأبجدية البكتوجرافية (التصويرية) المأثورة عن الهيروغليفية إلى أبجدية صوتية بالمعنى الحديث منذ نحو 1800 ق.م. ومنها انتقلت إلى فينيقيا واليونان وايطاليا وبقية أرجاء العالم القديم، كل شعب يهذبها بصب مخارج أصواته وعاداته في الرسم والتعبير)[255].

كما جاءت أكثر من إشارة إلى مكان تطوير مختَرَع الكتابة في بدايتها إلى منطقة الشرق الأوسط وبالتحديد عند الفينيقيين على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. ومما يثير الإنتباه، توافق زمانها مع زمن وجود أنبياء بني إسرائيل وظهور الحضارة اليهودية وانتشارها في ذات المنطقة، وهذه إشارة اخرى إلى عملية تلاقح الحضارات. لكن ما جاء عليه الأستاذ «وليام هاولز»، في عدم معرفته أو اكتشافه لشخصية المخترع أو إسمه، ما يثير الإنتباه أن مثل هذا الاختراع العظيم لا يترك إسمًا إلا أسماء آلهة، مما يذكرنا ببقية المخترعات العظيمة التي أوجدها الآلهة/الأنبياء دون الاهتمام بذكر أسمائهم، ولا يمكن تفسير ذلك واعتباره نوع من أنواع النسيان أو الغفلة، ولا نوعًا من الترفع أو التكبر لأن خدمة البشر هي أصل وجوهر واجبات الآلهة. قال:

- (ولكن الكتابة انتشرت رغم ذلك ثم أحرزت في آخر الأمر تقدمين رائعين على شواطئ البحر المتوسط. فحوالي عام 1500 ق.م. أخذ شخص ما في رأس شمر بسوريا تسعًا وعشرين من العلامات السومرية وجعلها تمثل فقط الأصوات البسيطة الأساسية «وليس المقاطع» ونبذ بقية العلامات التي كانت تقدر بالمئات والتي كانت لا تزال موجودة بكل معناها الرمزي. وكانت هذه حروفا هجائية حقيقية يمكن للإنسان أن يتهجى بها أي شيء. صحيح أنها كانت تختلف عن حروفنا الأبجدية، ولكن حوالي عام 1200ق.م. ظهرت في مكان ما في فينيقيا مجموعة جديدة تماما تتألف من اثنتين وعشرين علامة استخدمت في الغرض ذاته، وكانت هذه هي الحروف الهجائية التي تفرعت منها كل الأبجديات المعروفة في التاريخ: الإنجليزية والعبرية والعربية والهندوسية وغيرها)[256].

مثل هذه الدلائل، لا تترك مجالًا للشك أن للآلهة/الأنبياء أو للأديان الشفاهية القديمة دور قديم ساهم في رقي أحوال الشعوب وتحسن لغاتهم وعلومهم ومهّد بالتدريج لاختراع الكتابة فيما بعد؟

لكن السؤال:

- هل يمكن العثور بين ركام التاريخ البشري وأطلاله على شخصية مخترع الرسوم أو الكتابة، خاصة وقد ظهرتا في مختلف أنحاء الارض بصور وكتابات مختلفة؟ فمن المعلوم أن البشر في جميع قارات الأرض يملكون ذات القوى العقلية والجسدية، ولديهم ذات العقول والأيدي والأجساد والحواس المتشابهة، إضافة إلى ذات الحاجات والرغبات الجسدية المتشابهة. لكن ما يلفت الانتباه، ما كان من الفوارق الكبيرة بين مستويات حضارات الشعوب حتى قبل عدة قرون قريبة فقط، فمنها ما بقي في أدنى مراحل البداوة والبدائية والجهالة، ومنها ما ارتفع إلى قمم الحضارة والمعارف والعلوم الرفيعة. مثل هذه الفروقات تدعو للتساؤل عن السبب، طالما ان البشر متساوون بقدراتهم العقلية والرغبات. فماذا حدث لتتفق عقلية الإنسان ليبدع بمثل هذا المخترع العجيب؟

لو نظرنا إلى شعوب الحضارات السابقة كقدماء المصريين والصينيين وأهل الرافدين والهنود والفرس، نجدهم كانوا في مستويات معرفية حضارية أعلى بكثير من مستوى أحوال ومعارف البدائيين من أهل استراليا وأفريقيا والهنود الحمر حتى قبل عشرات السنين فقط. وهنا يظهر سؤال آخر:

- كيف ولماذا كان هذا الفارق بين هذه الأمم وغيرها؟ مع ان الانسان هو الانسان في جميع مناطق الأرض؟ فمنذ أكثر من ستة آلاف سنة، بدأ أهل الحضارات القديمة يستعملون القراءة والكتابة فيما بينهم[257]، بينما نجد الهنود الحمر في أمريكا يجهلون الكتابة حتى وقت دخول المهاجرين اليها، فما الذي جعل هؤلاء بهذا المستوى البسيط، بينما رفع أولئك إلى تلك المستويات الرفيعة؟

من الطريف أن نجد رسالة موجهة من قبل مجموعة من قبائل الهنود الحمر إلى الكونجرس الأمريكي يلتمسون السماح لهم بصيد السمك في عدد من البحيرات. وما يجلب الانتباه في هذه الرسالة - رغم كونها قريبة العهد بحدود الثلاثة قرون - إنها خالية تمامًا من الكلمات والحروف ولا يوجد فيها سوى رسوم أقرب ما تكون إلى رسومات الاطفال، مما يدل على أن هذه القبائل لم تعرف الكتابة ولم تستطع اختراعها حتى ذلك الوقت القريب، بينما نجدها قد عرفت فن الرسم وإبداعات الزخرفة، مع أن الرسالة جاءت بمعان حكيمة ومدلولات ذكية في رسومها.

فمن معانيها، أن سبعة قبائل من الهنود الحمر اتفقوا على تقديم طلب واحد إلى الكونجرس الأمريكي واختاروا متحدثًا باسمهم جميعا وضع رسمه في مقدمة الصورة وفي أعلى جبهته خط متعرج يشير إلى التحية والعشم في الموافقة على الطلب، أما الخط الممتد من رأس الرئيس إلى خلف المجموعة ثم تدليه إلى أسفل، فهو الهدف من الإلتماس (صيد السمك في البحيرات)، أما الخيوط الممتدة من رأسه إلى بقية الرؤوس، فتدل على أن القيادة موكلة اليه كقائد ومتحدث عن المجموعة، وقد ظهر هذا المتحدث على شكل طائر بجع (طوطم)، كما ان الخطوط الممتدة من حزامه إلى بقية أحزمة الشخوص فتعني الترابط والاتفاق على الطلب فيما بين الجميع[258].

ما يستنتج من الرسم البسيط عميق المعاني هذا، أن هؤلاء الأقوام كانوا على قدر عالي من الذكاء حتى عبروا برسم واحد على كل هذه المطالب العديدة. والأمر الثاني أنه إذا كان بمقدور العقل البشري اختراع الكتابة في مناطق الأرض الأخرى قبل آلاف السنين، فلماذا بقيت هذه الأقوام - وهم شعوب كبيرة ومتعددة وقبائل ذكية - بدليل معرفتهم لفن الرسم - حتى قرون قريبة، عاجزين عن اختراع الكتابة؟ فاذا قلنا ان عقولهم ضعيفة او بسيطة، فأحوالهم الحالية المتطورة وتقبلهم لاكتساب العلوم ومنافستهم لبقية الأمم في إكتساب المعارف، تفصح عن غير ذلك، فقد ظهر منهم العلماء والحكماء والأطباء والمهندسين مثلهم مثل بقية الشعوب؛ وإذا قلنا أن متطلبات حياتهم الإجتماعية كانت بسيطة وبدائية لم تدفعهم لاختراع الكتابة؛ فهذا أمر غير مقبول أيضًا، لأن حاجات البشر ومتطلباتهم كانت واحدة ومتساوية ومتشابهة خاصة في مراحل حضارات البدائية الأولى والمراحل التي لحقتها. فلماذا تخطت بقية الشعوب القديمة ذات تلك المراحل التاريخية وتطورت، بينما بقي هؤلاء على أحوالهم؟!

لكن، اذا انصفنا الحكم، وبعدنا عن التحيز والمحاباة والتعصب، فسوف لن نجد فارقًا مميزًا بينهم وبين أمم الحضارات في بقية القارات، إلا نقطة جوهرية، وهي وجود آلهات/أنبياء وأديان وشرائع منظمة، بينما لا نجد أثرًا لذلك عند هنود أمريكا الشمالية والاستراليين وغيرهم من سكان أقاصي الجزر البعيدة في المحيط الهادي، وكل ما سنعثر عليه هو موسيقى ورقصات وطقوس وسحر بدائي يشرف عليها وينظمها مجاميع من الشامان والسحرة، وهي مستويات أدنى روحيًا من درجة الأنبياء تعود في تاريخها إلى عصور بدائية سحيقة.

هذا هو الفارق الملموس الوحيد الواضح، بل لا يعثر على فارق مؤثر آخر. فهل يكون هو السبب؟ هل كان الآلهة/الأنبياء، أو كهنة المعابد والأديان، ومن قبلهم الآباء والشيوخ ـ كما ذكرت الأساطير القديمة في مجمل تاريخ الشعوب ـ هم معلمو البشر الأوائل الحقيقيون؟

ما يعزز الاعتقاد أن ظهور الكتابة كان أمرًا فوقيًا ميتافيزيقيًا جاء عن طريق الإلهام والوحي للآلهة والأنبياء وليس اختراعًا بشريًا أرضيًا، الرسالة التالية أيضًا، وهي ما يعرف بطريقة (الكيبو) [259] المشابهة لرسالة الهنود الحمر، لكنها مكونة من أشياء وحاجات كانت تستعمل في الصين وفي أمريكا الجنوبية عند قدماء الإنكا سكان البيرو الأصليون، استعملت للتواصل بين شعوب كثيرة لنقل المعلومات حتى عهد قريب. قال دوبلهوفر:

- (وإننا إذ نستعرض هنا الكيبو في صورة نموذج لكتابة العقد، فإننا لا نريد الجزم بأن مثل هذه الكتابة كان مقصورًا على الإنكا دون سواهم. فحتى أن الحكيم الصيني لاوتسزي أشار في حينه إلى ذلك الدور الذي كان يعطى في الصين القديمة لكتابة العقد كطريقة من طرق نقل المعلومات؛ يقول هيرودوت (4 ـ 98) إن داريوس، ملك الفرس، عرض على الإيونيين تقويمًا في غاية البساطة يقوم على أساس الكتابة بالعقد، كما إن المسابح الكاثوليكية تقوم على هذا الأساس. أما في وقتنا الحاضر فإن العقد وما يشابهها من أدوات الاستذكار يمكن أن تصادف في جزيرة هينان وفي البنغال وفي جزيرة ريوكيو اليابانية وفي المحيط الهادي وأفريقيا الوسطى والغربية وكاليفورنيا والأقسام الجنوبية من البيرو، والطريف أن الشرائط ذات العقد والحلقات لا تزال حتى يومنا هذا تستعمل من أجل نقل الأخبار في جزائر سولومون وكارولينا والمركيز)[260]. من هذا يتضح أن أمم كثيرة كانت لا تعرف الكتابة حتى وقت قريب بينما تحسن فنّي الرسم والزخرفة والنحت.

في الشكل التالي نرى أحد المراسلين وهو يقرأ الـ «الكيبو» للملك المرسل اليه؛ وكما تبدو الرسالة عبارة عن خيط أفقي رئيسي طويل مربوط به عدة خيوط متدلية بألوان مختلفة، كل خيط منها فيه عدد من العقد والخرز الملونة، وبهذا فهي تعتبر رسالة كاملة تحمل العديد من أخبار الأحداث والمواضيع يقرأها الرسول بالتسلسل للمرسل اليه.

من هذا الرسم يمكن الاستدلال أيضًا أن شعوبًا كثيرة كانت حتى عهود قريبة عاجزة عن اختراع الكتابة واستعانت بالرسومات والمشغولات اليدوية بديلًا عنها لنقل رسائلها وأخبارها في مختلف أنحاء الأرض، وبهذا يتضح أن الرسومات كانت أمرًا أكثر سهولة لاختراعها من الكتابة.

ومما يستنبط من الرسالة أيضًا، أن المسافة الجغرافية بين الطرفين (المرسل والمرسل اليه) كانت طويلة وشاقة، وهذا يعني أن هناك مساحة شاسعة من الأرض لا تعرف جميع قبائلها القراءة

والكتابة، فلو كانت المسافة والزمن قصيران أو أن مجمل الأخبار قليلة ومتون الرسائل صغيرة، لاكتفى المراسل بحفظها عن ظهر قلب ونقل الرسائل شفهيًا؟ لكن يبدو أن المراسل حضر من مكان بعيد واستغرق زمنًا طويلًا في سفره ومر بكثير من القبائل، مما دعاه إلى الاستعداد والاحتياط واستعمال الكيبو درءًا لعملية النسيان، لذلك تم تسجيل جميع الأخبار والطلبات في هذا «الكيبو»[261].

قد يقول قائل أن هذا الاسلوب قديم، مثل الرسوم الجدارية القديمة على جدران الكهوف، وقد ينسبه إلى عهود ما قبل التاريخ، إلا أن الآثار والدراسات العلمية الحديثة أكدت نسبته إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وهذه مسألة مثبتة علميًا لا تستحق الجدال:

- (وأنموذج مثل هذا الكتابة، وإن كان في عهد متأخر، يمكن أن تكون من المحفوظات التصويرية لهنود كراو والتي نقشت على جلد بيزون، وعلى الرغم من أنها خُطت في القرن التاسع عشر، فإنها من وجهة نظر مستوى التطور التاريخي لا تتخطى حدود العصر الحجري)[262]. ثم يضيف الكاتب:

- (وبودنا أن نشير أيضًا إلى تلك الحقيقة الطريفة من وجهة نظر تاريخ الحضارة وهي أن الكتابة التصويرية لا تزال تستعمل في الحياة اليومية وبخاصة في المدن الكبرى وعند كل خطوة، وأكثر نماذجها شيوعًا ـ علامات المرور، فإشارات التحذير مثلًا مثل «منعطف»، «تقاطع»، «ممر قطار» هي كتابات تصويرية مجردة)[263].

كما يستنتج أيضًا من خلال هذه الطريقة «المعقدة» في المراسلات، أن المُرسل والمرسَل اليه وصاحب البريد هم من الراشدين العقلاء، خاصة وأن شكل الشخص الواقف على اليسار يبدو ملكًا من الملوك، فالصولجان الذي في يده وركوع الرسول أمامه وهو يقرأ «الكيبو» يؤكدان على ذلك. كذلك يؤكد الفيلسوف ديورانت على استعمال هذه الطريقة، فيقول:

- (وكان هنود بيرو يحتفظون بمدونات طويلة من الأعداد ومن الأفكار، بأن يعقدوا حبالًا مختلفة الألوان بالعُقد والعُرى؛ وربما ألقى شيء من الضوء على أصل هنود أمريكا الجنوبية إذا عرفنا أن هذه العادة نفسها سادت بين سكان الأرخبيل الشرقي وأهل بولينزيا)[264]. وهذا يذكرنا بما كان يفعله الأجداد حتى وقت قريب، حينما كانوا يعقدون خيوطًا على أصابعهم لتذكر أمر ما.

فامبوم بين العائد لقبيلة ليني ـ لابي

وهنا يكون سؤال:

- طالما أن ملامح العقل والحكمة والذاكرة تبدو واضحة على الجميع (المُرسل والرسول والمُرسل اليه)، فكيف لم يتمكن الهنود الحمر والأفارقة والاستراليين وغيرهم من بقية الشعوب التي جئنا على ذكرها من اختراع علم وفن الكتابة؟ بينما كانت مستعملة بالفعل في الشرق الأوسط قبل ذلك بآلاف السنين؟ ألا يشير ذلك إلى وجود فروقات مميزة بين هذه المجاميع من الأمم؟

أما البرهان الثالث في عدم استطاعة البشر العاديين على اختراع الكتابة، فهو (حزام الفامبوم)، وهو عبارة عن مجموعة خيوط مطرزة ومتشابكة حيك في وسطه رسم رجلين، على اليمين رجل أوروبي وعلى الشمال رجل من قبائل هنود أمريكا الشمالية مما يدل على حداثة عهدها النسبي أيضًا (وتتكون هذه الأحزمة من أربعة أو خمسة حبال دقيقة رتّبت إلى جانب بعضها البعض وقد عشّقت بها أصداف متعددة الألوان مثقوبة من الوسط.. وبما ان لون الصدفة كان يُحمّل معنى خاصًا «الأسود والبنفسجي للخطر والعداء، الأحمر ـ للحرب، والأبيض ـ للصلح والسلام» فقد كان واضحًا أن من الممكن إرسال مراسيل كاملة من قبيلة إلى أخرى على هيئة مثل هذه الأحزمة)[265].

ما يستفاد من هذا الشكل وما سبقه وما يستنبط من مفاهيمه أيضًا، أن فنون الحياكة والتطريز والخياطة سابقة في ظهورها على اختراع الكتابة كثيرًا، حيث يبدو أنه من السهل على الانسان البدائي التوصل لاختراع هذه الفنون اليدوية لتوفر موجوداتها وموادها في الطبيعة عند النبات والحيوان، وهذا يثبت أيضًا صعوبة الربط بين المحسوسات المادية والمعنويات الغيبية (الأفكار المبتدعة) عند الانسان. فيفهم من كل ذلك ان شعوبًا كبيرة وكثيرة ومتتالية على مرّ التاريخ، عجزت عن هذا الربط لأنها عملية خاصة بـ «الانسان المميز» ذو القدرات الميتافيزيقية، وليس للانسان العادي مقدرة على نيلها.

ويورد البروفيسور «يوليوس»[266] أيضًا، مثالًا آخر مشابهًا لطريقة مخاطبة قبائل الهنود الحمر للحكومة الأمريكية عبر (ما يسمى «بالحزم الدبلوماسية» أو «العصي الدبلوماسية» التي ترسل من قبيلة إلى أخرى. فعلى سبيل المثال أرسل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية حزمة معينة من عرانيس الذرة، مزينة بالريش ومحشوة في داخلها بالتبغ، لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية [وهذه طريقتهم في عرض السلام وتسمى «غليون السلام»]، وفي وسط هذه الحزمة شد حبل صوفي مزين بالريش الأصفر. وخلاصة الخبر تعني: «نحن مستعدون لتدخين غليون السلام مع الرئيس». وبعبارة أخرى كان ذلك عرضًا للسلام)[267].

وأورد البروفيسور «يوليوس»، نوعا آخر من الرسائل والتواصل والاتصالات بين أفراد القبائل الهندية «البدائية» غير المتعلمة، كان قد شاهدها واطلع عليها بنفسه. وبذلك ففي مثل هذا الخبر تأكيد آخر على صعوبة اختراع الانسان للكتابة بالتحديد، بينما يمكنه نقل معلومات غاية في الدقة والتفاهم مع غيره من خلال ترك علامات وآثار وإشارات، قال:

- (وقد لاحظت بنفسي مثل هذه الإشارات بشكل خاص لدى قبائل «ناسكابي» الهندية الحمراء في لابرادور التي يعيش بعض أفرادها في ظروف المناخ شبه القطبي، عيشة قاسية ومنعزلة تتطلبها حياة الصيد، بعيدين عن أبناء جنسهم. وبما أن ظروف حياتهم في غاية الصعوبة فقد أوجد هؤلاء الهنود الحمر نظام إشارات متكاملًا من أجل المساعدة المتبادلة... وتتألف نداءات النجدة من أعمدة ذات شقوق، منصوبة في مواقع استراتيجية من الطريق تشير بدقة إلى إتجاه خيمة المريض أو من يحتاج إلى المساعدة. وفي معظم الحالات يكون طالب النجدة مهددًا بالموت جوعًا، فيسرع عابر السبيل الذي يرى مثل هذه الإشارات إلى «موقع المأساة». أما عندما لا تتوفر لديه امكانية

المساعدة أو تقديم الطعام فيعلق إشارة إخبارية أيضًا ـ يحملها معه على سبيل الاحتراز ـ على الأعمدة المنصوبة، إما ليشير بها إلى أنه ذهب ليحضر المطلوب، أو لطلب هذه المساعدة من العابرين الآخرين. ويمكن الاستدلال من هذه «الأعمدة الاخبارية» على كافة التفاصيل المطلوبة، إذ يمكن الاستدلال ليس على موقع الخيمة المنكوبة فقط، بل أيضًا على عدد الأشخاص المرضى فيها وعلى نوع معاناتهم. كل ذلك يدل عليه شكل وعمق الشقوق المحفورة على هذه الأعمدة. ويمكن للمسافر العابر أن يضيف معلومات أخرى على العمود، إذ يتناول أغصانًا ويصنع منها اكليلًا يعلقه على العمود)[268].

ومع كل هذه الدقة في نقل المعلومات والإشارات والتفاصيل، بقي الإنسان عاجز عن اختراع الكتابة.

وإليكم مثال آخر عن صعوبة اختراع معجزة الكتابة، أورده كلا من أرنست دوبلهوفر ويوليوس ليبس في كتابيهما[269] كلٌ على حدة، لصورة رسالة غرامية من شابة «أميّة» إلى حبيبها الذي هجرها، وهي عبارة عن مجموعة خطوط ورموز تعبر عن مشاعر اللوعة والحسرة، احتاجت لتفسيرها بروفيسورًا مثل ليبس، قال:

- (ومن هذا القبيل نذكر الرسالة المشهورة التي نقشتها إحدى فتيات قبيلة «جوكاغير» على قطعة من قشور الصفصاف (ربما لم تكن تخلو من التأثير الأوربي). وقد حاول بعض الباحثين ترجمتها ومنهم «فويلة». تتضمن هذه الرسالة خبرًا محزنًا عن فتاة فشلت في حبها. فالفتاة التي خانها حبيبها ـ كاتبة الرسالة ـ (C) تجلس في بيتها (A وB) الخطوط المتصالبة تعني الأسى. والنقاط في أعلى الرسالة على يمين (C) تمثل ضفائر الفتاة. غريمتها (F) روسية ذات ضفائر وثوب، أما (G) فهو الحبيب الخائن. وقد عبرت عن علاقاته مع الروسية بالخطوط المتصالبة في الجزء الأعلى من الرسم. والخط (J) الممتد من الغريمة إلى (A) يقطع خطوط الحب الواصلة بين الحبيب (G) وكاتبة الرسالة. أما الحرف (M) فيرمز إلى الأفكار المخلصة لدى من هجرها الحبيب. أما (O) فهو عاشق من القبيلة يحاول خطب ودها. والحرفان (p وq) يرمزان إلى طفلي الزوجين الخائنين (G وF). وبناء على ذلك يمكن ترجمة نص الرسالة تقريبًا على الشكل التالي: «لقد هجرتني كرما لعينيّ هذه الروسية التي منعتك من العودة إليّ. ربما أنجبتما أطفالًا. سأظل محتفظة باخلاصي لك، ولن أدع أحدًا يعزيني رغم وجود رجل آخر يحبني»)[270].

إن النظرة الأولية لهذه اللوحة الفنية، توحي أن رسامًا تشكيليًا مبدعًا قام على رسمها، حيث يمكن ملاحظة هندسة واستقامة خطوطها البديعة وتناسق أبعاد رموزها وروعة زخرفتها الجميلة. ومع كل هذا الإبداع بقيت هذه الرسامة الشابة المبدعة عاجزة عن التفكير في إمكانية وجود شيء اسمه الكتابة. فدقة تعابير لوعة الغرام وما بثته الفتاة من حزن وأسى ومدى تعقيد أشكال لوحتها الهندسية، احتاجت إلى علماء لفك رموزها.

من هنا نستطيع التأكيد أن اختراع الكتابة، هو أمر فوقي غير بشري، إختُرعَ بين شعوب قديمة كثر بينها ظهور المعلمين والأنبياء، مثل (الصين، فارس، مصر، أرض الرافدين).

«مرسال» الحب اليوكاغيري[271].

وبذلك نقول، كيف يمكن لفتاة بدائية في سن الشباب (وليست شخص كبير السن وحكيم) أن تشمل رسالتها كل هذه المعاني والتصريحات ولوعة العشق، بينما لم تستطع ـ لا هي ولا حكماء قبيلتها ـ اختراع فن الكتابة؟! فإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على اختصاص الآلهة بهذا الاختراع الإلهي.

إن التفكير والتأمل والمنطق يقودنا للتساؤل عن ماهية الفرق بين شعوب مناطق الشرق الأوسط ـ أو بالأحرى شعوب وسط وغرب قارة آسيا ـ وبين تلك الشعوب التي بقيت بدائية حتى قبل قرون قليلة في مختلف أنحاء العالم، فالحاجات الاجتماعية والرغبات النفسية ومتطلبات أجساد البشر ورغباتها وتفاعلات العقول وإدراكاتها لمتطلبات الحياة، وميكانيكية أطراف الأجساد وحركتها وأحوال المجتمعات وأنظمة الحكم وغيرها الكثير، كانت متشابهة ومتساوية بشكل متقارب عند الأمم القديمة. فأين كمنت الفروقات الجوهرية بينها؟ وماذا دفع ببعضها للتقدم والبروز وتأسيس حضارات، بينما بقيت الأخرى على بدائيتها، وما هو المانع؟

لا يبدو هناك بعد البحث والتدقيق، إلا الفارق الروحاني أو المعنوي، الذي صدَّ عنه علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والحضارات والتاريخ والفلسفة المعاصرين، خشية اتهامهم بدعم الأديان والغيبيات، وكأنها جريمة لا تغتفر نئى عنها الجميع. فتلك الأقوام البدائية البعيدة عن مركز حضارات الأديان العالمية في الشرق الأوسط، رغم أن تاريخها القديم يقول بوجود الشامان والسحرة والكهنة بينهم، إلا أنها خلت من ظهور أنبياء وكتب شرائع، بينما كانت أرض الرافدين وفلسطين وما حولهما مهابط للوحي ومراكز للظهورات النبوية ونزول الشرائع السماوية على الدوام، فالصابئية والكونفوشية والطاوية والمسيحية واليهودية والزرادشتية والاسلام والمانوية وآخرها البابية والبهائية، لم تخرج عن هذا الإطار الجغرافي.

هذا هو الفارق الروحاني والقوة المعنوية اللذان رفعا من مستويات شعوب الشرق الأوسط. إنه ظهور الرسل والأنبياء ونزول الشرائع السماوية. ولا يبدو غير ذلك سببًا.

(8)
اختراع اللغات

من المعلوم أن فرضية الفكرة التوراتية في تبلبل ألسن البشر قد سيطرت على عقول نسبة كبيرة من قدماء العلماء والمعاصرين حتى صارت تقريبًا فرضية ثابتة لديهم، لا فرق بين رجل دين أو رجل علم. لكن نظرية الإنفجار الكبير القائلة بظهور البشر من تربة الأرض أبطلت هذه الفرضية وقدمت فكرة بديلة تفترض تشتت البشر وتفرقهم في الأرض منذ بداية ظهورهم حينما إتخذت كل عائلة أو مجموعة أو قبيلة مستقرًا ولغة خاصة بها. ومن الدلائل الكثيرة التي تثبت صحة ذلك على سبيل المثال، حالة قبائل الهنود الحمر حين اكتشافهم في القارة الأمريكية، فقد كتب شالين:

- (إن هنود أمريكا الشمالية يتكلمون على الأقل 200 لهجة لا تتصل بأية لغة من اللغات المعروفة، بل إن بعض هذه اللهجات تختلف غالبا فيما بينها اختلاف اللغة الفرنسية عن اللغة الصينية)[272]. فلو كانوا قد وصلوا كمجموعة واحدة أو عدة مجاميع إلى أمريكا من أرض أخرى، فلا يمكن أن يكون اختلاف لغاتهم بهذه النسبة الكبيرة.

لقد بدأت معالم اللغات البسيطة المختلفة تظهر بعدما بدأت عملية التواصل والتقارب بين البشر، حينها بدأت الأصوات تتضح وتسمع وتأخذ معـالمها وتتطور من جيل إلى آخر حتى ظهرت اللغات بشكلها البدائي غير الناضج (إذن هناك فترة طويلة من الزمن ـ هي مع التجاوز ـ تكاد تحتل كل تاريخ الإنسان على ظهر الأرض، وقد تمتد إلى مليون سنة، لا نعرف فيها شيئًا عن لغات الإنسان وتطورها، وكل الذي نعرفه هو أنه كانت هناك لغات عديدة على وجه الترجيح)[273].

إن نظرية ظهور البشر من تربة الأرض في كل مكان بشكل عشوائي كما هو حال بقية المخلوقات والنباتات، ستؤدي بالضرورة لتغيير كثير من المفاهيم القديمة والنظريات العلمية والعقلية والتاريخية وفي مقدمتها الموروثات الدينية التي دأب بعض علماء الحضارات والأديان والتاريخ المعاصرون على التمسك بها اعتمادًا على الفكرة التوراتية، حينما قرأوا:

- (وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة)[274]، وكذلك:

- (لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض)[275].

لكن كتاب التوراة لم يجزم تمامًا بوحدانية لغة شعوب الأرض في قديم الأزمنة، حيث نقرأ في مكان آخر إشارته لوجود لغات أخرى غير مفهومة لبني إسرائيل، حينما ذكر:

- (لأنك غير مُرسل إلى شعب غامض اللغة وثقيل اللسان، بل إلى بيت إسرائيل)[276]. وكذلك:

- (لا إلى شعوب كثيرة غامضة اللغة وثقيلة اللسان لست تفهم كلامهم)[277].

لقد كان استعمال البشر لأصواتهم في بدء التاريخ المجهول قبل ملايين السنين متنوعًا، لدرجة يمكن القول أن لكل عائلة أو قبيلة منفردة أصواتها وإشاراتها الخاصة بسبب حالة الانعزالية التي شملتهم جميعًا[278]. لذا فمن الصعب الافتراض أن كان يجري بين تلك الأسر المتباعدة نوعًا من التفاهم الطبيعي والحوار العقلاني، خاصة والتوجس والحذر والعدائية هي من صفات الإنسان الأول لما كان يحيط به من مخاطر المخلوقات الشرسة حوله. فما كان يسمى جزافًا «لغة»، لم تكن تحوي في مجملها سوى مجموعات قليلة من الأصوات والصيحات والإشارات؛ وحتى بعد مرور زمن طويل، لم يمتلك الإنسان إلا عددًا قليلًا من الأصوات وأشباه الكلمات بسبب حداثة لغاته وبساطة واقعه الطبيعي ونتيجة انتشاره في بقاع الأرض المختلفة وانقطاع تواصله عن بقية الجماعات البشرية، فنقرأ:

- (تدل اللغة على الحياة العقلية من ناحية أن لغة كل أمة في كل عصر مظهر من مظاهر عقلها، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة، ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة، إنما يَخلق الناس في أول أمرهم ألفاظًا على قدر حاجتهم، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظًا جديدة)[279].

إن الكلمات تتكاثر نتيجة تطور الحالة الاجتماعية، وطالما كان واقع الانسان آنذاك بسيطًا لا يتعدى وجود السماء والأرض والنجوم والمياه والجبال والحيوانات والنبات، فلم يكن هناك ما ساعد الإنسان على ظهور لغة متكاملة يمكنه التفاهم بها. وهذه الحالة «الخرساء» امتدت لملايين السنين، وخلالها بقيت حالة الإنسان الفكرية جامدة لا تتغير، فتطور اللغة يتوافق بشكل طردي مع تطور المجتمع وتطور عقلية أفراده، وطالما كان المجتمع جامدًا على حالته البدائية، فبالضرورة كان تطور اللغات بسيطًا بمقدار لا يذكر. ثم راحت تتقارب الأصوات والصيحات والإيماءات وأساليب لهجاتها ونطقها بعدما بدأ ظهور تكتل العوائل والتجمعات الأكبر حجمًا، وكذلك بسبب انتشار المعتقدات البدائية القديمة التي تطلّب ممارسة شعائرها وعباداتها لغة واحدة مشتركة، إلا أن مفردات اللغات المتداولة عمومًا بقيت قليلة تتناسب مع واقع الحال البدائي البسيط حتى ظهور تجمعات القرى والمدن الأكبر حجمًا حينما ظهرت خلالها الحاجة إلى مفردات لغوية جديدة بشكل أوسع.

أما حينما يعرض بعض العلماء رأيهم بخصوص تقارب اللغات والتقاليد الثقافية للشعوب القديمة، بالقول:

- (وقد جزم بعض الدارسين بأن مجموعات بشرية قادمة من غربي المحيط الهادي قد وصلت إلى امريكا الجنوبية، وقد اقاموا جزمهم هذا على تشابه اللغات والتقاليد الثقافية عند بعض هنود هذه الجهات مع اللغات والتقاليد الموجودة عند شعوب «ميلانيزيا» و«بولينيزيا»)[280]. فمثل هذا الرأي المرتبط بشكل من الأشكال مع الفكرة القديمة القائلة بظهور البشر من منطقة محددة داخل قارة أفريقيا أو آسيا ثم النزوح والهجرة إلى مختلف بقاع الأرض نتيجة حلول جفاف أو كوارث طبيعية أو بحثًا عن الماء والكلأ؛ فحتى لو صح ذلك، فهو لا يثبت بالضرورة وحدة اللغة بين البشر ومن ثم اختلافها فيما بعد، بقدر ما يثبت وجود هجرات برية (مشيًا على الأقدام أو باستعمال الدواب أو السفن والمراكب الصغيرة) حدثت بعد مجيء العصر الحجري الحديث قبل بضعة آلاف

من السنين نتيجة ظروف بيئية أو نتيجة ازدياد أعداد البشر. لكن الأستاذ شالين، يعود ويفترض أن مثل هذا التماثل في اللغات والثقافات قد يكون بسبب تماثل عقلية البدائيين ومستوياتها الفكرية المتقاربة أينما وجدوا:

- (والواقع أن هذا التماثل في اللغات وفي التقاليد الثقافية يمكن ان يكون ناتجا عن تماثل الأساطير القديمة المشتركة بين مجموعات الانسان المفكّر في آسيا الشرقية)[281]. وهذه فرضية لا يمكن تقبلها أيضًا، لأنها تأخذ بمبدأ الصدفة غير المعقولة.

أما قول البعض أن البشر قد هاجروا قديمًا مستعملين مراكب قوية تمخر عباب البحار ومن خلال هذه الهجرات حصل بعض التشابه في لغاتهم أو في لهجاتهم أو أصولهم الثقافية! فلا قلّة أعداد البشر في ذلك الزمان القديم تدفع بالانسان إلى مثل هذه المغامرات والرحلات الخطيرة ليغامر بحياته وحياة عائلته، طالما مساحات الأرض مفتوحة أمامه وتتسع للجميع، ولا كانت قد وصلت آنذاك مخترعات وسائل النقل النهرية والبحرية إلى مستوى راقي في صناعاتها ليمكنها قطع مسافات شاسعة بآلاف الأميال بصورة آمنة، خاصة إذا علمنا أن السفن الكبيرة متعددة الأشرعة والصواري لم تظهر إلا قبل قرون قليلة فقط لتتحمل صعاب رحلات بحرية تمتد إلى عدة شهور. فقد ورد:

- (لم يحدث تطور في الملاحة إلى السفن الكبيرة المتعددة الأشرعة إلا حوالي تاريخ الكشوف الجغرافية الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك برغم الشهرة والنشاط البحري لعددٍ من شعوب البحر المتوسط ذات الحضارة العليا: الفينيقيين، والإغريق، والرومان...، ومعظم البدائيين إلى الآن لا يستخدمون الرياح ويفضلون استخدام الطاقة العضلية في التجديف)[282]. كذلك، ليس من المعقول أن يهاجر او يسافر الإنسان تاركًا أرضه وبيئته إلى جهات أو مناطق غريبة عنه لم يسبق أن علم بوجودها.

فإذا كانت أمم الحضارات السابقة بكل علمائها وفلاسفتها لم تخترع سفنًا شراعية كبيرة لاستعمالها في حوض بحر الحضارات المتوسط واكتفت بالمراكب الصغيرة او المتوسطة ذات المجاديف أو الأطواف والقوارب الجلدية، فكيف يستسيغ العقل نسبة اختراع سفن قوية لأمم البدائيين حتى استطاعت عبور المحيطات؟ مع العلم ان مدونات التاريخ تشهد أنهم استعملوا قوارب صغيرة صنعت من البوص أو الجلد أو القصب أو لحاء الشجر أو قوارب محفورة داخل جذوع الأشجار؟ أما ما نراه اليوم من أنواع السفن والمراكب مختلفة الأحجام، شراعية كانت أو بالتجديف واستعمال القوى العضلية، فهذه ابتكارات متطورة قريبة العهد لا يوجد دليل تاريخي او علمي ولا حتى عقلي على أن الانسان البدائي قد اخترعها قبل ظهور عصر الحضارات.

إن الأدلة العلمية الحديثة التي تثبت تكوّن الأرض من تجمع السديم والصخور والنيازك بعد حصول الإنفجار الكبير، وبالتالي فرضية ظهور البشر من تربة الأرض في كل مكان واتخاذ كل إنسان أو كل عائلة أو مجموعة صغيرة لغة خاصة بها، كلٌ في حدود موقعه، هو التعليل الأقرب إلى المعقولية والتوافق. أما موضوع (تشابه اللغات والتقاليد الثقافية)، التي جاء على ذكرها الأستاذ شالين، فهذا أمر بديهي في زمن بدائية البدائيين، حيث كان جميع البشر يعيشون حالة بدائية

متشابهة في مناطق جغرافية متصلة أدت بالضرورة إلى توافق الكثير من إشاراتهم وتشابه أصواتهم وعاداتهم وثقافاتهم، مثلهم مثل تشابه تصرفات الأطفال في سن محددة. أما الأمم والشعوب والقبائل التي كانت تعيش في أماكن بعيدة أو منعزلة، فلقد بقيت تحتفظ بلغاتها وثقافاتها الخاصة بها.

لو أخذنا بفكرة ظهور البشر من تربة الأرض بشكل فردي عشوائي مثلما حصل مع أول ظهور النبات والحيوان والأسماك والحشرات المختلفة، ثم بسبب حصول عمليات الاتصال بين الذكور والإناث وتكوين الأسر الصغيرة التي تطورت إلى أسر أكبر ثم إلى تكتلات جماعية بسيطة، فهذه الحالة الأخيرة تطلبت في بدايتها نوعًا من التفاهم بالإيماءات والإشارات والأصوات البسيطة شبه المبهمة، ثم راحت تنضج كلما ابتعد وغاص موقع الحنجرة داخل البلعوم مما أدى لاحقًا إلى تحسن أداء الحبال الصوتية وفاعليتها، حيث كان جسد الانسان ما يزال خاضعًا لحالة من التطور والترقي وتحسن وظائف أعضائه، فأدى ذلك مع استمرار الزمان إلى ظهور اسلوب من التفاهم البسيط بأصوات ولهجات تناسبت مع الحاجات الاجتماعية البسيطة آنذاك؛ وهذا يؤيد أيضًا فرضية كثرة إختلاف لغات البشر في البدء، وأنهم لم يتكلموا في الأصل لغة واحدة متشابهة ثم (تبلبلت ألسنتهم). فعملية تكون الجماعات البشرية الصغيرة هي التي ساعدت الانسان البدائي على تحسن أداءه الصوتي حينما وجد نفسه بحاجة إلى تكرار النطق بأصوات متميزة كغيره من بقية الكائنات، فكان ظهور تشكيلات هذه التجمعات البشرية دافعًا مساعدًا لتبلور الأصوات واختلاف نطق الحروف ودمجها لتشكل كلمات بدائية بسيطة تناسبت مع واقعه البدائي.

لقد كانت محاولة ترتيب الأصوات وتنسيقها مع الحركة والإشارات والحاجات اليومية، عملية مرافقة لتقارب وتجمع أفراد البشر وظهور بداية أشكال العائلات الصغيرة. ومع ذلك ليس علينا أن نتصور ان بداية ظهور لغات التفاهم البسيطة في مجتمعات البشر الأولى قد ساعدت على تطور اللغات بشكل كبير فراحت المفردات والعبارات والجمل تتراكم وتتزايد وتتضخم مما أدخل الانسان بسرعة إلى مرحلة التفكير الواضح والشروع في اصلاح تنظيماته الاجتماعية، دليل ذلك أنه من الممكن تقليد الانسان لأصوات الحيوانات والطبيعة والطيور، لكنه ليس بامكانه زيادة تلك الكمية باضافة مفردات مركبة ومعقدة أو خلق حوارات تتسم بالمنطق والعقلانية، فهذه مسألة متصلة بالمعنويات الفكرية غير المادية وتتعلق بتطور الأفكار ومستوى نضوج العقل، وهي أبعد ما تكون عن عقلية الانسان البدائي، كما أشارت اليه المؤرخة "غيردا" في قولها:

- (سجل لهذا الانسان ـ النياندرتال ـ مقدرته على الكلام ولكن لوحظ افتقاره إلى تركيب الكلمات المعقدة أو تكوين مفاهيم أكثر تعقيدًا كالفن وغيره فقد ظل بدائيًا جدًا)[283].

إذن فعملية تطور اللغات مسألة مثل غيرها من بقية العلوم مرتبطة بتطور المجتمعات، وهذا التطور مرتبط بدرجات ترقي المجتمع وازدياد العلوم الطبيعية المادية، وهذه تعتمد في ظهورها على اقتباس أفكار معنوية (عملية التفكير)، وبما أن المعنويات بحاجة إلى عقلية فوقية أرقى من مستوى الواقع العام للمجتمع المعتمد أصلًا على موجودات الطبيعة المادية؛ إذن لا بد وأن كان هناك من هو بمستوى فوقي أرقى من عموم البشر، قام على تصنيف الأصوات وتحديد وتأكيد مفردات الحروف والربط بينهما واختراع الكلمات لتحديد معانيها ومفاهيمها، إضافة إلى عامل

الممارسة والتعامل اليومي الذي كان عاملًا فعالًا في تثبيت استمرارية تذكّر المفردات. وبما أنه يصعب على عقل الإنسان العادي القدرة على الانتقال بأفكاره من واقعه المادي إلى مستوى الأفكار المعنوية، لذلك لا بد وأن يكون هناك من هو أرفع مقاما من البشر في مستوى معنوياته. ولا نجد حلًا لهذه المعضلة، إلا بالإنصات لما بقيت مدونات الأساطير وكتب الأديان القديمة تقول به، وهو «الإنسان المميز»، مثل الآلهات والشامان والكهنة الذين اشتهروا وتميزوا عن غيرهم بقواهم المعنوية والروحية العالية وبقدرتهم على الاتصال بالفوقيات والماورائيات.

للفيلسوف والمؤرخ الفرنسي «آرنست رينان» (1823 - 1892)، رأيًا موافقًا، حينما كتب، فقرة تؤيد نظرية (اللغات ليست اختراعًا بشريًا)؛ ومن المستحسن تناول قدرًا مناسبًا منها، قال:

- (إن التاريخ يجعل من اللغة

المفهومة هبة عجيبة، وميزة اختص الله بها الانسان. واذا كانت مصطلحات التعبير عند سائر الشعوب مختلفة، فإننا نرى أنفسنا مجبرين على شرح ذلك بالتطلع إلى لعبة ساحر في برج بابل. وخلافا لهذه الفكرة يتوهم البعض بأن الأمر كذلك بالنسبة للغة الواضحة والكتابة على حد سواء. فهم يعزون أصل اللغة إلى اختراع بشري اصطناعي محض، وهاتان فرضيتان إحداهما أكثر خطأ من الأخرى. فلو أن أولئك درسوا وقارنوا اللغات الأولية وتطورها في ما بينها، لكانوا تحاشوا الخطأ الأول والثاني، ولكانوا رأوا عندئذ بأن أول مظاهر الكلام ليس سوى أعمال تعجب غريزية، وغامضة، شبيهة بصيحات بعض الحيوانات. وكانت أعمال التعجب تلك تشير في البداية إلى الأشياء والمشاعر التي تجري في آن واحد أمامهم، والى الأعمال التي يعتزم القيام بها بخصوصهم. وشيئًا فشيئًا، وبشكل تدريجي، أخذت شتى المصطلحات التعبيرية تتكون انطلاقا من تلك المرحلة الغامضة. وقد قام الناس بوضع تلك المصطلحات، كل على هواه، وفقا لقوانين خاصة بهم، وبشكل خاص عن طريق تقليد بعض أصوات الضجيج، وعن طريق استيعابهم للاستعارات. وبمرور الأيام تدخل واضعو القواعد، ومؤلفو المعاجم، والمهتمون بصفاء اللغة من كل عيب، فسجلوا استعمالاتها، ودوّنوا قوانينها في قواعد على غرار مؤلفي مباحث علم البيان والعروض، لكنهم حتى ذلك الوقت، كانوا عاجزين عن وقف عجلة تطور اللغات، فاستمر هذا التطور بالرغم منهم، ووضعت الغريزة كل شيء في مهب الرياح. ولم يأت دور الضبط الإداري والعقلاني إلا في مرحلة متأخرة)[284].

إذن، فالأستاذ رينان يؤيد فكرة بساطة أصل اللغات في بداية ظهورها وأنها كانت عبارة عن أصوات مبهمة غير مفهومة أطلقها الانسان الأول ليماثل بها أصوات موجودات الطبيعة، وبالتدريج والاستمرار استطاعت كل مجموعة بشرية ـ بسبب انعزال أماكن استقرارها ـ بلورة هذه الأصوات حسب حاجاتها الاجتماعية بمعزل عن غيرها، ومن خلال تكرار الأصوات والتعود عليها استخرجت ألفاظ الحروف لتطلقها فيما بعد للدلالة على موجودات الطبيعة البسيطة وللتفاهم فيما بينها.

وهذا الرأي يخالف بمجمله أيضًا الفكرة القديمة القائلة أن البشرية كانت تعيش موحدة مجتمعة في مكان واحد في سلام وأمان وتتكلم لغة واحدة كما ذكرتها الألواح السومرية[285]. فمن المعلوم أن

الألواح والأساطير وما يماثلها من بقايا الحضارات القديمة كانت تشير إلى مراحل زمنية قريبة نسبيًا (بضعة آلاف من السنين قبل الميلاد) وليس أعمق من ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار قِدم عمر الإنسان على الأرض. إضافة لذلك إن الأساطير تكلمت عن شعوب في مساحات ومناطق محدودة على الأرض وليس بتمامها. يؤيد هذا الرأي ما جاء عن الفيلسوف الإغريقي أبيقور[286] في قوله:

- (لم يوجد في بدء الزمان مرحلة ذهبية، عاش فيها الناس في سعادة بالقرب من الآلهة. بل ان البشر الأوائل، وقد ولدوا من الأرض كانوا شديدين وقساة مثلها)[287].

نلاحظ هنا أن أبيقور بالإضافة إلى نفيه فكرة العصور الذهبية الأولى، كان سباقًا في تقديم فكرة ظهور البشر من تربة الأرض، وبهذا فهو يخالف فكرة كريمر فيما نقله عن الآثار السومرية بأن البشر عاشوا قديمًا في سلام ووئام[288]، ويخالف ـ في نفس الوقت ـ ما جاء في التوراة عن وحدة لغة البشر قديمًا وتبلبلها لاحقًا:

- (وقال الرب: «هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. لذلك دعي اسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض)[289].

بهذا يكون اختراع الحروف والكلمات ومن ثم اللغات هي مسألة معنوية في أصلها مرتبطة بتطور العقل البشري وظهور العلوم وتطورها، ولما أثبتنا عجز العقل البشري عن التفكير وتركيب المعلومات العلمية المعنوية ومفاعلتها ودمجها إلا بعد تزويده بمواد علمية أولية، وأن هذه المعلومات الأولية معدومة في عالم الطبيعة البدائي الأول، لذا فمن الصعب تحقق عملية التفكير والإختراع عند البدائي، طالما كانت أوليات العلم غير متوفرة في عالم الطبيعة. وبهذا لا بد من افتراض وجود بشر بعقليات فوقية استطاعوا بملَكَاتهم الميتافيزيقية نقل وتبديل رموز المحسوسات المادية إلى رموز معنوية. وقد نستغرب حينما نقرأ ما جاء في القران تأييدًا لذلك، بقوله:

- (وعلّم آدم الأسماء كلها)، وكذلك:

- (علّم الإنسان ما لم يعلم)، وهذه إشارات لا يمكن إهمال أهميتها، حيث تؤيد مشاركة الآلهة والرجال المميزون والشيوخ والشخصيات والأنبياء في تعليم البشر اللغات والعلوم.

يؤيد ذلك ما ورد عن الفيلسوف توينبي أيضًا حينما قال بحدوث التقاء فوق مستوى البشر:

- (ليست البيئة هي السبب الكلي في التشكيل الثقافي... وإن كانت بلا ريب أعظم العوامل تأثيرًا... فإنه ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديده وتجدر الإشارة إليه بالحرف «س» الكم المجهول، وهو على ما يظهر سيكولوجي في طبيعته... وإن لم يكن «س» أعظم عامل تأثيرًا في المسألة، فإنه بالتأكيد أعظمها أهمية... وأكثرها ارتباطًا بالقدر. وفي دراستنا الحالية للتاريخ، أثبتت هذه النظرية وجودها، وهي القائلة بحدوث التقاء فوق مستوى البشر. إذ لاحظنا أن كل مجتمع... يجابه في مجرى حياته مشكلات متعاقبة، وأن إبراز كل مشكلة هو تحد باجتياز تجربة)[290].

إن فكرة وحدانية لغة البشر القدماء ثم تبلبلها وتفرقها، سبق وذكرتها الألواح السومرية والآشورية، مثلما هو الحال مع تكرار ذكر قصة الطوفان في المثيولوجيا القديمة، ولا يستبعد أن اقتبسها الحبران اليهوديان عزرا الكاتب ونحميا، أثناء السبي البابلي، خاصة وأن نصوص التوراة كانت تحفظ استظهارًا عن ظهر قلب ثم دوّنت لاحقًا بعد مئات السنين، وهذا ما ترك لهما فسحة من الوقت كافية لاقتباس ما شاءا من أفكار وأساطير سمعاها من حكماء وادي الرافدين وعيلام ومن المثيولوجيا القديمة وغيرها، واضافتها إلى كتاب التوراة. أو أن ما ورد في التوراة أصلًا عن بداية خلق الإنسان، كان مشابهًا بشكل تقريبي لما ورد في مثيولوجيا أرض الرافدين القديمة، فكان ذلك دافعًا للتوفيق بين المنظورين. وبهذا فما ورد في التوراة لا يمثل حقيقة تطور اللغات أو بداية وجودها، بقدر ما ينوه على تشابه ميثولوجيا الأديان القديمة.

من الثابت علميًا أن عمر الأديان والمعتقدات الروحية تتوغل بعيدًا في عمق التاريخ، فلقد وجدت آثارها في قبور ومدافن انسان نياندرتال قبل مائة ألف سنة تقريبًا، ومثل هذا التاريخ القديم لا يمنع وجودها قبل ذلك أيضًا، إلا أن اختفت آثارها ودلائلها[291]، كما أكد على ذلك الأستاذ توينبي وغيره حينما قال إن المعتقدات الروحية لقدماء البشر لا تترك آثارًا تستقرأ، مثلما هو الحال مع الآثار واللقى والأحجار المادية. فيُستنتج من هذا أن الانسان القديم ونتيجة لبساطة مفاهيمه العقلية ومحدودية مساحة أرضه ومجال حركته وقلة تعداد أفراد جماعاته وعدم تعرفه على بقية الأقوام نتيجة موانع طبيعية، ظنَّ أن العالم محدد بين حدود معرفته المحصورة ضمن عوائق التضاريس الجغرافية، وأنه ليس هناك أمم أخرى على الأرض غير أمته. هذا الظنَّ وغيره دعى الأقدمين إلى تبني فكرة تكلم جميع البشر بلغة واحدة ثم تبلبل ألسنتهم، أو الظن أن طوفانًا وحيدًا قد حدث وأغرق الكرة الأرضية برمتها[292]. وبهذا ففرضيتا ظهور حشود البشر العشوائي من تربة الأرض وحتمية اختلاف لغاتهم وشعوبهم، تدفع بمفهومي قصة الطوفان وسفينة نوح الرمزية بعيدًا عن المفاهيم المادية، وإلا فقصة الطوفان مذكورة في زمن سابق متقدم في أسطورة «أوتا نابشتيم» خلال زمن البابليين ومن سبقهم[293]، هذا بالإضافة إلى أن المجتمعات البدائية القديمة لم تكن تعرف معنى تخزين الأقوات وتجميع الطعام بكميات كبيرة ضخمة لتستفيد منها عند الحاجة أو أثناء ترحالها وهجراتها، ناهيك عن فساد الأطعمة عند التخزين، ولم تتصور وجود بشر في أماكن أخرى نائية بسبب صعوبة العوائق الجغرافية وأحوال المناخ الصعبة وكثرة الثلوج وانتشار الكواسر ورهبة المجهول؛ كل هذا وغيره كان يحول بينها وبين حركتها وترحالها وهجرتها وترك أماكن استقرارها إلى مناطق مجهولة[294]، فالانسان عدو ما جهل، ولا يمكن أن تكون تلك الشعوب قد تصورت وجود مجتمعات بشرية تتكلم لغات أخرى مختلفة في مناطق أخرى طالما لا توجد اتصالات بينها وبين غيرها، ناهيك عن حتمية التصادم والقتال وتوقع قوة باطشة. لذا جاءت القصص أو الأساطير والملاحم بمنظورها الإجمالي لتنسجم مع ظنون ومحدودية عقل الانسان البدائي وحدود جغرافيته.

ومن الأدلة على اختلاف لغات الأقدمين أيضًا، ما وجد محفورًا على قطع الطين المفخور واللقى الحجرية وعلى الصخور وجدران الكهوف من أشكال حروف ورسومات اللغات البدائية المتباينة لمختلف حضارات شعوب الأرض في عصر الكتابة وما سبقها من عصور الخربشات والرسومات

رغم تقاربها الزمني النسبي في مصر واسبانيا وفرنسا والشرقين الأوسط والأقصى، واتضح أنها لا تتشابه في أشكالها ورسومها وأساليب تعبيرها. ومن الأدلة الواقعية على ذلك «حجر شامبليون»، فلقد كتبت عليه فقرة واحدة بثلاث لغات قديمة كان من الصعب فك رموزها.

ولنأخذ مثالًا واقعيًا حديثًا على ما رافق اللغات من تطور وتحول وتبلور في أشكالها. فاللغة العربية على سبيل المثال، لم تكن حتى وقت قريب قد نضجت أو استقرت أشكال حروفها النهائية وقواعدها اللغوية، وبالتحديد حتى زمن ظهور القرآن قبل حدود أربعة عشر قرنًا. نعم لقد كانت اللغة العربية موجودة قبل ذلك، تدل عليها قصائد عرب الجاهلية، لكنها كانت غير ناضجة في بعض جوانبها أو لنقل كانت غير واسعة في مساحتها اللغوية، وكان الناطقون بها يعتمدون على الاستظاهر والمشافهة والحفظ أكثر من استعمال الكتابة، وما وصلنا من آثار كتاباتهم، بل ومن نسخ القران الأولى خلوها من التنقيط والتشكيل، وإن قواعدها ونحوها وأشكال حروفها وكلماتها وجملها وأنواع خطوطها لم تترتب وتنتظم إلا بعد ذلك حينما ظهرت الحاجة لتدوين كتاب القرآن بشكل دقيق حتى يمكن قراءته دون أخطاء أو لبس. فإذا كان الحال بهذا الشكل مع اللغة العربية حتى عهد قريب؛ فما بال اللغات البدائية القديمة وتنظيماتها؟ وهذا ما يدفع للاعتقاد أنه وبعد ازدياد أعداد تجمعات عوائل الانسان القديم وتكوين العشائر والقبائل وظهور التجمعات البشرية الصغيرة وأشكال القرى البدائية والحاجة إلى الحركة للبحث عن الكلأ والماء والغذاء، والانتقال من مرحلة الصيد والقنص إلى مرحلة الزراعة والري وابتداء الاتصال والتلاقي بين أفراد البشر، كان لزامًا أن يحصل بالتدريج تقارب بين تجمعات البشر، عندها بدأت تظهر أشباه لغات بسيطة محدودة مختلفة، اختصت كل مجموعة متقاربة بشكل من مفرداتها وأشكالها وألفاظها، ثم استمر أفراد تلك الجماعات على تداولها، وبدأ ـ نتيجة الحاجة إلى التفاهم والتعاون ـ ظهور بدائيات اللغات المتعددة في كل مكان على حدة، يؤيد ذلك ما ذكره هاولز، بقوله:

- (لا يمكن للغة أن توجد بغير مجتمع.. وكما أنه لا توجد ثقافة واحدة بل عدة ثقافات، كذلك لا توجد لغة واحدة بل عدة لغات)[295].

رسالة النبي محمد (ص) إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين وقطر، ويلاحظ صعوبة قراءة مضمونها

إضافة لكل ذلك، فالفكرة البسيطة السائدة بأن الانسان هو الذي اخترع اللغات المعقدة الكاملة وأوجد سبل التفاهم بين البشر، لا يمكن تقبلها بعد ارتقاء العقل البشري حديثًا وازدياد كميات العلوم والمعارف أخيرًا، وكل الظن إن تقبل بعض علماء أوروبا لفكرة كتاب «ابن طفيل» في قصته (حيّ بن يقظان) بعد ترجمتها قبل عدة قرون، حينما حاول المؤلف من خلالها الخروج من مأزق (عجز الانسان على التعلم بنفسه وحتمية تعلمه العلوم والفلسفات واللغات عن آخر غيره)، حاول بعدما أدرك أن تتبع هذه الفكرة تراجعيًا سيدخله في متاهات أعماق نتائج مظلمة يستحيل عليه بلوغ نهايتها، هذا إذا لم تهزّ معتقداته الاسلامية، طالما يستند بفكره على معتقده الديني القائل بظهور البشر من انسان واحد ـ خاصة وبعض تراجم الفلسفات اليونانية والإغريقية القديمة قالت (بظهور الانسان من تربة الأرض وليس من آدم) بعد ترجمتها إلى اللغة العربية ـ وبذلك حبك تلك القصة الخيالية عن ذلك الطفل الذي وجدته ظبية في غابة وأرضعته ليكبر ويتعلم ليس الكلام فقط، بل

تمادى المؤلف في تصوره ليقول أن بإمكان طفل أعجم أن يكون حكيمًا وفيلسوفا ويحل أعقد مسائل العقل العلمية والفلسفية. إلا أن قصة بهذا الترتيب الساذج بعيدة عن المنطق والعقلانية، كما أيد ذلك الأستاذ سميث في قوله:

- (الإنسان مخلوق اجتماعي، فإذا فُصل عن بني نوعه بعد ولادته، فإنه لن يستطيع أن يصبح إنسانًا أبدًا؛ ومن الجهة الأخرى، فإنه عندما يعيش مع نظرائه من بني الإنسان، يكون في كثير من الأحيان بربريًا!. إن الحاجة للمبادئ الأخلاقية تنبع من هذه الحقيقة المزدوجة)[296]

فلو عاش ابن طفيل في هذه الأيام وقرأ ما ذكره الدكتور علي الوردي عن ذلك الطفل الهندي الذي عثر عليه في غابات الهند، وتعرف على أخلاقه وسلوكه وتصرفاته التي لا تختلف عن تصرفات الحيوانات، لما كتب قصته الشهيرة:

- (ولقد ذكر الفيلسوف ديورانت أيضا حادثة مشابهة، حينما قال:

- (ولقد وجدت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان في غابة بالقرب من شالون في فرنسا، فلم يكن لها من الكلام إلا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المســـامع)[297].

ثم يأتي ديورانت على دليل ليس أمامنا إلا الانتباه له كمثال علمي على تطور اللغات عند البشر في بدائيتهم الأولى وشاهد على اختلاف لغاتهم، حينما قال:

- (ولاحظ «وتمن» Whitman و«كريج» Craig علاقة عجيبة بين أفعال الحمام وصيحاته؛ واستطاع «ديبون» Dupont أن يميز اثنى عشر صوتًا مختلفًا يستعملها الدجاج والحمام، وخمسة عشر صوتًا تستعملها الكلاب، واثنين وعشرين صوتًا تستعملها الماشية ذوات القرون، ووجد «جارنر» Garner أن القردة تمضي في لغوها الذي لا ينتهي بعشرين صوتًا على الأقل، مضافًا اليها عدد كبير من الإشارات، ومن هذه اللغات المتواضعة نشأت، بعد تطور قصير المراحل، الثلاثمائة كلمة التي تكفي بعض القبائل البشرية المتواضعة. ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى، وللكلام المنزلة الثانية في تبادل الفكر في العصور الأولى؛ وإنك لتلاحظ أنه إذا ما أخفق الكلام في الأداء، وثبت الإشارات من جديد إلى الطليعة... وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هي الحال عند الحيوان، ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه، ثم تلت ذلك أصوات مقلدة جاءت في أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها، ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوي على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال)[298].

ويعود هذا الفيلسوف ليثري معلوماتنا مستدلًا بأقوال فلاسفة آخرين، فينقل حالة واقعية عن بداية ظهور اللغات ودرجات تطورها، ويقول:

- (وعند قبيلة «تكونا» Tecuna في البرازيل القديمة لفظ يقلد صوت المسمى تقليدًا تامًا، يدلون به على الفعل «يعطس» وهو «هايتشو»، وربما كانت هذه البدايات وأمثالها أساسًا للكلمات الأولية في كل لغة من اللغات؛ وحصر "رينان" Renan الألفاظ العبرية في خمسمائة كلمة أصلية، وحصر «سكيت» Skeat كل الألفاظ الأوروبية تقريبا في نحو أربعمائة كلمة أصلية)[299].

الخلاصة، ورغم أن الانسان استعمل الإشارات والإيماءات والأصوات ليجد سبيلا للتفاهم مع غيره، إلا أن ذلك لم يكن بلا حدود، فقدرات العقل البشري كانت تصل إلى انعطافات مغلقة لا ترتقي فوقها، مثلما كان يحصل دائما عند نهاية كل مرحلة حضارية لشعوب البشر، حيث تقف الأمم لا تلوي أمرًا ولا تعرف سبيلًا لتقدمها إلا بظهور رجل له قدرات فوقية ليأخذ بيدها من جديد نحو مرحلة تالية أرقى من الأولى، أو بإقتباس معارف أمم أخرى سبقتها حضاريًا. كذلك هو الحال مع اختراع اللغات العظيم، إذ لا يمكن للعقل البشري اجتياز مثل هذه العقبة الكأداء إلا بمساعدة رجال مميزون ملكوا قدرات غير عادية. فبنشرهم معتقدات أديانهم، كان لزامًا على أتباعهم التوحد في ألسنتهم مع مرور الوقت بغرض قراءة كتبهم وتأدية صلواتهم وعباداتهم وطقوسهم، مثلما حصل مع الديانة الاسلامية لاحقًا حينما وحدت بين شعوب من أقوام مختلفة ودفعتهم لتعلّم اللغة العربية.

(9)
اختراع لغة الموسيقى وآلاتها

لنفكر قليلًا بهدوء، كم كانت صعوبة تقليد البدائي لأصوات موجودات الطبيعة حتى يستفيد منها في حياته، وكم استغرق من أزمان طفولة بدائيته حتى تمكن من اكتشاف قدرات حنجرته، وكم كانت صعوبة اختيار وتعيين أصوات محددة والتعود والاتفاق عليها لاستعمالاته اليومية ومدى ما استغرق كل ذلك من عصور لا يمكن حصرها، وكم بقي على هذه الحالة البدائية المبهمة حتى بدأ يصطنع ويحدد كلمات بسيطة بمساعدة الإشارات للتفاهم مع غيره. مثل هذه العمليات المعقدة استغرقت ليس أقل من ملايين السنين بين أفراد العوائل المتباعدة والعشائر البائدة حتى ظهرت الخربشات على الصخور ومداخل الكهوف وأعماقها في نهاية العصر الكمبري، ثم بدأ الإنسان بتشذيب الخربشات ونزع قشرتها ولحاءها لتظهر الرسومات من بعدها، وفي النهاية لم يتبق منها إلا نواة الحروف ولبّ الكلمات ليتزامن كل ذلك مع بداية ظهور اللغات البسيطة ومن ثم بداية ظهور الحضارات الأولى. ورغم كل هذه الآماد الطويلة والصعوبات الفنية وعمليات الربط بين معنويات العلوم وماديات الطبيعة، إلا أن عظمة إختراع الكتابة الذي غيّر مجرى تاريخ البشر وحفظ تراث علومه وأوجد الحضارات الكبرى، يبقى دون مستوى عظمة اختراع الموسيقى! لماذا؟ لأن صوت الإنسان وأصوات موجودات الطبيعة أمر واقع ومتواجد وفي الإمكان محاولة محاكاته والتعلم منه بالسماع والتقليد؛ أما أن يفكر الإنسان باختراع آلات تصدر ألحانًا يستجلبها من عالم العدم ويستلهم نغمات موسيقاها ويجزأ تباينات ألحانها وينسق لها سلّم موسيقي يتوافق مع مختلف آلات الوتر والنفخ والقرع بطريقة مغايرة لكتابة حروف الكلمات، فهذا إبداع يسمو فوق إبداع إختراع الكتابة التي أحتاجت كل ذلك الزمن حتى ظهورها وكمالها النسبي، كما أن لغات البشر والكتابة تقتصر في انتشارها على مجموعات قبائل أو شعوب محدودة بأعدادها وجغرافيتها لا تفهمها إلا أقوامها، بينما لغة الموسيقى وألحانها هي لغة عالمية يتأثر بها جميع البشر من مختلف الأقوام والشعوب دون الحاجة إلى تعلم مسبق، حيث يدركها الكبير والصغير والطفل الرضيع، والجاهل الأمي والمتعلم، والرجل والمرأة، ويتأثر بها الحيوان والطير إضافة إلى الأشجار والنبات. أفلا يدل كل ذلك على عظمة شأن الموسيقى وشموليتها ومخاطبتها لكيان خاص في شخصية الإنسان مغاير لعقليته التي لا تتعقل أصوات وصور الحروف والكلمات والأرقام إلا بالدراسة المنظمة والتعلّم الجاد؟ فأن يتأثر جميع البشر بمختلف مستوياتهم بلغة الموسيقى وتتناغم معها أحاسيس الحيوان والشجر، إنما هي دلالة عجيبة أسمى وأرقى من اختراع اللغات والكتابة المحدودة قوميًا وجغرافيًا.

مثل هذا التوجه الإنساني في الإنتباه للغة المشاعر العجيبة هذه واستجلابها من عوالم المجهول الغيبي واستعمالها في شؤون الترفيه والدين ورقصات السحر البدائية لكسب مشاعر نفوس البشر منذ قديم الأزمنة، لهو اختراع يرقى كثيرًا على اختراع اللغات والكتابة اللذان يدخلان ضمن عملية التفكير داخل العقل، فهما يبدءان من محسوسات الطبيعة عبر حاستي السمع والبصر لتنتقل إشاراتها ورموزها إلى الدماغ لينقلها إلى العقل للتفكير والتفهّم والتعقّل ثم تعود إلى الدماغ على

شكل أوامر ونواه ليسلمها بدوره إلى حواس الجسد لتنفيذها على شكل أفعال وأعمال. بينما نجد هذا التسلسل العجيب ينتفي في حالة لغة الموسيقى، حيث يتأثر كيان الانسان ويطرب ويهتز ويفرح ويحزن لأصوات النغمات والألحان دون حاجة لفهمها وتعقلها. وبهذا لا يسعنا القول إلا إنها حالة أخرى مختلفة عن التفكير والتعقّل، تبدأ مباشرة من الأذن بعد تأثر أجزاءها باهتزازات الهواء ثم تمر بالدماغ الذي يرسلها مباشرة إلى العقل، الذي يدركها بسهولة ودون جهد بسبب خلوها من المعلومات العلمية أو الحاجة للتفكير بدقائقها المعقدة، دليل ذلك تفهّم جميع موجودات الطبيعة الحيّة لها ـ وهذا يعيدنا إلى أهمية حاسة الأذن وعملية السماع التي كانت السبب الأول في كسب الإنسان لعلومه ومعارفه ـ فإذا بحثنا عن العامل المشترك الذي يمكنه التناغم والتوافق مع الأنغام والألحان بين موجودات الطبيعة جميعا، لن نجد سوى ما يطلق عليه صفة الروح التي تمتلكها جميع الكائنات طرًا، بينما يختص الانسان بملكة العقل والتفكير دون غيره من الموجودات. وهنا يصح القول أن لغة الموسيقى هي لغة روحية وإن مسألة استذواقها متعلقة بشفافية الأرواح.

إن عملية استجلاب لحن موسيقى من عالم الغيب إلى عالم الشهود لتجسيمه ماديًا على شكل ألحان صوتية من خلال آلة أو مجموعة أدوات، هو أمر غاية في الحساسية والروعة يعجز كائن من كان على استخلاصه، دليل ذلك ندرة نسبة أعداد مؤلفي الموسيقى الحقيقيين إلى نسبة أعداد البشر، صحيح أننا نسمع أصوات تغريد البلابل والطيور وحفيف أوراق الأشجار وأفنانها وخرير جريان المياه وتساقط قطراته وأصوات بقية الموجودات، إلا أن عملية التفكير بتقليدها من خلال اختراع آلات موسيقية ملموسة تصدر ألحانًا عذبة، هو شأن آخر مختلف غاية في التعقيد، فسماع صوت جميل من أي كائن، لا يعقل أن يدفع بإنسان بدائي للتفكير أن باستطاعته اختراع آلة تصدر أصواتًا بألحان مشابهة، أو تصوّره إمكانية ربط هذه الأصوات بآلات بدائية تصدر أنغامًا متشابهة، لأن أي إختراع مادي لا بد أن تسبقه شذرات فكرة تتبلور داخل العقل لتصوّر إمكانية إيجاده بحدود قدراته، وطالما لا توجد عند قدماء البشر البدائيين معلومات أو أفكار مسبقة أو قدرات فنية عن إمكانية صناعة مُخترع يقلد الأصوات والنغمات، فبهذا تستحيل عملية تجسّم الأفكار المعنوية على شكل فكرة شبه كاملة توحي بإمكانية إنبثاق مُختَرَع ملموس على شكل آلات.

من الطبيعي أن خضع اختراع آلات الموسيقى في بدايته إلى مراحل التدرج والتجربة ولم تظهر فجأة بهذه التقنية والجودة العالية مرة واحدة، إذ لا بد وأن مرت بمراحل تطوير وتحسين لعقود وقرون طويلة، كما تثبت ذلك التجارب العملية وكثرة الآثار والحفريات؛ وبما أن العقل والمنطق يقضيان بصواب نظرية تناقص كميات العلوم كلما عدنا بالتاريخ عمقًا، لذا فمن المؤكد أن نصل إلى الإنسان البدائي الذي لم يكن يعلم شيئًا، وهنا نصطدم باستحالة إمكانيته الشروع بإختراع آلات موسيقى أو أي اختراع آخر، ويتضح وجود حلقة وصل مفقودة في تسلسل مسيرة رقي علوم البشر وظهور حضاراته، إذ لا يمكن وصل حلقة البدائية بحلقة الإختراعات حتى ولو افترضنا تدرج ظهور بوادر آلاتها الأولية، فحقيقة وجود الهوّة الواسعة والعميقة بين عالمي المعنويات والماديات تمنع تحقق ذلك، وهذا يبقي ـ من جهة ثانية ـ معضلة ظهور المخترعات وكذلك عملية تطور وانتقال البشرية إلى العصر الحجري الحديث دون حلّ، وكذلك الحاجة إلى أهمية كشف سرّ سبب هذه الطفرة العلمية والحضارية العجيبة حتى ولو كانت بدائية في وقتها. ولمّا لا يوجد سبب مادي ملفت للإنتباه يعلل ذلك، فبهذا لا بد من قبول فكرة وجود قوة عقلية معنوية راقية أوصلت حلقتي

هذين العالمين ببعضهما، فكان لهذه القوة المعنوية قصب السبق في تعليم البشر طريقة صنع آلات الموسيقى وغيرها من بقية المخترعات. وإلا فمن المستحيل أن تنبثق داخل عقل انسان ـ حتى ولو كان بمستوى ذكاء فطري عال ـ اختراع مثل هذه الأمور العجيبة المعقدة والتفكير بإيجاد آلات تصدر أنغامًا تربط بين مشاعر الإنسان النفسية والدينية قبل حصوله مسبقًا على معلومات أو فكرة أولية توحي في إمكانية توفر ألحان خارج حدود عالم المادة يمكن نقلها من عالم المجهول إلى أرض الواقع من خلال تركيب وربط عدد من قطع الأخشاب والأعواد والخيوط والأوتار لتنبعث منها ألحانًا وأنغامًا شجية ترتبط بأحاسيسه ومشاعره من خلال العزف عليها؛ فعملية ربط علاقة بين عالم الأمور المادية وعالم المعنويات هو أمر يستحيل تجاوزه. وليجرب من يقرأ هذه السطور اختراع شيء أو آلة أو حتى استنباط فكرة جديدة مهما كانت بسيطة، بشرط أن لا يكون لها معلومات مشابهة أو أولية متوفرة بين علوم البشر هذا اليوم!

لقد ورد عن معجزة اختراع لغة الموسيقى وألحانها وعبقرية اختراع أنواط ورموز حروفها وترتيب سلالمها في أول بداياتها، وعن قِدِم علاقتها مع الغناء وآلات العزف وارتباطها بالأفراح والأعياد والمناسبات العسكرية والحربية والطقوس والمعتقدات الدينية عند أهل الرافدين القدماء في زمن الحضارات المشهورة، ما يثبت حدوث هذه النقلة الحضارية العظيمة قبل عدة آلاف من السنين فقط، ولكن ليس فيما قبلها في أزمان البدائية الأولى، فنقرأ ما يلي:

- (لعبت الموسيقى جانبًا رئيسًا في الحفلات الترفيهية وكعناصر مكملة في الحانات التي كانت تدار من قبل النساء، وقد عرف العراقيون القدماء الجوق الموسيقي العسكري الذي كان يصاحب المحاربين ويعزف لهم الأناشيد العسكرية. ومن الجدير بالذكر أن أساتذة الرياضيات القدماء تمكنوا من ابتكار طريقة ترميزية للأرقام من خلال هذه الرموز الرقمية تمكنوا من ابتكار النوطة الرقمية حيث لم يكن الموسيقي العراقي القديم يكتب ألحانه بطريقة النوطة المعروفة اليوم «دو ريه مي فا» ولكن بطريقة علمية صرفة، تستخدم تنويعات الرقم كسلك موسيقي، أي أن الأرقام كانت تلعب في العراق القديم ما يلعبه السلم الموسيقي الذي يعتمد الدرجات الموسيقية "دو ريه مي".. ولهذا يمكننا أن نعد جذور النوطة الرقمية المعاصرة رافدية محضة، حيث ترجع في زمنها لأكثر من أربعة آلاف سنة ق.م)[300].

ما سبق وجئنا على اقتباسه ـ وهناك الكثير غيره ـ دلَّ بوضوح على مرحلة متقدمة في فنون الموسيقى، رغم أن عمرها ـ كما ورد في النص السابق ـ بحدود أربعة ألف سنة. وهذا يعني بالضرورة أن قد سبقتها عصور طويلة من محاولات التدريب حتى وصلت لهذا المستوى المتقدم. فيا ترى إلى أين يأخذنا التاريخ في ملاحقة بداية ظهور الموسيقى وآلاتها، ولم يتبق أمامنا إلا الولوج في أزمنة البدائية والهمجية والعصور الحجرية، حيث من المؤكد أن يتلاشى الأثر! وفي أي زمن حدثت مثل هذه الطفرة الحضارية وقانون التطور التدريجي يقطع علينا سبيل العودة والتراجع القهقري، وكيف تم ذلك؟

لو تابعنا كثرة أعداد آلات الموسيقى في أرض الرافدين قديمًا، لاستهانت فكرة اكتشاف قصبة ناي الإله «أوزيريس» بين شعب مصر القديم، فاختراع القيثارة الوترية الأورية بأعداد أوتارها المختلفة والربابة والسنطور وآلات القرع "الطبول" مختلفة الأحجام، والدفوف الكبيرة والصغيرة

وآلتي الطنبور والصنوج وآلات النفخ مثل الناي والمزمار ذو القصبتين والأبواق بأطوالها المختلفة، كل ذلك يبدو إرثًا قديمًا انتقل من أجيال وأمم تدرجت في تطوير هذه الآلات، صحيح ان التطوير هو شأن انساني تتحكم فيه محاولات استمرارية التجربة والتفكير بالتحسين، إلا أن أساس فكرة اختراع آلات الموسيقى في أصله هي فكرة تعود إلى مرحلة زمنية أقدم من ذلك حينما وجدت لأول مرة، وكان لا بد لها بالضرورة من موجد امتلك إمكانات معنوية خارقة غير عادية لينقلها ويظهرها من العدم إلى الوجود في تلك العهود الموشحة بالجهالة.

إن مثل هذه النقلات الحضارية العظمى لا تتأتى من عقول بشرية بدائية تنحصر في تعاملها مع المحيط الطبيعي بحواس الجسد المادية فقط، فالهوّة شاسعة بين عالم الماديات وعالم الأفكار المعنوية مما يحتم على الانسان استحالة قدرة تجاوزها. وبذا كان لا بد من قوة معنوية أعظم من قوة عقل الإنسان المعنوية، تمكنت من تناول فكرة الاختراع واستجلابها من عالم الغيب لتجسّمها في عالم الشهود، ولم يحدثنا التاريخ البشري العام خلال مجمل عصور الحضارات وما سبقها عمن امتلكوا مثل هذه القدرات المعنوية والروحية إلا «آلهة» امتلكوا قوى فوقية خيّرة غير طبيعية ساهمت في تعليم البشر مبادئ العلوم والمعارف. وبهذا يعود عقرب المؤشر ليقف عند الآلهة «الإنسان المُميّز» ليعلن إنهم المعلمون الأوائل الذين علّموا الانسان ما لم يعلم، وأنهم كانوا بذرة الحضارات الانسانية.

عندما تأتي الاشارة إلى تعليم أوزيريس للمصريين الغناء والموسيقى واختراعه آلة الناي (المزمار) ـ خاصة ونبات القصب يكثر في المستنقعات المائية ـ ورغم أن البعض قد يظنها آلة بسيطة لا تستحق اهتمامًا يذكر، إلا أن اختراعها في ذلك الوقت يعتبر نقلة حضارية مرحلية في عالم الفنون والموسيقى التي اشتقت من فكرتها فيما بعد وتطورت آلات النفخ الأخرى. إن مثل هذا المُخترع البدائي وغيره، رغم بساطة فكرته وشكله الظاهري، إلا أنه يثبت عجز الانسان العادي على التحرك المفصلي في المنعطفات الحضارية التاريخية، وأنه لا بد وأن يحصل على اسناد ودفع وتدخّل من شخصية أعلى مقاما مؤيدة بقوى معنوية عالية ليتخطى صعوبة مرحلته. بدليل أن لا أحد من عامة الشعب ولا من كهنته على مدى تاريخ الفراعنة الحضاري الرائع، فكَّرَ بتنظيف جوف القصبة والنفخ في طرفها لاصدار ألحان شجية تطرب لها القلوب والأرواح إلا من أطلقت عليهم الشعوب القديمة صفات الآلهة. وهنا كان أوزيريس بالنسبة لاختراع آلة الناي.

ولا غرو أن يشير بعض علماء الحضارات والأنثروبولوجيا أن أصل استعمال فنون الموسيقى كان مسألة دينية بحتة في بداياتها، فقد قال توماس:

- (كان الفن في القرون الوسطى أولا وآخرًا مجرد افصاح عن اغراض دينية. واننا نستطيع بالغريزة أن نميز بين الاتجاهات الفنية عن طريق المذاهب الدينية التي صاغها. إذ مهما كانت بعض العناصر الداخلة في تكوينها واسلوب صناعتها تربطها بجذور مشتركة، فإنها صبت في قوالب متمايزة ذات طابع ديني غلاب. كان الفن المسيحي بالدرجة الرئيسة واسطة للتثقيف الديني، ورسالته كانت على الدوام بينة ظاهرة من مجموعة الصور والتهاويل الخفية الفن، صيغت بشكل يفهمه الأمي كما يفهمه المتعلم)[301].

وبالمناسبة إن ما تجدر الإشارة اليه، أن مسألة تفريق الأديان عن جوهر أدوارها في رقي المجتمعات تبقى همّا مقلقًا لبعض علماء الطبيعة، فلا يجرؤ أحدهم الإقتراب منها أو لفت الإنتباه إليها، ويجهد غالبيتهم في التقليل من شأن هذا الرابط وتجاهل آثاره، حتى وصل الأمر إلى تفضيل دور عامل السحر على الأديان في اختراع فنون الموسيقى والغناء بل وإختراع الأديان بحد ذاتها. لكن عملية ممارسة السحر، هي مهنة بحاجة إلى تعلم مسبق، أي بحاجة إلى استعمال العقل أولًا في كسب معارف فنون السحر لاستيعابها وتفهمها ثم تجربتها وتطبيق العمل بها، وبما أن المعارف هي علوم معنوية لا يمكن الحصول عليها من عالم الطبيعة المادي، وطالما كان عامة البشر بمستوى معرفي متقارب في بدائيته خلال تلك الأزمنة السحيقة، فبذلك يستحيل تصوّر انبثاق أفكار معنوية بمختلف مستوياتها من عقل إنسان بدائي، إلا إذا كان هناك معلّم بمستوى علمي عال، له ملكات فوقية قادرة على استجلاب الإيحاء والأفكار المعنوية من عوالم علوية، توسط في الربط بين العالَمين المعنوي الفوقي والمادي الواقعي.

إن ما جئنا عليه في كيفية ظهور مخترعات آلات الضرب والقرع والنفخ والوتر بأنواعها وكيف بدأت بفكرة معنوية في عقل معنوي مُلهم قادر على استجلابها من عوالم الغيب إلى عالم المادة ليظهر منها مُختَرع أجهزة آلات الموسيقى وألحانها، لهو دليل عقلي على عجز العقل البشري لتجاوز هذه القفزة المفصلية بمفرده.

وبذلك يكون ظهور مُخترع آلات الموسيقى، هي البداية ثم أدخلت في رقصات الدين والسحر البدائية، لما لها من مؤثرات معنوية ومشاعر تهتز لها القلوب والأرواح، وجد فيها الكهنة ما يساعد على ثبوت المعتقدات في النفوس، بعدما كان الإنسان وحشيًا شرسًا لا يفقه من عالمه شيئًا ويتعايش مع عالم الحيوان.

(10)
اكتشاف فوائد النار

(لم يكن من السهل أو في متناول اليد أن تُوقد النار كلما طلبت، بل الغالب أنه كانت هناك نار دائمة قدر الإمكان)[302].

محمد رياض

رحالة يعرض علبة كبريت لأول مرة على رجل غابات بدائي

من الأجوبة والتعليلات الجزافية الأخرى غير المقنعة للمسائل الفلسفية البدئية المعقدة، ما يقدمه بعض علماء الطبيعة جوابًا لمعضلة اكتشاف الانسان القديم لفوائد النار وكيفية إيجادها؛ فالقول أنها كانت نتيجة المشاهدة والتفكير والتأمل والحاجة الحياتية أو الاجتماعية، أو تكرار المحاولات أو بالمصادفة أو غير ذلك من الفرضيات غير المثبتة علميا أو تاريخيا، لا تروي غليل الباحث الحصيف، فهي استنتاجات لا تعدو كونها مجرد إفتراضات لا تستند على أدلة علمية أو تاريخية مؤكدة، فالبحوث العلمية والاستنتاجات العقلية ترفض مثل هذه الاستدلالات إلا بأدلة مبرهنة ثابتة. يذكرنا ذلك بما قاله الفيلسوف ديورانت عما يروى ويكتب عن أحداث التاريخ القديم، إنها مجرد تصورات لا تخرج عن نطاق الرجم بالغيب:

- (فمعظم التاريخ ظن وبقيته من إملاء الهوى)[303].

إن من يتبنى مثل هذه التعليلات الواهية دون تحقق علمي، عليه أن يتصور نفسه قبل كل شيء في موقف ذلك الانسان البدائي الهمجي الشرس الذي لم يكن يعرف أو يفقه من واقعه شيئًا على الإطلاق، في بيئة بدائية بسيطة جدًا لا تمتلك أدنى مقومات الحياة، تحيط به الصخور الملساء أو كثبان الرمال الجرداء أو الأشجار والنباتات الكثيفة وسط مجموعات من الحيوانات الكاسرة المختلفة، أو يتصور العيش بين أفراد من أوائل البشر يتسمون بالشراسة والعدوانية لا يمتلكون لغة يتفاهمون بها ويتحاشى ولا يأنس أحدهم الآخر[304]. وعليه أيضًا التخلي مسبقًا عن كل ورقة معرفة من شجرة علومه وتصوّراته وأفكاره حتى لو كانت بأدنى أشكال المفاهيم وأبسطها، وأن يعتبر نفسه في حالة من الجهل التام كما لو كان مثل طفل صغير في أول أسبوع ولادته، لأنها هي ذات حالة مستوى عقلية ذلك الانسان البدائي الأول الذي حاول و«نجح» ـ حسب فرضية علماء الطبيعة ـ في اكتشاف فوائد النار أو ايجادها، حتى يتمكن فعليًا من التعرف على مقدار صعوبة اكتشاف أو إختراع النار واستحالة ايجادها بمثل هذه الفرضيات «الخرافية»، كما قال المفكر «بلوك»:

- (من أجل أن تتغلغل في وعي الغير، الذي تفصلنا عنه أجيال وأجيال، لا بد أن تلغي الـ «أنا» كليًا. ولكن إذا أردت منح هذا الوعي سماتك الذاتية، فبوسعك أن تبقى كما أنت)[305] كما يؤيد المفكّر الأمريكي جون كيرتشر ما جئنا على وصف حالة مستوى تفكير الانسان البدائي، فيقول:

- (في مجتمع بدائي، حيث يكون الإنسان على احتكاك دائم مع بعض الأشياء ولا يستخدم سوى أدوات أو أسلحة بدائية قليلة، تكون أفكاره بدائية، ومحدودة جدًا... (إن) بيئة الإنسان المادية هي التي تحدّد ليس فقط نطاق أفكاره بل أيضًا سماتها وخصائصها العامة)[306].

فالقول إن الانسان القديم تعلّم ايجاد النار نتيجة مشاهداته وطول مدد تأملاته لشراراتها وهي تنطلق من بين الصخور المتساقطة فوق بعضها، أو من خلال تكرار ضرب صخرة بأخرى، أو حتى بدلك قطعتي خشب، أو أنه استطاع الاحتفاظ بشعلتها متأججة لفترات طويلة من حريق تسببت باشتعاله إحدى الصواعق، فتعلّم من خلال التفكير والتمعن والتحليل المنهجي وتكرار التجربة، كيفية إيجاد النار والاحتفاظ بها. فمثل هذا التعليل الساذج، لا يقنع كثير من علماء الطبيعة أنفسهم ويتشككون قبل غيرهم بحبكته وبمجريات توالي ترتيب أحداثه حينما يحاولون شرح أحداث هذه العملية المتتالية المعقدة؛ لأن عملية الإختراع والإيجاد تبدأ من خلال الشعور بالحاجة إلى الشيء، ومن ثم القناعة في القدرة على إيجاده من خلال توفر السبل الممكنة وتحديد الأدوات اللازمة لتحقيق الهدف المطلوب، ثم التجربة والتكرار المستمر الحثيث في ذات المجال بعد وجود قناعة مسبقة لتحقيق الهدف المطلوب.

لكننا حينما نعلم أن كل هذه الأمور الذهنية والمادية وجميع هذه الرؤى والدوافع، لم تكن متوفرة عند طفل الطبيعة (الرجل البدائي)، لا على أرض الواقع ولا في عقليته المعنوية، عندها تنتفي بالمطلق جميع هذه الفرضيات. يقول الأستاذ "كولن ولسن":

- (وتتطلب المهام الأساسية ـ مثل الحفاظ على النار ـ قدرًا كبيرًا من التدبر والروية، وشحذ الأدوات، وهي عملية تقتضي صبرًا وطول أناة، تستلزم تخطيطًا مسبقًا)[307].

مثل هذه الفرضية الخيالية المعقدة، يفندها ما كان من بدائية مستوى عقلية الرجل الهمجي القديم الذي لم يكن يمتلك من المعرفة والعلوم شيئًا على الاطلاق، وهذا ما منعه عن الارتقاء إلى مستوى التفكير المعنوي، وبالتالي العجز عن اختراع أي شيء، إلا إذا حاز نسبة من أوليات المعرفة بخصوص أي اختراع مهما كان بسيطًا وبكرًا، وهذا هو سبب بقاء الإنسان الهمجي على حالته «الحيوانية» لمئات ملايين السنين عاجزًا عن الترقي والسمو بمستوى حضاراته.

يشارك الفيلسوف ديورانت مرة أخرى في الاحتمالات العجيبة عن كيفية معرفة إيجاد النار، إلا أنه ينحى لمخالفة ما يشاع، حيث يلفت الإنتباه إلى أن النار لم تكن اختراعًا «بشريًا»:

- (بدأت الصناعة بالنار التي لم يخترعها الإنسان اختراعًا، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيمياوية، ولم يكن لدى الإنسان في ذلك إلا ذكاء الذي يقلد به الطبيعة ويزيدها كمالًا... لقد بلغت النار في أعين البدائيين من الغرابة ومن النفع حدًا جعلها لديه إحدى المعجزات التي تستحق أن تُتخذ إلهًا وتُعبد، ولذلك أقام لها ما لا يحصى عدده من الحفلات التعبدية)[308].

هنا نجد ديورانت قد غفل أيضًا عن تقدير قدرات العقل البشري البدائي البسيطة في التفكير والاختراع وعجزه عن اكتشاف فوائد النار وإيجادها أو اختراعها بمثل هذه السبل التي ذكرها

إجمالًا، فهذا التعليل بعيد عن الاحتمالات وفرضياتها السليمة وتتخلله فجوات علمية. لكن المهم في هذا التصوّر، التأكيد على أن النار "لم يخترعها الإنسان اختراعًا" ولم يوجدها بجهود أفكاره الذاتية، بل نسب ذلك إلى الطبيعة نسبًا[309]؛ أما كيفية ظهورها فهذه مسألة أخرى سنتناولها في هذا البحث. كما أن ما أشار اليه من «ذكاء» الرجل البدائي، هو أمر غير مقبول يستحيل تصوره لما نعرفه عن جهله التام حيث كان ينام عريًا في العراء لا يفقه من واقعه شيئًا. أما قوله عن اعتبار البدائي للنار بأنها «معجزة»، فما هو إلا دليل على عجز البدائي التام على إيجادها بقدراته العقلية البسيطة؛ وإن من أوجد النار، إنما أجرى معجزة خاصة جدًا حسب ما جاء على وصفه.

وكاد ديورانت أن يقول إن النار جاءت من مصادر غيبية عليا، لكنه لم يجرؤ التصريح في خضم زمن تفشي الفكر المادي، فلقد دار حول هذه النقطة دون اقتحامها، فمن قوله أنه لا يمكن للإنسان أن يخترع النار اختراعًا، إلى قوله أن ليس بمقدور العقل البدائي إيجادها، ثم نسبتها إلى عامل المصادفة، ثم انتقاله إلى فرضية غير منطقية في قوله أنها قد تولدت من إحتكاك أوراق أو أغصان الشجر ـ مع أن مسألة احتكاك الأوراق هي فرضية خيالية بحتة لحاجتها إلى القوة والزخم والثقل حتى تصل لدرجة الاتقاد ليولد احتكاكها حرارة كافية. كما أن أغصان الأشجار رطبة في عمومها طالما بقيت متصلة بأصلها[310]، فحتى أطفال البوادي لا يستعملونها حطبًا لإيجاد نار إلا بعد قطعها وتجفيفها ـ إلى التنويه على كونها إعجوبة دفعت بالرجل البدائي إلى إتخاذها آلهة فأقام لحرارتها وبريقها حفلات تعبدية. فكل ما أورده من تعليلات وأوصاف وأسباب، لا تقدم ولا تشير أن الإنسان قد أوجد النار، بل أكثر ما تطرق اليه هو أن النار ليست من صنع الانسان البدائي ولا من بنات أفكاره أو من اختراعه؛ ومع ذلك لم يتقرب من احتمال أن يكون هناك بشرًا متفوقًا أعلى شأنًا وعقلا من البدائي كان السبب في تنبيهه إلى كيفية إيجاد النار وتعليمه فوائدها وكيفية المحافظة عليها والاستفادة منها في طهي الطعام وغير ذلك من أمور الحياة، رغم أنه ذكر ذلك في صفحات أخرى من سِفره الضخم.

يعود الأستاذ كيرتشر ليؤكد استحالة قدرات الرجل الهمجي في إيجاد النار، بسبب محدودية قوة تفكيره بحدود موجودات الطبيعة، ويدعو القارئ لتجربة ذلك ذاتيًا، فيقول:

- (في الحقيقة، من المستحيل التفكير في أي شيء ليس له مصدر مادي. لم يكن هناك أي فكر في عقل الإنسان سوى ذلك الذي يمكن إرجاع أصله إلى الطبيعة ذاتها. لا يمكننا التفكير بلا شيء. حاولوا ذلك وانظروا بأنفسكم إلى أي مدى ستبلغون)[311] والمعنى هنا أنه يستحيل استخراج فكرة معنوية من مصدر مادي كما سبق وأكدنا على ذلك في الفصول السابقة. فطالما كانت الطبيعة البدائية القديمة، عالم مادي بكر في جميع جوانبها وأركانها وخالية تماما من أي عامل معنوي مساعد للاختراع، وطالما كان العقل البشري خاليًا تمامًا من أي فكرة معنوية ـ كما هو حال الطفل الوليد ـ لذلك ففرضية انبثاق شرارة فكرة اختراع النار أو اختراع أي شيء آخر غير متوفر في الطبيعة، لنقلها من عالم الغيب المجهول وتنظيم فكرتها ومعرفة فوائدها باستنتاجات عقلية مسبقة، إنما هي فرضية غاية في الاستحالة. من هنا لا بد أن كان هناك دافع أو مصدر آخر تسبب في ظهور النار وبقية المخترعات البكرية العصيّة.

يؤيد البروفيسور "يوليوس ليبس" نسبة اختراع النار إلى عقل فوقي غير بشري، حينما قال:

- (هذا العنصر الذي كانت معرفة الإنسان الأول به منحة من الآلهة، ألا وهو النار)[312]. ويكمل القول أنه لا يوجد بين مختلف الشعوب من ينسب اختراع النار إلى البشر، بل لا يوجد شعب على الأرض إلا ونسب اختراعه إلى آلهة، قال:

- (بلغت النار من الأهمية بمكان بحيث لا يوجد شعب على وجه الأرض تخلو أقواله وتراثه من محاولات لتفسير أصلها، ونظرًا لما لها من منزلة رفيعة عند مختلف الشعوب، فقد أجمعت معظم الأساطير على أن الإنسان سرقها من الآلهة التي حفظتها بكل عناية، ولم تكن تريد أن تتقاسمها مع بني البشر)[313]. ويعود في صفحة أخرى ليؤكد عن اختراع النار:

- (هذا الشيء الثمين الذي جادت به الآلهة)[314].

طالما كانت مسألة معرفة بداية ظهور مُخترع النار وسبل الاحتفاظ بشعلته، عملية عصيّة على عقول العلماء القدماء والمعاصرين، ولا نجد بينهم من قدّمَ تعليلًا علميًا أو عقليًا أو حتى منطقيًا عن سبل وجودها، لدرجة أن نجد بينهم من ينحى للتوجه نحو الأساطير ـ كنوع من الطرفة وسد الثغرة ـ بعدما أعياه البحث والتفكير. من بينهم البروفيسور يوليوس، حيث يذكر أسطورة طريفة لا تصلح إلا لتسلية الأطفال. ومن الضروري تناولها كدليل على عجز الفلاسفة وعلماء الفيزياء والكيمياء في العثور على موجد النار. نأخذها نقلًا عن تراث قبيلة «كريك» الهندية الحمراء:

- (اجتمع مرة جميع أفراد قبيلتنا وقالوا «كيف يمكن لنا أن نحصل على النار؟» أخيرًا قرروا تكليف الأرنب بمهمة الحصول عليها واحضارها، فقام هذا بالاستعداد لهذه المهمة وسافر باتجاه الشرق فوق مياه المحيط. وعندما وصل لعند القوم الذين عندهم النار، استقبل استقبالًا لطيفًا وأقيمت له حفلة راقصة. انضم الأرنب إلى حلقة الرقص وكان بكامل زينته يضع على رأسه قبعة مضحكة مزينة بأربعة عصي من الصمغ. عندما كان الناس يرقصون كانوا يقتربون شيئًا فشيئًا من النار المقدسة التي تلتهب وسط الحلقة، وكذلك الأرنب. وأخيرًا بدأ الراقصون بالإنحناء أمام النار، في كل مرة ينحنون أكثر من سابقتها والأرنب معهم. وعندما انحنى مرة أمام النار بشدة التقطت العصي الأربعة المثبتة على رأسه، النار، وبدأت تشتعل، فغضب الراقصون من هذا الغريب، عديم الحياء، الذي تجرأ على مس النار المقدسة، وأرادوا الامساك به، لكنه كان أسرع من كل من لحق به. وصل إلى المحيط وألقى بنفسه فيه بينما ظل متعقبوه واقفين على الشاطئ. كان يسبح والنار الملتهبة على رأسه إلى أن وصل إلى قومه حاملًا النار التي ظفر بها من الشرق)[315].

يتفق غالبية علماء الميثولوجيا أن قصص الأساطير ـ رغم خرافيتها ـ تحوي شيئًا من واقع التاريخ القديم غير المكتوب؛ وفي هذه الأسطورة نلاحظ نسبة أصل معرفة النار وسبل الاحتفاظ بها إلى جهة (الشرق)، كما أنها تشير أيضا إلى مياه المحيط الفاصلة بين الفريقين. فهل يمكن القول أن النار وصلت الهنود الحمر من جهة حضارات الشرق القديمة بعد رحلة بحرية قطع الإنسان فيها مياه المحيط!

في الصورة الحديثة أدناه، ويرجع تاريخها لسنة (1993م) ـ وهو تاريخ حديث جدًا ـ نشاهد كيف أن إنسان غابات جزر غينيا الجديدة يتعجب أشد العجب من مشاهدة طريقة إيجاد النار لأول مرة، حيث لم يسبق له أن أوجدها بنفسه أو تقرب منها أو لمسها من قبل، وكيف جفل من لسعة نارها حينما حاول لمسها. وهذا من أعظم الأمثلة العملية المبرهنة على أن الإنسان عاجز عن إيجاد النار بقدراته الذاتية أو نقل فكرتها من الغيبيات إلى عالم الماديات رغم امتلاكه مجموعة الحواس الجسدية كاملة إضافة إلى قوة عقليته، ولو كان باستطاعته ذلك، لوجدناه يعيش الآن ـ وهو في أواخر القرن العشرين ـ بمستويات أعلى مما هو عليها، كما سبق الحال مع أمم أصحاب الحضارات القديمة.

نعود للقول: من أين لرجل طفل البدائية، ذلك العقل القدّاح المبرمج بأوليات المعارف ليتدبر ويتروى حتى يأتي بمثل هذا الاختراع العجيب المعقد؟! ألا يدعو كل ذلك إلى إعادة التفكير من جديد والغور عميقًا في جذور التاريخ في عملية تفكير حديثة تتناسب مع ما نعيشه من تقدم علمي وتكنولوجي لتعقب أصل الموضوع؟ فعقل الانسان البدائي كان خالٍ تمامًا من سبل التفكير والاستنتاج والتأمل، لخلوّه أصلًا من المعارف الأولية، وكان من الصعب عليه جدًا أن يخطو خطوته الأولى في التفكير والتدبر.

يعود «كيرتشر» ليضرب مثالًا آخر مؤكدًا على استحالة قدرة الإنسان البدائي على الاختراع بمجهودات عقليته الذاتية البسيطة، فيقول:

- (إذا لم يدخل المعدة أي طعام، لا يمكن أن تكون هناك عملية هضم. وإذا لم تدخل الدماغ أيّة مستقبلات حسية، فلا يمكن أن يكون هناك فكر)[316]. مثل هذا الكلام المنطقي يعيدنا للسؤال:

- من أين حصل البدائي إذا على أول معلوماته البدائية، والطبيعة من حوله بكر جرداء؟ وكيف عَلِمَ بفوائد النار وسبل الإستفادة منها ومن نتائجها مسبقًا حتى فكر في طلبها، بينما يخلو عقله من العلوم المادية والمعنوية تمامًا؟ ومن أين له الظن بأن استمرار تكرار عملية طرق حجرين أو حك خشبتين سيؤدي لحصوله على نار في نهاية المطاف وهو لا يملك أدنى فكرة مسبقة عن نتيجة المحاولة في جميع تدرجات مراحلها ونهاياتها! ومن أين له العلم المبدأي أن السعي وبذل الجهد والإصرار في المواصلة على استمرار عملية الاحتكاك سيعطيه النتيجة المطلوبة حتمًا؟ إذ لا بد مسبقًا إذا أردنا الحصول على نتيجة لأي عملية اختراع بكرية، معرفة الأدوات والسبل والمواد الأولية والأدوات المطلوب استعمالها، وقبل كل شيء تبلور مجمل الفكرة المعنوية للنتيجة والغاية المطلوبتين داخل الذهن مسبقًا. ثم كيف عرف البدائي أن هذه الشرارات المتشرذمة هي الخطوة الأولى في بعث نيران ملتهبة؟ وكيف ربط واستنتج أن الشرر هو جزء من النار أو مسبب لها؟ ألا يلزمه معرفة هذا الارتباط ثم تصوّر النتيجة مسبقًا حتى يباشر المحاولة أو يجهد في تكرارها؟ فطالما يجهل النتيجة ولا يعرف سبيلًا لها ـ أي ظهور الشعلة ـ فما هو دافع المبادرة والإصرار على المحاولة والتكرار أصلًا؟ فتكرار طرق حجرين، لا بد وأن تسبقه فكرة معنوية سبق وأن تجسّمت على شكل صوّرة واضحة داخل الذهن للنتيجة النهائية وفوائدها؛ ومن دون تبلور الفكرة ومعرفة العاقبة والنتيجة، فليس هناك أي دافع أو سبب يغري ذلك البدائي ـ أو أي إنسان متعلم في أي مجال علمي ـ ويدفعه على المحاولة وتكرار العمل والاستمرار عليه للوصول إلى اختراع

محدد. ولو كان الأمر بهذه البساطة والسهولة، لكان هناك نسبة عظيمة من العلماء والمخترعين من البدائيين والجهلة والأميين في قديم الزمان وفي الوقت الحاضر؛ ولما بقيت قبائل كثيرة تعيش عيشة بدائية حتى لبضعة سنوات ماضية؛ ولما اكتشفنا قبل قرون قليلة فقط، بشرًا في استراليا والأمريكتين وأواسط أفريقيا ما زالوا يعيشون في منتهى البدائية ولا يعرفون كيف يوجدون النار في أماكنهم المنعزلة النائية. ومع ذلك، ما زال علماء الحضارات المعاصرين يعتبرون اكتشاف البدائي للنار من الأسباب الرئيسة لظهور الحضارات.

إن فرضية بمثل هذه «السذاجة» ـ اختراع النار بالطَرقِ أو الدَلك ـ لهو أمر يستحيل بزوغه لأول مرة في ذهن انسان بدائي لم يسبق له مشاهدة نتائج تكرار طرق صخرتين ببعضهما أو دلك عودين أو غصنين. ولنتذكر هنا أن الكلام ليس عن نيوتن أو أرخميدس أو آنشتاين أو أي انسان بمستوى معرفي جيد، بل عن رجلٍ وحشي سكن الكهوف وافترش أرضيتها بين الحشرات والزواحف وأكل لحوم طرائده نيئًا دون شواء بيديه العاريتين مثل بقية الحيوانات. إن الإصرار على تكرار طرق أو ضرب صخرتين ببعضهما، يستوجب العلم بالنتيجة مسبقًا، فمن أين للطارق الهمجي مثل هذا التصوّر وهو لم يشاهد النتيجة من قبل، إلا إذا كان هناك من فعلها أمامه أو أخبره بأن الاستمرار في مواصلة الطَرق في نقطة محددة ودون توقف وانقطاع، سيوصله إلى تحقيق الهدف والنجاح في استحصال لهب نار؟

يقول العالم «جون كيرتشر» مرة أخرى موافقًا على استحالة ظهور الفكرة من العقل إلا بعد اكتساب معلومة أولية:

- (فالشيء الذي لا يدخل إلى العقل لا يمكن استحضاره منه. فإذا أردنا أن نمتلك معرفة حول موضوع معين، علينا أن نعود إلى مصادره المادية ورصده بحواسنا، أو علينا الرجوع إلى الكتب أو وسائل أخرى لتحصيل تلك المعرفة التي عمل آخرون قبلنا على تحصيلها ومراكمتها باستخدامهم لحواسهم وتسجيلها في الكتب)[317].

هنا يكون هذا المفكّر قد اختصر الفكرة وأجملها، فطالما تخلو الطبيعة من مصادر مادية تساعد على في الاختراع يمكن رصدها بالحواس، وطالما لم يكن آنذاك كتب أو تعليم او وسائل علمية ودراسات يُستند عليها، وطالما لم يسبق أن كان هناك بشر قاموا على إيجاد علوم ومخترعات قبل وجود الرجل الهمجي، فالنتيجة هي استحالة إيجاد مُخترع النار ولا غيره من بقية المخترعات.

ثم لو افترضنا تناول هذه التجربة البدائية عمليًا (طَرق حجرين قاسيين)، فسنرى العجز التام في الحصول على الغاية المطلوبة (الشعلة)، خاصة والشرر لا يصدر باستمرار مع كل طَرقة، بل بشكل متقطع ومتفاوت وبكميات قليلة متذبذبة، كما أن حالته ستكون على شكل شذرات باهتة متشرذمة تنطلق عشوائيًا بلا ترتيب ولا توافق نحو جميع الاتجاهات، وهذا ما يُعجز الطارق على توجيهها نحو نقطة معينة للحصول على شعلة أو لهب.

يقول علماء الحضارات إن اكتشاف النار كان من أعظم أسباب تقدم البشرية، وهذا رأي مثبت ومتفق عليه، لكنه يضعنا أمام سؤال محيّر، فلو افترضنا أن الانسان البدائي اكتشف طريقة إيجاد النار بشكل من الأشكال قبل آلاف السنين؛ أفلا يعني قدرة بقية البشر على تحقيق ذلك في أنحاء

أخرى من الأرض وفي أوقات متقاربة، باعتبارهم على ذات الحالة البدائية في مستوياتهم العقلية؟ فلقد ملك الجميع ذات الأيدي والأصابع والحواس والأدمغة، وذات القوة العقلية وذات المستويات الذهنية والاجتماعية باعتبارهم عاشوا في مراحل بدائية متقاربة الأحوال والمعطيات استمرت لمئات الألوف من السنين أو أكثر من ذلك؟ فما هو سبب بقاء كثير من الأمم والقبائل على حالتهم البدائية حتى وقت قريب، طالما ـ حسب قول البعض ـ كان اكتشاف النار بهذه السهولة واليسر على العقل البشري وتسبب في رقي بعض الأمم؟ أليس من الطبيعي أن تخطر ذات الفكرة في ذهن البدائي أينما كان ويستنتج ذات الاستنتاج ويتدرج في استعمال النار واستخلاص فوائدها حتى يسير في طريق التقدم ليلحق بركب بقية شعوب الحضارات؟

من هذا يمكن القول إن المعرفة المسبقة للانسان البدائي بأن تكرار طَرق صخرتين أو بذل الجهد في دَلك عصوين يؤدي إلى نتيجة ثابتة ناجحة في إحداث نار وظهور لهب، هو أمر خيالي غير واقعي بعيد عن العقلانية والتحليل السليم، حيث يصعب تصور انقداح فكرتها في عقل بدائي بكر، ناهيك عن صعوبة تحقيقها عمليًا. ومن الواضح أن سبب انتشار هذه الفكرة الواهية، هو عدم عثور علماء المادة المعاصرين على تفسير منطقي لظاهرتها، فما كان منهم إلا أن حاولوا مسايرة الفكر المادي العام وتجنب التغريد خارج أسراب طيور الفكر الطبيعي كي لا يتهموا بالماورائية والميتافيزيقية، حيث ينأى كثير منهم عن معتقدات أهل الأديان خشيةً أو تعصبًا، ويعيبون عليهم أيمانهم الأعمى بالماورائيات والمعجزات وبقدرات آلهتهم وأنبيائهم وأديانهم من دون تقديم أدلة علمية تثبت صوابها وأحقيتها. بينما في المقابل وعند تمحيص مثل هذه التخريجات الواهية للماديين، نجدهم قد سلكوا ذات طريقة التعصب «الأعمى» المخالف لقياسات العلم التجريـــبي وقواعد التمحيص العقلية والمخبرية التي يدعون لها ويؤكدون عليها ويشترطونها في تقبل أية نتيجة علمية؛ فهم يسعون قدر جهدهم في إبعاد كل ما يشير إلى المعنويات والروحانيات ودور الأديان أو «الرجال المميزون» أو قوى المفاهيم الفوقية والغيبية في التدخل بأمور العلوم المادية أو المشاركة في إيجادها وإختراعها. وكل الظن، أنهم بحاجة إلى قدرٍ قليل من الإنصاف والشجاعة الأدبية للاعتراف بذلك. وهنا نتذكر السؤال الذي وجه إلى الفيلسوف «كانط»، فيما إذا كان من الأفضل شطب الميتافيزيقيا من دائرة اهتمامات الانسان وإلغائها، نظرًا لاستحالتها؟ فأجاب بالنفي، وبأن إلغاء هذا الاهتمام من الحياة البشرية هو ـ بكل بساطة ـ أمر مستحيل[318].

وبالمناسبة، فلقد ورد ما يشير إلى أن أصل اختراع النار بدلك خشبتين كان عن طريق رجل شامان أو نبي صيني له كثير من المخترعات، وليس من رجل بدائي همجي عادي عاش بين أدغال الغابات أو في فلوات الصحارى المقفرة في قديم العهود:

- (... والحاذق «سوجان»[319] الذي ابتكر النار بقدح عصوين احداهما في الأخرى)[320].

ينقل الأستاذ الماجدي ذات فكرة اختراع الرجل الهمجي للنار، فيقول:

- (ويرى بعض العلماء أن الانسان القديم استخدم على ما يبدو الفحم المحترق أو الأغصان المشتعلة فسبب اندلاع الحرائق)[321]. قبل كل شيء، نرى الأستاذ الماجدي قد اكتفى بنقل الخبر دون تبنيه، وكل الظن أنه قد انتبه للحلقة العلمية والتاريخية المفقودة، فاكتفى بنقلها مشيرًا لنسبتها

إلى غيره (ويرى بعض العلماء...). فمثل هذا الرأي، لا يصح تناوله بهذا الشكل المجرد كما هو الحال مع الأمثلة السابقة، فالعثور على قبائل بدائية مؤخرًا لا تعرف كيف تصنع النار، ينفي بالقطع مثل هذه الفرضية، فاختراع النار كان من أول سلالم صروح الحضارات العريقة ومقوماتها، ولو صح ذلك، لما وجدناهم أخيرًا حفاة عراة لا يملكون غير ورقة التوت ليستتروا بها، ومنهم من وجدناهم بدونها.

ومرة أخرى.. إن الانسان لا يمكنه، بل يستحيل عليه التفكير بأي مسألة علمية فوقية بكر مهما كانت بسيطة، ولن تقدح أول شرارة لفكرة معنوية داخل عقله دون الاستعانة بمعلومات مسبقة مكتسبة من واقعه المادي أو من الأكثر علمًا ومعرفة ممن يحيطون به كي يتمكن من الاستنتاج والابداع.

والخلاصة، إن الفكرة القائلة بأن اختراع النار قد نجم عن استمرار دَلك قطعتي خشب أو طرق حصوتين وتصوير ذلك وكأنها فكرة بسيطة أو ناتج طبيعي يسهل الوصول اليه، أمر غير مقبول عقليًا. فمثل هذه الفرضية تبتغي قبل كل شيء، العلم بالنتيجة مسبقًا وتصوّر الغاية والفائدة منها حتى يتم الاستمرار والتركيز على بقعة الاحتكاك وعدم الابتعاد عنها، وأن يكون هناك عزم وإصرار على الاستمرار والمواصلة وعدم انقطاع عملية الدلك أو الطَرق للحصول على لهبة النار، فالتوقف لعدة ثوان، سيقطع استمرارية ارتفاع درجة الحرارة لدرجة الإتقاد ويعيدها لدرجة حرارتها الأولى. ثم إن مثل هذه الفرضية تبتغي عقلية أرقى من مستوى عقول بقية أفراد المجتمع عمومًا، وهذا أمر محال لتساوي مستويات عقول البدائيين جميعًا.

لذا فالتعليل الأكثر قبولًا والذي حان الوقت للإعتراف به، هو وجود «رجل فوقي مميز» استمد فكرة ايجاد النار المعنوية من القوى الغيبية الميتافيزيقية عن طريق الإلهام أو الإيحاء أو الرؤى أو المنامات ثم نقلها إلى غيره بالتعليم؛ إنسان متفوق في قدراته الذهنية يحب خير الناس، وليس بشرًا عاديًا.

(11)
اختراع فنون الزراعة

المحراث البدائي

قرأنا وسمعنا مرارًا وتكرارًا تلك القصة الهزيلة عن كيفية اكتشاف الانسان البدائي القديم لفنون الزراعة وعلومها، حيث لا تخرج بفكرتها المهلهلة عن كونها فرضية بسيطة لا يتقبل العقل الحصيف الأخذ بها،حينما لاحظ الانسان البدائي نموّ البذور وأنواع الحبوب بعدما تساقطت منه وهو يحملها إلى بيته أثناء مروره بذات المكان في مواسم السنوات الماضية، وعندها شدّ انتباهه تشابه فسائلها وحبوبها، برقت في ذهنه فكرة تجربة زراعتها مما نتج عنه تعلّم فنون الزراعة بالتدريج ـ هكذا بكل بساطة ـ كما ذكرها العالم ديورانت وغيره:

- (يجوز أنه حين أخذ الانسان في جمع الحبوب النابتة بطبيعتها، كانت تسقط منه حبات وهو في طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم فنبهته أخيرًا إلى السر العظيم الكامن في نمو النبات)![322] أو ما جاء عن قصة المرأة التي انتبهت لنمو وتغيّر حال ما كانت تخزنه من بذور في أركان بيتها، فخطرت في رأسها فكرة زراعتها في باحة الدار.

بمثل هذا الإفتراضات الجزافية، تكون مهنة الزراعة والإبذار والسقي المنظم وحراثة الأرض وتقليب تربتها وعلوم أنواع النباتات وخواص التربة ومعرفة تبدل أحوال المناخ ومناسبتها لمواسم الإبذار والسقي والحصاد والرعاية والتخزين لمختلف أنواع البذور والنباتات والأشجار ومواسم جني ثمارها وكيفية العناية بها ومعالجة أمراضها وسبل المحافظة عليها وتحسينها، تبدو وكأنها مهنوفنون خارج أطر التفكير ودوائر العلم المسبق. فالقول بأن الانسان البدائي استطاع تأمل كل هذه النتائج الظاهرية والباطنية لزراعة البذور والنباتات من خلال عامل الصدفة أو بالمراقبة ودون تخطيط وتفكير مسبق، أو بدون سابق إطلاع وتعليم ومعرفة، لهو أمر أقرب إلى الاستحالة، كما كان الحال مع اختراع اللغة والكتابة والموسيقى واكتشاف فوائد النار. يؤيد ذلك ما ورد عن البروفيسور يوليوس، قوله:

- (أما السؤال عن الطريقة التي تم بها الانتقال من هذه التشكيلة الاقتصادية القديمة، القائمة على الجمع والقنص، إلى أشكال أسمى، كالزراعة وتربية الحيوان، فما يزال منذ أقدم الأزمنة واحدة من مسائل العلم التي لم تتضح بعد)[323] ويضرب على ذلك مثالًا حيًّا في عدم قدرة الانسان البدائي على الانتقال من مرحلة الجني إلى مرحلة الزراعة حتى ولو كان ذلك أمرًا منظورًا في صلب واقع حياتهم، قال:

- (ذكر «كوتشي» أن سكان منطقة «كوردوفان» السودانية كانوا يجنون الرز البري ويستخدمونه في صنع الخبز، بينما ميّز الباحث «شفاينفورت» بين ثلاثة أنواع من الأرز تشكل في أفريقيا الاستوائية أحد مصادر الغذاء الرئيسية، دون أن يقوم أحد بزراعتها)[324].

ومرة أخرى يظهر السؤال:

- من أين لهذا الإنسان الجاهل البدائي معرفة وتصوّر كل علوم وفنون ونتائج حرفة الزراعة مسبقًا دون تعلمها، طالما لم يعلّمه معلم.! فالزراعة علم وفنّ وخبرة، ولو صحّت مثل هذه الفرضية، لما توارثت فنونها عوائل المزارعين ولما اختصت كبريات جامعات العالم وكلياتها بتدريس علومها وفنونها، ولما كتبت البحوث وألفت الكتب وأجريت التجارب الحقلية والبحوث المختبرية.

إن ما يستغرب له بشأن أمثال هذه التخريجات البسيطة، هي عملية تقبلها وتبنيها من قبل فلاسفة وعلماء كبار يشار اليهم بالبنان ـ ليس في مجال علوم الزراعة فحسب، بل في مجالات علمية ومخترعات بدائية أخرى معقدة ـ فهو أمر مثبط لروح البحث والتقصي في حقيقة سبل ظهور علوم البشر وحضاراته، فما من علم أو اختراع معقد قديم، إلا ونسب علماء الطبيعة أولى مبادئ علومه إلى عامل المراقبة والمصادفة أو تكرار التجربة أو إبداعات عقلية الانسان البدائي الذي عاش حياة مشابهة لحياة الحيوان.!

فإذا تذكرنا طول مدة وجود الانسان على الارض، فنحن أمام خيارين، الأول:

- إذا كان اختراع الزراعة قد حصل قبل بضعة آلاف من السنين، أي خلال العصر الحجري الحديث (عشرة آلاف سنة قبل الميلاد)، فلماذا لم يخترعها منذ بداية وجوده وقد طالت لملايين السنين؟ ثم ما بال البدائيين القدماء وقد اكتفوا بجمع الثمار والحبوب البرية وجذور النبات؟ وما شأن سكان استراليا والأمريكتين وقبائل الغابات المجهولة في عدم اكتشافهم فنون الزراعة وممارستها حتى وقت قريب، وهم يمتلكون ذات الأجساد والأطراف والحواس والعقول؟ ثم لماذا تتركز مخترعات الزراعة وغيرها في منطقة الشرق الأوسط ومناطق الحضارات القديمة مثل الهند والصين دون غيرها من مناطق العالم؟ كما قال الأنثروبولوجي والجغرافي الألماني إدوارد هان E. Hahn:

- (إن زراعة المحراث واستئناس الحيوان قد اكتُشفتا معًا في منطقة الشرق الأوسط، وانتشرا بعد ذلك إلى بقية أجزاء العالم)[325]. ثم ما بال بقاء أقوام كثيرة من سكان الأرض على بدائيتهم وهمجيتهم كما قال أحد العلماء متسائلًا:

- (إن تغير الإنسان من جامع (للغذاء) إلى منتج حدث تاريخي لا جدال فيه، لكن المشكلة التي ما زالت بدون أدلة واضحة هي: كيف تم هذا الانتقال؟)[326]. ثم نرى الدكتور الماجدي يصف اكتشاف فنون الزراعة بأنها من أعظم الاكتشافات في حياة البشر، ومع ذلك لا يحدد زمن اختراعها أو كيف عرف الانسان سبيلها. فيقول:

- (إن اكتشاف الزراعة كان وما يزال أعظم اكتشاف عرفه الانسان، فقد كان السبب الرئيس وراء كل حضارة الانسان حتى يومنا هذا، فاذا كانت الكتابة قد حولت عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، فإن الزراعة قد أوقفت الخطوات البطيئة المملة للعصور الحجرية القديمة وجعلتها تتسارع باتجاه الكتابة وانعطاف التاريخ)[327].

ويأتي الفيلسوف ديورانت ليؤكد عجز علماء الأنثروبولوجيا والتاريخ والحضارات عن معرفة زمن اختراع الزراعة وفنونها، مما يدفع لتفكير متعمق بعهود ما قبل التاريخ السحيقة ـ وهذا هو الخيار الثاني ـ ويعيدنا إلى أزمان الرجل البدائي الجاهل ونصطدم مرة أخرى باستحالة قدرته على اكتشاف أو اختراع أي علم أو فن بكري جديد بسبب بساطة عقله وخلوه من مباديء العلوم والمعارف. فيقول:

- (وهكذا لن يتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب بحيث يتحول من جمعها إلى بذرها في الأرض، فهذه البدايات هي أسرار التاريخ التي سنظل نضرب حولها بمجرد الايمان والحدس، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين)[328].

كذلك يؤيد البروفيسور يوليوس استحالة انتقال الإنسان البدائي من حالة القنص وجمع البذور إلى مرحلة الاستقرار والزراعة وتربية الحيوان، حيث يُرجعها إلى مسألة نفسية عند الإنسان ترفض فكرة التحول، إذ ليس من السهل اقناعه أو اقتناعه بهذا التغيير المرحلي. ويضرب على ذلك مجموعة أمثلة حديثة حينما بذلت بعض الحكومات جهودًا مضنية لنقل بعض القبائل إلى مزاولة مهنة الزراعة، لكنها فشلت في ذلك فشلًا ذريعًا. قال:

- (فالحقائق الإتنولوجية تثبت بكل وضوح وجلاء ان الاستعداد النفسي للزراعة، وبخاصة إمكانية انتظار نضج النبتة أو الثمرة، كانت غريبة كليًا عن تصورات شعوب الجمع والقنص. وقد بُذلت محاولات عديدة في أصقاع مختلفة من العالم «لهداية» قبائل الجمع والقنص للزراعة. ولكن ثبت في جميع هذه المحاولات أن القبائل التي قسرت على الدخول في هذه المرحلة الاقتصادية لم يكن بوسعها أبدًا، حتى استيعاب هذا الشكل المتطور من اقتصاد الإنتاج. فإما أقدمت هذه القبائل على أكل البذار الذي وزع عليها لزراعته، وإما اقتلعت النباتات الفتية التي بدأت تظهر في الحقول التي استصلحها الخبراء البيض وهي غير ناضجة، وتناولتها مباشرة كغذاء. وقد وقع اختيار الحكومة البرازيلية مرة على قبيلة «بورورد»، التي تعتمد على اقتصاد الجمع والقنص لإجراء مثل هذه التجربة. وزعت عليهم الحكومة الأراضي والبذار، وقام خبراء من الدولة باعداد الحقول اللازمة للتجربة. كما وزعت عليهم كميات من المواد الغذائية، تؤمن بقاءهم حتى فترة جني المحصول. ولكن ماذا حدث بعد ذلك بالفعل؟ حالما أصبح لدى الـ "بورورو" فؤوس بدأوا فورًا بقطع أشجار «البيكي» Piki التي كانوا يضطرون في السابق للتسلق عليها لقطف ثمارها. كما كان من الضروري حراسة مزارع قصب السكر ليلا ونهارا، خوفًا عليها من الدمار الشامل. كما دُمرت مزارع المانيوك نتيجة إتلاف نباتاتها قبل أوانها. وذهبت النساء اللواتي اعتدن على اقتلاع الجذور البرية بعصيّهن المخصصة لذلك، إلى الحقول لاقتلاع الدرنات النامية قبل نضوجها. وقد حاول أحد المبشرين المجتهدين أن يعرِّف قبائل «فاسكيله» الإفريقية، التي تمارس اقتصاد الجمع والقنص، على بركات الدين المسيحي وبركات زراعة الأرض، لكن السكان ضحكوا منه ورفضوا جميع مقترحاته بعبارة «وهل ستموت القرود من الجوع؟ نحن نعرف الغابات والأنهار والمستنقعات، فالإله يريدنا أن نطوف دائمًا هنا وهناك، وليس في إرادته من شيء أن نمسك في يدنا فأسًا، ولم يكن هناك مجال للاعتراض على ذلك». وحتى هذا المبشر نفسه لم يستطع أن يمنع السكان الأصليين من بحثهم عن غذائهم «كالزنابق منتشرة في الحقل». كما ذكر "فان أوفربرغ"

أن القبائل الزنجية في "لوزون" رفضت تعلم فن الزراعة والجني، لأنها لم ترغب في البقاء في منطقة معينة واحدة. وقد أكد هذا الباحث أن القبائل التي أمكن تعليمها زراعة بعض أنواع الخضروات، غادرت المنطقة قبل أن يحين موعد جني ما زرعته)[329] من هذا يتضح مقدار صعوبة وتعقيد، بل وعدم اتفاق عملية تحول الإنسان الهمجي من حالة القنص وجمع البذور إلى مرحلة الاستقرار وزراعة الأرض وبناء المساكن الثابتة، ومقدار درجة مخالفتها لعقليته ونفسيته. وبهذا يتساءل المرء: ما شكل تلك القوة المعنوية والنفسية التي استطاعت اقناع البدائيين الأولين للتخلي عن مرحلة قنص الطرائد والدخول إلى مرحلة الزراعة؟ إذ لا بد وأن كانت قوة فوقية معنوية خارقة استطاعت النفاذ إلى عقول وقلوب البدائيين وأحدثت ذلك التغيير والانتقال، بينما تبوء بالفشل مساعي حكومات بجميع إمكانياتها وسعي وجهد خبراء ورجال علم واختصاص اضافة إلى رجال دين رغم اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة وتطبيقهم لبرامج تقنية وعلمية حديثة.

إنه لأمر يبعث على الحيرة وكثرة التأمل، فطالما يعترف هذا العالم الفذّ وغيره من بقية العلماء والفلاسفة بالعجز عن معرفة أسباب ظهور أوائل الاكتشافات العلمية العظيمة والاختراعات المفصلية لحضارات الشعوب ـ رغم سعة علومهم وكثرة أسفارهم وكتبهم ومؤلفاتهم ـ أفلا يدعو ذلك لتحول منهج التفكير باتجاه آخر حتى ولو كان فيه مخالفة لمكتسباتنا الفكرية وموروثاتنا الاجتماعية والدينية ولقصص وأساطير التاريخ الوهمية؟ أليس من المستغرب أن يتحفنا علماء الطبيعة كلما عجزوا عن تفسير أمر تاريخي معقد بالتحول نحو الفرضيات الوهمية وعامل المصادفة وفرضية الحاجة أم الاختراع، مع أنهم أول من يطالب بالدلائل العلمية والمختبرية؟ ألا يحتمل أن كان «للإنسان المميز» دور فوقي في تنوير أفكار الشعوب قديمًا؟ ألا يفترض برجال علم اليوم التوجه لكشف الغطاء عن بصيرة الانسان الروحية لما قد يكون له دور جديد في تقدم أحوال البشر مستقبلًا، كما سبق وكشفوا الأستار بعقولهم النيّرة عن قوانين العلوم الطبيعية؟ ألا يمكن أن يكون في تبني سبيل المنحى الميتافيزيقي بداية جديدة لحضارة بشرية أرقى وأسمى مما نحن عليه اليوم. فمن المعلوم أن الإصرار على الطيران في فضاء معرفة مجاهل التاريخ البشري بجناح العلوم المادية فقط، بات أمرًا واضح العجز في كشف أسباب بدايات علوم البشر وأزمان نشوء الحضارات.

هنالك شخصية تاريخية قديمة كال لها الأقدمون آيات التقدير والتبجيل، تلفت الانتباه لقوة أدوارها في تعليم الشعوب ونثر آثار لمساتها الفنيّة بين أسطر صفحات كتب التاريخ، وطالما نسبت لها بوادر اختراعات رائعة أفادت البشرية في قديم الزمان؛ هذه الشخصية يرفع القدماء مقامها إلى مرتبة الآلهة/النبي، وتدعى «إدريس أو هرمس»[330] ـ أو أي اسم أو لقب آخر ـ فهذا لا يؤثر في جوهر موضوع البحث؛ كما أطلق عليه العراقيون إسم «الإله تموز»، والفراعنة واليونان اسم «اوزويريس» أو «إله الزراعة» لكثرة ما قدم من علوم وفنون ومخترعات زادت في وفرة محاصيلهم الغذائية. وهذا ما يلفت الانتباه إلى مستوى علوم هذا الرجل المميز التي فاقت مستوى ما كان يعرفه شعب الحضارات الفرعونية. فمما يشير اليه البروفيسور بشروئي:

- (كان من المعتقد أن الإله أوزويريس والآلهة إيزيس علّما البشرية أساليب الزراعة والفلاحة... وارتبط أوزيريس بالزراعة «خاصة الشعير والذرة»)[331].

وينقل لنا حبيب سعيد عن أخبار «النبي/الإله» اوزويريس، ما يُلاحظ فيه مرة أخرى دور الرجال المميزون في اختراع وتطوير شؤون العلوم المادية:

- (ظهرت هذه الأسرة متأخرة في تاريخ مصر، ولكن افرادها قد ألهبوا خيالات العامة إلهابًا لم يدانه آلهة غيرها. ولأوزيريس أصل يرجع إلى ما قبل التاريخ كما تقول بعض الأساطير. ومما يقال إنه وفد من ليبيا أو من سورية في شكل إنسان، وكان في الأصل إلهًا زراعيًا، هبط إلى الأرض في صورة إنسان[332] بالقرب من مدينة «طيبة» حيث نزل عند كاهن متواضع[333]. ولم تكن طيبة مدينة عظيمة مشهورة كما عرفناها فيما بعد، فليس بها آنذاك شوارع جميلة متسعة، ولا معابد كثيرة، ولا تماثيل متقنة ضخمة الصنع، ولا قصور أنيقة البناء، بل كانت مصنوعة من خشب وبوص وطين[334]. أما قصر الملك ومساكن الأمراء والنبلاء فكانت مبنية من الأحجار. وأنهالت الأسئلة على أوزوريس وإيزيس في طرقات المدينة وأزقتها. فتوقف الناس عن أعمالهم، يتفرسون فيهما مبهوتين، إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا كائنا بشريًا في مثل هذه المهابة والقوة والجلال[335]، ولا إمرأة في مثل هذا الطهر والوداعة والجمال، حتى أن ملكهم وملكتهم تضاءل تأثيرهما وهيبتهما بجانب هذين الزائرين الشبيهين بالآلهة، وأحسّ الشعب بالغريزة أنهما ليس من سكان الأرض، وقدَّم لهما رجل الشارع كل تبجيل وإكرام. وانهالت الأسئلة على منزل الكاهن حيث حلَّ أوزوريس: من أين جاء الغريبان؟ كيف وصلا المدينة؟ هل في قوارب عن طريق النيل أم من التلال والوديان على ظهور الأتن؟ من هما وما الغرض من قدومهما؟ إلى غير ذلك من علامات الاستفهام، أما الكاهن وأهل بيته فاحتفظوا بالسر ولم يزيدوا على القول بأن الغريبين جائلان، ظهرا عند المعبد، وقبلا النزول في البيت فترة من الزمان. وكلما مرّت الأيام ازداد الناس حيرة في أمرهما، وازدادوا لهما احترامًا وخشية تقربُ من العبادة، وجال بينهم الغريبان ينصحان الشعب، ويأسوان الجراح، ويصنعان خيرًا ورحمة، فحيثما اشتد الكرب وثقل المرض أو وقع الجور، ظهر أحدهما بجانب الملهوف والسقيم والمظلوم. وكان أوزويريس مشغولا طول النهار في المزارع والحقول، يرافق الزراع والعمال ويشرح لهم أساليب جديدة في الزراعة والصناعة، يعلمهم كيف يصنعون المحراث ويستخدمونه في شق الأرض وتقليبها، وكيف يصنعون الشادوف، ويرفعون به الماء لري الزرع، بدلا من نقله وحمله فوق الظهور. وفي وهدأة الليالي القمرية كان يجلس حوله لفيف من أهل الريف من الشباب والشيوخ، وهم يستمعون إلى أنغامه العذبة فاغري الأفواه مسحورين، ولم يكتف بالعزف وحده، بل اصطفى من بينهم نخبة من الشبان درَّبهم على العزف بالناي، فكانت الجوقة المصرية الأولى التي أطربت وأبدعت وهزت أوتار القلوب. ولم يطل الوقت حتى سمع فرعون بالخبر، وأخذ علمًا بنشاط الغريبين في مملكته. فاستدعى أوزوريس إلى القصر ودار بينهما الحديث التالي:

- [من أنت ومن أين جئت؟

أنا غريب قادم من أرض بعيدة، وقد سمعت كثيرًا عن أرض مصر، فطاب لي أن أزورها وأشاهد أهلها، وأمكث فيها بعض الوقت ثم أعود من حيث أتيت.

فأين الأرض التي تتحدث عنها. لقد شقَّ جنودي طريقهم إلى أبعد الحدود، ولم نسمع شيئًا عن بلادكم تلك من قبل؟

بلادنا بعيدة جدًا ناحية الغرب بحيث لا يستطيع إنسان الوصول إليها بدون دليل.

لكن كيف جئت أنت، وبما أنك استطعت المجيء إلينا، فأنا في استطاعتي الذهاب إلى هناك، اشرح لي الطريق فإن لي رغبة في زيارة تلك البقاع.

كلا أيها الملك. فقد قلت لك إنه ليس في مقدور إنسان أن يفعل ذلك. فأنت عاجز عن العودة إلى موطنك. لقد بدأت الرحلة وسأحاول الرجوع. ولست أظن أني بالغ أرض الوطن، وأنا مقيد بهذا الجسد الفاني[336].

لقد سمعت كثيرًا عن حكمتك ومهارتك، وأود أن تحضر إلى القصر لتلقي دروسًا على الوزراء والحكماء والسحرة[337].

بكل سرور. لكني لا أستطيع أن اهمل رسالتي بين الفقراء من عامة الشعب، ولا أن أتهاون في إسداء المعونة إليهم، كلما احتاجوا إلى ذلك[338].

وذهب أوزوريس إلى القصر، وجعل يلقن العلماء والحكماء مبادئ وتعاليم جديدة كل صباح[339]. وتوسل إليه رجال الحاشية أن يقيم في جناح القصرحيث ينعم بأشهى طعام وأفخر لباس، لكنه رفض مفضلا مسكن الكاهن المتواضع ـ الذي استضافه أولا ـ على أجنحة القصر وأطايب الملك. وكثيرًا ما كان يخطب في جموع الشعب عن العبادة والمعابد التي يتلون فيها الصلوات والدعوات، فيشرح لهم كيف أن التماثيل الحجرية التي يعبدونها ويتقربون إليها أصنام لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب، لأنها صماء بكماء لا حول لها ولا قوة[340]. وإنما يهيمن على الناس كائن إلهي يستطيع حمايتهم والاستماع إليهم وإمدادهم بما يحتاجون[341]، فالشمس التي تمدّهم بالنور والدفء صورة ملموسة ومظهر واضح لقوة الكائن الأعلى[342]، والنيل الذي يروي أرضهم ويغذي زرعهم هبة لهم من إله السماء... ويستطرد في حديثه إلى القول بأن من عاش نزيهًا مستقيمًا غير محب لذاته، استطاع ـ رغم كونه إنسانًا ـ أن يدرك الملكوت الذي يحتله ذلك الإله، ويستمتع ببهائه وسناه[343]. وشاهد الناس أعمال هذا المعلم القدير وعجائبه واختبروا نبله ومحبته حتى مال بعض مشاهديه وسامعيه إلى الاعتقاد بأنه هو الإله الذي يتحدث عنه[344]. وبهذه الطريقة استطاع أوزوريس أن يلفت أنظار المصريين إلى أعلى، ويغرس في نفوسهم روحًا إلهية والإيمان بالكائن الأعظم[345].

ما يستوحى من هذه الرواية ـ إذا صح هذا الخبر ـ إن لهذا العبقري «أوزويريس» علومًا ومعارف فاقت ما كان لشعب الفراعنة العظيم من علوم في مجال الزراعة، وإنه ترك لأجيالهم آثارًا خالدة تنطق بعظمة شأنه وسمو علومه. ومن ناحية ثانية، هو أمر جالب للانتباه لما لهذه النفوس الفردية

من تأثيرات جوهرية في تغيير مسار حضارات الأمم القديمة ونهضتها، ولا يستبعد أن يكون أوزويريس، هو ذات النبي إبراهيم الذي عاش في مصر قرابة عشرين عاما. ولكن السؤال هو:

- كيف لشخص واحد أن يمتلك علومًا ومعارف، لم تمتلكها أمة الفراعنة التي اشتهرت بمستواها الحضاري الرفيع آنذاك، ومن أين جاء بها؟ إن قيامه بتعليم أمة كاملة علومًا مادية وفنية إضافة إلى العلوم الروحية الدينية، أمر يقوض الفكرة القائلة بعدم مساهمة الآلهة أو الأنبياء في رفع مستويات مجتمعاتهم المعرفية، فإيجاد آلة المحراث واختراعها ـ رغم بساطة آلية تركيبتها ـ ليست بمسألة هيّنة بسيطة حتى يمكن تجاوزها، فلقد ساهمت كثيرًا في تقدم علوم الزراعة وزيادة محاصيل الغذاء، حتى إن بعض شعوب العالم الثالث ما زالت تستعملها في وقتنا الحاضر رغم بدائية صناعته[346]. كما أن عملية اختراع أوزويريس لآلة الشادوف لرفع المياه من مستوى نهر منخفض إلى سطح أرض مرتفعة، تعتبر تقنية أكثر فائدة ساهمت بنقل كميات مياه أكثر بجهد أقل، وسقت محاصيل زراعية أوفر وأراضي أوسع مساحة بعدما كانت تستعمل قرب الماء الجلدية بطريقة النقل اليدوي وعلى الأكتاف قبل مجيء هذا الإله.

ومما يكثر ذكره في كتب الحضارات عن شخصية أوزوريس أو إدريس، هي كثرة علومه ومعارفه، لذا لا يستبعد أن يكون هو أحد آلهات أو أنبياء الأزمنة القديمة الذين ساهموا بنقل البشر لمستويات حضارية أعلى خلال العصر الحجري الحديث وقدموا مبادئ علوم مفصلية، ومن المحتمل أنه جاء من مدينة جبيل على الساحل اللبناني أيام الفينيقيين حيث اشتهرت شعوب هذه المنطقة آنذاك بالزراعة وبناء سفن الصيد وتصدير الأخشاب وبعلاقاتهم التجارية مع دولة الفراعنة ومع دولة النبي سليمان حينما ساهموا في بناء هيكله. كما ويحتمل مجيئه من وادي الرافدين حيث اشتهر أهلها بمعرفة فنون الزراعة قبل أمة الفراعنة، فلقد دلّت البحوث والآثار اكتشاف قرية قديمة مهجورة في المناطق الكردية شمال العراق تدعى «جارمو» يعود تاريخها إلى أكثر من ثمان ألف سنة، كان سكانها يتقنون فنون الزراعة وتربية الحيوان، كما جاء خبر ذلك عن الأستاذ «فايفر» وغيره:

- (فقد أرسى أهل «جارمو» جذورهم فعلًا ونراهم يزرعون طعامهم حولهم، ويستأنسون النبات والحيوان ويزرعون النبات ويكثرون الحيوان، ومن ذلك الشعير والقمح والبازلاء والأغنام والماعز والثيران والخنازير.... وهكذا أصبح جامعو الطعام منتجين للطعام)[347].

يلقي أحد الألواح الطينية التي عثر عليها في مدينة «نفر» السومرية، ضوءً على مقدار ما كان لتلك الأمة من معارف وعلوم في أمور الزراعة وغيرها قبل أكثر من خمسة آلاف سنة، حيث استعمل أحد المزارعين المجهولين لوحًا طينيًا لينقل لولده مجموعة من التعليمات المهنية والقوانين الزراعية ليتبعها خلال موسم الزراعة السنوي ابتداء من غمر الأراضي بالمياه وانتهاء بتنظيف الغلة وتجفيفها في العام التالي، وكذلك تعليمات في كيفية الحراثة والإبذار والسقي وكيفية زيادة نسبة المحصول حتى حلول موعد الحصاد، إضافة إلى سبل المحافظة على الانتاج وغير ذلك، مما يبعد فرضية اكتشاف البدائي لفن الزراعة بالصدفةً ويوضح في نفس الوقت أنها معلومات وعلوم متوارثة عن سابقين انتقلت من جيل إلى آخر ومن حقب موغلة في القِدم إلى أخرى لاحقة، وليست

وليدة أجيال قريبة الأزمان بحدود بضعة آلاف من السنين، إلا إذا جاءت عن طريق آلهة أو نبي من الأنبياء. قال:

- الشادوف

(تبدأ الوثيقة السومرية بالعبارة الآتية: «لقد قدم أحد الفلاحين لإبنه هذه التعليمات في الأزمنة الخالية». وتبدأ بما يخص أعمال الري، إذ توصي بالحذر كيلا يرتفع الماء كثيرا فوق الارض الزراعية، وبعد امتصاص الارض المياه، تجب حمايتها من أن تجوس خلالها الثيران أو الحيوانات الأخرى، كما يجب تنظيف الارض من الاعشاب والفضلات وتسييجها. ونجد أن الفلاح في هذه الوثيقة ينصح أفراد أسرته وجميع المساعدين والأجَراء أن يعدوا المعدات الزراعية اللازمة من أدوات وسلال وجوالق، كما يجب إعداد ثور اضافي من أجل الحراثة. وقبل البدء بالحراثة، يجب أن تكون الارض قد نبشت مرتين بالمعول ومرة بالمعزقة. كما يجب استعمال المطرقة عند اللزوم لكي تسحق العكر الصلبة. وينصح الفلاح إبنه بالوقوف بنفسه مع المشتغلين لكي يجري العمل وفقا للمطلوب. يقول الفلاح في ارشاداته، ان عمليتي الحراثة والبذار يجب أن تنجزا على صعيد واحد، آلة حرث يصحبها بذار ذو قمع ضيق يصب نازلا إلى الاخدود. وتقول التعليمات بوجوب شق ثمانية أخاديد في كل شق أرض قدرها عشرون قدما، كما توصي بأن يكون البذر على عمق مناسب، وفي حالة عدم ترسيخ البذرة جيدا في الارض فيجب اعادة النظر بالمكان المحروث. وتذكر الوثيقة نوعين من الأخاديد، حيث إن الفلاح يوصي قائلا:

عندما تشق أخاديد مستقيمة، شُق أخاديد مائلة، وحيثما شققت مائلة، شق مستقيمة، ويوصي باعادة تنظيف الأخاديد بعد البذار لإزالة ما يمكن أن يعرقل الإنبات. وتقول الوثيقة ان على المزارع ان يصلي إلى الآلهة في يوم خروج النبتة من الارض، وذلك لكي تحمي غلاله شرور الهوام وجرذان الحقول، كما يجب عليه أن ينصب فزاعة الطيور. حينما تنمو الغلة وتملأ جوانب الاخدود يصبح سقيها واجبا. وحينما تصبح الغلة كثيفة فتغطي الحقل كما يغطي البساط أرض السفينة، حينئذ يجب سقيها مرة ثانية، كما يجب أن تسقى الغلة مرة ثالثة. وحين يلاحظ احمرار ظاهر على الغلة المنداة، فإن تلك علامة خطرة على المحصول، أما إذا تحسنت الغلة وزالت هذه العلامة، فيجب أن تسقى مرة رابعة، وبذلك يزيد المحصول بنسبة 10% حين يأتي وقت الحصاد، يترتب على المزارع ألا يترك السنابل تنحني تحت ثقل الغلة، بل عليه أن يبادر فيحصدها في إبان قوتها وفي اللحظة المناسبة. وعليه أن يشغل ثلاثة رجال كفرقة في عملية الحصاد: حاصد، وجامع وشخص ثالث لم تذكر الوثيقة عمله. أما عملية الدراسة التي تلي الحصاد فيجب أن تؤدى بآلة تسحب جيئة وذهابا فوق الحصيد لمدة خمسة أيام، ثم تفتح الغلة بآلة أخرى تجرها الثيران، وحينها تكون الغلال غير نظيفة لملامستها الارض، فتذرى بالمذراة وتجمع وتنقى. ولا تنس إقامة الصلوات شكرًا للآلهة. وفي ختام هذه الوثيقة، يذكر الفلاح أن هذه التعليمات الزراعية هي ليست منه، وإنما هي من عند الإله نينورتا، الفلاح الحقيقي وابن الإله الأكبر للسومريين، أنليل. لم تكن زراعة الغلال وحدها معروفة في سومر آنذاك، بل هناك ما يشير إلى وجود أعمال البستنة وانتاج الخضر والفواكه. وهناك وثيقة تبين كيفية العناية بمثل هذه المنتوجات وتوصي باستعمال أشجار الظل لحماية هذه المحاصيل)[348].

ما يلاحظ هنا أن مثل هذا العلم المعقد في فنون الزراعة وهذا الترتيب الفني العلمي الممنهج اللطيف، لا يمكن نسبته بسهولة وبساطة إلى خبرة بضع عشرات من السنين، إذ لا بد وأن يكون وليد خبرات قديمة متتالية قبل ظهور الحضارة السومرية بآماد طويلة، وإن خبراتها قد تدرجت في الظهور والتراكم واحدة تلو الأخرى، مثلما يتفق علماء التاريخ والحضارات على أن اكتشاف أهمية النار واختراع العجلة وتدجين الحيوان وغيرها من الاختراعات العظيمة قد استغرقت عشرات الألوف من السنين حتى عرفها الانسان وتمكن من استخدامها والتحكم بها.

كما ويلاحظ من فحوى الوثيقة، أنواع الأدوات المعدنية والخشبية المستعملة في تلك المرحلة الزمنية القديمة، مما يدل على مستوى رقي تلك الأمة ومقدار درجة مخترعاتها، مثل: (المعدات الزراعية، السلال، الجوالق، المعاول، المعازق، المطارق، آلات الحرث، الأقماع، فزاعات الطيور، المذار). وهذا يعني بالتأكيد قدم عهد عملية الزراعة قبل هذا التاريخ بزمن لا يمكن التكهن بقدمه، خاصة عند الانتباه إلى الترتيب البديع في عملية الزراعة والري وما رافقها من استفادة ببقية المخترعات.

ونعود للقول أنه لا بد لهذه العلوم المعقدة الرائعة أن جاءت من أمم سابقة موغلة في القدم قبل ظهور حضارات الكتابة، إذ لا يمكن لأجيال تلك الأمة وما سبقها حتى ولو بفترات قليلة قبلها، التوصل لمثل هذه المستويات العلمية والفنية، فمن الواضح عمق تاريخ فنونها، خاصة إذا تذكرنا وقفات جمود البشرية المتكررة على أطناف سفوح جبال الحضارات التي دام تكرارها والتوقف عندها لمئات الألوف من السنين في أول زمن وجود البشر خلال العصور المجهولة حتى تحركت نحو العصور القديمة والحجرية والبرونزية التالية.

أما الملفت للانتباه في وصية الفلاح السومري، فقد جاءت الإشارة اليها في نهايتها، حينما أفصح إن اكتسابه لهذه العلوم قد جاء من الإله «نينورتا»، الفلاح الحقيقي إبن آلهة السومريين الأكبر «انليل»، وهذا يشير بشكل واضح أن علوم هذا المزارع الخبير وغيره من قدماء البشر لم تكن نتيجة ابداعات بشرية ذاتية، بل وصلتهم عن طريق آلهة، حيث لا يمكن إهمال مثل هذا التصريح الواضح. لذلك لا يستبعد أن تكون هناك علاقة ـ نحن بصدد تسليط النور عليها ـ تربط علوم البشر في أول بدايتها بمصادر عليا فوقية أعلى من مستوياتهم، ساعدت في الترقّي لتسلق سفوح جبل الحضارات بالتدريج بهذه السرعة «الكبيرة» خلال العصر الحجري الحديث.

في الحقيقة إن ما ورد من تعليمات زراعية فنية في هذه القصة تلفت الانتباه لشدة تنظيمها ودقة مراحلها وترتيب تسلسلها، إذ من الصعب حتى على إنسان بمستوى تعليمي جيد أوشخص مختص في مجال آخر غير مهنة الزراعة أن يسجلها ويحسن تنظيمها بهذا الترتيب وهذه الدقة، لأن الزراعة فن وعلم تخصصي قائم بحد ذاته بحاجة إلى خبرات مسبقة؛ لكن ما يبعد الغموض عن أصل الموضوع، هو ما جاء عليه الكاتب في نهاية وصيته، بأنها ليست من بنات أفكاره بل تلقاها عن آلهة. لذا فمن الوارد أن يكون أصل علم الزراعة وفنه بشكل عام، قد اكتسبه الانسان الأول من الآلهة/الأنبياء، وذلك لصعوبة اكتشافه ومعرفته بقدرات إنسان عادي. كما لا يستبعد أن من أشار أو نصح بتدوين هذه التعليمات الزراعية، كان مبتغاه تدوين رسالة مستقبلية للأجيال القادمة بغية

النفع العام والمساعدة في نقل تسلسل العلوم. ومن يدري، فقد تكون نفحة إيحاء وإلهام غايتها الإشارة إلى مصدر العلوم الجوهرية.

ما يثبت أيضًا أن علم الزراعة وغيره من العلوم الأولية هي علوم فوقية، أن بدائيي البشر في القارات والمناطق غير المكتشفة حتى وقت قريب، لم يكونوا يعرفون فنون الزراعة ولم يتعلموها[349]، وبسبب هذا الجهل والعوز في المعرفة والإكتشاف كانوا يضطرون للتنقل من مكان إلى آخر سعيًا وراء أماكن ظهور العشب والكلأ والثمار البرية وأينما توفر الصيد، ولو كانوا قد عرفوا طريقة زراعة الحبوب أو غيرها لما استمروا على الترحال والتنقل وتغيير المكان وتحمّل كل تلك المشاق، ولاستقروافي مناطق محددة وشمروا عن سواعدهم في تحسين ورقي أحوالهم الاجتماعية ـ طالما يفترض بعض علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع ـ امتلاكهم لعقليات قادرة على التفكير الجيد.

ينقل لنا الفيلسوف ديورانت عن أحد هؤلاء البدائيين من جامعي البذور وممتهني القنص قوله:

- (إن آباءنا وأجدادنا كانت تغنيهم هذه الارض وحدها، لا يرجون شيئًا سوى أن يُنبت لهم السهل كلأ ويفجر لهم ماء لتَطعم جيادُهم وتشرب؛ إنهم لم يشغلوا أنفسهم أبدًا بما يجري في السماء، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها... وسُئِل رجل من «الزولو»:

- إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب، وإذا رأيت الشجر ينمو، فهل تعرف من خالقها ومن حاكمها؟ أجاب في بساطة بقوله: «كلا، فنحن نراها، لكننا لا نستطيع أن نعلم أنى جاءت، ويظهر أنها جاءت من تلقاء أنفسها»)[350].

وينقل لنا عالم آخر عن قبائل الهنود الحمر اعتقادهم أن الآلهة هم الذين وفروا لهم البذور والحبوب عن طريق إلهام الشامان بطرق جنيّها والاستفادة منها. قال:

- (تعتقد قبائل «أوجيبفا» حتى الآن أن الرز البري الذي يطلقون عليه اسم «مانومين» قد خُلق كطعام خاص للهنود الحمر. وسمعتهم في أول أيام جني المحصول يتوجهون للإله الأكبر بالشكر والامتنان على المحصول... ويحاول كثير من أساطير الهنود الحمر شرح أصل هذه المادة الغذائية المباركة. فهم يعتقدون أن نبات الـ «مانيتو» استجاب ذات يوم أثناء إحدى المجاعات لابتهالاتهم، وظهر لرجل الطب[351]. في إحدى جماعاتهم السرية ليقول لهم: «إجلبوا البذور الحادة كالرماح فلبّها يقدم لكم غذاء حلوًا». وفي الوقت نفسه علّم الهنود الحمر أسرار الحصاد وطريقة تحضير الحبوب التي ما تزال منذ أقدم الأزمنة تجري بالطريقة نفسها)[352].

ويضيف الأستاذ في علمي الاجتماع والأجناس (إذا ما سئل المزارعون البدائيون عن عمر وأصل النباتات التي يزرعونها لأجابوا بأن الأقوال القديمة والأساطير تثبت أن أسلافهم كانوا يزرعونها منذ أقدم الأزمة. وتزعم قبائل «توبي» أن نبات المانيوك نما ذات مرة في قديم الزمان على أحد القبور. بينما تُرجع قبائل «باكريري» أصل هذه النبتة إلى نوع من الأسماك يعيش في نهر يجري في منطقتهم. ويُعتقد أن الآلهة والأرواح والحيوانات وأبطال الأساطير هي التي باركت الإنسانية، ووهبتها منذ أقدم الأزمنة، مثل هذه المحاصيل)[353].

ما يستشف من هذه الأقوال إن قدماء الهنود الحمر وبقية الأمم البدائية لم يعرفوا حتى وقت قريب شيئًا عن فنون الزراعة، ولم يهتموا بالتفكير بمن أوجد أو خلق السماوات والأرض، وهذا يؤيد فكرة هذا البحث بأن أصل العلوم المعقدة في التنجيم والفلك والفيزياء والهندسة والطب والزراعة وغيرها من المخترعات الأساسية الأولية قد جاءت من الآلهة والأنبياء وليس من البشر، فالإنسان عاجز بعقله المجرد حتى ولو كان ضمن أمة كاملة من اختراع فكرة معنوية من العدم، إلا اذا كان هناك من علمه وأوصل اليه معلومات أولية، كما أثبتنا ذلك. أما القول بأن الانسان الهمجي البدائي القديم هو الذي أوجد جميع هذه المخترعات والمبتكرات والعلوم والفنون من ذات تفكيره المجرد ومن بنات أفكاره، وأنه أوجد فكرة الإله بمجرد التفكير والتأمل أو الخوف من أمور الطبيعة ومن حالة الموت، فهذا أمر يخالف مبادئ العلم وحكمة المنطق ويتخطى الفاصل الجوهري المنيع بين الطبيعة المادية والأفكار المعنوية.

يؤيد الفيلسوف آرنولد توينبي مسألة تلاقح الحضارات وتواصل علوم الأجيال ونسبة أصولها وأوليات ابتكاراتها إلى الآلهة/الأنبياء، ويوضح السبب الحقيقي وراء رضوخ أمم البدائية لتقبل أفكار التحديث والتطوير بتلك البساطة فيقول:

- (وقد خطط لتغلب الانسان على الغرين زعماء ذوو مخيلة وبعد نظر وضبط للنفس بحيث كانوا يعملون لمردود هو كبير في النهاية، لكن ليس آنيًا. وما كانت خطط هؤلاء الزعماء لتتجاوز أحلامًا بعيدة عن التحقيق لو أنهم عجزوا عن إقناع عدد كبير من رجالهم من السير قدما نحو أهداف لعلهم لم يدركوا كنهها. وقد كان للجماهير إيمان بزعمائها، ومثل هذا الايمان بالزعماء كان قائما على إيمان بآلهة تتمتع بالقدرة والحكمة، الأمرين اللذين كانا يعتبران حقيقة بالنسبة إلى الزعماء وأتباعهم)[354].

ورغم تناولهذا المثال مرحلة جزئية من مراحل العصر الحجري الحديث، إلا أنه كان من المفترض التعمق في تاريخ الشعوب أكثر من ذلك لنعلم كيف ظهرت فكرة القائد والتابع وسبب تقديمهابذات طريقة روايات الأساطير القديمة، بعدما علل توينبي ظهور طبقة الزعماء والقياديين بين طبقات الفلاحين والأميين حسب مفاهيم اجتماعية حديثة نسبيًا، وكان من الأولى به العودة في التاريخ حيث كان أفراد المجموعتين (القادة/والأتباع) بمستوى ذهني متقارب داخل إطار المجتمعات البدائية حتى يمكن الوصول إلى جذور أصول فكرتها وبداياتها العميقة، وكيف ترسخت مناصب القادة والملوك بين الشعوب. كما أنه لم يشر إلى كيفية اكتساب الزعماء مثل هذه «المخيلة وبعد النظر»، ولا من أين حصلوا عليها، أو من أين لهم قوة المنطق والعقلانية التي أقنعوا بها جموع الناس البدائيين وكسبوا ولائهم دون معارضات؛ إذ ليس من المعقول أن يدعو أو يأمر زعيم أو مجموعة من الزعماء مجاميع من البشر لتنفيذ مشروع عام، فيستجاب له أو لهم وتتكاتف خلفه الجهود بشكل هادئ متناغم دون تفكير في اعتراض أو رغبة مسبقة في معرفة الغاية المنشودة من المشروع، كما ذكر توينبي (أهداف لعلهم لم يدركوا كنهها). فهذا نوع من الخلط التاريخي والاجتماعي بين حقب البدائية الهمجية وحقب ترقي عقلية الانسان فيما بعد زمن ظهور الآلهة/الملوك. فانصياع الجماهير لزعمائها بهذه الدرجة من الثقة والانقياد، لا بد وأن كان دافعه الايمان بقدراتهم الفوقية المميزة (آلهة تتمتع بالقدرة والحكمة). لذا فلا غرو أن المثال يشير إلى مرحلة متأخرة نسبيًا من

عمر الشعوب قبل وبعد ظهور حضارات الكتابة حينما كان لدور الآلهة والملوك الأنبياء مكانة متميزة في قيادة البشر دينيًا ودنيويًا، يوم ظهرت العلوم وانقسم البشر إلى كهنة معلمين وعموم تابعين.

إن ما يؤكد عليه هذا البحث هو تلك المرحلة التاريخية التي كانت فيه قدرات البشر الذهنية ضعيفة وبسيطة كما هو الحال عند الاطفال ـ ليس بسبب بلادة أو غباء ـ بل بسبب نقص معلومات المحيط البدائي العام، فلا الأطفال يمكنهم تخطي فترة سنوات طفولتهم للوصول إلى مرحلة النضج، ولا الانسان البدائي كان بمقدوره التعلم من معلومات محيطه المجدب دون المرور بتسلسل مراحل عوالم طفولة الجنس البشري البدائية التي دامت ملايين السنين، إذ وجب على كلا الفريقين أو الجيلين الانتظار فترات كافية ـ كلٌ حسب زمنه النسبي ـ حتى يصلا إلى زمن نمو العقل ونضوج الوعي.

هذه هي الحالة التي كان الانسان يعيشها في فترة من فترات حياة طفولته في قديم الزمان، حينما تدرّج في معرفة وإدراك ما حوله ببطيء شديد، وحين وجب عليه قضاء مئات الآلاف من السنين ليخطو في كل فترة خطوة حضارية بسيطة حتى يدرك دوره المميز، حتى بدأ يتعلم سبل التعامل مع الأحجار والاستفادة من الكهوف والتفريق بين أنواع الحيوانات والانتباه لإمكانية استئناس بعضها، أو عمليات إيجاد النار واختراع العجلة أو تعلم الزراعة وغير ذلك.

وبالمناسبة فلقد ضرب الفيلسوف تولستوي مثالًا أوضح فيه الفرق الشاسع بين طول عمره ومقدار علومه مع عقلية طفل صغير قبل مرحلة التمييز، قال:

- (إن هناك خطوة واحدة تفصل بين الطفل البالغ من العمر خمس سنوات وبيني، ولكن المسافة التي تفصل بين الطفل الوليد وبيني هي مسافة هائلة مرعبة)[355].

ويعود الفيلسوف توينبي ليشير إلى تلك الأحقاب التاريخية المجهولة في عمق الزمان ويعلن عجزه في سبر غورها ومعرفة شيء عنها، فيقول:

- (نحن لا نعرف كيف أو لماذا وجدت الحياة والوعي والقصد حول سطح أرضنا؟)[356].

هذا هو بيت القصيد، وهذا هو جوهر المطلوب إثباته؛ فطالما يُلزم الفلاسفة الطبيعيون أنفسهم التحصن داخل إطر الأدلة المادية والحسية ولا يتجاوزونها لتفحص تأثير القوى الفوقية للرجال المميزون على ظهور حضارات البشر، فكل الظن أنهم لن يجدوا سبيلًا لمعرفة جواب السؤال المحيّر:

- «كيف تعلم الإنسان»؟ لذلك نلاحظ حذرهم من الاشارة المباشرة إلى قوة روحانية الانسان «المميز» القديم وعقليته الفوقية في تربية البشر، فنجدهم يفترضون للبشر قديمًا مكيال قدرات عقلية واحدة دون تمييز أو استثناء، ويطلق عليهم البعض، صفة (ما قبل الانسان)[357]، وكأنهم يقولون أن فترة ما بعد ظهور قوتي الوعي والادراك، هي الفترة الحقيقية التي تؤرخ بها فترة ظهور الانسان على الارض، أما قبل ذلك، فلا يمكن اعتبار الانسان إنسانًا، بل مخلوقًا يماثل الحيوان في ادراكاته، أو أنه كان حيوانًا بالفعل، وهذا ما أشار اليه توينبي أيضًا، بقوله:

- (فما كان لأسلافنا من أهل ما قبل الانسان ان يستمروا ويصبحوا بشرًا، لولا أنهم قد صاروا حيوانات اجتماعية قبل ذلك)[358].

إن سبب تبني هذا الفيلسوف الكبير لطريقة التورية في الاشارة إلى القوى الغيبية للرجال المميزون وعدم التصريح بها علنًا في سفره الضخم «تاريخ البشرية»، يعود إلى اعتماد غالبية علماء الطبيعة في استنتاجاتهم على ما عُثر عليه من آثار ولقى حسيّة ملموسة تؤكد وجود حضارات بشرية مادية قديمة. ولو لم يتم العثور عليها، لتخطوا مراحلها حذر المجازفة في التصريح عنها نتيجة نقص الدلائل المادية. وهذا التاريخ المادي الطويل للانسان، ساعد علماء الطبيعة على مدّ غطاء كثيف لمواراة معضلة «من علّم الإنسان الأول»، لدرجة أن بعضهم تجرأ في القول أن الانسان الأول جاءت به مخلوقات فضائية ثم تركته وعادت إلى أجرامها. وما كل هذه «الهلوسة»، إلا بسبب التعصب الشديد للعلوم الطبيعية والأفكار المادية والى عدم قدرة العقل البشري في العثور على أجوبة علمية مادية مقنعة لمثل هذه الطفرات والتحولات الحضارية المادية والروحية في عمر البشرية. ومهما كان الأمر، فاليوم الذي سيُكشف فيه هذا الغطاء الكثيف ليظهر حلّ هذه المعضلة وتنقشع غمامتها، بات قاب قوسين أو أدنى.

إن غموض حقيقة مراحل تاريخ تطور الإنسان القديم واستحالة الكشف عنها، دعت البعض لتبني فرضية تطور الإنسان من فصيلة حيوانية أخرى. وهذه مسألة معقدة أخرى تتطلب شيء من التفكير العميق والتأمل. ولنأتي على مثال حسّي آخر يخالف فكرة «حيوانية الإنسان قبل الأنسنة». فمعرفة وإدراك وجود شجرة ـ على سبيل المثال ـ بحاجة إلى مشاهدة جذعها ولمس أغصانها وتذوق أثمارها وشمّ عبير أزهارها وسماع حفيف أفنانها وأوراقها؛ لكنه من المستحيل ـ على من لم يسبق له رؤية شجرة ـ تصور كل تلك الأجزاء طالما كانت الشجرة كامنة في جوهر البذرة. لذا لا يمكن القول أن الشجرة هي في حكم العدم وإنها غير موجودة طالما أن لا علاقة شكلية ظاهرية واضحة بينها وبين البذرة. كذلك هو الحال عندما كان الانسان موجودًا في رحم تربة الأرض وكامنًا في باطنها[359]، أو بعد خروجه منها عندما كان بأشكال وأحجام دقيقة وصغيرة مختلفة، فلقد كانت قوة عقله كامنة بالفعل داخل ذلك الكيان الضئيل، أما تدرجه ونموه وظهوره فكان بحاجة إلى وقت مديد للتطور والظهور بقدراته الكاملة.

وعلى ذات القياس، لا يمكن تصوّر جنينًا في بطن أمه خاليًا من قوتيّ الوعي والعقل، لأنه ما يزال بحاجة إلى الوقت كي يستكمل نمو أعضاء جسده وملكاته المعنوية، وسيحتاج بعد ولادته كذلك إلى التدرج في التعلم من درجة الصفر تقريبا حتى يكبر ويستكمل نمو حواسه المعنوية (الوعي والعقل والبصيرة والتفكّر والتأمل.. الخ) كي يصبح في النهاية عالمًا نابغًا أو فيلسوفًا حكيمًا. فهل من الصواب نفي العقل عن الجنين في رحم أمه أو حال ولادته ووصفه بالجنون والبلاهة أو الحيوانية والخلوّ من العقل؟ بالطبع لأ.

ينقسم الانسان في وجوده إلى كيانين، كيان مادي وكيان معنوي، فالمادي هو كل ما يتعلق بالجسد؛ ولقد اكتمل اليوم نمو الجسد بكامل أعضاءه وأجزاءه بعد مرور كل تلك الملايين من السنين لارتباطه بطبيعة التربة والوجود المادي وتوفر أنواع الغذاء، بدليل دقة مكونات أعضاء جسده وبديع وظائفها المعقدة المختلفة. أما الكيان المعنوي أو العقلي، فلقد احتاج وقتًا أطول بكثير حتى بدأ

بالظهور المتدرج من مرحلة اللاوعي للوصول إلى مرحلة الوعي، ومع ذلك ما يزال حتى يومنا هذا بحاجة إلى مزيد من النضوج الذهني والمعارف العلمية ومزيدًا من الأخلاق والروحانيات وسمو الضمير، بدليل استمرار تبني الانسان الحديث لمفاهيم القسوة والكراهية والحسد والبغضاء وتفضيل النفس على الآخر وتبني مبادئ العنف والنزاع والحرب والقتال في حلّ مشاكله ومشاكل بقية الشعوب، وهذا دليل على عدم اكتمال نضوج نفسيته وروحه المعنوية أوتبلور مفاهيمه الأخلاقية وعدم نضوج ثمرة وجوده بعد، لأن النزاع والقتال من شأن الحيوان وليس شأنًا إنسانيًا راقيًا.

إن كيان الانسان المعنوي والروحي والعقلي كان ضعيفًا عند الإنسان البدائي، لدرجة عجزه عن ممارسة عملية التفكير والادراك والتصوّر والاستيعاب والوعي وما شابه، إلا بعدما اكتمل نمو أجزاء جهاز الدماغ المادي (المخ) وتحسّن أداءه. ولقد نضج نسبيًا في مراحل بدائية قديمة عند بعض «الشيوخ وكبار السن»، فامتازوا بقدراتهم العقلية البسيطة في أول تحرك وتفاعل لقوة الوعي والتفكير، وكانت مرحلة كافية ليدرك بقية البشر أن هؤلاء الشيوخ «مميزون» بقوى واعية مختلفة أعلى مرتبة من غيرهم، وذلك من خلال ما كانوا يقدمونه من قيادة ونصائح وارشادات وتعاليم للمحافظة على الحياة والأجساد وكيفية العثور على الماء والكلأ وتدبر أمور المعيشة؛ أما في المراحل اللاحقة وبعد حقب زمانية طويلة، فقد بدأت قوة العقل تظهر وتزداد ويتسع ظهور فعاليتها بالتدريج عند بقية البشر عمومًا، وبمرور عشرات الألوف من السنين، أمست أكثر شمولًا لتفسح المجال بشكل عام لعملية التفكير والمشاركة الجماعية في بناء الحضارات.

خلاصة القول، أن وجود الانسان، قديم قدم وجود كوكب الارض ذاته، ولا يمكن التكهن بمدته أو تحديد بدايات ظهوره من رحم تربتها، فلقد غاص ذلك في عمق التاريخ ـ كما في مثال البذرة والشجرة ـ أما في المراحل اللاحقة، فلقد كان له عقل بسيط استوعب به أمور الحياة في محيطه البدائي بمقدار عقل طفل رضيع أو أصغر، وكانت هناك حضارات بدائية كثيرة في أنحاء الأرض بمستويات دانية سبقت ظهور ما يعرف بالعصر الكمبري بملايين السنين، حيث يصعب تحديد مواقعها وتواريخها لإختفاء آثارها، لأن عقل الانسان البدائي كان يمتلك ذات القدرات النسبية في الاستيعاب والوعي عند جميع البشر عمومًا بسبب ظهورهم من تربة الارض في مراحل زمانية متقاربة، وما الفروقات المحدودة والتباين النسبي بين العقول التي انتجت مختلف أنواع الحضارات لاحقًا، إلا بسبب كمية المعارف المتنوعة التي اكتسبها البشر من تعاليم «الانسان المميز» بما يتناسب مع مستويات عقولهم وواقعهم الاجتماعي وطبيعة المكان الجغرافي كل حسب قدرة تقبله. وكان لبذور هذه العلوم البدائية جدًا، أدوارًا متعددة مهمة في توريث الكثير من العلوم لأجيال ما بعد حضارات الكتابة.

والخلاصة، لا يعقل أن يقفز الإنسان من مستوياته العقلية البدائية إلى مستويات علمية وتقنية رفيعة دون الاعتماد على أسس علمية موروثة مسبقًا، وطالما ثبت عجزه عن التفكير والإبداع إلا بمعلومات مادية أولية، إذا لا بد وأن جاءته بدائيات العلوم والمعارف من خلال علوم أساطير الآلهة والمتنبئين والكهنة.

(12)
اختراع التوقيت والتقاويم

تصميم لساعة شمسية قديمة

لنأخذ مسألة أخرى يصعب كذلك اكتسابها بمجهودات العقل البشري المجرد، وهي تحديد أيام الاسبوع واختراع الساعة الزمنية وأجزائها، فمثل هذا الترتيب والتنظيم الذي وصلنا عن القدماء، مع أنه من المنظورات المادية المحسوسة ويستند على حركة فلكية مشهودة مثل دوران الأرض والقمر حول الشمس وتعاقب الفصول الأربع وتبدل الليل والنهار، إلا أنه لو دققنا في الأمر أعمق من ذلك، لوجدناه أمرًا إعجازيًا يستحيل اكتشاف حقيقة دقائقه مهما ترقى العقل البشري البدائي ومهما أطال النظر في صفحة السماء، خاصة لأولئك الذين عاشوا قبل أو خلال بداية عصر الكتابة. فإذا تذكرنا أن التقاويم والأزياج الفلكية قد أخترعت ـ حسب ما كشفته الآثار ـ ليس قبل أقل من خمسة آلاف سنة[360]، إذا لم يكن أقدم من ذلك. فنتسائل من أين للبدائي ذلك العلم الفلكي والرياضي ليحدد أو يفترض أن لكوكب الشمس اثنى عشر برجًا وليس بأكثر أو أقل؟ وكيف اتفقت جميع الأمم القديمة على الأخذ بهذه المعلومة الفلكية حتى نراها عند جميع أمم الحضارات بذات التشكيلة؟ والأصعب من ذلك كيف اتفق للبدائي تحديد أيام الاسبوع بسبعة، ولماذا تم هذا الإختيار؟ فمسألة عدد أيام الاسبوع مسألة افتراضية غير منظورة ولا تحددها ظواهر طبيعية كما هو حال شروق الشمس وغروبها أو دورة ظهور القمر ومراحله واختفاءه. يؤيد عالم الفلك كارل ساغان ذلك بالقول:

- (وعندما حان أوان تنظيم الاسبوع وهو فترة من الوقت تختلف عن اليوم والشهر والسنة وليس لها دلالة فلكية جوهرية)[361]، كما يوافق الأستاذ «كولن ولسن» على أن عدد أيام الأسبوع مسألة خالية من الدلائل المادية، فيقول:

- (ومع أن اليوم والشهر والسنة تقسيمات زمنية طبيعية، إلا أن الأسبوع والساعة فترات تعسفية لا نصادفها في الطبيعة، وإنما حددها الإنسان. والناس على اختلافهم واختلاف أزمنتهم حددوا قيما متباينة لأطوالهما)[362]. إذن، كيف انتشرت فكرة الأسبوع واتفقت عليها شعوب الأرض، ولماذا هذا التقسيم بالذات، وما الدافع لذلك؟ وكيف علم الانسان البدائي أن هناك ست ساعات زائدة غير محسوبة في كل عام عليه جمعها كيوم واحد كل أربع سنوات ليضيفها إلى السنة الكبيسة، ومن كان يقوم بهذه العملية الفلكية وعلى ماذا استند، وكيف نشرها بين شعبه وبقية الشعوب[363]؟ وعلم أن هناك خسوف وكسوف سيحصل مستقبلًا في مواعيد ثابتة، مع أنها ظواهر طبيعية تستند على استنتاجات عقلية علمية عميقة كثيرا ما تحصل في مناطق جغرافية دون أخرى؟ فلو تأملنا هذه المسألة الفلكية المعقدة لوجدنا صعوبة تحقيقها ونقلها من عالم الغيبيات المعنوية إلى عالم الماديات حتى على كبار المتعلمين وأصحاب الشهادات العليا، وأنه لأمر بحاجة إلى مختصين من ذوي

المعارف العالية في علوم التنجيم والفلك والرياضيات، بل إن فكرة تحديد أيام معينة وتسميتها، لا تخطر على فكر إنسان مهما علا شأن علومه المكتسبة.

ومن الغريب أن يختصر أحد العلماء حلّ هذه المعضلة الكبيرة ويتقبل تقسيماتها ببساطة حينما قال:

- (قسم البابليون الشهر إلى أربعة أجزاء، حسب مراحل القمر؛ لكن إعطاء الأسبوع سبعة أيام، لم يأت قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد، تأسيس الآلهة السبعة «الكبار» الأفلاك: الشمس، القمر، والكواكب الخمسة المرئية بالعين المجردة، التي منها أخذت الأيام اسمها. وعن طريق الرومان، انتقل الأسبوع بأيامه السبعة إلى شعوب أوروبا وعمّ العالم قاطبة)[364].

ما يُرد على هذا الرأي:

- أولا: ما هو سبب تخصيص أسماء لهذه الأفلاك السبعة فقط دون غيرها، ومن ذا الذي حددها، وخمسة منها بعيدة لا تختلف في أحجامها عن بقية الكواكب والنجوم البعيدة إلا بنسب ضئيلة، وكيف أمكن التمييز بينها ولم يكن جهاز التلسكوب قد اخترع بعد؟ أما ان تحمل الأيام أسماء آلهة رومانية، فهذا ليس بدليل على أنه اكتشاف روماني، فلقد سبقهم لذلك الفرس والفراعنة وأهل الرافدين والصين وبأسماء مختلفة حسب لغاتهم؛ ومع ذلك، من أين لهؤلاء فكرة العدد سبعة (7) تحديدًا، وما مصدره؟ ثانيًا: إن الشهر القمري ليس 28 يوما على الدوام، حتى يدفع بفكرة تقسيم عددها على أربع، حيث يبقى هناك زيادة يوم واحد أو نصف يوم في بعض الشهور. ثالثًا: إن تقسيم مراحل أطوار كوكب القمر ليست أربع بالتحديد، فاذا أُحصيت حسب تدرجها، نجدها ثمانية، أما اذا حذفت حالات التكرار فستكون خمسة. كل ذلك ونحن نتكلم عن فكرة ظهور الرقم «سبعة»، وليس عن أسباب تسمية الأيام ولا عن مصادرها.

وها نحن نعود مرة أخرى لنقف أمام طريقين لا ثالث لهما طالما أن علوم الفلك والتنجيم من العلوم المعقدة وليست سهلة المنال على عموم البشر؛ فإما أن يكون البدائيون الأوائل قبل أو بعد عصر الكتابة هم الذين أوجدوا هذه العلوم الدقيقة، وهذا أمر أثبتنا استحالته نسبة لقدراتهم العقلية المنبثقة من كميات علومهم الأولية، أو إن أمم أصحاب الآلهات أو أمم حضارات الكتابة قد اخترعوها بالفعل قبل عدة آلاف من السنين، وهذا يعيدنا أيضًا إلى نظرية حتمية تراكم العلوم المسبقة الذي يعيدنا بدوره إلى من عاش قبلهم من البدائيين، لأن عملية القفز بكميات العلوم الفلكية أو غيرها مرة واحدة بهذا المستوى الراقي من حالة الإنسان البدائي إلى مستوى علماء رياضيات وفلك وتنجيم، هو أمر غير مقبول عقليًا.

يزيد أحد الأساتذة قدحًا آخر من الحيرة حينما يخبرنا عن رفعة علوم أهل العصر الحجري الحديث، عندما يعرض قدراتهم العجيبة وما توصلوا اليه من سعة المعارف الفلكية، بقوله:

- (وهناك ارتباطان وضعهما القدماء بين الزمان والمكان خليقان بأن نذكرهما: السنة الطويلة والانسجام بين الأجرام السماوية. فقد توصلت عدة حضارات قديمة كل بمفردها إلى مفهوم السنة الطويلة «أو العظمى أو الكاملة»، بوصفها طول الزمن بين الأجرام السماوية «الشمس والقمر، والكواكب، والنجوم» وهي في وضع معين، وبين عودتها إلى هذا الوضع. وأدرك علماء الفلك جميعا في هذه الحضارات أن عدة آلاف من السنين لا بد أن تنقضي، وهذا يدل على قدرة مبكرة

للتفكير في حدود آماد طويلة جدا من الزمان. وحدد المصريون القدماء السنة الطويلة بأنها 30000 ألف سنة. وفي القرن الثامن قبل الميلاد لاحظ البابليون أن النجوم تغير مواقعها السنوية بمعدل درجة واحدة كل 72 سنة، ومن ثم تستغرق 25920 سنة للعودة إلى أماكنها الأولى.. وقدر أفلاطون السنة الطويلة بحوالي 26000 ألف سنة، واختار علماء الفلك الهندوكيون رقما مماثلا. أما العرب فقد أيدوا بقوة أن يكون مقدارها 49000 ألف سنة)[365].

نلاحظ في الفقرة السابقة، مقدار طول آماد الفترات الزمنية بشكل عام، وبهذا يكون هناك إحتمال أن جاءت هذه العلوم من قِبل أمم تاريخية عاشت في زمن إنسان نياندرتال بحدود ثلاثين ألف سنة، وهذا أمر محال يصعب تعقله، باعتبار أن كميات العلوم تتناقص كلما توغلنا قدمًا في الزمان، إضافة لما أثبتته الآثار عن أحوال آثار إنسان نياندرتال البدائية. إذًا من أين جاءت كل هذه العلوم الفلكية المعقدة، وكيف استطاع إنسان عصر الحضارات التوغل في حساب الأزمنة إلى عشرات الألوف من السنين السابقة؟

ولنقرأ أيضًا كيف كان البابليون يرتبون تقاويمهم ويعرفون متى يزيدون شهرًا على شهور السنة، بينما واقع عمر الانسان أنه يعيش حياة قصيرة لا يمكنه خلالها إلا تمييز تغير فترات الليل والنهار وتوالي فصول السنة. فلقد (قسّم البابليون السنة إلى 360 يومًا موزعة على 12 شهرًا قمريًا. يتطابق اليوم الأول من السنة الجديدة مع يوم الاعتدال الربيعي. إلا أن هذا التقويم المثالي كان يجابه صعوبات جمّة في التطبيق، خاصة وأن بداية السنة الجديدة تتغير باستمرار، فكان البابليون يضيفون الشهر الثالث عشر بين فترات محددة من أجل إعادة بداية السنة الجديدة إلى يوم الاعتدال الربيعي)[366]. نقطة مهمة تجلب الإنتباه هنا، وهي قدرة الرجل البدائي على معرفة موعد إضافة شهر زائد إلى شهور السنة.!

ولنقرأ أيضا ما نقل عن الأستاذ «كازو» في كتاب «أساطير الأولين»، قوله:

- (اشتهر البابليون بالعلوم الماتيماتيقية والفلكية وهم أوّل من جزّأ الواحد الصحيح إلى ستين جزءًا، وقسّموا النهار إلى 24 ساعة، والساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية. ويظن أن فيثاغورس أخذ الجدول المنسوب اليه عنهم. وقد اكتشف البابليون السنة الشمسية والقمرية والكسوف والخسوف. واخترعوا علم التنجيم وكان يتوقف عليه عندهم معرفة المستقبلات. وكان عندهم الخط المسماري الموجود على ما تركوه من الآثار وأكثرها من الآجر. وكانت بناياتهم ـ إلا القليل ـ من الخزف المطبوخ الذي اخترعوه. ولهم فضل عظيم باكتشافات واختراعات عديدة. قال بوسياه: إن ابتداء نشأة المراصد الفلكية المنوطة بالكلدانيين كان سنة 2893 ق.م)[367].

إن مثل هذه المعارف الدقيقة تدعو للبحث عن أصول هذه العلوم وبداياتها، إذ لا يعقل أن تتفجّر في حقبة زمنية قصيرة نسبيًا من عمر وجود الإنسان على الأرض وهو على تلك الحالة البدائية، خاصة وأن أغلبها معارف معنوية غيبية وليست مشاهدات عيانية؛ هذا إذا شئنا عدم التطرق إلى عبقرية تقسيم اليوم إلى ساعات ودقائق وثوان.

أما الفيلسوف ديورانت، فبإلاضافة لإشارته إلى عدم اتفاق الأقدمين على تحديد أسماء الشهور، إلا أنه ينوه بصراحة إلى مجهولية مصادر تلك العلوم الرفيعة وأزمنة اكتشافها. فيقول:

- (وكان «السومريون» لديهم تقويم، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ، تقسم السنة بمقتضاها إلى إثنا عشر شهرًا قمريًا يزيدونها شهرًا في كل ثلاثة أعوام أو أربعة حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس. وكانت كل مدينة تسمي هذه الأشهر بأسماء خاصة)[368].

والسؤال الذي يخطر على الفكر مرة أخرى وغالبًا ما نتجاوزه لمعرفتنا المسبقة بالعجز عن جوابه:

- من أين لأولئك البدائيين القدماء كل تلك العلوم الرياضية والفلكية المعقدة؟ وكيف استطاعوا التفكير بها أو استخلاصها من حركة كواكب السماء البعيدة التي يصعب رؤيتها أو مراقبتها وتسجيل جداولها وأزياجها؟ إذ يستحيل على الانسان العادي أو المتعلم أو المثقف أو حتى المتخصص بأي علم طبيعي آخر غير علم الرياضيات والفلك، معرفة مثل هذه الأرقام والجداول والأزياج، أو توقع وجود نظام ثابت تتغير فيه مواقع النجوم بحركة دائرية مبرمجة، أو القدرة على اكتشاف ظهور نجم جديد أو إختفاء آخر على صفحة السماء. فكيف تمكن البدائي الجاهل، بالتجربة والتكرار والمراقبة تحقيق ذلك بالعين المجردة فقط والتعرّف على جميع هذه العلوم والمعارف الفلكية المعقدة؟ في الحقيقة، لا يمكن تقبل ذلك عقليًا، حتى لو بقي البدائي يحدّق في وجه السماء طوال عمره جيلًا بعد جيل. فلقد عاشت البشرية ملايين السنين لا تفقه من حياتها شيئًا حتى بعد دخولها مرحلة الوعي مرورًا بالعصر الكمبري وما سبقه، فما بالنا بمعرفتها حركة الكواكب والأفلاك والتقاويم والأزياج خلال فترة قصيرة؟ وكيف يمكن تعليل هذا التباين الشديد بين علوم الأولين ومعارف اللاحقين، وأين هي حلقة الوصل؟ ليس من السهل معرفة أصل فكرة اختراع أيام الاسبوع أو دقائق وثواني الساعة الستين، لأنها تعتبر ـ كما سبق واتفق عليها علماء الرياضيات والفلك ـ مسألة جزافية لا تخضع لقانون واضح يسهل اكتشافه أو لحالة فلكية طبيعية يمكن مشاهدتها؛ بينما يسهل في المقابل، معرفة تداول فصول السنة والشهر واليوم وتوالي ظهور الشمس والقمر وغيابهما بالرؤية المجردة. فمثل هذه الظواهر الطبيعية الأخيرة، أمور مرئية ومحسوسة يمكن مراقبتها، لكن مسألة تحديد أيام الاسبوع بسبعة، واليوم بأربعة وعشرين ساعة، والساعة بستين ثانية، فهو أمر بحاجة إلى وقفة وتأمل، إذ يصعب تمييز الأيام السبعة عن غيرها أو حتى فيما بينها، فجميعها أيام متشابهة تبدأ بشروق الشمس وتنتهي بغروبها. ثم لماذا تم الاتفاق في آخر المطاف على سبعة وليس على أكثر أو أقل، بينما حددت بعض الشعوب القديمة أيام الاسبوع بأعداد مختلفة، كما ورد عن الفراعنة المصريين:

- (لقد كان الأسبوع الصغير يتألف في تقويم المصريين من خمسة أيام. أما الأسبوع الكبير: العاشوراء، فقد كان يتألف من أسبوعين صغيرين: بينتادا. وبما أن عدد أيام الشهر كان ثلاثين يوما، فقد كان الشهر ينطوي على ثلاثة أسابيع كبيرة أو ستة أسابيع صغيرة. كما كان العام من اثني عشر شهرًا وزعت على ثلاثة فصول لكل فصل أربعة أشهر)[369].

هنالك رأي يقول إن هذه التقسيمات جاءت نتيجة فكرة تجارية، كتحديد يوم معين للبيع والشراء والتسوّق. فإذا تفحصنا هذه التخريجة، نجدها واهية، إذ لا بد من سابق معرفة بعدد أيام الاسبوع والغاية من سباعيتها أو الغرض من تحديد عدد أيامها حتى يتم تحديد يوم للتسوق، إضافة لصعوبة اتفاق البشر على أمر محدد بشكل عام وقتما كانت تنعدم وسائل الاتصال المباشر وتختلف اللغات وتنتشر روح العداء بين القبائل. ثم إن البشر كانوا يستعملون التقويم القمري قبل استعمال التقويم

الشمسي، بل كان هناك تقويم نجمي قبل التقويم القمري، مما يمنع احتمالية وراثة فكرة ايام الاسبوع السبعة من الأقدمين.

يجيب «ولسن» على هذا السؤال بإشارة خجولة، حيث نراه يجهد في إبعاد «تهمة» الايمان والدين عن نفسه حينما أشار إلى احتمال أن يكون للأديان شأن في اختراع عدد أيام الاسبوع، قال:

- (وبالنسبة لمعظم الشعوب البدائية لم يكن هناك ما يدعو إلى وجود هذا الشيء المسمى بالاسبوع، ولكن مع تزايد نمو الحضارة نشأ سببان: أحدهما الحاجة إلى تخصيص يوم منتظم من أجل العبادة الدينية. والسبب الآخر تجاري، إذ كان لا بد من يوم محدد متكرر للسوق)[370]. مثل هذه الفرضية ـ إن صحت ـ تعيدنا إلى عصور الكتابة خلال العصر الحجري الحديث وزمن المقايضات التجارية بعدما تشكلت المجتمعات الكبيرة نسبيًا. ومع ذلك، لم يخرج الاستنتاج عن إطار زمن البدائية خلال العصر الحجري الحديث.

إن ثبات التقسيم السباعي ورسوخه بعد مجمل تلك العصور، لهو دليل على قوة سلطة المصدر، فإذا افترضنا أن مجموعة من التجار قد اتفقت على تخصيصه، أو أن تاجرًا كبيرًا قد أوجده، أو أن مجموعة من الزرّاع قد اتفقوا عليه، أو حتى ملكًا من الملوك قد إبتدعه وأمر به، فلن يكون لكل ذلك قوة ثبات ودوامية إلا إذا اعتمد على قوانين فلكية صحيحة مفهومة للخاصة والعامة، اضافة لوجود سلطة تنفيذية تقوم على توضيح أسبابه للعامة حتى يمكن تطبيقه. ومع ذلك فمن الوارد جدًا أن مثل هذا النظام الوضعي سيتغير عاجلًا أو آجلا ويهمل بتغير الظروف وتبدل سياسة المجتمع أو بزوال سلطة الحاكم[371]. لكنا وجدنا تقسيمات السبعة أيام قد كُتبَ لها الثبات والاستمرارية، كما أشار إلى ذلك الأستاذ «ولسن»:

- (إلا أن هذا نظام ساد لعدة آلاف من السنين بين حضارات متباعدة أشد التباعد)[372].. إذًا ما هو سبب ثباتها وانتشارها، وما هو الدافع للأخذ بها والمحافظة عليها؟

في مقام آخر، يتضح أن الأستاذ «ولسن» أدرك صعوبة افتراض تدخل التجار أو أي شريحة اجتماعية في مثل هذا الموضوع الفلكي الشائك، وعاد ليشير بشكل واضح إلى تدخل الدين وكهنته في ظهور هذه المسألة الفلكية، حينما قال:

- (وقد اتبع اليهود منذ أقدم العصور، وكذلك الرومان منذ ظهور تقويم جوليان، الأسبوع ذا الأيام السبعة «ربما آثروا هذا الرقم لما له من دلالة دينية»)[373].

ثم يعود ليذكر أن للأديان دورًا في ظهور التقاويم، ولكن دون التركيز على أهميتها، ثم يلحقها بفرضية خيالية أخرى، حينما ينسبها إلى فلاح أو حِرَفي. فيقول:

- (وفي مرحلة من المراحل امتدت على الأرجح عدة آلاف من السنين قبل الميلاد، خطر لشخص ما لأول مرة قياس هذا الظل المتغير حتى يتمكن من تقسيم النهار إلى فترة الصباح، وفترة ما بعد الظهيرة. وربما كان هذا الشخص كاهنًا حريصا على معرفة وقت الأعداد لطقس معين، أو لعله كان فلاحًا أو حرفيًا احتاج إلى إنجاز عمل معين قبل غروب الشمس وأراد أن يتابع مراحل تقدمه. وتمثلت طريقة القياس في وضع عصا عمودية رفيعة أو عمودا «شاخصًا» وحفر سلسلة من

الأقواس أو الخطوط على الأرض لبيان طول الظل عند الفجر والظهر والمغرب وبعض النقاط الوسطية. ودعت الحاجة إلى تعديل مواضع الخطوط كل شهر أو نحوه لمسايرة الزاوية المتغيرة للشمس)[374].

في إشارته إلى رجل الدين أو الكاهن، يبدو الأمر مقبولًا باعتبارها حاجة دينية عامة لمعرفة مواعيد أداء طقوس العبادة والصلاة اليومية ومواعيد أشهر الصيام ومواسم الحج والأعياد السنوية والاحتفالات، كما هو الحال مع التقويم الميلادي حيث ترتبط أسماء شهوره بأسماء آلهة أديان قديمة لشعوب أوربا[375]. أما في قوله أن يكون المخترع من أصحاب الحِرف والمِهن، فهذا أمر بعيد الاحتمال، إذ لا يعقل ان يتدخل المزارع والراعي أو النجار والحداد في مثل هذه الأمور الفلكية المعقدة دون الاستناد على سابق علوم ودراسات مستفيضة حتى يستنتج كل هذه الحسابات الرياضية الدقيقة، وهو رجل أميّ على الغالب، تاركًا مصدر رزقه وعائلته ليتفرغ للتفكير العميق المتواصل في تأمل حسابات عويصة لسنوات طوال، ناهيك عن حاجته لتخصيص مكان هادئ منزوي بعيدًا عن حقله ومزرعته أو ورشته، كما أيد ذلك كلشكوف بقوله:

- (إن استخدام هذه الجداول والقوائم والأدوات كان مقتصرًا على فئة ضيقة من الناس، هم علماء الفلك والرياضيات)[376].

فإذا تذكرنا ما كان من أمر اكتشاف نيوتن للجاذبية، حيث كانت الثمار تتساقط منذ آلاف السنين ولم ينتبه لسبب ذلك فردٌ واحد من أصحاب الحرف والمهن اليدوية، نفهم من ذلك إن الأمر احتاج إلى عالِم متخصص مُحمّل بكنوز علوم الفيزياء والرياضيات المعقدة ليكتشف قانون الجاذبية الأزلي. فتقديم الأستاذ «ولسن» لمثل هذه التعليلات البسيطة، تبدو الغاية منها، وكأنه شدّ للانتباه في عدم التركيز على دور الأديان المتمثل بالكاهن أو الآلهة في تلك الأزمنة القديمة والتقليل من شأنها رغم انه التعليل الأقرب إلى المعقولية.

الحق إن مسألة المصدر الحقيقي لانبثاق علوم الأولين واختراعاتهم المعقدة قد تجاوزه ونأى عنه علماء الفلك المعاصرين وغيرهم منذ مجيء عصر الأنوار وظهور الثورة الصناعية في أوروبا، وكل الظن أن سبب ذلك هو انشغالهم بالثورة العلمية وسحر منجزاتها الباهرة وما حصل من انتشار الفكر المادي وتقليله من شأن الأديان. لكن ما يعيدنا للتفكير في إنصاف الشخصيات المميزة وتأكيد أدوارهم، إن الإنسان عمومًا لا يمكنه تنظيم أو ترتيب مسائل معنوية فكرية دون اكتساب معونات علمية خارجية من آخرين، إن كان ذلك في العصور البدائية أو في هذه القرون المتقدمة، وبهذا نواجه عقبة كأداء لا يمكن تخطيها لربط تسلسل حالة البشر المعرفية في زمن البدائية مع أمم أصحاب عصر الحضارات.

نقتبس عن الفيلسوف ديورانت مثالا على ضعف العقل البشري البدائي في مادة الرياضيات وعدم قدرته على إجراء أبسط المسائل الحسابية، حيث يمكن من خلالها تصوّر مستوى بساطة عقليته رغم قرب أزمانها، فيقول:

- (وربما كان العدُّ من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام، ولا يزال العدُّ في كثير من القبائل يتم على صورة تبعث على الابتسام ببساطتها؛ فقد عَدَّ «التسمانيون» إلى العدد اثنين، لم يجاوزوه:

«بارمَرِى، كالاباوا، كاردِيا» ـ يعني: «واحد، اثنين، كثير»، والهولنديون الجدد ليس لديهم كلمات للفظتي ثلاثة أو أربعة، بل هم يطلقون على ثلاثة كلمة «اثنين ـ واحد» وعلى أربعة كلمة «اثنين ـ اثنين؛ وأهل «دامارا» لا يقبلوا أن يتبادلوا غنمتين بأربع عصي، لكنهم يقبلون أن يبادلوا غنمة بعَصَوَين، ثم يكررون العملية مرة أخرى؛ ولقد كان العدُّ وسيلته الأصابع، ومن هنا نشأ النظام العشري)[377].

من هذه الأمثلة وغيرها، نجد جدارًا عاليًا معيقًا حاول ويحاول المفكرون الماديون الإلتفاف عليه وتجاوزه دون تقديم تفسير علمي مقنع، فجلَّ اهتمامهم هو إبعاد الأمور الروحية والمعنوية وإبعادها عن طريق العلم المادي التجريبي، ساعدهم في ذلك عدم وجود أدلة مادية ثابتة تشير إلى مشاركة مباشرة من قبل الآلهة والكهنة في تأسيس العلوم المادية. فإذا كان الانسان الجاهل أو البدائي الهمجي في مناطق الأرض البعيدة عن مركز الحضارات التي أشار اليها ديورانت لم يستطع التعامل الفكري مع المسائل الرياضية البسيطة جدًا، فكيف استطاع أمثالهم قبل آلاف السنين إنشاء حضارات فارس ومصر وأرض الرافدين والصين وإيجاد علوم الفيزياء والفلك والهندسة والرياضيات وغيرها؟

يعلل المفكر (ل. ديلا بورت) هذه المسألة بعقليته العلمية المتقدمة، حينما ينحى لمعالجتها بذات منحى علماء الطبيعة في نسبة زمن اختراع العمليات الحسابية إلى وقت قريب، وكأنه يقول إن الرجل البدائي لم يكن يمتلك ذات الحوافز والرؤى:

- (كيف توصل السوميريون القدماء إلى اختراع الطريقة الستينية للعد. إن أسماء الأعداد نفسها تقدم لنا الإجابة: فهم من أول الأمر لاحظوا الأصابع الخمس لليد وبدءوا في العد: آش 1، من 2، اش 3، لمو 4، أي أويا 5. ولما كان العدد 5 غير كاف كما هو واضح فإنهم زادوا في الترقيم بالاضافة إلى الأربعة الأولى وهذا يعطينا: آش (ياش) 6، ايمين (اي ـ مين) 7، أوشو (اي ـ اش) 8، ألمو (اي ـ لمو) 9. ولمجموعتي الخمسة اخترعوا اسمًا جديدًا جعلوه وحدة جديدة أعلى هي العشرة «أو» (10) وضعفها 20 المسماة نش)[378].

ما يزيد الأمر عجبًا، أن نجد عند السومريين اختراعهم للكسور العشرية وقياسات زوايا الأشكال الهندسية المختلفة، فنفهم من ذلك أنه ليس بالاختراع الآني، بل إرث قديم عن أجيال علماء احتاجوا قرونًا عديدة للوصول إلى مثل هذه النظريات الرياضية المعقدة:

- (كانت للسوميريين صيغة لإيجاد مساحة المثلث والمنحرف والأشكال ذات الجوانب الأربعة غير المنتظمة وكانوا يقومون برسم صورة مساعدة تقاس بسهولة ثم تضاف إليها مساحة ما يقع خارجها لحساب الشكل ذي الزوايا والأضلاع الكثيرة العدد)[379].

ما غفل عنه الأستاذ بورت، هو الفرق بين مستوى أمم هذه الحضارات الراقية القديمة، وبين مستوى شعوب أستراليا وأمريكا وجزر المحيطات النائية التي بقيت حتى وقت قريب تعيش في مجاهل ظلمات البدائية ـ كما أثبتنا ذلك عن فلاسفة وحكماء ـ فلا هو تطرّق إلى أصول علوم أهل الحضارات ومصادرها، ولا هو تناول أسباب تخلف بقية الشعوب البدائية عن ركب الحضارات.

أما النص التالي المنقول عن الأقدمين، فنجد فيه إشارة رافدية صريحة تنسب اختراع جداول التقاويم الفلكية إلى أصول دينية لمن كان يطلق عليهم أسم الآلهة. فنقرأ:

- (يكفينا أن نذكر الإله البابلي «شمش» لأنه يرتبط بالكلمة العربية «شمس». وهذا الإله يعد من أشهر الآلهة البابلية والآشورية على السواء. وتدل الآثار على أن اسمه قد تردد منذ أكثر من ستة آلاف سنة. وذهب الأقدمون إلى أنه ابن «سن» إله القمر، مما يشير ـ بشكل ما ـ إلى زمن تغيير التقويم القمري إلى الشمسي، كما حدث في كثير من بلدان الشرق القديم. كما نجد أن النقوش القديمة تصفه بـ «إله النور العظيم»)[380].

إن البحث عن بداية ظهور التقاويم القديمة ومحاولة نسبتها إلى جهود بشر عاديين، تبدو متذبذبة لا تستند على دلائل علمية رصينة، إذا لم نقل إنها أقرب إلى الخيال؛ بينما نلاحظ أن تكرار ظهور علاقتها بالآلهة والأنبياء والمعتقدات الدينية القديمة هو تعليل أقرب إلى المعقولية. وهذا يعيد عقرب بوصلة البحث إلى دور الكهنة ورجال الدين القدماء، ومن المؤكد أن هؤلاء قد استمدوا علومهم أيضًا من الآلهة «الانسان المميز»، حيث لا يظهر تفسيرًا منطقيًا أفضل منه.

وعندما ينسب الأستاذ ولسن اختراع التقاويم الزمنية إلى الكهنة ورجال الأديان، نجد في ذلك نوعًا من الإنصاف، فقد يكونوا بالفعل هم أول من وضع أسس علوم الرياضيات والفيزياء والفلك والتنجيم المعقدة. قال:

- (ولم يقتصر استحداث التقاويم الأولى على منطقة شواطئ البحر المتوسط «مهد الحضارة». إذ عرفت آسيا وأمريكا أيضًا نظمًا متقدمة تماما في عصور ما قبل التاريخ. ومن أقدم هذه التقاويم تقاويم مشابهة أساسا وضعتها قبائل المايا Maya والآزتك Aztecs في أمريكا الوسطى منذ حوالي 3000 سنة قبل الميلاد.. على الرغم من ان هذه الدورة كانت مهمة للأغراض الدينية والتنبؤ)[381].

ثم يُفصح عن رأيه بشكل أوضح، فيقول أن تقاويم الشرق الأقصى (الهند والصين) جاءت في الأصل من منابع دينية أيضًا:

- (ويؤرخ التقويم الهندوكي بحوالي سنة 1500 قبل الميلاد.. وكان الغرض الرئيسي من التقويم غرضًا دينيا.. وكانت الطوائف الدينية الرئيسية الأخرى في شبه القارة الهندية من براهمة وبوذيين ويانيين يتخذون تقاويم مشابهة)[382]. وها نحن نلاحظ مرة أخرى احتواء إطار كور التوحيد (العصر الحجري الحديث) لهذه المخترعات جميعًا.

فإذا كان أثر الدين وبصمة الشخصيات المميزة والآلهة ظاهرة على جميع العلوم الفلكية القديمة في الشرقين الأوسط والأقصى وفي حضارات أمريكا الجنوبية، فلم الاصرار على التقليل من شأنها والإنتقاص من دورها، خاصة مع وجود دلائل علمية وعقلية تشير إلى تدخل «الإنسان المميز» في إيجاد هذه العلوم والمخترعات العجيبة؟ ألا يمكن لعقلاء وعلماء اليوم محاولة التوفيق بين العلم والدين؟ إن انتشار تسونامي المادية والإلحاد والتكفير والتقليل من شأن الأديان بين عموم شعوب العالم اليوم ـ خصوصًا المتقدمة منها ـ دفعهم للابتعاد عن مناهج الأديان ودورها الحقيقي القديم في

إيجاد العلوم المختلفة، أو حتى مجرد الإشارة اليها، وبات الكل يخشى على سمعته العلمية إذا حاول أو فكّر في إزاحة ما تراكم عليها من طبقات غبار الإنكار وأتربة الجحود. وإلا فمن أين جاء هؤلاء القدماء بما كان بين أيديهم من تلسكوبات ومعدات وآلات ومخترعات ودقة حسابات، حتى تمكنوا من تناول أنجم تلك العلوم العالية العجيبة التي يؤيد العلم الحديث ويؤكد على صواب كثير من نتائجها، إلا إذا كانت مصادرها غيبية عليا عجز الانسان العادي عن نيلها بمقدرته العقلية العادية.

من الأمثلة الأخرى على إشارة كتب الأديان إلى الأيام السبعة، ما نجد مثاله في التوراة، إذا اعتبرناه جزافًا من كتب التاريخ القديمة وليس كتابًا دينيًا:

- (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل)[383]. وهذه إشارة واضحة إلى أيام الاسبوع السبعة، مما يبعث على ربطها بالدين اليهودي مع إنه ظهر قبل حدود أربعة أو خمسة عشر قرنًا قبل الميلاد ولا يُعتبر من أقدم الأديان التوحيدية. أما إذا كان اليهود قد أخذوها من أديان سابقة لديانتهم أو من أساطير حضارات قديمة، فسيبقى المصدر فوقيًا حسب نظرية (لا يتعلم الانسان إلا بمعلم). فلو كان واضع عدد أيام الأسبوع عالم فلكي غير يهودي قبل مجيء التوراة، فنحن أمام تفسيرين لا ثالث لهما، فإما أن كان هناك رجال بدائيون سبق وقدّموا أسس هذه الجداول والتقسيمات الفلكية، وبذلك نعود لذات الحلقة الأولى، ونتساءل:

- كيف تسنى للبدائي التفكير المجرد في تقسيم أيام الاسبوع إلى سبعة والأيام إلى ساعات ودقائق وثواني، ومن أين اكتسب علومه، طالما لا يوجد فارق يميز بين الأيام والساعات؟ وكيف ظهرت فكرة التقويم، وأين ومتى بدأت عملية مراقبة الفلك والنجوم واستنباط علاقتها بالتقاويم الأرضية وإدراك أهمية حركة الأفلاك وظهور فكرة مواقع البروج والأزياج. مع أن «فلافيوس جوزيف» وهو أحد مؤرخي اليهود القدماء، قال في كتابه «ضد آبيون»، أن أصل عدد الأيام السبعة ظهر من الأمة اليهودية:

- («لا توجد مدينة إغريقية ولا شعب واحد أجنبي لا تنتشر فيه عاداتنا وتقاليدنا الخاصة بالراحة الأسبوعية، وكذلك تطبق من قوانيننا الخاصة بالصيام وبإضاءة الشموع وبالأطعمة أيضا»، ولقد طرح الفيلسوف السكندري «فيلون» في كتابه «حياة موسى» هذه الفكرة نفسها)[384].

كل الظن، أننا اليوم بحاجة إلى أدلة عقلية فلسفية تتوافق مع الأمور والقوى الفوقية، فلقد ثبت عجز العلم المادي عن تقديم تفسيرات وأجوبة لمثل هذه المعضلات العلمية. أما أن يأمل البعض ويُمني النفس أن العلم سيكشف ذلك مستقبلا، فهذا لا يعدو عن كونه نوعًا من أنواع التخدير والمماطلة. فها هم علماء فسلجة الأعضاء ـ على سبيل المثال ـ قد فتشوا جميع خلايا وأنحاء جسد الانسان المحدود، ولم يعثروا على مكان تخزين العلوم والصور والذكريات داخل الدماغ رغم صغر حجمه.

إن نسبة استنباط فكرة التقاويم الفلكية إلى كاهن أو متنبئ، هي أقرب إلى المعقولية، حينما يظهر ارتباطها بمعرفة مواقيت الصلاة اليومية وأشهر الصوم وأسابيعه وأيامه ومواعيد الأعياد وطقوس الحج والمناسبات السنوية. وهنا يكون إرجاع نسبة ظهور تقسيم التقاويم إلى أصل ديني أمرا مقبولًا

ومعقولًا. وهذا يعيدنا إلى مساهمات الآلهة/الأنبياء العلمية ويخبرنا أن الأديان أقدم تاريخًا من اختراع التقاويم، وهي السبب في إيجاد علوم الفيزياء والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم المعنوية المعقدة، حيث لا يوجد سببًا منطقيًا غير ذلك.

كل ذلك مؤشر على أن هذه العلوم المستصعبة قد ولدت في مرحلة كور أديان التوحيد (العصر الحجري الحديث). فماذا عن ملايين السنين الحجرية والقرون البدائية السابقة؟ هل تفجّر العقل البشري فجأةً ليقدم كل هذه المنجزات الفكرية في فترة قصيرة نسبيًا محددة بحدود اثنى عشر ألف سنة؟ وإذا صح ذلك، فما هو السبب؟ وهنا لا نجد أمامنا إلا الموافقة على حتمية وجود المعلم الفوقي الذي اشتهر كور التوحيد بوجودهم.! يقول العالم الفلكي كارل ساغان:

- (إن غالبية المخترعات الكبرى في تاريخ البشرية ـ من الأدوات الحجرية واستئناس النار إلى اللغة المكتوبة ـ صنعت على أيدي خيّرين غير معروفين)[385]. وهنا نرى هذا العالم الجليل لا يحبذ التصريح بنسبة الاختراعات المادية إلى الأنبياء والكهنة، بل يتركها مسألة عائمة هائمة مكتفيًا بوصفهم أناس (خيّرين غير معروفين)، دون أن يجهد نفسه في البحث عن حقيقة حلّ هذه المعضلة، ليساهم في حلها.

من المعلوم أنه ليس من السهل تغيير تشريعات الأحكام الوضعية والقوانين الاجتماعية لدى الشعوب إلا بقوة تنفيذية صارمة، ومع ذلك فسرعان ما نراها تندثر وتختفي بزوال السلطة القائمة، ليعود الحال كما كان عليه من عادات اجتماعية ومعتقدات دينية سابقة، خاصة إذا كانت أحكامًا تعسفية. لكن الأمر يختلف تمامًا اذا كان مصدرها وجداني متعلق بالدين والروح والايمان، حيث نرى طول مدد بقاءها ورسوخها في عقول وقلوب الشعوب. وطالما كانت أرض الرافدين مثالا واضحًا لكثرة ظهور الآلهات والأنبياء والأديان القديمة حتى من قبل زمن ظهور النبي ابراهيم، فلا يوجد ما يمنع من الاعتقاد في مشاركة آلهة وأنبياء أرض الرافدين القدماء في وضع تلك الدساتير الثابتة وإيجاد المخترعات حتى لو توغل البعد الزماني إلى العصور الحجرية الأولى.

ما يؤيد شمول أحكام الشرائع «قريبة العهد» على تنظيم قوانين المجتمع المدني وأموره الدينية معًا، ما ورد في أحكام مسلة شريعة حمورابي[386] من قواعد وأنظمة وقوانين وضعية ودينية مشتركة[387]. أما الأستاذ فتوحي، فيقول:

- (إن بعض مواد الشريعة تتشابه إلى حد بعيد مع وصايا الله العشرة في العهد القديم، وقد قسمت الشريعة إلى 13 بابًا، هي: القضاء والشهود، السرقة والنهب، شؤون الجيش «رواتب العسكريين المتطوعين والإحتياط ثم القوانين العسكرية»، وشؤون المزارع والعقارات، القروض والفائدة، قوانين بيع الخمور وحقوق وواجبات صاحبات الحانات، الإئتمان «الرهينة» والديون، الزواج والطلاق وشؤون العائلة والتبني، العقوبات والغرامات، الطب العام والجراحة وطب الأسنان والطب البيطري، البناء والملاحة والسفن، أجور الحيوانات والأجراء، العبيد؛ أما الجزء الثالث فيحتوي على خاتمة المسلة واللعنات على كل من يتلاعب فيها أو يطمسها)[388].

فلو كانت أحكام هذه المسلّة وغيرها، قوانين وضعية بشرية، لأهتمت بتنظيم شؤون وقوانين المجتمع الداخلية العامة والخاصة فقط، أما أن تتطرق لتنظيم شؤون البشر الروحية والدينية، فهذا أمر لا تختص به إلا شرائع الأديان السماوية، لأن جميع الحكام والملوك يجهدون أنفسهم في إرضاء شعوبهم من خلال المحافظة على ما يجدونه من أحكام معتقداتهم وطقوس أديانهم وتراثهم الروحي السابق، فهم لا يخالفونها ويسعون بكل جهدهم للتظاهر باحترامها ابتغاء استتباب الحكم والسلطة لهم ولأجيالهم ـ وحامورابي لا يخرج عن هذا السياق ـ فليس من المستغرب تظاهر الملوك والرؤساء باحترام قوانين الأديان وشدة تقديسها، فهذا ما يزيد في آماد وقوة سلطتهم. إن حالة الدمج بين أحكام الدين والقوانين الاجتماعية الوضعية في أحكام المسلات القديمة، لا يدل إلا على كونها قوانين فوقية اهتمت بتنظيم أحوال المجتمعات، كما هو الحال في التوراة والقرآن. لأن الملوك لا تجرؤ على تغيير أصغر العقائد الروحية أو أحكام الشرائع الدينية، خاصة والآثار والمنحوتات القديمة غالبا ما تدل على استلام الشرائع من آلهة السماء أو كوكب الشمس أو القمر، كما نراها محفورة على المسلات والألواح. وعندما قام أحد ملوك الشرق الأوسط القديم وإسمه «شتروك ناخونتي»، بسرقة مسلتين ونسبة قوانينها إلى نفسه[389]، ما كان دافعه إلا لمعرفته المسبقة بأن قوة سلطة الأحكام الفوقية على قلوب أفراد الشعب أقوى من سلطة أحكام وقوانين الملوك الدنيوية، فأراد بذلك تثبيت أركان حكمه ونسبة شخصه إلى الآلهة وأديانهم. يؤيد ذلك «حسين فهيم» بقوله:

- (على المشرعين أن يراعوا هذا الروح العام في تشريعاتهم فلا يصدرون من التشريعات ما يتنافى معه، لأنه يمثل الذوق العام للمجتمع، فالاصلاح السياسي والاجتماعي يجب أن يكون متمشيا مع هذا الروح وإلا فشل وأتى بعكس المقصود منه. فإذا وجدت في المجتمع عادات وتقاليد لم تعد ملائمة، فإن إصلاحها لا يتم بسن تشريع يحرمها، لأنها متعلقة تعلقا وثيقا بالروح العام، وعلى ذلك سيكون مثل هذا القانون تعسفيا. إنما يتم الإصلاح هنا عن طريق غرس عادات وتقاليد جديدة يوجهها المصلحون ويعملون على نشأتها ونموها وتطورها)[390].

من الأمثلة الأخرى على استحالة تجاوز العقل البشري لمنعطف حضاري مفصلي مثل مسألة ارتباطه بعلوم كواكب السماء ووضع تقاويم فلكية للمجتمع، ما كان من أحوال الأوروبيين حينما شاهدوا تفوق المسلمين في جميع مجالات العلوم، مع إنهم مثل غيرهم من شعوب الارض يمتازون بالعقول المفكرة، لكن حسن التفكير وجودة الرأي وعمليتي الابداع والاختراع لها علاقة طردية مباشرة باستتباب الأمن ووجود الاستقرار السياسي داخل المجتمع، إضافة إلى أهمية استقرار العامل الاقتصادي والمادي، فالانسان الفقير أو البسيط المعدم ومن يعيش في جوّ من الاضطراب والحروب ينشغل ليل نهار في التفكير بتوفير لقمة عيشه وطعام أولاده وسلامتهم، فلا يجد فسحة للتفكير بالأمور العلمية والمخترعات التقنية، خاصة إذا تذكرنا أن عموم البشر قديما كانوا فقراء أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، كما أيد ذلك ابن خلدون في موضوع ظهور الصنائع. وهنا يأتي سؤال:

- لماذا لم يخترع الأوربيون ويبدعوا مثل أهل فارس وأرض الرافدين والفراعنة القدماء، وقد مرّوا مثلما مرّ غيرهم بمراحل الهمجية والبدائية، بينما نرى حضارات الشرق الأوسط عند السومريين

والأكديين والبابليين والفرس والفراعنة قد سبقتهم بأشواط طويلة في مجال العلوم والمخترعات قبل ظهور فلاسفة اليونان والإغريق، بل وبقي هذا الفارق العلمي الحضاري حتى مجيء الدولة الإسلامية، حينما أشار أحد الكرادلة إلى علوم المسلمين بقوله:

- (ينقصهم أيماننا لكن تنقصنا صناعتهم)[391]. أفليس هذا دليلًا على وجود عقبات حضارية مفصلية وعقلية عند البشر تتوقف عندها عمليات التطوير والتقدم حتى يأتي رجل مصلح فوقي مُميّز ليمد لهم يد العون والمساعدة ويأخذهم إلى مراحل عقلانية وعلمية جديدة متقدمة؟ وهذا ما حصل بالفعل للأوروبيين بعدما وصلتهم إشعاعات علوم وروحانيات ديانات الشرقين الأدنى والأقصى عن طريق اسبانيا وشرق أوروبا والبحر المتوسط وما تضمنته من معارف أمم أديان الحضارات السابقة.

كل ذلك يذكرنا بالفارق الحضاري بين الشعوب، وبما أخذه الأوربيون عن العرب في صناعة الورق بعدما اقتبس هؤلاء فن صناعته من الصين، وهذا يؤيد نظرية تلاقح الحضارات واعتماد واحدتها على سابق ما توصلت اليه غيرها، وأن حضارات الشعوب لها ولادة ووفاة، ولا تنبعث من رقدتها مرة أخرى إلا عن طريق تلاقح جديد فيما بينها أو بظهور إله أو نبي بين أمتها، كما فعل زرادشت وبوذا وكونفوشيوس وموسى والمسيح ومحمد، حينما تبعت مجيئهم حضارات عالمية سميت بأسمائهم أو بأسماء أديانهم ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم.

عندما يقول السير توماس:

- (والقول يصدق أيضًا على دخول بضاعة نفيسة القيمة هي الورق، فإن أوروبا تعلمت صناعته ولا شك من الشعوب الاسلامية في حدود القرن الثاني عشر)[392] هنا نلاحظ أن تركيبة وفسلجة العقل الأوروبي ليست بالمختلفة أو القاصرة لتحجم أو يصعب عليها اختراع مثل هذه المخترعات وتعجز عن نيلها، وبالتالي تلجأ لاقتباسها من العرب، بدليل عظمة ثورتهم الصناعية وتفوقهم العلمي الحالي. وهذا يؤيد فكرة الكتاب على أن الانسان لا يمكنه التفكير المجرد واستعمال عقله للابداع دون الحصول على معلومات أولية تساعده على الاختراع حتى ولو كان بمستوى أمة أوروبا بكاملها، إذ لا بد أن تعتمد الأمم على علوم بعضها في تقدم حضاراتها والاستمرار في عملية التطوير والبناء، والشروع من نهاية حلقة المراحل الأخيرة لما وصلته بقية الحضارات من علوم لمواكبة عملية التقدم.

من الأدلة الأخرى على دور أمم الأديان في عمليات تلاقح الحضارات ـ ونحن نكرر الأدلة ونزيد بها على اعتبار أن نظرية «لا علمّ بدون معلم» بحاجة إلى برهنة وتوضيح في مختلف جوانبها ـ ما قاله السير توماس آرنولد:

- (إن انتقال العلوم اليونانية إلى الغرب بدأ من بغداد وجاء به وسطاء مسلمون ويهود إلى مسلمي اسبانيا ومن هناك حمل إلى الطلاب والتلامذة الجوالين ثم إلى أوربا المسيحية بواسطة اليهود أيضًا)[393]. ويقول العالم هوستن سميث أيضًا:

- (لقد قُدّر أن ثلث حضارتنا الغربية يحمل طابع أسلافنا اليهود)[394]. وفي هذا إشارة صريحة لعلاقة الأديان وأتباعها بتقدم العلوم والمعارف، مما يرد ويجيب على ما يطلقه البعض من تهم الجهالة والرجعية والشعوذة على الأديان ورجالها. لذا نجد عقرب بوصلة ظهور الحضارات يعود ليشير إلى فرضية الكاهن أو «الشيخ المميز» أو «الآلهة» أو «النبي» في إيجاد العلوم في قديم الزمان بصورة غير مباشرة، فهم الأكثر اتصالا بالأمور المعرفية والأفكار المعنوية الفوقية وبمسائل العبادة وإجراءاتها، وليس للرجل البدائي شأن في ذلك على الإطلاق.

إن فرضية اختراع الرجل المهني صاحب الصنعة والحِرفة اليدوية للتقاويم والأزياج الفلكية وقوانين الرياضيات المعقدة بمجرد ملاحظته تغيّر وتبدل أطوال ظلال الأشجار أو خطوط وزوايا ظلال الجدران على الأرض، إفتراض يشابه في مدعاه، كما لو قلنا إن طفلًا صغيرًا كان يفكر بمستوى انسان راشد، بل بمستوى عالم فلكي تمكن مع كل ما واجهه من تعقيدات، الخروج بمُختَرع تعجيزي. فمثل هذه التخريجة الطوباوية لا تخلو من غرابة، ناهيك عن نسبتها إلى عقلية فلاح بسيط أو حرفي من العامة في عمق الأزمنة البدائية، لأنه وكما سبق وقلنا، إن عملية الاختراع في حقيقتها عملية تسلسل عقلي ومعرفي ـ خاصة في مثل هذه المسائل العلمية الدقيقة ـ إذ لا بد وأن تتوفر لمن يقدم على ذلك، العلوم الأولية المطلوبة ويعرف الهدف والغاية من الاختراع والإنتباه لمدى شدة الحاجة اليه؛ كما لا بد أن يسبق ذلك توفر الأدوات التقنية التي هي بدورها تخضع لذات تسلسل عمليات الإختراع المعقدة. وطالما لم يسبق معرفة هذه المخترعات أو غيرها، فمن المستحيل أن يخطر على ذهن الانسان البدائي أو تنبعث في عقله إشارة فكرة إبداعية فوقية، ناهيك عن استحالة انتقالها من عالم المعنويات إلى عالم الشهود، فهذا أمر بعيد عن الواقع الفعلي والعملي، حيث لا يمكن لإنسان من شرائح المهن والحرف اليدوية عاش في الأزمان البدائية أن يفعلها، ولو افترضنا ذلك، لوجدنا ظهور غالبية الفلاسفة والحكماء وعلماء التاريخ وأصحاب المخترعات من الرعاة والبدو الرحل، بل وحتى قبائل الغجر، باعتبارهم الأكثر تمتعًا بأجواء الهدوء والسكينة وجمال الطبيعة. وبذا لا يمكن وصف فرضية عبقرية الرجل البدائي الهمجي، إلا أنها فكرة أفيونية مدمرة لحقيقة طريقة التفكير السليم غايتها إبعاد دور مساهمة الأديان ورجالها. صحيح إن البدائي عرف الليل والنهار من خلال طلوع الشمس ومغيبها وعرف تغيّر فصول السنة من خلال برودتها وحرارتها وأمطارها وارتفاع مناسيب مياه الأنهار، إلا أن هذه المعارف الحسية الطبيعية لم تقتصر على الانسان فقط، بل شاركته الحيوانات والحشرات في معرفتها أيضا. فأين هو الفارق؟

ولنعيد المثال الذي سبق وطرحنا شبيهًا له عن استحالة اختراع أي شيء دون وجود معلومات أولية أوتوفر تقنية مرحلية مسبقة. فجميعنا يعلم أن الاختراعات قائمة اليوم على قدم وساق وتظهر تباعًا بكل جد وسرعة، ومن المؤكد أيضا أن سيظهر منها مستقبلًا الشيء الكثير. لكن النقطة المهمة هي أن جميع العلماء والمخترعون في هذا اليوم بكل علومهم وتقنياتهم عاجزون عن تقديم مخترع واحد مقدّر له الظهور بعد سنة أو عدة سنوات، بل ولنقل مقدّر له الظهور في الاسبوع القادم. والسبب في ذلك هو عدم توفر كميات علوم كافية وتقنيات لازمة في الوقت الحالي. فلكل زمان دوره المحدد في ظهور مخترعاته بعد توفر كمية المعلومات الأولية، مثلما هو الحال مع ما سيظهر مستقبلًا من لقاحات وأدوية وأنواع علاجات ووسائل نقل واتصالات وجميع أنواع

المخترعات الإبداعية المستقبلية، فكل هذا وغيره بحاجة إلى تراكم علوم مسبقة، وطالما لم تتوفر في هذا اليوم، فسيؤجل إيجادها إلى يوم غد.

وكما ذكرنا، إن فكرة تمييز وتحديد عدد الأيام والسنين والأسابيع والساعات، هو أمر في غاية التعقيد، بدليل أن بعض الأمم القديمة كانت خلال عصر حضارات الكتابة تؤرخ لحياتها بالأحداث الطبيعية مثل الفيضانات والحرائق والزلازل أو بموت أو مقتل ملوكها أو كبار شخصياتها، وليس بالشهور والسنين والتقاويم الفلكية. فلو كان البشر البدائيون العاديون هم الذين أوجدوا تلك الاختراعات الفلكية العظيمة، لكانت البشرية قد تقدمت في هذا اليوم مراحل علمية غير ما هي عليه الآن بنسبة كبيرة، ولكانت الاختراعات قد ملأت الأرض منذ قرون بعيدة، بل منذ عشرات الألوف من السنين، ولما وجدنا أن جميع المخترعين ـ قدماء كانوا أم معاصرين ـ يخضعون سلفًا لعملية التعلّم والمعلّم، وغالبًا ما يسكنون قرب مراكز العلوم في المدن والحواضر، ويرتادوا أماكن الدرس والمطالعة والمكتبات ويعاشروا مع جموع العلماء والمفكرين.

يقول الأستاذ ولسن مؤكدًا على مساهمة رجال الدين في ظهور هذه المخترعات المعقدة:

- (وفي حوالي عام 340 قبل الميلاد قام الفلكي الكاهن البابلي بيروسوس (Berosus) بتطوير نموذج أكثر تعقيدا ودقة، هو البناء نصف الدائري (Hemicycle). وكان عبارة عن كتلة من الخشب أو الحجر بها منخفض نصف دائري وشاخص في المركز بحيث تحاذي قمته سطح قمة الكتلة. وحول السطح المقوس حفرت سلسلة من الأقواس، وقسّم كل واحد منها إلى إثنى عشر جزءا متساويا لتدل على ساعات اليوم)[395]. وهنا نرى أن هذا الاختراع المعقد، قد ارتبط بكاهن متعلم وليس بصاحب مهنة أخرى، باعتبار أن طبقة الكهنة هي الأقرب إلى العلوم والمعارف والقراءة والكتابة في قديم الأزمنة، لعلاقتهم اللصيقة بالآلهة والأنبياء التي ثبت أيضا نسبة ظهور بدايات العلوم والمعارف اليهم، وليس إلى بسطاء البشر وعامتهم.

وعلى ذات منوال «تفاحة نيوتن»، فلقد بقي البشر يشاهدون أنوار الشموع والشعلات والفوانيس ومصادر النيران وخيال أجسادهم تتحرك وتلقي بظلالها على الجدران والأشياء وفي جميع الاتجاهات لقرون طويلة، ولم ينتبه أحدهم لقياس تناسب حركة نور مصباح أو فانوس معلق يتدلى متحركًا ذات اليمين وذات الشمال ويربط بين حركته وحركة شعاع النور وظلاله مع الوقت ومن ثم يتحف البشرية بفكرة الثانية المعنوية «The second»، إلا العالم جاليليو جاليلي (Galileo Galili)[396]. فقد حدث أن كان جالسًا في إحدى الكاتدرائيات لفترات متكررة يراقب مصباحًا يتأرجح متدليًا بسلسلة طويلة، حينما بزغت في عقله فكرة اختراع قياس مدة الثانية من خلال حركة المصباح، فلولا سعة علومه في علوم الفيزياء والرياضات، لما بزغت هذه الفكرة المعنوية العصيّة في عقليته.

ثم من بعد جليليو، نجد الفلكي الفيزيائي كريستيان هيجنز (Christian Huygens)، وهو يستعين بعد مرور سبعين سنة (1656م)، بفكرة جاليليو الأولية ليطورها ويخترع ساعة البندول بعد اعتماده على عدد الثواني الستين. والمتتبع لصناعة الساعات بمختلف أنواعها وأشكالها وتقنياتها منذ أن كانت تعتمد على قياس امتداد ظلال الشمس حتى اختراع الساعة الذرية، يستطيع

متابعة توالي أعمال مخترعي أجزاءها وتطور حركتها ودقة صناعتها من خلال توالي استفادة كل مخترع ممن سبقه في إضافاته التقنية والعلمية. وهذا يثبت مرة أخرى ضرورة التعلم من معلم في عملية تطور حضارات البشر وعلومهم ومختراعاتهم.

الخلاصة يتضح أن التقاويم السنوية والأزياج الفلكية بمختلف أنواعها النجمية والشمسية والقمرية وعلوم الفلك والفيزياء والرياضيات الرائعة بكل دقائقها وتعقيداتها وغيرها من بقية العلوم الرفيعة، إنما هي مخترعات واكتشافات علمية نبعت أصولها البدئية من الأديان ورجالها، أو بالأحرى من الآلهة[397] والأنبياء، وليس من بنات أفكار الإنسان البدائي المجردة.

وهذا جواب سؤال الأستاذ هوستن سميث الذي أورده في آخر صفحات كتابه الضخم عن أديان العالم، عندما قال:

- (هل لدى تلك الأديان مجتمعة ما تقوله بنحوِ جماعي للعالم ككُلّ؟ فمع أخذ تنوعها واختلافاتها بعين الاعتبار، هل تتكلم تلك الأديان بصوتِ واضح ومرتفع عن أية قضايا هامة محددة؟)[398].

والجواب، هو:

- نعم.. فلولا علوم الرجال المميزون والكهنة وابتكاراتهم، لما تعلمت أنت يا أستاذ أن تقرأ أو تكتب حرفًا واحدًا.

(13)
اختراع علميّ الطب والصيدلة

نأتي على موضوع علم الطب واختراع أدوية العلاج وأزمان تداولها، فقد أثبت علماء التاريخ والحضارات بلا شك أنها كانت موجودة أو مخترعة قبل أكثر من خمس إلى ست آلاف سنة، ونعود للتفكير والقول:

ـ من ذا الذي فكّر، أو من ذا الذي خطر على ذهنه ـ في قديم تلك الأزمنة والبشر جهلة بدائيون لا يملكون من العلم شيئًا ـ التوجه إلى نبات أو إلى أوراقه أو جذوره وبذوره أو إلى مياه المستنقعات أو أجساد الحيوانات وجلودها ومنتجاتها للبحث عن دواء لشفاء مرض من الأمراض حين ألمَّ به، والأمراض عديدة لا حصر لها، وكيف عرف بكميات الأدوية ونسبها وأنواعها وطرق استخدامها؟ وكيف خطر على الذهن البشري البدائي أصلًا أن هناك شيئ يمكنه معالجة الأمراض وشفاء الأجساد؟ ولنفترض ـ وهذا أمر محال ـ أن فكرة اختراع الدواء قد خطرت على ذهن أحد البدائيين، فلماذا توجه إلى النبات، وأي نوع منها كان عليه اختياره وتحديد كميته وهي منتشرة على الأرض في بقاع دون أخرى وأعدادها لا تعد ولا تحصى، بل منها ما يندر في منطقة ويكثر في أخرى أو قد تكون معدومة، ومنها ما هو مضر أو سمّ قاتل.

فإذا قلنا أن الانسان عرفها بتكرار التجربة، فهذا أمر بحاجة إلى علم أولي مسبق عن وجود مادة تشفي المرض، ومعرفة مبكرة بأن عناصر دواء مرض محدد تكمن في مادة معينة من مواد الطبيعة دفعته لتجربتها. لأن الكلام هنا عن أول مرض أصيب به إنسان، وأول أرض ظهر فيها داء ونبت فيها نبات ناسب علاجه، ففكّر هو أو غيره بالتوجه نحو ورقة أو غصن نبات ليتناوله ظنًّا منه باحتمال شفاء مرضه، ثم حدّد من بعد كميته وطريقة استعماله. فمن ذا الذي انتبه لدور النباتات وغيرها من منتجات الحيوان في علاج وشفاء الأمراض؟ أيعقل مثلا أن شخصًا ما مرض فخطرت على ذهنه فجأة وبدون سابق معرفة فكرة استخدام ورقة نبات أو فرع جذر أو بذور زهرة فاكتشف نجاعتها في الشفاء، فراح ينصح غيره بها! وماذا عن مختلف بقية الأمراض والأوجاع المختلفة؟ إن مثل هذه التخريجة لا يمكن ترتيبها وعقلانيتها تحت أي سبيل من السبل، فأصول مركبات الأدوية وموادها لا يمكن حصر أعدادها، والأمراض والعلل كثيرة لا تعد، وبذلك يكون أمر توافق أحدهما مع الآخر أمر من مستحيل.

لقد تأكد لعلماء الآثار والأنثروبولوجيا أن البشرية عاشت في بدائية بحتة حتى مجيء العصر الحجري الحديث منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، وهو التاريخ الذي بدأت فيه الحركة العلمية والمخترعات الأولية الحجرية البدائية لمختلف العلوم تقريبًا، كما أثبت ذلك علماء الحضارات؛ أما قبل هذا التاريخ، فلم يثبت أن كانت هناك علوم خلال العصر الكمبري أو أثناء عصور الحجرية الأولى حينما عاشت البشرية حياة مشابهة لحياة الحيوان.

وطالما أثبتنا بطلان نظرية تراكم علوم ومعارف الأقدمين فلا يتبقى إلا احتمال ظهورها خلال بداية العصر الحجري الحديث. وهنا نواجه معضلة أخرى حينما نعلم مقدار ما كان من أمر علوم

ذلك العصر العجيبة مثل علوم الزراعة والري والفلك والتنجيم والطب والصيدلة والتعدين واختراع العجلة والأسلحة وغير ذلك الكثير. فكيف حصلت مثل هذه الطفرة العلمية العجيبة؟

إذا فنحن نقف أمام حلقة مفقودة، فأما أن كان إنسان نياندرتال على مستوى رفيع من العلوم والمعارف حتى يورث لأجياله مبادئها، وهذا أمر أثبتت البحوث والآثار عدميته، خاصة والكتابة لم تخترع بعد؛ وأما أن يكون إنسان ما بعد العصر الحجري الحديث (عشر ألف سنة قبل الميلاد) هو الذي بدأ بوضع أسس العلوم الرفيعة وما صاحبها من مخترعات؛ وهذا الاحتمال غير ممكن أيضًا لعدم وجود أسس علمية موروثة يعتمد عليها، فبدون وجود متوارث علمي متراكم، يستحيل على العقل البشري التفكير والاستنتاج وخلق مثل تلك الثورة والطفرة العلمية الجبارة التي امتدت حتى اليوم. فكيف يمكن حلّ هذه المعضلة؟ أما أن ينسب كل ذلك إلى تفكير الإنسان المجرد أو إلى تكرار التجربة وعامل المصادفة واحتمالاتها، فهو أمر محال لا يقوم على أساس علمي مقبول كما أثبتنا ذلك، فما لم يخترع منه شيئًا خلال ملايين السنين، لا يعقل أن يخترع بمجمله خلال فترة بضعة آلاف منها.

إنما يؤيد رفعة علوم أهل حضارات الكتابة خلال العصر الحجري الحديث، ما وصلنا عن قديم علوم الطب والصيدلة وصناعة الأدوية حيث يتضح التباين الشديد بينها وبين حِقب الأزمنة الأقدم منها، فنقرأ للعالم كريمر على سبيل المثال:

- (لم يكن القانون هو الحقل الوحيد الذي برع به السومريون قبل سواهم من البشر، فقد توصلت التنقيبات إلى اكتشاف وثيقة تحمل أول دستور للصيدلة في العالم. إن هذه الوثيقة تتحدث عن طب وعلاج لا أثر فيهما للسحر والتعاويذ والرقى، وإنما هما طب وعلاج على مستوى علمي. وقد كان مثل هذا الطب متداولا في سومر خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وورد ذكر اسم طبيب سومري كان يمارس مهنته في أور سنة 2700 قبل الميلاد. لقد وجدت الوثيقة المذكورة مكتوبة بالخط المسماري على لوح من الصلصال، وتحمل ما يزيد على اثني عشر نوعا من العلاج، ويعتبر هذا اللوح أول كتاب صيدلة عرفه الانسان.. وتشير المعلومات الواردة في هذا اللوح إلى ان الطبيب السومري الذي كتب الوثيقة كان يلجأ، كزميله في وقتنا الحاضر، إلى النبات والحيوان وكذلك إلى المعادن كمصادر أولية لاستخراج الأدوية. وكان كلوريد الصوديوم ونترات البوتاسيوم من المواد المفضلة لديه في مهمته. أما من مملكة الحيوان، فكان يستخدم الحليب وجلد الأفاعي وتروس السلاحف. ولكن الوثيقة تشير إلى أن معظم الأدوية آنذاك كانت تستخرج من النبات، وأهم النباتات المستعملة في هذا المجال هي السنا، وهو نبات من فصيلة الكمون، والآس والمصطكي والزعتر. وكانت تستخدم بالاضافة إلى ذلك، أشجار الصفصاف والكمثرى والتنوب والنخيل، وكانت المواد الأولية للأدوية تحضر من البذور أو الجذور أو الأغصان أو قشور السيقان أو الصموغ، فتخزن، كما في وقتنا الحاضر، أما بحالتها الأصلية، أو على هيئة مساحيق. وكانت الأدوية التي يصفها طبيبنا السومري تتكون من مراهم أو دهون للاستعمال الخارجي، وأما أن تكون سوائل معدة للشرب. يتضح من هذا اللوح الذي يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، بأن علم الصيدلة كان متفوقا لدى السومريين، وذلك لأن محتويات اللوح تكشف، ولو بصورة غير مباشرة، عن معرفة القوم بعمليات وتراكيب كيمياوية عديدة. وقد وصفت مادة أخرى من قبل الطبيب السومري، وتلك هي مادة لا يمكن استحصالها إلا من قبل شخص لديه معلومات كيمياوية جيدة عن نترات البوتاسيوم.

وحين نطّلع على الوثائق الآشورية المتأخرة نستطيع أن نحكم منها بأن السومريين قد استطاعوا أن يستخلصوا منتجات نتروجينية من أماكن تصريف المياه. وما زالت هذه الطريقة مستعملة في الهند ومصر، إن أهم ما تعكسه هذه الوثيقة هي الروح العلمية التي كتبت بها، وذلك أن الطبيب السومري الذي كتبها لم يعمد مطلقا إلى أي نوع من السحر أو الشعوذة أو الرقى ولم يرد في الوثيقة كلها اسم أحد الآلهة أو ذكر أحد الشياطين... إن وثيقة طبيبنا السومري خالية من ذلك، لذلك فهي تعتبر بحق أول كتاب صيدلة علمي عرفه تاريخ البشرية)[399].

مثل هذه الوثيقة التاريخية، تُظهر مستوى المعارف العالي لعصور حضارات الكتابة، وهذا بلا شك لم يكن وليد فترات تفكير وابداع آنية حديثة العهد في وقتها أو في عهود قريبة سبقتها، إذ لا بد وأن تراكمت مع مرور الأحقاب حتى وصلت إلى هذه الكم الكبير من النتائج الصحيحة المثبتة. وطالما تُؤرخ هذه الوثيقة وغيرها بعمر خمس آلاف سنة تقريبًا، فهذا يعني أن هذه المعارف وصلت من تراكم علمي تدريجي لفترات زمنية سابقة. لكن هذا الإفتراض يبطل لسابق اطلاعنا بأحوال حياة انسان نياندرتال قبلها.

إن ما وصلنا عن تفوق علوم أمم حضارات الكتابة ورفعة مستوياتها وكونها أس أساس علوم الوقت الحاضر، يدعم الرأي القائلأن تاريخ إنطلاق العلوم والمعرفة قد بدأ خلال فترتها، مما يبعد جانبًا فكرة الاعتماد على علوم الانسان البدائي وعقليته المجردة من قوة الإستنباط، كما جاء على ذكره الأستاذ بول عن حضارة الفراعنة، بقوله:

- (إلا أن اللفائف على إطلاقها لا تمثل غير جزء من معلومات أطباء الفراعنة. فهنالك ما يدل على أن علماء مصر اتبعوا طريقة التلقين الشفوي من الأب إلى الإبن أو من إلى تلميذه بعد درجة معينة من التعليم حرصاُ على سريته، مما يحمل على الظن بأن معلوماتنا عن علومهم الطبية سوف تظل ناقصة لعدم تدوينها بأكملها. كما أنه يستدل من عدة روايات ونصوص أن تعليم الطب كان يعد سرًّا لا يفشى إلا لمن أقسموا اليمين)[400].

إذًا من ذا الذي فكر أول مرة خلال فترة العصر الحجري القريب جدًا ـ نسبة إلى ملايين السنين من عمر وجود الإنسان على الأرض ـ أن هناك أدوية أو علاجات للأمراض تساعد على شفاءها، ومن ذا الذي أوحى أصلًا بفكرة وجود الدواء في أوراق الأشجار وأجزاء النبات والأزهار وبين مكونات الحليب والفواكه والمعادن، إذا لم يكن هناك شخص عبقري أول أشار لذلك؟

يعود الدكتور «بول» ليؤكد على وجود مؤلفات فرعونية قديمة في مجال الطب، فيقول:

- (وقد أكدت روايات المؤرخين القدامى وجود موسوعات قديمة في الطب تعد أقدم كتابات طبية في العالم. روى مانيتو الكاهن بمعبد هليوبولس «280 ق.م.» أن أثوتيس ابن منا موحد الشطرين، ألف كتبًا طبية ومنها مؤلف في التشريح، وأن مكتبة منف كانت تزخر بالكتب الطبية في عهد إمحوتب «30 قرن ق.م.» وتحدث كليمان الإسكندري «القرن الثاني الميلادي» عن موسوعة سرية في 42 جزءًا في العلوم قاطبة منها 6 في الطب كانت تحفظ في المعابد)[401].

ولزيادة التأكيد على أن علوم أهل حقبة حضارات ما بعد الكتابة كانت بمستويات رفيعة مميزة، وأنه لا يمكن بأي شكل تصور نسبتها إلى مخترعات موروثة عن البدائيين، ما نقرأه في لفافة فرعونية ضخمة تحمل تاريخ السنة التاسعة من حكم أمنوفيس الأول «1550 ق.م.»، لكنها تصرح أنها من تأليف وإختراع آلهة/أنبياء وليس بشر، وهو ما يرجح أنهم كانوا أوائل من ابتكر مبادئ العلوم والفنون الطبية ثم نقلوها للمقربين منهم، ليتحول هؤلاء من بعدهم إلى كهنة علوم وسحرة معارف، حيث كانت مثل هذه المسميات القديمة تستعمل للدلالة على العلماء والعرفاء والأطباء.

يقول الدكتور «بول» واصفًا محتويات اللفافة الفرعونية التي تنسب بوضوح وصراحة إلى علوم فوقية للآلهة/الأنبياء:

- (هي تبدأ بديباجة سحرية. وكان الغرض من تلك الديباجة تقديم الحجة على أصالة الكتب الإلهية، وعلى أن قوة السحر مستمدة من الإله الخيِّر تحوت، الذي كلفه رع بحماية البشر المتألم، ثم استعمالها تعويذة شافية. وهذا الاتجاه الروحاني جلي في الأصول التي تنسب اليها بعض الوصفات، فإن ستًّا «6» منها ابتكرها الآلهة لأنفسهم..!)[402].

إن التدقيق فيما احتوته اللفافة من وصفات وبحوث وعلاجات طبية، تشير بالقطع، أن جمع معلوماتها وترتيب تصنيفاتها وإجراء تجاربها قد استغرق أمدًا مديدًا والى اختبارات معقدة طويلة للتثبّت من حقيقة فاعليتها ونجاع أدويتها. فلنقرأ أيضًا:

- (ويمكن تقسيم محتويات اللفافة ـ التي يجدر بنا أن نسميها موسوعة ـ إلى توسلات للآلهة وتعاويذ، ثم قسم خاص بالأمراض الباطنية وعلاجها، وهو يُعد أول مؤلف في التاريخ يعالج سرّ الحياة بتأملات فلسفية غير دينية أو سحرية، ولو أنه يرد أغلب الأمراض الباطنية إلى أسباب روحانية، ثم تجيء وصفات لأمراض العيون وغيرها، كأمراض الجلد، وللتجميل والزينة وإنماء الشعر، ثم باب في أمراض الأطراف، ويتناول الكسور والحروق ولم يعالج الجروح... ثم وصفات مختلفة ودراسة لأمراض النساء وعلاجها يعيد الكثير مما جاء في لفافة كاهون، ومؤلفان عن القلب والشرايين هما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا في علمي التشريح ووظائف الأعضاء؛ ومؤلف في الجراحة اقتصر على الأورام والخراجات ولم يتناول الجروح، وقد سمي «بكتاب الأورام». وقد حوت هذه الموسوعة 877 وصفًا، بعضها في كيفية التشخيص، وبعضها مقرون بالعلاج، وبعضها إشارات علاجية)[403].

ويستطرد شارحًا عظمة علوم الأمة الفرعونية القديمة مؤكدًا على قدم زمن وجودها خلال تاريخ حضارات الكتابة، قال:

- (يمكن تقسيم نظرتنا إلى طب قدماء المصريين إلى مرحلتين: مرحلة قبل كشف لفافة إدوين سميث ومرحلة بعدها. إذ أن المؤرخين كانوا يظنون في أثناء الأولى أن الطب المصري كان مكونًا من قسط وفير من الشعوذة تصحبه معرفة جزئية للعقاقير والنباتات والتشريح، وأن استعمال تلك الأدوية كان مبنيًا في كثير من الأحوال على اعتبارات تتصل بالسحر أكثر مما تتصل بالطب. إلا أن هذه اللفافات أقامت أول دليل على وجود طب منطقي عقلي أساسه الخبرة والملاحظة وعلم

تشريح سليم. وهي تمتاز في اسلوبها باستعمال لغة التخصص، لغة قوية، غنية بالتعابير والتشبيهات الدقيقة. وفي موضوعها تبويب منطقي مرتب يدل على تقاليد طويلة وتفكير أصيل سبقا تأليفها، وبخلوها من أية نظرية أو أي مظهر من مظاهر الطب الروحاني التي تزخر بها المؤلفات الأخرى. وهي تصف 48 مشاهدة في جراحة العظام والجراحة العامة، مرتبة حسب ترتيب أعضاء الجسم، تبدأ بالرأس وتتدرج إلى الأنف والفك، وفقرات الرقبة، وفقرات الظهر، والأضلاع، والصدر، والترقوة، والكتف، واللوح، واليدين...)[404].

ومما ذكر أيضًا عن تعدد أنواع اختصاصات أطباء تلك الأزمنة القديمة، ما جاء عن المؤرخ هيرودت عند زيارته لمصر الفرعونية، يذكرها الدكتور «بول»:

- (بقيت كلمة عن الولادة والرمد وبعض فروع التخصص. وأقول التخصص عن عمد. ذلك «إن صدق بعض المؤرخين أمثال هيرودوت» أنه تعدّى المعقول أو المتوقع، حتى أن المصريين منذ 5000 ألف سنة بزوا في ذلك معاصرينا عبر البحار. وقد قال هيرودوت: إن مصر وطن الإخصائيين وإن كل طبيب فيها يقصر علاجه على نوع واحد من الأمراض ولا يعالج سواه، فبعضهم يعالج العيون، والبعض يعالج الأسنان أو البطن... هذا ولو أن بعض الأطباء ادعى التخصص في علاج جميع الأمراض، مثل «إيري» الذي ذكر على شاهد قبره أنه طبيب وعميد أطباء البلاط ورمدي وإخصائي المعدة والأمعاء والشرج)[405].

فهل بعد كل هذه الإنجازات العلمية والمعارف الطبية والتخصصات المتعددة والخزين الهائل من علوم الطب والصيدلة وصناعة الأدوية ومزجها وتركيبها وعمليات التشريح، يمكن القول أنها ظهرت نتيجة تفكير إنسان بدائي أو من خلال التجارب المتكررة، أو جاء استعمال كل هذه الأدوية والعلاجات نتيجة المصادفات المتسلسلة، أو أنها معارف ظهرت بتوالي متسارع خلال بضعة قرون من عمر عصر الكتابة؟ فهذا ما لا يمكن تقبله عقلًا ومنطقًا، خاصة إذا تذكرنا وصف كريمر لمقدار عظمتها ورفعتها، في قوله:

- (وتلك هي مادة لا يمكن استحصالها إلا من قبل شخص لديه معلومات كيمياوية جيدة) أو (إن أهم ما تعكسه هذه الوثيقة هي الروح العلمية التي كتبت بها)؛ أو قول غليونجي:

- (وأقول «التخصص» عن عمد. ذلك أنه تعدّى المعقول أو المتوقع).

فإذا تذكرنا أن حقبة الكتابة بدأت منذ خمس إلى ست ألف سنة تقريبًا في منطقة الشرق الأوسط ـ حسب ما أثبته علماء الاجتماع والأركيولوجيا ـ وأنها شملت مراحل تدرج متتالية في رسم الصور التوضيحية وحفر الحروف. أفيعقل أن كل هذه العلوم المعقدة قد بدأت فجأة دون تراكمات منذ ستة عصور[406] تقريبا لا غير؟

إن تفحص تاريخ بداية ظهور العلوم الأولى، يخبرنا أن وقت ظهورها وتفجّرها كان منحصرًا خلال حقبة اختراع الكتابة، وإنهبدأ من قبل مفكرين ومخترعين هم باكورة أصحاب الأفكار البكرية الأولى، وكانوا بالفعل في مستوى أعلى من عامة البشر. ولو أنصفنا التاريخ والانسان، فلن نجد ذكرًا لغير أولئك الرجال المميزون الذين يتكرر ذكر أسمائهم من آلهة وأنبياء وسحرة وكهان

وشامان مصدرًا لكل تلك المعارف والعلوم خلال العصر الحجري الحديث،من الذين نالوا علومهم ومعارفهم من خلال الإيحاء أو المنامات والرؤى من قوى خارجية فوقية.

(14)
اختراع علميّ التنجيم والفلك

(إن هناك قوة ما خارجية، غير أرضية تؤثر من الخارج في تطور الأحداث في المجتمعات البشرية. وليست التقلبات المتواقتة للنشاط الشمسي والإنساني سوى دليل واضح على هذه القوة)[407].

(ألكسندر ليونيدوفيتش).

(في كل ثقافة، نجد السماء والدافع الديني مجدولين معًا)[408].

(كارل ساغان).

لاحظنا في جميع فصول هذا الكتاب، إن الاعتماد في هذا البحث كان في الأساس يعتمد على نظريتي (الانفجار الكبير) و(لا علم بدون معلّم). وعندما نتطرق في هذا الفصل إلى علمي التنجيم والفلك وكيف ابتدأ ظهورهما، نعود مرة أخرى لما قدمه بعض علماء الإختصاص في هذا المجال، حيث يتفق العديد منهم إضافة إلى علماء الإجتماع والحضارات أن علم التنجيم قد ظهر لدى أمم حضارات الكتابة في وادي الرافدين ومصر وبقية الأمم القديمة قبل ظهور علم الفلك، فقد امتزج منذ أول ظهوره بفكرة عبادة الآلهة حينما اتخذ الأقدمون كوكبي الشمس والقمر إلهين لهم بعدما لاحظوا ارتباط حياتهم بوجودهما وتأثيرهما المادي المباشر في توالي فصول السنة وتغيّر أنواءها، فاليقظة والنوم والعمل وتحديد بدايات فصول السنة وتوالي الشهور والأيام ونضوج الفواكه ونمو النباتات وتكاثر الحيوان وغير ذلك، كلها مرتبطة بحركة هذين الكوكبين، ومن خلال توالي هذا الاهتمام والتعبد، امتد الإنتباه لبقية الكواكب الأخرى.

ومما لا يمكن الاستغناء عنه، عند الخوض في مثل هذا اليم الواسع الأطراف المتشابك الشؤون القديم قدم حضارات البشرية ووجودها، الاشارة ولو باختصار إلى ما سبق وورد في كتب علماء الحضارات والفلاسفة وغيرهم للتأكيد على وجود علم التنجيم قديمًا، كي لا يظن القارئ أننا بصدد محاولة إحياء قصص الأقدمين وروايات الأولين وأساطيرهم «الخرافية». لذلك إحتوى هذا الفصل، على مقتطفات قصار أختيرت من كتب الاختصاص ـ وما أكثرها ـ للدلالة على ما سيرد الكلام عنه في جزء الكتاب الثاني في التمهيد لاثبات أفكاره ونظرياته الجديدة الأخرى، ولولا كثرة تراكم المؤلفات وتعدد البحوث التي تناولت موضوع الحضارات القديمة وأسباب اندثارها، لما أمكن الانتباه لما حوت صفحاتها من جواهر النكات الدقيقة التي بقيت خافية مثل نجوم نائية تخبو وتضيء في ظلمات سماء ذلك التاريخ القديم.

نادرًا ما خلا كتاب أو سفر إختص بحضارات الأمم القديمة من الاشارة إلى علمي التنجيم والفلك، حيث تبدو مواكبتهما لحضارات الأولين قد حازت على الكثير من اهتماماتهم واحتلت أحقابًا طويلة من أعمار أجيالهم، مستندين في ذلك على سلسلة من نتائج علوم تجريبية متجانسة وإبداعات أجيال

علماء متخصصين، لاحقهم استند على علوم سابقهم، فتناولوا ثمار علوم بعضهم البعض وأخضعوها للبحث والتدقيق والتشذيب والترتيب، فكان هذا التوافق المعرفي أمرًا غاية في الأهمية لظهور حلقات هذه السلسلة العلمية طويلة الأحقاب.

يقول «طه باقر» إن علمي التنجيم والفلك، علمين منفصلين منذ بدايتهما ولا يجب الخلط بينهما فلكل منهما مجاله الخاص:

- (ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ننبه إلى بعض الأوهام الشائعة فيما يتعلق بعلاقة التنجيم بالفلك، وأن الفلك نشأ من التنجيم. والواقع أن ذلك يخالف الحقائق المقررة. فلم يكن منشأ علم الفلك عند العرافيين الأقدمين الرغبة في معرفة المستقبل والإخبار عن الغيب التي هي منشأ التنجيم، وإنما أصل علم الفلك من حوافز وضرورات تتعلق بمعرفة الفصول والمواسم وقياس الوقت وضبط أزمان فيضان الأنهر ومواسم الزرع الخ)[409].

بينما يقول الأستاذ «كبلر»، أن علم التنجيم هو العلم الأصل، ومنه ظهر علم الفلك:

- (وعلم التنجيم الذي لم يشمل خريطة البروج حتى القرن الرابع ق.م. في بابل، هو الذي أدى إلى ظهور علم الفلك في وقت مبكر وهو العلم الذي برع فيه البابليون)[410].

وبدوره يساهم الفيلسوف «ويل ديورانت» برأيه حول أسبقية علم التنجيم وأن ليس من الإنصاف القول أن كل ما جاءنا عنه من نظريات وعلوم، كان مجانبًا للصواب، فنرفضه ونصفه بالخرافات:

- (فالتنجيم قد سبق علم الفلك، وربما دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك؛ ذلك لأن النفوس الساذجة أكثر اهتماما بالكشف عما يخبئه لها الغيب منها بمعرفة الزمن؛ فنشأت ألوف الخرافات عن تأثير النجوم في خُلُق الانسان ونصيبه المقدور، ولا يزال كثير من هذه الخرافات مزدهرًا في يومنا هذا، وربما لم تكن هذه الخرافات خرافات بالمعنى الصحيح، ويجوز أن تكون ضربًا آخر من الخطأ في التعليل؛ وما العلم نفسه الا الضرب الأول من ذلك الخطأ)[411].

قلل العلماء من شأن «علم التنجيم» في بداية الثورة العلمية الحديثة، وفصلوه عن علم الفلك وعدّوه نوعا من أنواع الخرافة والشعوذة، إلا أن إلغاء دوره وتأثيره من تاريخ البشرية لم يكن بهذه السهولة، فلقد عاد البعض منهم ليطالب بإحياء علومه ودراساته بعدما اتضح دوره الكبير في رسم لوحات ثقافات الأمم القديمة وحضاراتها الغابرة التي تطورت بذورها ونمت لتشكل اليوم هيكل علوم الفلك العظيم بآلاته العجيبة ومخترعاته العظيمة ورعيل علمائه المتخصصين.

بالعودة إلى الماضي السحيق فيما قبل العصر الكمبري وخلاله وحتى في زمن وجود إنسان نياندرتال، نجد أن البشرية كانت تعيش بحالة أقرب إلى حالة الحيوان منها إلى الإنسان، وبذلك يتحقق أمر غاية بالأهمية، وهو إستحالة الاعتقاد أن تكون مثل هذه العلوم العظيمة وغيرها قد ظهرت في تلك الأزمان الخالية. وطالما أن حضارات الكتابة قد بدأت خلال العصر الحجري الحديث، فلا سبيل أمامنا إلا القبول بفكرة تحديد ظهور هذه العلوم خلال فترته، وهذا ما يحصر البحث خلال العشرة آلاف سنة قبل الميلاد وليس قبلها، فأحوال إنسان النياندرتال تجزم بكل دقة أنه لم يخترع هذه العلوم المعقدة.

مثل هذا التحديد الزمني في ظهور علميّ التنجيم والفلك، بحاجة إلى وقفة تأمل وتفكير، فالأمر غاية في التعقيد، وليس كما أشار اليه الأستاذ «كولن ولسن»[412] ببساطة على أنهما من اختراع الأمم القديمة في قوله:

- (وبدراسة وضع شروق الشمس أو غروبها بالنسبة لصفوف من الأحجار أو الأشياء الطبيعية مثل قمم الجبال ـ استطاعت قبائل كثيرة من بني الانسان في العصور القديمة ملاحظة أن الشمس ابتداء من النصف الثاني للشتاء «في نصف الكرة الشمالي» تأخذ في الارتفاع لتبتعد أكثر فأكثر ناحية الشمال إلى أن ينتصف الصيف وعندها يبلغ شروق الشمس وغروبها أبعد نقطة في الشمال)[413].

مثل هذا الافتراض نجده بعيدًا كل البعد عن أحوال البشر ومستوى عقولهم البدائية البسيطة آنذاك. لكن الأستاذ ولسن يعود لينسب علوم حضارات البشر إلى رغبة الانسان بالتعلم، فيقول:

- (من المعايير التي يمكن أن نقيس بها نهضة الانسان من الهمجية إلى مدنية العصر الحاضر رغبته المتزايد في قياس مرور الوقت!).

وهنا نتوقف قليلًا ونتساءل، كيف تكونت عند الهمجي أو البدائي رغبة في قياس الوقت، ومن أين جاءه الاحساس بذلك وما هو الدافع، وكيف انتقل إلى مرحلة التفكير المعقد ولماذا، وقد عاش في بدائية مظلمة لملايين السنين؟

من المعلوم أن نمو وتطور جسد الانسان المادي، أسرع من تطور ورشاد قواه العقلية والروحية، وهذا أمر واضح لا يختلف عليه اثنان حين النظر إلى تطور حالة نمو الاطفال من الناحية الجسدية والعقلية. فالنضوج العقلي والروحي، يبقى بحاجة لفترات أطول قد تتجاوز ضعف فترة نمو الجسد واكتمال الهيئة البدنية حتى يصل إلى نسبة معينة من الكمال، أما درجات الحكمة فنلاحظ تأخر ظهورها إلى مراحل متأخرة من العمر.

ثم يعود الأستاذ ولسن ليزيد الأمر عجبًا عند وصفه لحالة تفكير الرجل البدائي في قوله:

- (لم يكن الانسان البدائي، ساكن الكهف في عصور ما قبل التاريخ، يجد من نفسه اهتماما أو فهما للساعات والدقائق والثواني.. ومنذ مرحلة مبكرة جدا لاحظ مرور الوقت من مشاهدته للظواهر الطبيعية المختلفة.. وكذلك النماذج النجمية «فمن الممكن حساب السنة من التقدم الدوري لمواقع البروج عبر السماء»)[414].

مثل هذا التبسيط المفرط في شرح عملية بداية علوم الفلك ونسبتها إلى عقلية الرجل البدائي المبدعة، لا ينفرد بها الأستاذ ولسن فقط، بل يشاركه كثير من العلماء والمثقفين، لكن السؤال هو:

- من أين للبدائي أو حتى المتعلّم إدراك وجود (تقدم دوري لمواقع البروج عبر السماء)، أو حركة النجوم والكواكب دائريًا حول الأرض؟!. حتى يستنتج ببساطة:

- (ومن ثم كان اليوم، والشهر، والسنة أمورا طبيعية تماما، وتقسيمة زمنية يسيرة الملاحظة)![415].

من المعلوم أن علم الفلك بحاجة إلى عقول نابهة متفتحة تمتلك خزين معلومات هائل من علوم الرياضيات والفيزياء المعقدة ـ مثلما هي بقية العلوم الأخرى ـ فهو ليس بعلم بسيط ينال ثماره كل من تقرب منه ورفع يده. فكيف يفترض نسبة أصل هذا العلم المعقد إلى القبائل البدائية وتوصلهم ببساطة إلى حسابات ونتائج فلكية معقدة بمجرد النظر بالعين المجردة إلى صفحة السماء! في الحقيقة لا يبدو ذلك إلا نوع من التخريجات التي يحاول أصحابها تغطية العجز عن تقديم تفسيرات علمية سليمة لمحور السؤال الجوهري:

- كيف بدأ الانسان يفكّر ومن أين له كل هذه العلوم والمعارف؟

وعندما يقول الأستاذ ولسن:

- (إن كل خطوة في الفلك ينبغي أن تؤسس على الكشوف السابقة. ويصدق هذا بخاصة على قياس الكون الذي كان ينحو طيلة تاريخ علم الفلك إلى أن يكون مراجعة للأفكار السابقة صعدًا)[416].

فهذا الرأي يبعد تمامًا احتمال إيجاد واختراع قدماء البدائيين جنينَي علم الفلك والتنجيم بتفكيرهم المجرد من خلال التمعن في صفحة السماء، ولا يرقى لمستوى الاستنتاجات العلمية الحصيفة. إضافة لذلك، هناك ظواهر فلكية لا تتكرر إلا بعد مرور عشرات أو مئات السنين، وأخرى بمدد أكثر من ذلك، فلا يتمكن من تتبعها ومعرفة حركتها والتحقق من صحة نتائج جداولها وأزياجها إلا عقول نابهة على درجات عالية من الذكاء والخبرة والقدرة على إمكانية المقارنة والقياس والتفكير ودراسة ما سبق وسجّل ولوحظ عن حركة النجوم والأفلاك، وكل ذلك يفترض وجود فنون الرسم والكتابة.

قد ينطبق ما قاله الأستاذ ولسن على المراحل العلمية المتأخرة جدًا من عمر البشرية وليس قبلها، فعلى سبيل المثال اقتبس الآشوريين علومهم من البابليين، وهؤلاء أخذوها من السومريين، كما ونلاحظ أيضًا اقتباس الأوروبيين علوم الفلك وغيرها من العرب، (دراسات الفونسو الفلكية ومن ضمنها «الأزياج الألفونسية»، وهي مجموعة من نتائج الأرصاد المأخوذة في طليطلة، وقد شاع استعمالها في جميع أنحاء اوربا، وظلت موضع اعتماد عدة قرون)[417]. فهذا أحد الأدلة على عجز العقل البشري عن تجاوز العقبات الحضارية المفصلية حتى ولو جاءت المحاولات من قبل عالم متخصص أو فيلسوف عظيم أو أمة بتمامها مثل الأمة الأوروبية، إذ لا بد أن تستند حضارة أمة على علوم أمة أخرى ثم تزيد عليها، فعلوم دقيقة كهذه كانت بحاجة لمئات السنين، بل أكثر من ذلك، للتحقق من صحة جداول وأزياج حركة الكواكب والأفلاك، ناهيك عن إمكانية رؤية ولادة نجم جديد بالعين المجردة بين عشرات الألوف من النجوم في صفحة السماء المحيطة بكوكب الأرض من جميع الجهات. فهل يعقل نسبة جميع هذه الفرضيات العلمية والتاريخية وكل أنواع التفكير الخارق إلى الانسان الهمجي سليل تربية الكهوف والبوادي ليورثها إلى أمم حضارات الكتابة؟

من هنا كان لا بد لهذا المفكر الفطن البحث عن حلقة للربط بين تسلسل علوم الحقبتين، لهذا نراه يستعين بحلقة الدين للربط بينهما:

- (ومن الجلي أنها كانت موضع الملاحظة بل والتسجيل «ربما بواسطة الطقوس الدينية» في عصور أقدم كثيرًا مما تشير اليه أية تسجيلات باقية)[418]. ثم يعود ليؤكد على دور الدين ورجاله في ظهور علم الفلك، في قوله:

- (وكان حساب الأيام والأعوام عادة من مسئولية الكهنة، وذلك لأن الاحتفاظ بأي حساب على الإطلاق كان أولًا وقبل كل شيء لأغراض دينية)[419].

مثل هذا الربط، يعتبر قفزة تجاوزت حقيقة الرابط فيشرح العلاقة القديمة بين الدين وعلم الفلك، ومن أين بدأت، ومن ذا الذي وضع أسس التواصل والربط بينهما. لكنه يعود ويقول إن تصور عقلية الانسان الهمجي بهذا الرقي هو أمر غير ممكن، لذلك يستدرك ما صرّح به:

- (حين نقرر أن السنة أمر «أن اليسير ملاحظته» فهذا ـ بالطبع ـ من قبيل التعميم أو لنقل تبسيط مسرف غاية الإسراف)[420]. بل ويزيد في توضيح صعوبة الخوض في مثل هذه العلوم، ويقول:

- (وكان الحساب دائما عملية معقدة، بحيث يصعب علينا هنا الخوض في تفاصيلها)[421].

فإذا كان استاذًا فيزيائيًا فلكيًا مثل «كولن ولسن» يصرح أن علوم الفلك عملية معقدة يصعب الخوض في تفاصيلها، وأن ما جاء على ذكره، كان (تبسيط مسرف غاية الإسراف)، فكيف وافق إذا على نسبة المنجزات العلمية المعقدة والمكتشفات الفلكية الأولى إلى الرجل الهمجي أو البدائي، إلا إذا قد صادف عقبة كأداء في تسلسل تدرج علوم الجنس البشري، عجز عن تجاوزها.

لذا فمن غير المنطقي الظن أن علم التنجيم والفلك وغيرهما من بقية العلوم الدقيقة ظهر بشكل فجائي بذلك المستوى الناضج بين أمم حضارات الكتابة أو قبلها، دون اعتماد على أسس علمية ودلائل ثابتة لعلماء سابقين؛ وطالما سبق وفندنا هذا الافتراض، لذا ليس أمامنا إلا الحل الثاني، وهو ظهور نفوس ذات قدرات عقلية فوقية عالية ساعدت البشر في تطور حضاراتهم بتلك السرعة المثيرة وكانت السبب المباشر في هذه الطفرة العلمية لأمم حضارات الكتابة. لكن ما يصعب تقديم أدلة مادية عليه هو شحة مدونات تاريخ البشر الروحي عن تلك الأحقاب، فالعلوم الروحية لا تترك آثارًا ودلائل يمكن استقراءها فيما بعد،إلا ما وصلنا من أخبار الأساطير القديمة التي قد تساعد بعض الشيء، فهي تختلف في آثارها عن آثار الأدلة المادية التي ما زالت باقية بنسب جيدة حتى اليوم، كما قال ديورانت:

- (فمعظم التاريخ ظنّ وبقيته من إملاء الهوى)[422]. وكما قال أيضا:

- (وهنا ينبغي أن نتذكر مرة أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلا قليلا)[423].

ويؤكد طه باقر بدوره على استحالة معرفة أي شيء عن ماضي أزمان الأمم القديمة، مما يزيد الأمر حيرة وتعقيد عن زمن بداية ظهور علم التنجيم (لا سبيل لمعرفة القوانين في العراق قبل أن تظهر الكتابة فيه في منتصف الألف الرابع ق.م. ولكن مما يدعو إلى الدهشة أن نجد عند سكان العراق الأقدمين أصولًا قانونية وقواعد متبعة في المعاملات وذلك في أواخر عصور ما قبل التاريخ منذ النصف الثاني من عصر الوركاء، وهو الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة لأول مرة في

تاريخ البشر. فإن ألواح الطين التي جائتنا من هذا العهد ومن العهد الذي يليه «وهو عهد حمد منصر» يحتوي على كثير من المعاملات التجارية والادارية كسجلات الحقول والأراضي والمستندات التجارية وسجلات الواردات وتثبيت ملكية الأراضي، وكثرت المصادر عن القوانين في عصور فجر السلالات وهو عهد إزدهار الحضارة السومرية ونموها)[424].

إن علم التنجيم الذي ارتبط بالمفاهيم الدينية عند قدماء البشر خلال العصر الحجري الحديث، لا بد وأن كانت له أسس مسجلة منذ أجيال وأكوار عديدة وبطرق علمية سليمة، ودراسات وأبحاث استمرت آلاف السنين قبل انتقالها للتداول والعمل بها والاستناد عليها وتوريثها لعلماء «حضارات الكتابة» ممن تناولوها واعتمدوا عليها وهم متأكدين من صواب معلوماتها ودقة نتائجها، فانكبوا عليها بالدراسة والمتابعة والبحث والاضافة.

من هنا كان لا بد من أخذ هذه النقطة الجوهرية بنظر الاعتبار، إذ لا يمكن ظهور علم التنجيم أو أي علم آخر بهذا الرقي والمستوى الرفيع فجأة عند أمم حضارات الكتابة، طالما لم يسبق ذلك وجود تراكمات علمية. ولقد انتبه ولسن إلى استحالة هذه الطفرات العلمية حينما قال:

- (وقد لاحظ الفلكيون المصريون القدماء، طيلة مئات السنين التي سجلوا فيها الأحداث الفلكية: أن كسوف الشمس وخسوف القمر يتبعان دورة تستغرق 18 سنة و11 يوما تقريبا لكي تكتمل... ونظرا لهذا، فمن العجيب حقًا أن يتمكن الفلكيون المصريون من التنبؤ بخسوفات بناء على معرفتهم بهذه الدورة)[425]

من ناحيته، يشير «طه باقر» إلى المعابد الدينية باعتبارها إحدى أقنية انتقال العلوم والمعارف في قديم الزمان، حيث استعملت قممها بمثابة مراصد فلكية بالاضافة إلى التعبد وممارسة الطقوس، قال:

- (وقد أمدنا كثير من المعابد بكنوز ثمينة من الآثار الفنية والسجلات الدينية والدنيوية التي كانت تودع في المعابد، وكان المعبد كذلك مركزًا علميًا للتعليم والبحث والتأليف والنقل، وفيه تحفظ سجلات الآداب والعلوم إلى جانب دور السجلات وخزانات الكتب الملوكية)[426]. وهنا نكرر الانتباه أن مجمل علوم حضارات عصر الكتابة كانت في ابتداء أمرها متركزة في يد كهنة الأديان.

عندما يصرح فلاسفة كبار مثل (توينبي وديورانت وولسن)، بعدم اعتبار ظهور جميع تلك العلوم الراقية من قبل أمم بدائية، يضعنا ذلك مرة أخرى أمام احتمالين، فأما إنها جاءت من أمم سابقة، وهذا ما أثبتنا بطلانه لمخالفته قانون تدرج العلوم الطردي مع تقدم الزمان. وأما أنها ولدت خلال العصر الحجري الحديث، أي في زمن ظهور حضارات الكتابة. لكن كيف حدث ذلك وقانون التطور العلمي يقف حائلا دون ذلك؟ لا سبيل للتعليل هنا إلا إذا كان آلهة أو أنبياء (كور التوحيد) هم من وضعوا أسس تلك العلوم من خلال علومهم اللدنيّة.

لإبن خلدون رأي في تأييد فكرة طول عمر نشوء علمي التنجيم والفلك حينما تناول علاقتهما بحوادث الأمم وأحوال ملوكها. فلقد استبعد فكرة ظهورهما عن طريق تكرار التجارب والمتابعة والمراقبة، لقوله في استحالة كفاية الزمان لأعمار البشر كي يتحققوا من حركة الأفلاك (وإذا كانت

مراحل عمر الفرد منا تقاس بالسنوات أو بعشرات السنوات، فإن المراحل التي تمر بها الدول والمجتمعات تقاس بمئات أو ربما بآلاف السنين. وفي كل مرحلة من هذه المراحل يكتسب أفرادها مفاهيم جديدة، وخبرات عديدة... الخ، حتى تقع بين أيدينا ـ في النهاية ـ على هيئة تراث بشري تمتد جذوره في أعماق الزمن)[427] وبهذا فنحن أمام مسألة يبدو أن لا حلّ لها. فلقد قال في وصفه استحالة ظهور هذه العلوم في أزمان قصيرة نسبيًا:

- (إن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة. وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظنّ. وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم)[428]. هنا نجده وقد أغلق الطريق على الفكرة الشائعة بحداثة ولادة علمي الفلك والتنجيم وتأسيسهما خلال زمن حضارات الكتابة في العشر ألف سنة قبل الميلاد، بسبب حاجة هذين العلمين مثل غيرهما من بقية العلوم المعقدة إلى طول آماد خيالية لا يمكن تحققها خلال بضعة آلاف من السنين سبقت ولادة السيد المسيح. ومن ناحية أخرى ـ كما ذكرنا ـ لا يعقل أن ظهر هذين العلمين في زمن إنسان نياندرتال وما قبله أو بعده. من هذا نعود لنقف أمام السؤال المحيّر: كيف يمكن تفسير ظهور هذين العلمين، ومتى ظهرا، ومن أين كان مصدرهما؟

من الغريب أن نجد إبن خلدون، ينفي صدور هذين العلمين وبقية العلوم عن رجال مميزون من أصحاب الوحي أو عن طريق علوم الغيب والرؤى، ويبطل احتمال ولادتها عن هذا السبيل. وبهذا فهو يغلق الطريق عن معرفة بداية التأسيس، فلا وافق على الطريقة الطبيعية المتسلسلة لتراكم العلوم والمعارف التجريبية، لقوله إنها بحاجة إلى عصور مديدة لا تتحقق للبشر، ولا هو ارتضى بطرق الرؤى والإلهامات الغيبية التي جاء بها الآلهة والأنبياء، حيث يبدو أنه لا يؤمن بهذه القوى الغيبية، بل ولم يكلّف نفسه مؤونة مناقشتها، حينما قال:

- (وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل «ضعيف» وقد كفونا مؤنة إبطاله. ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله، فكيف يدّعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق)[429]. لكن هذا الفيلسوف لم يقدم بديلا أو جوابًا يستفاد منه لمعرفة كيفية نشوء هذه العلوم الدقيقة وسبل تأسيسها، بل ترك الأمر عائمًا دون تفسير.

هنا يبدو الاشتباه واضحًا عند ابن خلدون، فبعدما وافق على مسألة عدم كفاية آماد القرون والعصور لمعرفة هذين العلمين والإحاطة بدقائقهما، إذا به ينفي صدورهما عن طريق الأنبياء أيضًا، فيستنكر تدخلهم في كشف غوامض المسائل العلمية والفلسفية وعدم اختصاصهم بها، ويحدد أسباب ظهورهم بهداية البشر إلى الأديان وعبادة الله، ويقصر مهامهم على نقل ما يصلهم من أوامر الشرائع والروحانيات عن طريق الوحي فقط. ولا أدري كيف استطاع هو أو غيره التمييز بين ما نطق به النبي عن ذاته أو عن وحيّ عند الله، في قوله (وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله). فمما قاله عن مهمة النبي محمد على سبيل المثال:

- (إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطبّ ولا غيره من العاديات)![430] ولو كان ذلك صوابًا، فالبشر قبل ظهور الإسلام كانوا يمتلكون شرائع وقوانين يتبعوها منذ زمن حمورابي ومن سبقه، ولماذا ظهر دين الإسلام إذا؟

لكنه يعود ويقول ناقلًا عن النبي «محمد» تقديمه نصيحة طبية للمحافظة على الأجساد، بعدما نفى عنه إطلاعه على علم الطب:

- (واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية، كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب، وهو قوله:

- «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البردة)[431]. ثم يزيد في إعطاء أهمية كبيرة لهذه النصيحة الطبية، عندما يقوم على شرح مدلولاتها بالتفصيل. ولنأتي على شيء من ذلك، قال:

- (فأما قوله المعدة بيت الداء، فهو ظاهر، واما قوله الحِمية رأس الدواء، فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام. والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية، وأما قوله أصل كل داء البردة، فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول)[432]. وبهذا يستغرب المرء كيف استنكر على الأنبياء مساهماتهم في ترقية علوم البشر المادية، بينما يستشهد في الوقت نفسه مساهمة النبي «محمد» في علم الطب ويوافق على صحة رأيه؟! ولو عاش ابن خلدون حتى اليوم، لاستغرب من كثرة كتب التداوي بالعشاب والحجامة وغيرها التي تنسب للنبي محمدصلى الله عليه وسلم.

وبالمناسبة هناك أحاديث تنسب للنبي محمد(ص)، توضح مدى علمه في مجال الطب والصحة البشرية والحكمة، منها ما جاء على ذكره الفيلسوف تولستوي في قوله:

- (لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب)[433]. وينقل عنه أيضًا في مجالي الحكمة والفلسفة كذلك:

- (ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد إلا في طلب العلم)[434]. وكذلك:

- (العالم إذا خرج من الدنيا، كالمصباح يخرج من بيت مظلم)[435].

يتدخل الأستاذ الماجدي مشيرًا إلى أن ظهور علم التنجيم بشكله الواضح كان خلال عصر الكتابة، لكنه لم يتناول سبب ظهور هذه الطفرة العقلية والعلمية. قال:

- (إن بابل كانت مصدر عبادة النجوم، حيث ظهر علما الفلك والتنجيم في وقت مبكر جدا من حضارة وادي الرافدين، فقد شهدت عصور النيوليت والكالكوليت بدايتهما، ولكن سومر أعطت البعد العلمي للفلك وأصبح التنجيم معتنيًا بربط النجوم بمصائر الناس... وقد طوّر البابليون علمي الفلك والتنجيم وظهرت الأبراج السماوية في بداية الأمر كخريطة لخطوط الطول والعرض

السماوية... حيث كانت ألواح الفلك والتنجيم مظهرًا مهمًا من مظاهر الحضارة العلمية في بابل سحر الإغريق لزمن طويل)[436].

ولنعد إلى العصر الحجري الحديث حينما بدأت حضارات الكتابة بالظهور بشكل واضح في نصفه الثاني تقريبًا، وما لحق ذلك من ترقي سريع لعلوم كثيرة كان من ضمنها علمي التنجيم والفلك، حتى لنرى علماء اليوم يستندون على بعض نتائج أبحاث أولئك القدماء ويؤكدون على صواب مكتشفاتهم. ومن المؤكد أن يخطر في الذهن أن تلك النتائج احتاجت لتجارب سابقة طويلة معقدة ولعمليات رصد ومراقبة من قدماء علماء مختصين وتوثيق بحوث علمية ورسم خرائط وأزياج معقدة ومراقبة السماء والنجوم والأفلاك لعقود وأجيال عديدة متتالية حتى تمكنت من التحقق على صواب تلك النتائج، لتورثها للأجيال اللاحقة. وهذا يدعو بالضرورة إلى استبعاد أزمنة العصور الحجرية القديمة والتركيز في البحث على فترة العصر الحجري الحديث على اعتبار أن تلك الأمم البدائية الهمجية القديمة كانت جماعات تعتمد في عيشها على مطاردة الفرائس وتناول الثمار البرية.

ومما يؤكد مزامنة المعتقدات الدينية مع علوم التنجيم، ما اكتشفه علماء الحضارات عند سكان ما بين النهرين، تخصيصهم فوق قمة برج بابل الشهير، مصلى لأحد الكهنة المنجمين:

- (وكان في أعلى الأبراج مصلى ومنضدة من ذهب وفراش وثير تسكن اليه كاهنة)[437]. كما ذكر ذلك هيرودوتس أيضًا:

- (أن معبدًا كان فوق الزقورة، حيث يوجد سرير ومنضدة من الذهب، وأنه لا يقيم في هذا المزار سوى إمرأة كاهنة كان البابليون يعتقدون فيها أن الإله إصطفاها له، حيث اعتاد النزول إلى ذلك المعبد والاستراحة والنوم)[438].

ثم تأتي إشارة أخرى إلى قدم علاقة الدين والعبادات بعلم التنجيم:

- (وقد أقام الكلدانيون معابدهم... وما هي في الحقيقة إلا مراصد يتمكن منها المتعبد من مراقبة سير الأفلاك)[439].

وجاءت اشارة أخرى على قدم علم التنجيم وحسن تنظيم مراجعه وسجلاته ودقة استنتاجاته عند كهنة أديان شعوب الرافدين خلال عصور الكتابة:

- (وكانت العرافة من أهم وظائف الكهنة «عند البابليين». وقد تخصص فريق منهم في تأويل الأحلام والحوادث الطبيعية، على أن أبرز أساليبهم في العرافة كان التنجيم، وهذه ترجع أصولها إلى السومريين، وكان لهم في هذا المضمار القدح المعلّى. وفي سبيل إحكام ما نسميه بالأسلوب العلمي في قراءة إرادات الآلهة في أوضاع الأجرام السماوية، احتفظ العرافون بسجلات دقيقة مفصلة عن حركات الأجرام السماوية، فمهدوا بذلك الطريق لعلم الفلك الحديث، وابتكروا آلات فلكية لقياس أبعاد الفضاء وأزمنة الكواكب في منتهى الدقة والضبط)[440].

كما ورد أيضًا:

- (نشأ علم السحر والتنجيم في بلاد الكلدانيين وانتشر في أفق المملكة الرومانية ثم تعداها إلى بلاد أوربا. عُرف ذلك من تتبع القوانين السحرية في القرن السادس عشر وكان فيها إذ ذاك كلمات آشورية محرفة)[441].

ونقرأ عن متخصص بعلم الحضارات، أن علم التنجيم ظهر خلال فترة حضارات الكتابة في أرض الرافدين، وأنه وصل لدرجات حقق خلالها دقة عالية في بحوثه وأرصاده بأشكال رائعة:

- (وقد اكتشف البابليون السنة الشمسية والقمرية والكسوف والخسوف. واخترعوا علم التنجيم وكان يتوقف عليه عندهم معرفة المستقبلات... ولهم فضل عظيم باكتشافات واختراعات عديدة. قال بوسياه:

- إن ابتداء نشأة المراصد الفلكية المنوطة بالكلدانيين كان سنة 2893 ق.م)[442].

وما يجلب الإنتباه مرة أخرى، إن بقية أمم الحضارات، كان لها شأن بهذه العلوم الرفيعة انحصر في زمن ظهور حضارات الكتابة، حينما استعان الفراعنة بعلم التنجيم في طريقة بناء الاهرامات في مصر القديمة، وكذلك فعل الفرس[443] والهنود والصينيين القدماء؛ كما نجد آثاره في أهرامات أمم الأنديك والأزتيك والمايا والإنكا في أمريكا الجنوبية؛ فما من أمة قديمة عاشت في زمن ظهور حضارات الكتابة، إلا واهتمت بعلم الفلك والتنجيم بشكل من الأشكال وساهمت بتطوّره وجعلت له مكانة في ترتيب شؤون حياتها وإدارة ممالكها. فقدماء أباطرة الأمم وملوكها، كانوا لا يقرون أمرًا ولا يجزمون بشيء إلا بعد استشارة العرّافين والكهّان والمنجّمين[444]. لكن علم التنجيم بدأ يتراجع بعد مجيء عصر التنوير، فاسحًا المجال لعلوم الفلك، بسبب استناده على ركائز وتجارب وتقنيات علمية هندسية وفيزيائية دقيقة.

أما عن فكرة ربط علوم القدماء بأنواع الشعوذة وطرق السحر وسبل الخرافات، فنجد الفيلسوف ديورانت يحاول تصحيح هذه المفاهيم ومن ثم تغليفها بصبغة العلوم والمعارف الصحيحة، فيقول:

- (وكانت أكثر الكتابات البابلية التي وجدت في مكتبة أشور بانيبال هي الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها، والتنبؤ بالغيب، ومن الألواح التي وجدت كتب في التنجيم، منها ما هو قوائم في الفأل السماوي منه والأرضي، والى جانبها إرشادات عديدة تهدي إلى طريقة قرائتها، ومنها بحوث في تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعدًا عن المعقول عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث.. ولم يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك في واقعة، ولم يكن بابلي يجرؤ على البت في أمر من الأمور، أو الإقدام على مشروع خطير، إلا اذا استعان بكاهن أو عرّاف ليقرأ له طالعه بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر، وليس في الحضارات كلها حضارة أغنى في الخرافات من الحضارة البابلية، فكل حالة من الحالات وفاة كانت أو مولودًا، كان لها عند الشعب شرح وتأويل... قد تبدو خرافات البابليين سخيفة في نظرنا، لأنها تختلف في ظاهرها عن خرافاتنا نحن؛ والحق أنه لا توجد سخافة في الماضي إلا وهي منتشرة في مكان ما في الوقت الحاضر، وما من شك في أن تحت كل حضارة بحرًا من السحر والتخريف والشعوذة)[445].

ويذكر التاريخ البابلي شيئًا عن بدايات علم التنجيم حسب روايات الأقدمين مشيرًا أن الكهنة والعرافين كانوا أوائل من عمل في مجال التنجيم:

- (وكان من هؤلاء الكهنة من هو مخلص لعلمه مؤمن به، ينقب بغيرة وحماسة في المجلدات التي تبحث في التنجيم، والتي وضعت، حسب رواياتهم المأثورة، في عهد سرجون ملك أكد)[446].

ونقرأ علاقة البابليون بعلم الكواكب والنجوم وتوارثها من الأمم السابقة:

- (بنى بختنصر في طرف المدينة برج بابل، وقال في إحدى كتاباته: «لقد جددت اعجوبة بورسيبا من ضواحي بابل» ليعجب الناس منها، وهو معبد السيارات السبع[447] في الدنيا، فأعدت تأسيسه على النحو الذي كان عليه في الأزمان السالفة)[448]. وهنا نرى الإشارة واضحة إلى قدم عهد الأديان والعبادات عند أمم ما قبل البابليين من الأكديين والسومريين ومن سبقهم في الأزمان الخالية، مما يتوافق مع ما جئنا على ذكره في عدم إمكانية تحديد زمن لبداية ظهور الأديان وشخصياتها الأولى، حيث لا يمكن التكهن ببداية ظهورها طالما ارتبطت فكرة الآلهة الغيبية بوجود البشر الذين وجدوا منذ أقدم الأزمنة.

لقد انتبه الفلكيون والمنجمون والكهنة والعرافون وسحرة أمم الحضارات الغابرة، لنتائج محددة دفعتهم للاهتمام بعلم التنجيم، بعدما ثبت توافق بعض استنتاجاتهم من «نبوءات ورؤى وأحلام» مع أحداث حياة شعوبهم ودولهم وتواريخهم؛ فراحوا يتعمقون في دراسة وجه السماء ويحددون مواقع نجومها ويسجلون حركات أفلاكها بغية التنبؤ بمستقبل ممالكهم ودولهم وولادة أنبيائهم، وشيّدوا على أساسها وبمنتهى الصبر والأناة أعمدة الدلائل والبراهين واستنبطوا حساب السنين والشهور واخترعوا أنواع تقاويم التواريخ الشمسية والقمرية ومن قبلها التقاويم النجمية[449]، (والمدنيات القديمة جميعا تملك تقويما أيا كان شكله، وإن اختلفت أطوال الشهر والسنة اختلافا كبيرا. ولعل أقصرها هي السنة المقسمة إلى ستة أشهر، وتلتزم بها بعض الشعوب الاستوائية. وهذه السنة تحتوي على فصل مطير وفصل جاف ـ أي دورة واضحة. واتخذ البابليون القدماء أيضا في مرحلة من مراحل مدنيتهم، سنة عدتها ستة أشهر، قائمة على الخسوفات القمرية. وليس من شك في أن قبائل المايا كانوا يتمتعون بحس زماني بلغ درجة عالية من التطور، إذ استطاعوا أن يفكروا في حدود ماض وحاضر لا حدود لهما تقريبا. كما شرعوا في «حساب طويل» للزمان عام 3113 قبل الميلاد)[450].

إن البشرية ما زالت حتى اليوم تستند في بحوثها الفلكية على نسبة معينة من علوم الأولين، وهذا ما صبّ في صالح علم التنجيم وأكد صواب اكتشافات الأقدمين ودقة علومهم وأنها لم تكن بالإجمال نوعًا من الخرافات حيث (حدد الفلكيون القدماء مواقع الشمس والقمر والكواكب في السماء على هدي النجوم الثابتة في الشريط الضيق الذي تحتله دائرة البروج وقسموا هذه الدائرة إلى 12 مقطعًا متساويا كل منها يمتد 30 درجة عبر السماء، بحيث يناظر المسافة التي تقطعها الشمس عبر القبة السماوية في شهر مع تقريب جميع الأرقام بالطبع)[451].

مما يستغرب له أيضًا إضافة لجميع ما جئنا عليه من مكتشفات القدماء، بخصوص علم التنجيم عند كهنة وعرافو حضارات شعوب المايا والإنكا والأزتك القدماء في أمريكا الجنوبية خلال العصر الحجري الحديث أيضًا، تشييدهم لهياكل أهراماتهم وممارسة طقوسهم الدينية وعنايتهم بشؤون الزراعة والري وغيرها، كان نتيجة حسابات هندسية دقيقة توافقت مع حركة الشمس ومواقع النجوم والأفلاك وتتابع فصول السنة، مثلما واكبهم في ذلك الفراعنة في تشييد أهراماتهم:

- (غير أن هناك دالة زمنية أخرى كانت معروفة ـ وهذا شيء يتعذر تصديقه ـ لبعض من أقدم الفلكيين في مصر الفراعنة... وكان الحساب دائما عملية معقدة، بحيث يصعب علينا هنا الخوض في تفاصيلها)[452] وهذا يؤكد مقدار ما كان لعلم التنجيم من صواب نتائج وأهمية بالغة، فهو ليس بالأمر اليسير حتى يجتذب اليه كل من شاء مدّ يده لتناول نجوم معارفه البعيدة وجواهر أسراره الخفيّة بمجرد التحديق في وجه السماء؛ فإذا تأملنا الأمر، سنكتشف صعوبة الولوج في أعماق هذا اليم العلمي العميق. ومع ذلك استطاعت تلك الأمم الغابرة مع بساطة أجهزتها وبدائية مخترعاتها وقلة مقادير علومها، تناول بعض جواهر معارفه بدقة عجيبة، فجاءت نتائجهم دقيقة في حساب مسيرة الكواكب والنجوم وبمستويات عالية في معرفة أوقات بدايات فصول السنة ومواعيد كسوف الشمس وخسوف القمر والتغيرات المناخية وضبط تواريخ الأعياد والمناسك الدينية اضافة إلى تحديد سبل الملاحة والأسفار ومواسمها وحركة الرياح ومواعيد الزراعة والبذر والحصاد ونزول الأمطار وغير ذلك الكثير.

وينقل الدكتور الماجدي عن علماء الفلك والتنجيم السابقين، ما يعزز فكرة حتمية استناد العلماء على دراسات بعضهم البعض وأن العلم لا ينبت في عقول البشر فجأة، بل يتدرج في التوسع كلما مر الزمن؛ والعكس صحيح، فكلما عدنا بالزمن إلى الوراء تحتم تضاءل كميات العلوم والمعارف عند الأقدمين. فقد ذكر أن كان هناك عالمًا كلدانيًا اسمه كيدينو Kidinnu عاش في بابل بحدود 379 ق.م وكان رئيسًا للمدرسة الفلكية في شيبرا، وله اكتشافات عظيمة وعجيبة بقي علماء الفلك يأخذون بها إلى زمن قريب. لكن ما يلفت النظر لمكتسبات هذا العالم، هو إستناده على علوم سابقيه، مما يشير إلى حالة من توارث العلوم، قال:

- (وضع «كيدينو» جداول أكثر دقة من جداول الفلكي الكلداني الآخر نابو ريمانو، «فلم تزد أرقامه التي بيّن بها الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة من الوقت الحقيقي، بل إن بعض حساباته لدورة الأجرام السماوية تعد أكثر دقة وصدقًا من الأرقام التي كان يستخدمها الفلكيون المحدثون إلى عهد قريب، ويرجع الفضل في ذلك إلى أن الفلكي الكلداني كان تحت تصرفه سجلات عن الأرصاد القمرية خلال فترة ثلاثمائة وستين سنة، وهذا لم يتيسر لأي عالم فلكي محدث»)[453]. ما يجدر الانتباه اليه في الفقرة السابقة وجود مؤلفات أرصاد فلكية قديمة اعتمد عليها هذا الفلكي.

ولنقرأ لعالم فلكي قديم آخر اسمه نابوريمانو (Naburimannu) عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، اعتمد كذلك على ما سجل من سبقه من العلماء في تقديم علوم أكثر حداثة:

- (استطاع أن يجمع الإرصادات التي سبقته بحوالي ربع قرن ويستخدمها في وضع جداول لحركة الشمس والقمر اليومية والشهرية والسنوية «كما أرخ وقت كسوف الشمس وخسوف القمر ولأوقات وقوع بعض الأحداث الفلكية الهامة. لقد حسب طول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يومًا وست ساعات وخمسين دقيقة وواحد وأربعين ثانية. وهذا الجدول الزمني الذي وضعه نابوريمانو كان أقدم بحث علمي ذي قيمة إنشائية في علم الفلك وحوى عظمة لم يصل اليها العقل البشري من قبل»)[454].

أما ما تذكره كتب التاريخ عن علاقة قدماء المصريين بعلوم التنجيم والفلك، فلقد ورد أنهم:

- (قد توصلوا إلى ذلك بأن أسقطوا القمر من حسابهم واعتمدوا على النجوم، فكانوا يبدأون السنة باليوم الذي تسبق فيه الشعرى Sirius «كوكب الكلب» الشمس بحيث يمكن رؤيتها وهي ترتفع في الشرق قبيل القمر، وذلك في الخامس عشر من يونيو، وهو يوم قريب من زمن الفيضان)[455].

وإذا انتقلنا للجانب الشرقي من كرة الأرض، فنجد إهتمام قدماء الهنود والصينيين خلال عصر حضارات الكتابة بعلم التنجيم أيضًا ودورهم الواضح في شؤونه، فابتكروا تقاويم سنوية خاصة بهم منذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، وكان أباطرتهم وملوكهم وكهنتهم يعتمدون كثيرا على ذلك. ومما ورد ذكره:

- (.. ثم الملك «شون كنغ»، ومن حوادثه أن الشمس كسفت في أيامه، فأحضر وزراءه وقتلهم حيث لم يخبروه عن الكسوف قبل حدوثه)[456].

ويبدو واضحًا أن للمنجمين دورًا بارزًا في شؤون بلدانهم السياسية ومسيرتها الاجتماعية، حينما نقرأ عن غضب الملوك عليهم حال تقصيرهم أو فشلهم في التنبؤ بأحداث السماء وعظيم أحداث المستقبل وخسارة المعارك، فعن أحد ملوك الساسانيين، نقرأ:

- (إن كسرى الثاني حين غضب على المنجمين هددهم بخلع أكتافهم)[457].

أما الهنود، فقد ورد في أخبارهم أن الهندوس كانوا سبّاقين في هذا المجال، واهتموا بعلم التنجيم منذ حوالي عشرة آلاف سنة، ولم يخل كتابهم المقدس «الفيدا»، من ذكره، ويقال أن مؤلفوه جاءوا من غرب شبه الجزيرة الهندية، وهذه إشارة ـ يمكن قراءتها ـ إلى شعوب الشرق الأوسط المشهورة بعلوم التنجيم والفلك وظهور الآلهة والأنبياء والحضارات.

وها هو دور أمة العرب والمسلمون[458] بمختلف قومياتهم وشعوبهم ودولهم وممالكم، يظهر كحلقة وصل بين السلف والخلف، حينما تناولوا معارف وعلوم موروث الحضارات السابقة بالتحقيق والترجمة والتعديل والاضافة، واستفادوا مما تركه الفرس والهنود واليونان والاغريق وغيرهم، فذاع صيتهم وانتشرت أخبارهم ودرّست مؤلفاتهم وترجمت مصنفاتهم؛ فلقد ورد في الأخبار أن الخليفة المأمون في زمن الدولة العباسية (أقام مرصدًا فلكيًا وأمر بترجمة الكتب الرياضية واليونانية)[459].

هذا بالإضافة إلى اعتماد جميع الرحّالة وربابنة السفن البحرية في الملاحة العالمية القديمة على خرائط شبه دقيقة عن مواقع النجوم من قبل أشهر علماء الفلك والمنجّمين آنذاك، أمثال بطليموس الشهير والشريف الإدريسي وشرف الدين ابن بطوطة واحمد بن ماجد وأمثالهم.

كل هذا حدث في الأزمان الغابرة خلال عصر حضارات الكتابة قبل مجيء عصر الأنوار والمخترعات الحالية بزمن بعيد[460]، رغم ما تصطبغ به تلك الأمم القديمة من صبغ الجهل والأمية، فلم يكن لديهم سرعة اتصالات ولا تقنيات عالية؛ فإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدل على أنهم كانوا موفقين في بحوثهم وناجحين في اهتماماتهم وتحصّلوا من خلال سعيهم على نتائج علمية صحيحة بدرجات لفتت انتباه علماء اليوم ونالت إعجابهم. لذا فإن تحقق وتوافق جزء لا يستهان به من نتائج تلك العلوم القديمة ـ قلّ أم كثر ـ مع واقع الأحداث الاجتماعية والطبيعية وحتى السياسية لأزمان شعوبهم ودولهم، دلّ على نسبة من الصواب لا يستهان بها في سلامة استنتاجاتهم، ولولا تأكدهم من صواب علومهم وما لمسوه من نتائجها السليمة، لما ولّوا علم التنجيم كل ذلك الاهتمام، ولما ترقى ونمى بينهم جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة حتى غدا علما عظيما امتازت به حضاراتهم.

يتضح من كل ما سبق، دقة هذا العلم ورفعة مقام القائمين عليه وطول باعهم في مجالاته، فلا يتبقى شك أن علم التنجيم وغيره من بقية العلوم القديمة، كانت متواجدة بالفعل خلال زمن حضارات الكتابة. لكن يبقى السؤال:

- من وضع أساس هذا العلم؟ هل هم من الزراع أو الرعاة أو الحرفيين أو البدائيين، أم آباء وشيوخ وآلهة وكهنة وأنبياء، ومن أين جاءت فكرة الاعتماد على الكواكب والنجوم في قياسات الزمن؟ لكن ما يستغرب الاطلاع عليه أنه وبعد اختفاء حضارات الرافدين وغيرها من حضارات الكتابة، أن يخطأ عالم الفلك الإغريقي الشهير «بطليموس» الذي عاش في القرن الثاني الميلادي في اسكندرية مصر، خطئًا فادحا حينما قال بمركزية الأرض وثباتها ودوران الشمس حولها، رغم أنه عاش في مدينة اشتهرت بالعلوم والمعارف وتوفرت له مصادر الكتب والأزياج في مكتبتها الشهيرة. وهنا تظهر علامة استفهام كبيرة، إذ كيف يمكن التوفيق بين تسلسل زيادة المعارف البشرية المطردة مع تقدم الزمن، مع مثل هذا الخطأ البيّن في وقت متأخر، بينما سبقه علماء حضارات الرافدين من قبل بنتائج علمية صحيحة ودقيقة؟! وكيف أفلحوا في دقة بحوثهم واستنتاجاتهم بينما أخطأ بطليموس؟ لا يمكن تفسير ذلك إلا إذا كان استناد أساس علوم القدماءعلى مصادر موثوقة مطلعة أكثر مما بين يدي بطليموس.

يعود الفيلسوف كروزيه ليؤكد على قدم عمر علم التنجيم بين الأمم القديمة ولكنه يتخطى كغيره ذكر فترة نشأته، وإليك نصًا مقتطفًا:

- (إن الطرائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكوّن الحصة الوحيدة التي اسهمت بها حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم. ولا تقل حيويتها وضوحًا وأهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية. وإن اعتبرنا بعض المعالم، خاصة علم التنجيم، إن لم نعر اهتماما إلا هذه الناحية الأكثر اشراقا، نرى بأن هذه الحضارة لم تعرف لها منافسًا، وقد تركت أثرًا لا يمحى في مناطق تبعد كثيرا عن أحواض دجلة والفرات)[461].

كما يحدثنا تاريخ الفرس أنهم كانوا سبّاقين في ممارسة علمَي الفلك والتنجيم وغيرهما، حيث يمكن ملاحظة أتباع زرادشت من الكهنة وهم يمارسونهما قبل آلاف السنين:

- (كما أصبح لهم على مواطنيهم سلطان لا تكاد تعرف له حدود. لقد أصبح ملوك الفرس أنفسهم من تلاميذهم «الكهنة»، لا يقدمون على أمر ذي بال إلا بعد استشارتهم فيه، فقد كانت الطبقات العليا منهم حكماء، والسفلى متنبئين وسحرة، ينظرون في النجوم ويفسرون الأحلام؛ وهل ثمة شاهد على علو كعبهم اكبر من أن اللفظ الإنكليزي المقابل لكلمة «السحر «Magic مشتق من اسمهم)[462].

ومما يشير إلى قدم علوم التنجيم والفلك لدى قدماء المجوس والبابليين أيضًا[463]، وكيف أخذ أهل الغرب الكثير منها، إضافة إلى اعتراف صريح بارتباط تلك العلوم بقدماء الأنبياء والكهنة ورجال الأديان والعلوم الغيبية، التالي:

- (لم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم أنه هو مهبط الأسرار العلوية وأنه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية، وأن كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون إلى بواطن الديانات، وكلمة السحر عندهم «Magic» منسوبة إلى المجوس، والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم، لا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. فلا عجب أن يأخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء)[464].

ما يؤكد مجهولية منابع مصادر تلك العلوم الفلكية الرائعة مما تداوله علماء حضارات السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين والفينيقيين وقدماء اليمنيين والفراعنة والفرس والصينيين والهنود وغيرهم، هو اقتصار ذكرهم لأسماء علماء فقط وليس لمؤسسين أو موجدين، أما إذا جاء ذكر أحدهم، فإما أن يكون من الملوك أو الكهنة، وهؤلاء يرتبطون ارتباطا وثيقًا بآلهة أو أنبياء أزمانهم[465].

إن العقل والمنطق يقولان، أن أي علم أو اختصاص يبدأ بشرارة فكرة بسيطة في عقل رجل واحد، ثم تنتشر ليتقبلها آخر ثم آخر ثم تجرى عليها تجارب عقلية وعلمية وعملية للتحقق من صحتها، قد تستمر عقودًا وقرونًا طويلة، كما هو الحال مع علم التنجيم، حتى يثبت صواب الاستنتاجات وتترسخ مكانتها العلمية، والأدلة على تسلسل هذا التحقيق العلمي بديهة ليست بحاجة لمناقشات. إذن.. من كان مؤسسو تلك العلوم العظيمة، والتاريخ لا يذكر إلا أسماء آلهة؟

إن التدقيق في كيفية ظهور علوم الفلك والتنجيم وغيرها وطريقة ولادتها عند القدماء حسبما جاءت تسجيلاته، أمر يبعث على الدهشة، فلقد اتخذت مسارًا غاية في الغرابة، فبدلا من ظهورها حسب المسلك الطبيعي، حيث تبدأ الفكرة كبذرة صغيرة ثم تنمو وتكبر وتتسع وتتراكم معارفها ودلائلها وتمسي شجرة علم ثابتة، تخبرنا كتب التاريخ والحضارات[466] إنها إتخذت مسارًا عكسيًا مقلوبًا

رأسًا على عقب، فظهرت في أول أمرها علمًا بالغًا قويًا متينًا ثابتًا، تدعمها نتائج ثابتة ونظريات صحيحة ودراسات عميقة وعلوم فلكية لا تقبل الشك (تم في عام 1759م نسبة مذنب هالي إلى الفلكي الانجليزي إدموند هالي Edmond Halley الذي تنبأ عام 1705م بظهوره في ذلك العام الذي سمي فيه المذنب بإسمه، ثم بينت الاكتشافات الآثارية اللاحقة بأن العالم الكلداني "كيدينو" كان قد تنبأ نظريًا وسجل عمليًا تسجيلين عن هذا المذنب قبل ما يزيد على ألفي عام من نمبؤ العالم هالي)[467].

وهذا ما يلفت النظر، فرغم كثرة مؤلفات علماء الحضارات المعاصرين وضخامتها، نراهم يهملون ذكر اسم مؤسسي علميّ الفلك والتنجيم، ولا من أنشأها وبدأ بها أول مرة، سوى تناول تخمينات نسبت إلى آلهة مثل أوزوريس وهرمس وغيرهما ممن جاءت على ذكرهم أساطير الأولين؛ فمجمل ما دوّنوه، هو تكرار لما وجد من توثيقات تاريخية قديمة، كي لا يشذوا عن أقرانهم من بقية علماء الطبيعة خشية إتهامهم بدعم مفاهيم الشعوذة والسحر القديم. لذا ما كان منهم إلا أن تركوا نسبة أصولها لمعتقدات خرافية وقدرات «آلهة غيبية» دون المساس بها أو توضيحها، وكأنهم يؤكدون على وجود مخلوقات غيبية من غير البشر في قديم الزمان. وهكذا فعندما ينسبون ظهور هذا العلم الدقيق إلى المعجزات وخوارق العادات وخرافات لا يتقبلها عقل علمي سليم، ما هو إلا اعتراف غير مباشر منهم بالعجز عن معرفة موجد علوم التنجيم ومؤسسيه.

من الدلائل قريبة العهد على دقة ما كان لدى أمم حضارات الكتابة من علوم الأرصاد الفلكية ويؤكد أنها لم تكن بمجملها من اختراعاتهم الخاصة، ويثبت ارتباط هذه الأزياج الفلكية بالمفاهيم الغيبية وبعلوم الآلهة، ما نقله الفيلسوف ديورانت عن وجود احتمال استناد أسس الحضارات المصرية على ما قدمه النبي ابراهيم من علومه خلال فترة مكوثه بينهم، قال:

- (والأقدمون كلهم تقريبًا مجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين وإن كان يوسفوس يظن أن إبراهيم[468] قد جاء بالحساب من كلديا «أي من أرض الجزيرة» إلى مصر، وليس من المستحيل أن يكون الحساب وغيره من العلوم والفنون قد جاءت إلى مصر من «أور الكلدان» أو من غيرها من مراكز آسية الغربية)[469].

مثل هذه الإشارة، لهي غاية في الأهمية، حيث تؤكد على ما سبق وافترضنا بأن بداية علوم البشر الأساسية لا تخرج عن مصادر ثلاثة، فإما ان استندت على ما سبق وظهر من علوم ومخترعات البدائيين، وهذا احتمال مرفوض على اعتبار أن أولئك القدماء كانوا بدائيين جهلة، أو إنها من بنات أفكار أمم عصر حضارات الكتابة، وهنا نكون بحاجة إلى القبول مسبقًا بفكرة وجود علوم لدى الأمم البدائية، وهذا غير محقق. أو أنها جاءت من عقول ونفوس تمتعت بقوى وعلوم فوقية ميتافيزيقية، طالما أن جميع المخترعات البشرية تتحدد أزمان ظهورها في إطار زمن العصر الحجري الحديث، وهو العصر الذي يشتهر بظهور بداية سلسلة الأديان العالمية وعبادة الآلهة والأنبياء وغيرهم. وهذا الاحتمال هو الأكثر قبولًا.

يعرض الفيلسوف كروزيه رأيه عن أقدم تاريخ بشري تناول علم التنجيم مشيرًا إلى دقة استنتاجاته. ومع أنه لا يوضح تاريخ نشوءه أو زمن بداية تأسيسه، فتحديد ذلك الزمن بقي سرًا مجهولا حتى

يومنا هذا، إلا أنه يشير إلى تدخل الآلهة في بدء ظهور علم التنجيم وتأسيسه، قال:

- (وساقت مراقبة طوالع الفلك والاشارات التي تدل على إرادة الآلهة الموافقة أو المخالفة إلى علم النجوم. فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفاقها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمت ومنطقة الأبراج وتوصلوا إلى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية، أعني التقويم السنوي. واتّبع دوما هذا التقويم السنة القمرية، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال. ولكن غدا لزامًا أن يضاف من وقت إلى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة.. وأخيرا، وعلى أكثر تقدير سنة 747ق.م. عرفوا بأن عدد أيام مئتين وخمسة وثلاثين شهرا قمريا، يعادل بالتدقيق عدد أيام تسعة عشر عاما شمسيا. وهكذا أضافوا سبعة أشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاما.. ولم يعين مبدأ وقت الزيادة بصورة مستديمة الا أثناء السيادة الفارسية سنة 367، إذ قرروا إضافة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور يعد تسعة عشر عاما. وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين أن يعرفوا، بالاستناد إلى علماء الفلك، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي)[470].

إن من أخذوا علم الفلك والتنجيم واستندوا عليها وصرفوا الغالي والنفيس لتطويرها وكرسوا حياتهم في الدراسة والبحث والتدقيق، لا يمكن أن يكونوا بذلك المقدار من الجهالة والغفلة حتى ينزلقوا في وهدة ما يصفه علماء الطبيعة اليوم «خرافات علم التنجيم الزائفة»، أو كما يصفه الأستاذ ولسن:

- (لا سبيل إلى تصديقه)[471]، ويستمروا طوال تلك الأحقاب دون الانتباه لهذا «اللهو واللعب»، إلا إذا كان مصدرًا موثوق به خضع لتجارب وأبحاث علمية أقنعت كبار عقول علماء تلك الأزمنة بنتائجها، فهو علم معقد بحاجة لخبرات سابقة ودراسات طويلة مضنية، وليس بأمر يسير حتى يقال أنهم كانوا مجرد كهنة وعرافين وسحرة منتفعين انشغلوا بقشور العلوم وخرافاته، فتركوا خلفهم كلاما فارغا خال من مظاهر العلوم والفنون الحقيقية. كما لا يمكن القول أنهم كانوا مجموعة صغيرة لا شأن ولا قيمة لها عاشوا خلال فترات قصيرة محددة في زمن إنسان نياندرتال ثم اختفت وبادت حضاراتهم. بل بالعكس، فما وصلنا أثبت انهم سلسلة رجال علم مميزون تناقلوا معارف العلوم وفنونها من أمة إلى أمة ومن حضارة إلى أخرى ومن تاريخ إلى آخر. لذا ليس من السهل ولا من العدل أو الانصاف، وصفهم بالشعوذة والسحر والخرافات، أو بالجهل والغباء والغفلة، لمجرد أنهم عاشوا في تلك الأزمان «البدائية»، أو لمجرد أن لم يصلنا عن تاريخهم أخبار مؤكدة توضح حقيقة تسلسل معارفهم الروحية والعلمية، فلابد وأن كان لعلم التنجيم والفلك وغيرهما من بقية العلوم مرتكزات علمية حتى تركوا مثل تلك المنجزات العلمية الراقية التي أبهرت أهل العلم الحديث هذا اليوم.

ما يثير الانتباه أن نجد «علم التنجيم» شبه ناضجًا عند أهل الحضارات القديمة، رغم حاجته لآلاف السنين كي يصل لذلك المستوى الرفيع إذا ما أخذنا في الاعتبار مستوى علوم الأمم القديمة وتقنيتهم البدائية، حتى أن الفيلسوف توينبي يعرب عن عجز علماء الفلك الحاليين مجاراتهم، حينما قال:

- (ولقد اهتدى كل من المجتمع المصري والبابلي والماياني إلى معلومات عملية، طبقتها تطبيقا مذهلا... فكان أن ارتد أفق تفكيرهم الزمني مسافة لا يتأتى التعبير عنها بسهولة؛ بل إن تصورها

تصورًا أقرب إلى الواقع، أصعب من ذلك كثيرًا. وإن هذا التصوّر لن يرقى إلى تفكير عالم معاصر من علماء الكونيات)[472].

من المعلوم أن مراقبة صفحة السماء والتعرف على دلالاتها وحركة كواكبها، أمر في غاية الصعوبة، بل ومن الاستحالة الخوض في دقائق علومه حتى على من هم في أعلى درجات سلّم بقية العلوم والإختصاصات الأخرى، فهو علم واسع معقد عميق مستقل ليس من السهل اليسير على كل من شاء التقرب من شواطئ يمّ فنونه نيل أصداف لئالئه. لهذا فليس من السهل تمرير الفكرة القائلة أن أمم وشعوب الحضارات القريبة (البابليين والفراعنة والفرس وغيرهم)، كانوا هم المؤسسون لهذا العلم وبحوره ثم تقبلها. فمراقبة أحوال السماء والتحقق من حركة أفلاكها وخلق علم بهذه العظمة وتأسيسه بمثل هذا الشأن الرفيع، أمر بحاجة إلى تجارب وبحوث طويلة معقدة، وهذا لا يمكن تحققه لأمة من الأمم البدائية السابقة، ناهيك عن ما سبقها من أمم عاشت في عهود البدائية داخل الكهوف والمغارات. فتقبل رأي بمثل هذا التصور البسيط أمر غير معقول ولا مقبول علميًا، خاصة إذا تذكرنا ما كان من حروب وقتال وتدمير آثار ودك وتخريب أبنية ومعابد ومكتبات الأقدمين وحرق أكداس كتب علومهم ومعارفهم، كما حدث لاحقا عند حرق كتب المجوس في إيران على يد المسلمين بأمر الخليفة الثاني، وحرق مكتبة الاسكندرية على يد أحد عماله[473]، وتدمير مكتبات بغداد على يد المغول، وتدمير مدينة أورشليم على يد الرومان وكذلك حينما غزاها نبوخنصر، أو عند حرق مدينة روما، وغير ذلك مما تمتلئ كتب التاريخ بذكره من أحداث مشابهة. فالتاريخ مليء بذكر مثل هذه الأعمال التخريبية، خاصة وسمة تخريب وحرق البيوت والمزارع وقصور الملوك والأمراء وقتل الرجال وسبي النساء واستعباد الأطفال، كانت سمة غالبة لأحوال البشر في تلك الأحقاب.

لذا فمن المستحيل التصور أن علوم أي أمة من الأمم القديمة قد نجت بتمامها من تلك الأخطار الشائعة واستطاعت الاستمرار في البحث والدراسة على مدى أعمار أجيال علمائها كي تتحقق وتتأكد وتجمع وتصنّف، وتسجل كل ما اكتشفته من علوم التنجيم والفلك ثم تنقله بسلاسة وسلامة إلى أجيال علمائها التالية دون أن تمسها آثار الحروب المدمرة أو تبعات الاحتلال من حرق مكتسباتها العلمية. فمن ناحية يصعب تقبل ظهور هذه العلوم في تلك الأحقاب البدائية الخالية البعيدة دون قواعد علمية مسبقة، ومن ناحية ثانية، ثبت فقدان الكثير من ذلك التراث العلمي القديم أثناء حقب ظهور الحضارات بمستوياتها المختلفة لما مرت به البشرية من تاريخ مظلم.

لا يتبقى أمامنا لمعرفة بداية زمن ظهور علوم البشر، إلا سبيل واحد، وهو العصر الحجري الحديث (منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد)، طالما تشير جميع المصادر العقلية والنقلية والتاريخية على أنه زمن ظهورها. وبتفحص هذا العصر، لا نجد ذكرًا لغير عبقرية علوم الآلهة والأنبياء ممن نسبت اليهم أسس ظهور هذه العلوم المعقدة عن طريق الرؤى والأحلام والنبوءات، ومن خلال هؤلاء الرجال المميزون بدأ الإنسان بالتعلم والكشف، ولقد كانت بالفعل بداية قوية ومركزة أتت بثمارها خلال فترة نسبية قصيرة نسبة إلى عمر الانسان المديد على الأرض، حينما عرف مقاييس الوقت وجداول حركة الكواكب وأزمانها، وظهرت الحاجة لمعرفة مواسم الفيضانات والزراعة والري والحصاد واختراع التقاويم السنوية لحساب أجزاء اليوم والشهر والفصول والسنة. فما

وصلنا عنهم، أن كهنة البابليون وغيرهم من كهنة الحضارات السابقة وملوكهم كانوا يشيّدون المعابد العالية والأبراج الضخمة "الزقورات" بغية العزلة والتعبد ومراقبة الشمس والقمر وبقية النجوم، وعلى قممها يشيّدون غرفًا مناسبة لسكن هؤلاء الكهنة والسحرة والمتنبئين[474] مزوّدين بما يحتاجونه من وسائل الإقامة والراحة والرصد باعتبارهم المعلمون الأوائل لشعوبهم في العلوم والكتابة وشؤون التعبد وطقوس الأديان.

خلاصة الفصل:

- طالما ليس بمقدور الهمج أو البدائيين اختراع علمي التنجيم والفلك وغيرهما من بقية العلوم، وطالما لا يسمح قصر زمن عمر حضارات الكتابة باختراع هذين العلمين؛ إذن لا بد من موافقة ما جاء في مخطوطات وآثار ولقى الميثيولوجيا والأساطير، بأن مكتشفو هذين العلمين وواضعو أسسها هم من طبقات الآلهة والرائين والشامان وأنبياء كور التوحيد الإلهي، حيث لم يتبق أمامنا سبيلًا غير ذلك.

(15)
الدين أقدم من السحر

(كان السحر عملا «مستحيلا» على البشر من الناحية العملية، لأنه كان موقوفا على الآلهة الذين به خلقوا العالم ثم احتكروه لأنفسهم. ومحاولات السحر من جانب الكهنة كانت عمليات «شعوذة» يقومون بها لتسلية الملوك)[475].

(كولن ولسن).

(فالسحر، وهو سلف العلم وجدّه، قائم برمته على ذلك الايمان)[476].

(سيغموند فرويد).

بالاعتماد على النظرية الفيزيائية الحديثة في نشوء الكون ومجراته، وبعدما ثبت أن الإنسان لا يتعلم إلا بمعلّم، تسحبنا المفاهيم العلمية الجديدة إلى مسألة ذات أهمية كبيرة أخرى، ألا وهي:

- هل كان أصل الدين من السحر أم العكس؟ فالكثير من علماء الانثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلماء الحضارات والتاريخ المعاصرين يقولون أن السحر ظهر قبل الدين، وبهذا ينسبون إليه ظهور أصل المعتقدات الدينية والمقدسات والآلهة والغيبيات، وهذه محاولة غير مباشرة للتقليل من شأن الأديان وسحب البساط من تحتها تتضمن في جوهرها دعوة لإهمالها باعتبارها ولدت من رحم السحر وشعوذته وترهاته. لذا سنناقش هذه الفكرة الخطيرة ونرى مدى صوابها عقليًا وعلميًا، فإذا صحّت، فستكون ضربة قاصمة للأديان وشرائعها ودساتيرها ولكل رموزها التي اعتقد بهم البشر على مدى تاريخ الإنسان.

يلاحظ المتتبع أن بداية ولادة فكرة (السحر أصل الدين) ترجع إلى عهد ليس ببعيد، فمن خلال تتبع آثارها، يبدو أنها بدأت من مشاهدات علماء الأنثروبولوجيا والرحالة والمستكشفون ورجال العلم والجنود خلال القرون القليلة الماضية ما كانت تتسم به تصرفات الشامان وسحرة القبائل البدائية التي اكتشفت من قبل الرحالة والمستكشفين في أنحاء متفرقة من شعوب الأرض وما يتخللها من أفعال وحركات غريبة ورقصات مختلفة وصياح وقرع طبول وما يرتدونه ويصبغون به وجوههم وأجسادهم من ألوان مبتغين من وراء ذلك نتائج مادية أو روحية يأملون تحقيقها. كل ذلك وغيره كان له أثر مباشر في ظهور فكرة أصالة السحر عند رجال العلم بعدما لم يجدوا في معتقدات القبائل البدائية ما سبق وعرفوه من أنواع التعبد وطقوسه التي اعتادوا رؤيتها في كنائسهم ومعابدهم. وما عزز ذلك الاعتقاد، ما كان من تزامن ذيول أمر انتشار السحر والساحرات في أوروبا خلال العصور المظلمة ومحاربة البابوات والكهنة لهم وما لحق ذلك من أشكال المحاكمات الجائرة وعمليات الحرق والقتل التي ملأت صفحات كتب التــاريخ الأوربي بأبشع أنواع قصص الظلم والتعدي والتعذيب التي راح ضحيتها مئات الألوف من البشر الأبرياء.

سبق وعلمنا أن الآثار المادية تعيش أعمارًا أطول بكثير من أعمار الآثار الروحية، دليل ذلك ما تركه القدماء من رسوم ونقوش وكتابات على الأحجار والصخور، بينما لا نجد آثارًا واضحة لعباداتهم ومعتقداتهم إلا المظنون منها. من هنا، قد يُعزى لذلك اعتقاد علماء الأنثروبولوجيا أن ما بقي من أحوال السحرة وتصرفاتهم عند القبائل البدائية، إنما هو الأصل القديم الذي نبعت عنه معتقدات الأديان، وهذا ما دفع بالعالم فريزر للقول:

- (لقد مر العالم من حيث العلاقة بين الانسان والكون بثلاث مراحل كبرى هي مرحلة السحر ثم مرحلة الدين وأخيرًا مرحلة العلم)[477]. وسانده الأستاذ «دوركهايم» من خلال دراسة مستفيضة لعلاقة السحر بالدين في كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية»، ليزيد في التأكيد أن السحر ليس إلا نوعًا ابتدائيًا من أنواع الدين[478]. كما نجد فتوحي رأيًا موافقًا آخر، فيقول أن جميع العلوم والفلسفة والفنون والدين إنما ظهرت من السحر:

- (وبديهي أن النحت مثله مثل الدين والفنون البصرية الأخرى انطلق من جذور سحرية وسرعان ما تحول السحر إلى دين وبالتالي إلى فلسفة، لذلك فقد كانت أولى أشكال النحت تدور حول الطواطم السحرية وآلهة العين الحارسة والآلهة الأم... وبشكل عام بدأ فن النحت سكونيًا متأثرًا إلى حد كبير بإظهار الخشوع الديني وتصوير الآلهة بطريقة تأنف المحاكاة وتبتعد عن المشابهة البشرية، فالعيون واسعة والآذان كبيرة إلى حد مبالغ به، وهنالك ثمة تشويه متعمد في النِسب، ويلوح عليها جميعًا وقار شديد ورصانة طاغية)[479].

لكن النقطة التي لم يمر عليها الأساتذة الكرام، أن فكرة الفنون في حقيقتها، هي أمر معنوي استقبله عقل الفنان بحواسه المادية، ففكر بها ثم أعادها إلى حواسه لترجمتها إلى أفعال على شكل رسوم وأعمال فنية مادية ملموسة بعد تعقلها وربط أجزاءها واختمار فكرتها. لذا لا بد أن كان هناك شخص مميز تمتع بقوى معنوية عالية استنبط من خلال موجودات الطبيعة، مبادئ أفكار معنوية ترجمها إلى ملموسات مادية على شكل رسومات،ثم لقنها للإنسان، الذي بدأ يقلدها ويمارسها ويستذوقها. كما لا يستبعد أن كان الرسام الأول هو ذات الإله الذي امتلك قدرة على ابتكار فن الرسم مثلما ابتكر غيره من الآلهة مختلف أنواع العلوم العصيّة، وهو الذي ترك مثل هذه الرسومات والنقوش والمنحوتات، وهذا ليس بأمر غريب طالما تمتلىء كتب التاريخ والحضارات بمنجزات وإبداعات الآلهة القدماء، إذا تذكرنا ما جاء في أول الفصل في قول الأستاذ ولسن:

- (كان السحر عملا «مستحيلا» على البشر من الناحية العملية، لأنه كان موقوفا على الآلهة الذين به خلقوا العالم).

نموذج لنقوش قديمة تبرز قدرات الآلهة من خلال تصوير الجسد والأذن والعين بحجم كبير دلالة على القدرات غير العادية

إن تبنّي فكرة ولادة الدين من السحر، يوجب انطباقها إجمالًا على أي مجتمع من مجتمعات العالم القديم ولا استثناء في ذلك، فمثلما وجدت آثار السحر لدى الأفارقة والآسيويين وقبائل الهنود الحمر في الأمريكيتين، كان لا بد لها بالضرورة أن تتواجد عند شعوب أوروبا البدائيين القدماء فيما قبل العصر المنيوي وما تلاه من العصر الهليني. إلا أننا لا نجد للسحر أثرًا عندهم، ولم يخبرنا تاريخ

أوروبا القديم عن أي نوع، أو جاء على ذكر مثل هذه الممارسات السحرية في كتبهم. فمن المعلوم أن شعوب الارض بمجملها مرت بالعهود البدائية والهمجية ومارست تقريبًا ذات المعتقدات الدينية بمختلف أشكالها وتدرجاتها، والمفروض أن ينطبق هذا التسلسل أيضًا على شعوب أوروبا. إلا أننا لا نجد ذكر موضوع السحر لا في زمن الحضارات اليونانية ولا الإغريقية ولا ما قبلها رغم أنهم عبدوا الآلهة، ولم يتطرق لها أو يأتي على ذكرها عظماء فلاسفتهم مثل سقراط وافلاطون وأرسطو وغيرهم، بل لم يعرف الأوروبيين فنون السحر إلا بعد اتصالهم بشعوب الشرق وخاصة أمة الفرس، حيث أخذوا فكرته عنهم، دليل ذلك اقتباسهم أصل كلمة السحر MAGIC لأول مرة من المجوس، وفي هذا دلالة على أنهم لم يعرفوا السحر من قبل. فلو كان السحر هو والد الدين، فللأوربيين أديان بدائية قديمة قبل ظهور فلاسفة الإغريق واليونان، والمفروض أن يترك له ذكر في تاريخهم.

يؤيد ذلك الأستاذ العقاد بقوله:

- (لم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم أنه هو مهبط الأسرار العلوية وأنه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية، وأن كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون إلى بواطن الديانات، وكلمة السحر عندهم «Magic» منسوبة إلى المجوس، والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم، لا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. فلا عجب أن يأخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء)[480].

يعود فريزر ليؤكد على أهمية دور السحرة في تأسيس أعمدة كثير من العلوم والفنون وحضارات الشعوب، معتمدًا في استقراء جوهر فكرته على مشاهدات حسّية، قال:

- (إن وجود هذه الطبقة من الرجال «السحرة» في أول الأمر كان بوجه عام فائدة لا تقدر بالنسبة للانسانية، فهم السلف المباشر ليس لأطبائنا وجراحينا فحسب، بل وأيضا لباحثينا ومكتشفينا في كل فرع من فروع العلوم الطبيعية. لقد بدءوا العمل الذي استمر فيه خلفاؤهم في العصور التالية، ووصلوا إلى نتائج باهرة نافعة)[481]. ثم يستطرد:

- (يمهد السحر الطريق بشكل مباشر لظهور العلم ومن هنا أدت الخيميا[482] إلى ظهور علم الكيمياء)[483].

وهذه نقطة غاية في الأهمية حينما يُربَط السحر بعلم الخيميا. فلو تعمقنا في تتبع جذور هذا العلم، سنجده في بدايته وأول ظهوره علمًا معنويًا، أي أنه ابتدأ كفكرة في العقل، وطالما ثبت وجود الفاصل الحدّي المعيق بين الماديات والمعنويات عند البشر، وأن قوة عقولهم عاجزة عن اختراق حاجز المعنويات إلا بقوى أفكار معنوية. لذلك يكون علم الخيميا، مثله مثل بقية العلوم الأخرى عصيًّا على الانبثاق في العقل المعنوي البشري. من هنا لا بد أن من أوجده، كان رجلًا ذا قدرات

فوقية معنوية «إله/نبي»، ومن ثم اقتبسها البشر وتعلموها منه، وكان في مقدمتهم الإنسان «الساحر»، فتعلّم كيف يتحكم بنتائج خلط المواد الكيمياوية وتفاعلاتها ويُبهر عامة الناس بها، مما دفع بهم للظن أنه يمارس سحرًا، وهو في حقيقة أمره يمارس علمًا. دليل ذلك إن فكرة (الإكسير) أي تحويل المعادن الرخيصة (الخسيسة) إلى معدن الذهب، هي فكرة معنوية قديمة انتشرت بين شعوب الشرق الأوسط ومن المحال أن تخطر على ذهن الإنسان البدائي القديم بأي حال من الأحوال، فهي فكرة تقارب في مفهومها «الخرافة»، لكنها كانت موجودة عند قدماء شعوب الشرق الأوسط مثل الفرس والعراقيين الذين اشتهرت أرضهم بظهور الآلهة والأنبياء قديمًا، وبذل كثير من قدمائهم الغالي والنفيس في سبيل تحقيقها ـ ومثل هذا العلم يدخل تحت باب علم السيميا والخيميا ـ وكان ينصب جلَّ اهتمام الخيميائيين في قديم الزمان على تحقيق هذا الهدف، حتى لنجد له مؤلفات قديمة كثيرة، والى زمن قريب كان الدراويش يحملون معهم كتبهم وأدواتهم ومعداتهم ويجولون في كل مكان يبحثون ليل نهار عن أوليات مواده الكيمياوية لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. من هنا كانت فكرة الإكسير فكرة معنوية ظهرت في حقيقتها من علم الخيميا، وطالما الفكرة والعلم معنويان، لذا لا بد أن جاءا من معلم فوقي له فكر ميتافيزيقي نظرًا لإعجازية الفكرة. وبذلك فمن المحتم أن كان مصدرهما آلهة أو نبي أو رائي أو شامان قديم لاتصال عقولهم بالعالم المعنوي. وطالما كان جوهر مهام الأنبياء هي مهام دينية إصلاحية، لذلك كان أصل السحر الذي انبثق من الخيميا ذا أساس ديني بدأ بمحاولات علمية خيمياوية نتجت عن تجاربه أمور جانبية ثانوية[484] استغلها السحرة في إبهار عقول العامة خاصة وهم في الأصل رجال أقرب في اختصاصهم إلى الأديان والأنبياء. وهذا يذكرنا بتهمة السحر اللصيقة بالأنبياء، لما لهم من مصادر علوم فوقية عجز عنها عامة البشر.

في المقابل نجد الفيلسوف ديورانت، يخالف آراء الأساتذة السابقين، حيث ينسب كثير من العلوم إلى السحر، بينما ينسب ظهور الفنون إلى كهنة الدين، ومن ثم ينسب أصل العلوم المادية إلى كهنة الأديان. قال:

- (وعلى هذا النحو كان السحر هو الذي أنشأ لنا الطبيب والصيدلي، وعالم المعادن، وعالم الفلك... والكاهن هو الذي لقّن الناس بداية التعليم والتهذيب، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافي الإنساني المتزايد؛ كما أصبح الفعل الفعال الذي أعان الدين على تغذية الفنون)[485].

أما المفكر محمد رياض فينسب الكثير من أنواع الفنون إلى الدين والمعبد ورجاله، فيقول:

- (والأوجه الدينية التي تُعالَج فنيًا كثيرة؛ فالأساطير لا تُقَص كتاريخ وإنما كشعر ونثر رفيع، والأدعية والصلوات والأناشيد الدينية والأذكار لا تُقرأ، بل تُرتل وتُنشد وتُصاغ صياغة شـعرية أو قريبة من ذلك. ولا تُنفذ الرقصات السحرية الدينية تنفيذًا آليًا، بل تقترن بكثير من الإيقاع والتلوين، والأقنعة الطقسية تنم عن المهارة أو العبقرية الفنية للصانع. ويبدو أن الإجادة الفنية للطقوس المختلفة: شعر، وأناشيد، وموسيقى، ورقص، وإيقاع، وأمتعة، وملابس... الخ. تجعل لهذه الطقوس جاذبية خاصة، وتؤثر على تعميق إيمان الممارسين لعقيدتهم)[486] ويستطرد القول:

- (إن العلاقة بين الدين والفنون عند المجتمعات البسيطة علاقة قوية؛ مما حدا ببعض الإثنولوجيين إلى اعتبار أصول الفن نابعة من المجال الديني والسحري عامة، لاسيما أنه كان يعتقد أن رسوم الحيوانات المختلفة التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى كانت تخدم أغراضًا سحرية، وكذلك كانت التماثيل التي يرسمها سكان هذه الحضارات تخدم أغراضًا سحرية باعتبار أنها كانت أصنامًا Fetish للعرافة والتنبؤ أو أن بها قوى خارقة. كذلك فإن عددًا كبيرًا من الفنون في المجتمعات المعاصرة تخدم أغراضًا دينية، وبالرغم من صحة هذا، فإن الدين لم يكن وحده منبع الفنون في حالات كثيرة)[487].

بالعودة إلى فكرة بداية تسلسل ظهور البشر وكيف كان مستوى جهالتهم وهمجيتهم عندما لم يكونوا يعلمون عن دنياهم وأحوالهم وأمر وجودهم شيئًا، وعاجزون عن استعمال عقولهم الخالية لاكتساب أي معلومات مادية بسيطة، وكيف كانوا يقضون حياتهم بالتعامل الساذج مع عالم الطبيعة، وما كان من أمر استعانتهم بالشخصيات المميزة في أول ظهورهم للمحافظة على حياتهم؛ كل ذلك يؤكد عجز الإنسان البدائي في الاعتماد على ذاته في تمشية أمور حياته الطبيعية وعجزه عن الارتقاء لنيل أفكار معنوية. يؤيد ذلك ما جاء عليه الأستاذ الماجدي بقوله:

- (لم يعد هناك شك في أن تلازم الجوانب الروحية مع الجوانب المادية للإنسان كان وما زال السبب الرئيس في التبدلات النوعية التي شهدها الإنسان منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا. وإذا كانت منظومة السحر والعرافة والأسطورة والدين تشكل الجانب الروحي، فإن الطب والفلك والكيمياء تشكل بدايات العلم وهو يفحص الانسان والكون والأشياء، وكانت تلازمهما أمرًا لا مفر منه لأن الانسان كان يرى العلم ويتصل به بروحه لا بحواسه فقط)[488].

بمرور الوقت وتعاقب الأجيال وتجدد ظهور شرائح المميزون أو الآلهة/الأنبياء في كل مكان، ولعدم مقدرة الإنسان البدائي القديم على التمييز بين قوى رجال الكهنة المكتسبة وبين قوى الآلهة والأنبياء اللّدنيّة، ظهر لديه الخلط بين مهام الشريحتين بعدما بدأت سلطة الكهنة والسحرة تنمو باعتبارهم طبقة القيادة الثانية خلال فترات وفاة الآلهة والأنبياء[489]. وحينما بدأت عملية استمرار توالي تبدل تعاليم الأنبياء وتطورها المتعاقب تسلخ هيمنة كهنة الأديان السابقة وتنزع عنهم هالة التبجيل، فما كان منهم للسعي في المحافظة على مصالحهم إلا اللجوء لشتى الوسائل الملتوية ومن ضمنها استغلال مكتسابتهم العلمية لاستمرار سلطتهم ومصالحهم ـ لذلك انحرفوا نحو ممارسة السحر والعلوم الزائفة. وبهذا يكون أصل السحر وعلومه قد جاء من علوم الإله/النبي، لأن أصل مصطلح كلمة السحر في مبدأه كان للدلالة على رجل الدين القديم، لكونه كان كاهنًا متفوقًا في علومه، وهو الذي علّم الناس سبل التعبد وحفظ الأدعية وقراءة التعاويذ الطاردة للأرواح الشريرة، إضافة لتعليمهم أشكال الرقص المقدس ومعالجة مرضاهم وتطبيبهم والاهتمام بدفن موتاهم وأمور أخرى. فطالما كان الساحر يستعين بنسبة محددة من العلوم المكتسبة لاستعمالها كرأس مال في عمله ـ مهما كان مستوى معارفه بسيطًا ـ فهي تبقى علومًا متفوقة على عامة الناس، فلو لم يكن قد تعلمها بالممارسة أو التقليد من الآلهة، لما استطاع ممارستها لاحقًا، فمسألة استنباط فكرة معنوية باكرة، هو أمر مستحيل على عقل الساحر خاصة البدائيين الأوائل منهم.

سبق وعلمنا أن علوم البشر هي علوم إكتسابية، وأن التعلّم يأتي من المعلّم (الوالدين والعائلة والمجتمع.. الخ)، ومن خلال هذا التسلسل يكون من المفروض أن البدائي الأول قد اكتسب علومه بالعقل بعدما ينقطع هذا التسلسل عند الانسان الأول، لكنا علمنا أن العقل البشري عاجز عن الابداع أو الإتيان بمعلومات جديدة أو أفكار مستحدثة دون تعلّمها من آخرين خاصة عند الهمج والبدائيين الأوائل؛ ولولا التعلّم، لما احتاج البشر كل هذه الجيوش من المعلمين والمدرسين وقلاع المدارس وتلال الكتب والأسفار التي ملأت المكتبات، ولما تمكن في كبره من تعليم نفسه وغيره، لأن المفهوم العام لكلمة العلم، هو كل ما يتعلمه الانسان ويكتسبه من معارف منذ نعومة أظفاره حتى مماته، وذلك لا يقتصر فقط على مراحل دراسية أو جامعية محددة، فحتى تعلّم الطفل لأولى مبادئ الحياة أو التلقين والتربية يعتبر نوعًا من العلوم. وهكذا لو تتبعنا تتسلسل حلقة التعلّم رجوعًا، لوجدنا اتصالها بالمعلّم الأول «الآباء والشيوخ والشخصيات والشامان» قبل عشرات الألوف من السنين. لذا يعود تسلسل هذا الخزين المعرفي في نهايته إلى مرحلة الأزمان البدائية الأولى. فلا تفسير منطقي عقلاني لكيفية تعلّم الانسان صاحب العقل البدائي البكر، إلا بتقبل ما دأبت الأديان على تكرار اعلانه بأن المعلم الأول، هو «الإنسان المميز»، الذي تعلم من قوة فوقية ميتافيزيائية غيبية غير منظورة اتصلت به عن طريق الرؤى أو الأحلام أو الوحي، فأمدته بقدر مقدور من خزين علومها تناسب مع مستوى مجتمعه؛ وبذا تكون الآلهة والرائين والطواطم والتابوهات والآباء أثناء حياتها، هم الخميرة المبدئية الأولى لذخيرة علوم البشر؛ وهكذا استمر الحال حتى مجيء مرحلة ظهور الأديان التوحيدية في بداية العصر الحجري الحديث قبل حدود عشرة ألف سنة من الميلاد ومن ثم ظهور الأديان العالمية الكبرى. من هذا يتضح طريقة ظهور ونضوج مرحلة الوعي وقوة التفكير في البدء البعيد عند الإنسان الأول والتي يعجز العقل البشري عن اختراق تاريخها القديم، وكذلك استحالة معرفة طريقة التواصل بين القوى الغيبية العليا مع الأنبياء التي قدمت علومًا متنوعة للبشر.

من العلوم المرتبطة بالسحر والساحر في قديم الأزمنة، علوم التنجيم والطب والصيدلة والكيمياء، ولأن العلم والتعلم كان مقصورًا على الكهنة والسحرة ومحرم على عامة الناس، وبسبب بدائية علوم هؤلاء، فقد كانوا يجهلون ما يعرف اليوم عن أمر المكروبات والفايروسات والجراثيم المسببة للأمراض، لذلك لا غرو أن اطلقوا عليها مسميات دينية مختلفة مثل الجن والعفاريت والشياطين والأرواح الشريرة[490]، فلقد كان الإعتقاد قديمًا بنوعين من الأمراض، جسدية ونفسية، تستند الأولى في معالجة أمراض الجسد على أدوية مادية بسيطة، بينما تستند الأمراض النفسية على قراءة التعاويذ وترديد كلمات الدين والاستعانة بأداء الصلاة لطرد الأرواح الشريرة، وبذلك أخذ فن السحر طريقه بين الطريقتين المادية والمعنوية، ومن هنا تطورت الممارسات السحرية بالتدريج مع مرور الوقت معتمدة على ما تعلمه الكهنة والسحرة من أنواع العلاجات الغريبة والأدوية البسيطة (كيمياء أولية). ولأن الساحر والكاهن كانا يشغلان مهنة الحانوتي والمعلّم والطبيب والبيطري والممرض وينصحان بما يلزم لشفاء الأجساد ورعايتها، وبعدما كانت القراءة والكتابة مقتصرة عليهما في المعابد، كل ذلك أدى إلى رسم هالة من التقديس عليهما وبالتالي تبوئهما لمكانة اجتماعية ميزتهما عن غيرهما ووضعت مقاليد السلطة بالتدريج بين أيديهما[491]. فظنَّ البدائيون أن ما يفعله السحرة والكهنة هي أمور خارقة لقوانين الطبيعة بعد مشاهدة نجاع أدويتهم في شفاء

المرضى وطقوسهم العجيبة وأزياءهم المميزة وأداءهم لأمور غريبة يعجزون عن مجاراتها، وظنوا أن الساحر إما أن يكون إله مثل غيره من الآلهات أو متصل بغيبيات السماء أو له قدرات فوقية خاصة. يؤيد ذلك ما قاله الفيلسوف ديورانت عن أدوار السحرة والكهنة والعرافين في تعليم الشعوب وتربيتهم والمحافظة على تراثهم حينما قال:

- (وهو «الكاهن» الذي لقّن الناس بداية التعليم والتهذيب، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافي الانساني المتزايد)[492].

كما يذكر فريزر:

- (إن السحر استطاع من ناحية أخرى أن يمهد الطريق لظهور العلم. فسوف نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأنه إذا كان الفن الأسود قد تسبب في كثير من الشر والأذى، فإنه كان مصدر كثير من الخير أيضا)[493] إن مثل هذا الرأي، لا يجزم بتقدم السحر على الدين بقدر ما يوضح أحوال ومعتقدات القبائل البدائية قبل زمن ليس ببعيد، بعدما تخللتها لعهود طويلة تطورات لا يمكن الجزم بماهيتها ومقدار تأثيرها على العقول والتصرفات، وكل ما في الأمر إنها أعطت بشكل من الأشكال صورة لمعتقدات القبائل عن آخر مرحلة من مراحل الممارسات الدينية والسحرية التي شاهدها واطلع عليها الإنسان الحديث.

عند البحث عن أسبقية ظهور إحدى الشريحتين قبل الأخرى ـ الكاهن أم الساحر ـ يلزمنا العودة إلى أصل علومهما، وطالما كانا بشرًا عاديين اتخذا الكهانة والسحر مهنتين لهما، إذا لا بد أن يكون لعلومهما مصدرًا أوليًا، وطالما أثبتنا عجز الانسان عن كسب معارفه إلا من معلّم، إذن لا بد أن يكون أول كاهن وأول ساحر قد تعلم من شخص ما، وبما أنهما معًا من أتباع الآلهة (الأنبياء)، فمن البديهي أن يكونا قد تعلما من نبي. وهذا يثبت أن أصل مصدر علوم الكاهن والساحر قد جاء من مصدر فوقي. كما أنه لابد ان يكون أحدهما قد سبق الآخر في ظهوره، وهو الأصل، بينما الثاني هو الفرع، وبما أن أصل ظهور العقائد والأديان يأتي من الرجل المميز (النبي)، إذ لا عقيدة معنوية إلا من نبي، فبالضرورة يكون ظهور كاهن الدين سابق لظهور الساحر، لأنه هو أول تلميذ للأنبياء، بينما يبقى الساحر هو الأبعد مكانًا، لكن وبمرور الوقت ودخول الخرافات في أمور الدين، يتحول الكاهن نحو سبل الخداع والسحر للمحافظة على مورد رزقه. فالكاهن والساحر كلاهما يمتلكان قدرات بشرية عادية وليس باستطاعتهما استجلاب علوم الغيبيات دون الاستعانة بالمصدر والمنبع الحقيقي (النبي)، وهذا يوضح حاجتهما معًا لمن يعلّمهما، حيث لا قدرة لهما في الحصول على التعليم إلا عن طريق من له قدرة غيبية متصلة بالفوقيات أسمى منهما روحيًا؛ وهنا تظهر نقطة مهمة أخرى، إذ لا بد أن تكون غاية علوم الكاهن في البدء هي خير محض لفائدة البشر وتعليمهم، باعتبارها علوم مكتسبة من قدرات فوقية للأنبياء تتفق مع أهداف هندسة الكون وطبيعة المحبة التي تتحكم بجميع موجوداته، حيث لا يصدر عن المربي العلوي إلا الخير المطلق. لكن ما يحصل هو أن هذه العلوم ما أن تدخل عقول الطبقة الثانية (الكاهن أو الساحر) أو عقول الطبقة الثالثة (عموم العامة) حتى تمتزج تدريجيًا برغبات النفس البشرية وشوائبها، فتتحول تلقائيًا لتلبية رغبات الجسد المادي ومتطلباته المتعلقة أساسًا بشؤون الحياة المادية من طعام وشراب ورغبات جسدية أخرى، حينها تتلوث تعاليم الأديان ومبادئها وتفقد بالتدريج نقاوتها وأصالتها، وهذا سرّ

تجدد ظهور العقائد والأديان واستمرار ظهورها. وحينما يستمر الكاهن في التعامل مع نتائج أفكاره الخاصة ابتغاء منافعه الشخصية، يبتعد عن حقيقة مهمته في خير الصالح العام، ساعتها يلجأ إلى التحايل والمخاتلة والغش والكذب والخداع ليتحول إلى ساحر مشعوذ.

أما ما يجب التوقف عنده في قول فريزر، أن:

- (العقيدة الدينية نشأت من فطرة الإنسان)، ثم يعلل ذلك مستندًا على وجود (فطرة الإنسان بما فيها من تساءل لا ينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة).

فبعدما علمنا خلو جوهر الإنسان البدائي الأول قبل ظهور مرحلة الوعي، من أية دوافع معنوية تجعله يتساءل عن حقائق الأشياء أو الشعور بالخوف والقلق من أحداث الطبيعة ومن الموت، وطالما لم يمتلك معلومات معرفية حينما كان يمشي عاريًا يصارع مخلوقات الطبيعة وموجوداتها. فمسألة شعوره بالعزلة، هو أمر متعلق بحالة الفرد الاجتماعية؛ وطالما عاش الإنسان البدائي فريدًا كالوحوش، فهو بالضرورة لم يشعر بالوحدة والإنعزال، لأنه لم يسبق له أن مارس حياة اجتماعية، فمشاعر الوحدانية ظهرت بعدما عرف معنى الاتصال والتواصل والمعاشرة مع غيره من بقية البشر والتقى بشبيهه ووجد في عملية التواصل الاجتماعي فائدة ومتعة، عندها شعر بأهمية أن يكون جزءًا من مجتمع، وحينها ظهرت لديه رغبة التواصل والاتحاد والتقرب واللقاء، مثله في ذلك مثل طير ولد في قفص، فهو لا يعرف معنى الطيران ولا الحرية ولا معنى التواصل إلا بعد ممارستها؛ وكما ذكر أفلاطون مثال السجين الذي عاش طوال حياته داخل كهف مظلم ثم خرج لمواجهة الشمس، فسرعان ما عاد مفضلًا الظلمات على النور بسبب تعوده عليها. وكما هو حال طفل يولد في زنزانة والدته، فهو لا يعرف عالمًا اجتماعيًا غير محيط زنزانته، ولا يشتاق للتواصل الاجتماعي العام ولا يشعر بضرورة ممارسته. لذا فإن افتراض امتلاك الانسان لهذه الفطرة هو أمر بحاجة إلى إعادة نظر، وينسحب هذا النفي على احتمالية وجود فطرة «العقيدة الدينية» لدى الانسان البدائي بالضرورة.

وأخيرًا ينقل الفيلسوف ديورانت عن المفكر فريزر قوله:

- (فلو لم يجد الناس بينهم كاهنًا لخلقوه لأنفسهم خلقًا)[494]! فبعدما علمنا عجز العقل البشري عن الإبداع والإختراع إلا بوجود معلم يسقيه قطرات ماء العلم بما يتوافق مع مقدار تحمل قدراته العقلية، كما يُغذى الطفل بالحليب والسوائل ويُبعد عن الأغذية القاسية، كذلك كان حال الانسان البدائي بتلك البساطة العقلية قبل امتلاكه لقوة الوعي، إذ ليس باستطاعته إيجاد أو اختراع شخصية كاهن أو ساحر أو آلهة لتعليمه الدين والعقيدة وبقية أمور الحياة، طالما كان الجميع بذات المستوى العقلي البدائي ولم تظهر للعلن بعد في الأساس فكرة الأديان والغيبيات، فالعقل الهمجي عاجز عن مثل هذا الإبداع العقلي والإجتماعي. لذلك كان لابد من ظهور شخصية أدركت الحاجة الاجتماعية لربط الأفكار المعنوية بالموجودات الطبيعية لتلبية المتطلبات الإجتماعية، فكان لا بد من ظهور الآباء والأجداد المميزون والآلهة بدءًا، ثم من بعدها ظهور فكرة العقيدة والدين بمستواها البسيط؛ وهذا ما أوجد بالضرورة فكرة ظهور طبقة الكهنة والسحرة المقلدين للشخصية المميزة حتى تستمر عملية تعليم الدين والعقيدة والطقوس وأمور الحياة للأتباع؛ فالبشر عاجزون عن خلق مهنة الكاهن أو الساحر طالما لم يكن هناك نبي مؤسس لعقيدة دينية معنوية.

إن عقلية الانسان البدائي عاجزة عن استنباط أفكار بكرية دون الاستعانة بالحواس الخمس، وبما أن تعامل هذه الحواس يقتصر على موجودات الطبيعة المادية فقط، وبما أن الطبيعة البدائية البكر كانت خالية من العلوم، لذلك كان لا بد من ناقل مُلهم أول للمعلومات المعنوية إلى عقل الإنسان البدائي، خاصة وأن أصل أفكار العلوم الطبيعية في حقيقتها، هي معنوية، جاءت من معلم مميز نقلها بالكلام المبسط من عالم المعنويات إلى عقل البشر المعنوي عن طريق التنبؤ والإلهامات والمنامات والرؤى. وهذا جواب لمن يقللون من شأن دور الآلهات والأنبياء في تقدم المجتمعات ورقي الحضارات البشرية وتفجر علومها.

سبق وأثبتنا أن الإله/النبي هو من ترك مجالًا ومهد لظهور شريحة الكهنة والسحرة (التلاميذ) ليستمروا في تعليم الناس في مختلف البقاع مبادئ علوم دينه وطقوسها بعد رحيله، فالحاجة الاجتماعية لشرعية الكهنة وأدوارهم عند الأمم القديمة كانت ضرورة ملحة، كما كان الحال لاحقًا مع ضرورة وجود طبقة الرق والعبيد كضرورة إنتاج اقتصادية. من هذا لا يمكن القول أن حرفة الكهانة والسحر هي نوع من الدجل وألعاب خداع البصر بالمطلق ـ على الأقل في الأزمنة القديمة ـ فلقد ثبت أن كبار العلماء المعاصرين يتفقون على أن الكهنة والسحرة والعرافين كان لهم دور كبير في تعليم شعوبهم وتهذيبهم، وعن طريقهم وصلنا أصل العلوم ومبادئ المعارف. فإذا علمنا أن حضارات الجماعات القديمة كانت بدائية جدًا، أدركنا نسبية علو وسمو مستويات السحرة والكهنة المعرفية ومدى مساهماتهم في رقي شعوبهم.

يقول الأستاذ كلشكوف عن وظائف الكهنة في الزمن البابلي:

- (كان «ايساجيل كيني اوبيب»، واعظًا. والواعظ هو الكاهن الذي لا تنحصر حياته ونشاطه في داخل هذا المعبد أو ذاك، بل يكون على صلة دائمة مع الناس من مختلف الفئات الاجتماعية. فمهامه المتنوعة تفرض عليه أن يتنقل من بيت إلى آخر، لعيادة المرضى والأشخاص الذين ألمت بهم المحن. كانت دائرة نشاط الوعاظ واسعة جدًا، إذ كان أحدهم يقوم بدور المطبب، مستعينًا بالطلاسم والحروز والتراتيل لطرد «شيطان» المرض، وكان غالبًا ما يقوم بهذه المهمة برفقة الطبيب، ويداوي الأسنان، ويلتمس لزبائنه الأحلام السعيدة، ويكافح الشر والرذيلة، ويؤدي الطقوس الدورية التي تضمن الصحة الدائمة للعائلة المالكة. أما في المعبد فإن مهمة الواعظ تنحصر في إنارة هياكل الآلهة وتأدية الطقوس، وتنظيف الأرض المعدة لدفن الموتى مع أمتعتهم خلال مراسيم الدفن)[495].

ما يلفت الانتباه هنا، تعبير «شيطان المرض»، فطالما كان القدماء يجهلون أسباب الأمراض العقلية والنفسية والأمراض الجسدية، بسبب عدم معرفة مفهوم النظافة وأهميتها وانتشار الأوساخ والمياه الملوثة وإنعدام المعقمات، وبما أنهم لم يعرفوا شيئًا عن الفايروسات والميكروبات والجراثيم ولم يشاهدوا من آثارها إلا حالات السقم والضعف والموت الظاهرة، وإرواءً لظمأ فضولهم لاتقاء أخطار هذه الامراض، اطلقت الآلهة القديمة إسم «شيطان» أو «آلهات شريرة» على هذه الأمراض عمومًا. من هنا تسلسلت معرفة البشر لهذا المخلوق الوهمي «الشيطان» وبدأ التعامل معه بالطرق السحرية رغم عدم وجوده فعليًا، دفعهم لذلك ما يشاهدون من آثار مؤذية على المرضى وطريحي الفراش والموتى.

كما نجد أيضًا تأييدًا لفكرة «شيطان المرض» في كتاب «طب وسحر» للدكتور بول، ينقلها عن التراث الفرعوني في مجال الطب، فيقول:

- (السلام عليك يا حورس يا أيها الموجود في بلد المئات يا حاد القرنين، يا بالغ الهدف، إني قصدتك لأمدح جمالك.. ألا فلتقض على الشيطان الذي يتملك جسدي..).

وورد أيضًا عن طرق الوقاية من الأمراض المعنوية والنفسية وسبل انتشارها في أزمان الفراعنة:

- (أغربوا يا شياطين المرض، لن يصيبني الهواء... إنني حورس الذي يمضي في طريقه أمام سخمت.. أنا ابن بستيت الوحيد، ولن أموت بسببك)[496].

كان على الساحر قديمًا أن يتعلّم فنون مهنته ودقائق أساليبها حتى يبدأ بممارستها وتطبيقها، وبدون التعلّم المسبق سيكون عاجزًا عن مزاولتها. فالسحر نوع من أنواع العلوم التي امتاز بها الكاهن أو رجل الدين القديم لاختصاصه بمعرفة طرق تأدية الشعائر الدينية وحفظ أدعيتها وطرق ترديدها والخبرة المتوارثة عن الآلهة/الأنبياء لمعرفتها بأدوية الأمراض وعلاجاتها المستمدة من الأشجار وأوراقها وفواكهها ومنتجات الحيوانات والمعادن والأحماض. وطالما ثبت أن لكل متعلم معلّم، ولا مجال للانسان في دخول باب المعرفة إلا بالتعلّم، لذا تكون النتيجة أن الساحر قد تعلم ممن هو أقدر وأكثر علمًا منه. وبهذا يكون (المعلّم أو النبي) هو صاحب العلم والتعليم الأول، نقله بالتقليد والتلقين والممارسة إلى تلامذته (الكهنة) ممن إمتازوا عن غيرهم بمواهبهم العقلية والروحية وقدرتهم على التعلم والاكتساب، فحملوا أسماء وألقاب قديمة تغيرت فيما بعد إلى كهنة أو سحرة لامتلاكهم علومًا خفية مكتسبة أثارت تعجب الناس واستغرابهم.

لذا فإن فكرة أسبقية السحر على الأديان وكونه الممهد لها، فكرة غير صحيحة اذا أخذنا بنظر الاعتبار عجز الانسان (الساحر) على التعلم بدون معلم، حيث لا بد له من تعلّم فنون السحر وأساليبها مسبقًا. وطالما ارتبط السحر بعملية التعلّم، فلا بد أن يكون هناك من علّم الساحر.

إن ما امتازت به الآلهة والسحرة والمتنبئين والشامان من علوم فوقية[497]، خلق نوعا من التعجب والذهول لدى بسطاء العامة دفعهم لاختيار أسماء مميزة لمقاماتهم تتفق مع لغاتهم القديمة، ثم تدرج تداول هذه الأسماء في التغيير والتطور حتى وصلنا ما استعمل في آخر مراحلها؛ لكن صفة الساحر بقيت كما كانت تستعمل قديما، فبمجرد سماعها، يخطر على الذهن خفة اليد والشعوذة واستغفال البسطاء والبلورة الزجاجية وأدخنة البخور وضرب الطبول والرقص الهمجي والأصباغ والملابس الغريبة المميزة وما إلى ذلك. لكن من ذا الذي باستطاعته نفي أو ربط كل هذه الأمور بطريقة تطبيق تعاليم الأديان البدائية وما كان من فوائدها للبشر؟ لقد اختفى كل ذلك في عمق الزمان ولم يعد بالإمكان التحقق منه ولم يتبق أمامنا إلا الإستنتاجات العقلية.

يزيد فريزر في التأكيد على دور السحرة القدماء، حيث ينسب لهم ظهور مدارج بدايات العلم وأوائله وأنهم كانوا معلمون ساهموا في نقل الحضارات وتقدمها، بل ويزيد في نسبة فضل ظهور فكرتي الحرية والحق لهم، وهذا أمر لا ريب فيه. قال:

- (فإذا تذكرنا بعد ذلك أن السحر استطاع من ناحية أخرى أن يمهد الطريق لظهور العلم، فسوف نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأنه أفلح بعد ذلك في أن ينجب الحرية والحق)[498]. عندما يذكر فريزر أن الساحر يعتمد في أصل منهجه على قوانين طبيعية ثابتة استطاع ادراكها وفهمها أكثر من غيره، فهو يؤكد استعماله لقوة العقل والعلم في تعلّم شؤون السحر، فبغير التعلّم لا يمكنه ممارسة السحر، لأنها مهنة وحرفة مثل باقي الحرف لا بد من تعلّم أسرارها وخفاياها باستعمال قوة العقل وبقية حواس الجسد. وهذا ما يعيدنا دائما إلى نظرية المعلم الأول (النبي) وأن الساحر هو في الأصل مجرد تلميذ انحرف عن حقائق تعاليم الأنبياء.

ثم يكمل القول:

- (وعلى هذا الأساس فإن التصور الأساسي للسحر يشبه تصور العلم الحديث، إذ يرتكز النسق كله على الايمان بانتظام الطبيعة وإطرادها، فالساحر لا يشك إطلاقًا في أن نفس العلل سوف تنتج دائمًا نفس المعلولات)[499]. ما يستخلص من ذلك أن الساحر قد عَلِمَ مسبقًا أن لكل علة معلول ولكل نتيجة سبب، وهذا لا يمكن استنتاجه والتوصل اليه إلا من خلال العلم والتعلّم المسبق.

ورغم أن فريزر قال بأسبقية السحر على الدين:

- (والواقع أن دراسة الأفكار الأساسية في السحر والدين تبين في المحل الأول أن السحر أقدم من الدين في تاريخ الانسانية)[500]. نجد بين العلماء من خالفه الرأي بعد التعمق في دراسة أحوال ذات القبائل الاسترالية التي استند عليها فريزر في تقديم فكرته، لكنهم قالوا بنتيجة مخالفة:

- (ويرى كل من هوبير وموس أن طقوس intichiuma لقبائل أرونتا في أستراليا، والتي نفى عنها فريزر أي صفة دينية، تنبع بوضوح من المقدس الديني من خلال الإشارة إلى الأجناس والأسلاف الطوطمية)[501].

قد يعترض البعض في القول:

- إن الآلهة/الأنبياء لم يقدموا مخترعات تقنية ساهمت في تطور البشرية ماديًا أو اقتصاديًا أو علميًا، لذلك فليس من المقبول نسبة ظهور العلوم والمخترعات اليهم دون أدلة مادية واضحة. يدفعنا جواب هذا الرأي للعودة إلى الإنسان البدائي الأول، حينما لم يكن يفقه من عالم الطبيعة شيئًا، دليل ذلك بقاءه على حالة البدائية لملايين السنين، وطالما أن كل ما حصل عليه البدائي من علوم كان في الأصل من الأديان والعقائد الأولية التي جاءت بها الآلهة، علمنا بالضرورة إن كل ما ظهر فيما بعد من مخترعات وعلوم ونظريات كانت في أصل جوهرها من تلك التعاليم البدائية الأولية القديمة وتدرج مستوياتها، إذ لا يوجد سبب علمي معقول يدفع ذلك الهمجي ليفكر بترك التعامل مع موجودات الطبيعة من أشجار وصخور ومياه والتحول إلى مرحلة الإبداع والإختراع المعنوي، فهو لا يعرف كيف يتأمل أو يفكر لينتقل من المعلوم المادي إلى المجهول المعنوي. كما سبق وأثبتنا ذلك في فصل (نظرية المعلم).

ثم إذا تفحصنا تاريخ حياة أي فيلسوف أو حكيم في مراحل علومه النهائية وهو على قمة جبل المعرفة، نجده قد ابتدأ سبيل العلم في أول طفولته بتسلق درجات سلالم التعلّم الأولية بالتدريج،

فبالتعلم من والديه مبادئ الحياة ومن معلمه مبادئ القراءة والكتابة والحروف والكلمات والأرقام حتى دخول مرحلة الاعتماد على النفس ومن ثم ولوجه سبل التفكير والإبداع، يكون كل ما ملكه من حكمة وفلسفة قد استند على قاعدة تلك المراحل الأولية حينما تعلّم قراءة الحرف وكتابته. لكن كل تلك المراحل الأولى تختفي وتتلاشى لاحقًا ولا يشار اليها بعدما يمسي عالمًا حكيمًا، مثلما هو الحال بعدما تنمو الشجرة وتثمر ويختفي شأن بذرتها. كذلك هو الحال مع طفل البشرية، فلولا أولئك الأنبياء الذين علموا البشر مبادئ المعرفة وأدخلوهم مرحلة الوعي ثم أخذوا بأيديهم إلى مراحل لاحقة من عصور الآلهة وحضارات الاستظهار ثم حضارات الكتابة، لما كان للانسان شأن يذكر، ولبقي مثل غيره من بقية الكائنات خلوًا من فاعلية قوة التفكير. إن طول فترة ما قبل العصر الكمبري وعدم وجود عمليات التوثيق وإختفاء الآثار واللقى المادية بمرور ملايين السنين، أدى إلى نسيان أو تجاهل ذلك الجهد الأولي العظيم الذي كان أساس جميع علوم البشر ومخترعاته، ولا غرابة أن تنساها الأجيال المتتالية اللاحقة ولا تتذكر شيئًا منها ـ مثلما هو حال نسيان علوم معلمو رياض الأطفال ـ ثم يظهر فقراء القوى الروحية أخيرًا ليقللوا من شأن الأنبياء ويتبجحوا بقوة عقل الانسان بعدما تشبعوا بكثرة العلوم القديمة والحديثة وما نتج من مخترعات مادية عجيبة ثم ينسبوا أصل كل العلوم لذات الإنسان. فلو تفحصنا تعاليم الأنبياء بإنصاف، لوجدناها تشجع الانسان على رفعة الأخلاق وحسن الصفات والمبادئ التربوية والتعـاون والاتحاد ونشر الطمأنينة والسلام وخدمة المجتمع. إن للأمان والهدوء واستقرار الأحوال الاقتصادية وتأمين وجود لقمة العيش دور كبير في اطراد ظهور حالات الإبداع والاختراع وزيادة روح البحث وتعلّم كل ما يخدم مصلحة الانسان، دليل ذلك أن جميع العلماء والمفكرين والحكماء والفلاسفة هم من الطبقة المتعلمة ومن ذوى الجاه والثروة وليس بينهم جهلة أو فقراء. فتعاليم الأديان الحقيقية تدعو المؤمن للسعي على تطبيق مبادئ وتعاليم دينه لمساعدة غيره والاهتمام الدائم في المحافظة على سيادة الأخلاق العامة لإيجاد مجتمع أفضل يسوده العدل والأخاء والسكينة والرخاء والمساواة حتى ولو تخللت تلك المسيرة الطويلة فترات من الإنحراف واتخاذ سبل القوة والعنف والقتال، فهذا أمر قد يكون طبيعيًا حينما ندرك أن من سمات أزمان الجهالة الماضية هي انتشار مبادئ الفوضى والقوة والعنف والشراسة والقتال لعلاقة البشر المتينة بمظاهر قوى الطبيعة المادية القاسية وما ينتشر حوله من حيوانات كاسرة شرسة؛ ومع ذلك بقي دور تعليم المعلّم للبشرية يتطور ويستمر خلال ذلك الجو الطفولي العام، دليل ذلك ظهور المخترعات الحجرية وأدوات المصنوعات والتكنولوجيا البدائية وتطورهامع مرور الزمن رافعة من شأن الأمم بالتدريج نحو حضارات رفيعة. وهذا هو سبب سعي الإنسان الدائم للعلم والتعلّم بعدما وجد فيه فائدة حياتية واجتماعية وبعث لروح الخدمة والمحبة التي زرعتها روح الأديان في نفوس أتباعها.

إن مراحل ترقي البشرية كانت مراحل تدريجية طويلة الأمد لدرجة أن لا يمكن للباحث الأنثروبولوجي أو الجيولوجي اليوم العثور على أدلة مادية تثبت أدوارها المندرسة، لكنها كانت منذ بدايتها تدعو إلى تحسين أخلاق الفرد ودفعه للتفكير بمصلحة المجتمع، وهذا أدى إلى ظهور حالة موازية من التوازن الأخلاقي وتفشي الأمن والاستقرار في عموم المجتمعات لتحد وتقلل قدر المستطاع من قوة رغبات الجسد المادية، مما أدى ذلك بالضرورة إلى وصول الانسان بالتدريج إلى مرحلة الابداع والاختراع. وبهذا تكون تعاليم الأنبياء المعنوية هي أس أساس المعرفة والعلوم

وتطور أحوال المجتمعات، حتى تلك المجتمعات البعيدة عن أماكن ظهورها، حيث لا بد وأن وصلت تأثيراتها بمختلف الوسائل، إن كانت بطرق مباشرة أو غير مباشرة مثل الهجرات والسفر والحج والأسرى والعبيد وحتى عن طرق الملاحة والحروب والغزوات، وهذا قد يفسر بشكل من الأشكال وجود نوع من الحضارات البدائية والعبادات القديمة لدى شعوب استراليا والأمريكيتين وجزر المحيطات المنعزلة. لقد كان لكل مرحلة من مراحل حياة الشعوب منذ البدء، معلمين روحانيين بمستويات محددة تناسبت مع قدرات تلك الأمم العقلية، أدت إلى مزيد من التواصل بين حلقات التفاعل مع ما توفر مسبقًا من معارف مكتسبة في عقول الناس، كما هو الحال مع توالي سلسلة مناهج التعليم المدرسية حينما يستند تعليم منهج جديد على علوم سابقه، فكان التطور العقلي يجري متزامنًا مع نهضة حالات المجتمع الأخلاقية والمادية حتى تبلورت الحاجة لظهور فكرة رجل الدين (الكاهن) التي كان البشر بأمس الحاجة لظهورها في العصور القديمة وذلك نتيجة تفشي الجهل والأمية وانتفاء علم القراءة والكتابة وتدني مستوى قدرات الذهن البشري النسبية.

(16)
أصل منبع العلوم

(لا يمكننا نعت هذه المجموعة من القوى العليا في الكون، إلا بنعت واحد، هو أنها صالحة، لأنها لو لم تكن كذلك، لزال الكون الموجود منذ الأزل بكامله. ولنفرض أن مؤسسة مصرفية وجدت منذ الأزل، فلو كان في أساساتها ضعف لكانت تعرضت للإفلاس آلاف المرات. ولو كانت حصيلة العالم غير مضمونة الربح أبدًا لصالح المساهمين، لكان الكون قد اندثر منذ زمن بعيد)[502].

الفيلسوف رينان

(إن الدين كان حافزًا دافعًا لشخصيات في تاريخ العلوم، من أمثال فيثاغورس وأرسطو وفرانسيس بيكون وغاليليو غاليلي وإسحق نيوتن وألبرت أينشتاين، شاهدًا على تلك الحقيقة)[503].

البروفيسور بشروئي

بعدما مررنا على دور الانسان المميز والشيوخ والكهنة والآلهة والأنبياء والشامان والبدد وحتى السحرة في تربية البشرية وتوجيههم نحو درجات حضارية أرقى مما كانوا يقفون عليه عند كل حقبة زمانية ومنعطف تاريخي وعقبة حضارية، وما كان من شأن الملهمين من أولئك الذوات في تعليم الشعوب ومساهماتهم المفصلية في تقدمها. قد نجد بين القراء الكرام من لم يكتف بما جئنا عليه من أدلة عقلية واثباتات علمية وتاريخية رغم كثرتها، وقد يتحفظ في موافقته على أدوار تلك الذوات لحاجته إلى مزيد من الدلائل والبراهين العقلية. وهذا أمر طبيعي في خضم بحور هذا العالم المطلي بصفة المادية وصبغتها. فدعونا نأتي على بعض الإستشهادات والدلائل ونحتكم مرة أخرى إلى آراء مجموعة من كبار رجالات العلم ورواد الفلسفة وأساطين الحكمة والمعارف، فذلك من باب الإنصاف لمزيد من الدلائل العقلية، وفي نفس الوقت يكون إحتكامًا علميًا لا علاقة له بالدعوات العقائدية أو المفاهيم الدينية والرغبات النفسية، ولنرى ما قالوا في شأن مساهمات الآلهة والأنبياء، وما هي مواقفهم وآرائهم تجاه أصل المفاهيم الدينية ودورها في تربية البشر ورقيهم، ومن أين اكتسب البشر عمومًا مبادئ وأسس هذا الكم الهائل من المعارف والفلسفات والمخترعات حتى زُيّنت صحف التاريخ بأسماء علمائهم ومفكريهم وحكمائهم، وهل كان لبعضهم إتصالًا شخصيًا بالأنبياء أو الكهنة والقديسين، فأخذوا عنهم بشكل مباشر أو غير مباشر شيئًا من العلوم أو الحكمة وأكملوا طريقهم على ذات المنهج والسبيل.

يقول العالم هـ. فرانكفورت في كتابه «ما قبل الفلسفة» أن أصل علوم الإغريق جاء من الشرق الأوسط مهد الأديان والأنبياء:

- (في القرن السادس ق.م. كان الإغريق في مدنهم العظيمة على ساحل آسيا الصغرى على اتصال بكل المراكز التي تتزعم العالم المتحضر: مصر وفينيقيا، وليديا وفارس وبابل. ولا ريب مطلقًا

في ان هذا التماس لعب دوره في نمو الحضارة الإغريقية ذلك النمو السريع الباهر... وكل ما استعاره الإغريق حوّلوه إلى شكل جديد)[504].

وورد في كتاب «دراسات في الحضارة»، للأستاذ لويس عوض عن دور الكهنة في تعليم عامة الناس ما يلي:

- (كان اليونان يسمون أون هذه «عين شمس ـ المطرية» باسم «هليوبوليس» أي "مدينة الشمس" باليونانية. وقالوا أنها كانت المركز الرئيسي في مصر كلها لعبادة رع آله الشمس، وان المعبد الأكبر للإله رع كان فيها، وأنها كانت بها جامعة يعلّم فيها كهنتها علوم الدين والدنيا ويؤمها طلاب الحكمة من مختلف بلاد الله. وقد زارها المشرع صولون (حول 640 ـ حول 560 ق.م.) والعالم فيثاغورس نحو 550 ق.م. والمؤرخ هيرودوث نحو 460 ق.م. كما زارها من بعدهم أفلاطون وبلوتارك وديودور الصقلي واسترابو.. الخ)[505]. ويستطرد مشيرًا إلى ما كان يتعلمه الإغريق واليونان من علوم الحكمة والروحانيات من المصريين، فيقول:

- (وفي قمة ضعف مصر السياسي، وفي قمة مجد أثينا، كان اليونان يتعلمون في مصر ويجلسون إلى كهنة جامعة عين شمس «هليوبوليس» أو «أون» كما كان يسميها المصريون. علوم وأفكار سلمها فيثاغورس إلى سقراط وسلمها سقراط إلى أفلاطون. وهذا ما تعلمه اليونان من المصريين:

- أن الفكر سابق على المادة وان الله سابق على الكون وأن العقل الكامل هو مصدر الوجود)[506].

ويذكر البروفيسور بشروئي ما نقله أفلاطون عن خطبة سقراط أثناء محاكمته في دفاعه عن نفسه وسمّاها: «خطبة الدفاع»، حيث يتضح ما لدور الإلهامات والفوقيات في أفكارهما معًا، قوله:

- (أنه بممارسته أدب الفلسفة إنما كان يتصرف ولاءً لما تمليه دخيلة ضميره الرباني المنشأ، الذي وضعه فوق كل اعتبار دنيوي. وقال افلاطون إن سقراط وصف هذا الصوت الضميري بأنه «قدرة على التنبؤ» و«علامة إلهية» و«تجسد روحي»)[507].

ويؤكد الكاتب أن اليونانيين أخذوا علوم الدين والروحانيات من المصريين، في قوله:

- (وقد زار هيرودوتس خلال اشتغاله بالتاريخ والكشف كثيرًا من الأماكن والبلدان، بما فيها مصر. وأعلن بعد ذلك أن اليونانيين أخذوا عن مصر القديمة كثيرًا من مبادئ دينهم، وأكد هيرودوتس أن الإغريق تعلموا أسماء الآلهة من المصريين)[508].

ومما ذُكر أن فاليس الميلتوسي[509] مؤسس الفلسفة الإيونية، زار مصر وبلدان البحر المتوسط الأخرى بصفته تاجرًا ورحالة حوالي 624 ـ 547 ق.م. و(كان مطلعًا على علوم الشرق:

- علوم بابل، ومصر وفينيقيا، فتعلم على كهنة مصر الرياضيات والفلك، واعتمادًا على فلك الشرق الذي كان قد نجح على امتداد قرون من الأرصاد الفلكية في أن يرصد التعاقب الدوري للخسوف

والكسوف، استطاع فاليس أن يتنبأ بكسوف الشمس الذي وقع في أيونيا حسب الفلكيين المعاصرين في 25 أيار من العام 585 ق.م)[510]. ومن أشهر أقوال فاليس:

- (أقدم ما في الوجود، هو الإله، لأنه غير مولود. وأجمل الأشياء، هو العالم، لأنه خلق الإله)[511].

وعن اقتباس فلاسفة الإغريق من علوم الشرق، أرض الرسالات والأنبياء، نقرأ ما كتبه الدكتور جواد علي:

- (ومن أقدم من ذكر العرب من اليونانيين... هيرودتس «480 - 425 ق.م.» وقد زار مصر، وتتبع شؤون الشرق وأخباره بالمشاهدة والسماع ودوّن ما سمعه، ووصف ما شاهده في كتاب تاريخي. وهو أول أوربي ألّف كتابا باسلوب منمق مبوّب في التاريخ ووصل مؤلفه الينا، وقد لقّبه شيشرون الشهير بلقب «أبي التاريخ»)[512].

ومن آراء الفيلسوف فيلو (Philo)، «ولد سنة 25 ق.م.» عن أصل فلسفة أفلاطون وأرسطو، فقد (كان يرى أن الفلسفة اليونانية مأخوذة من التعاليم العبرية، وأن أفلاطون وأرسطو أخذا تعاليمهما من موسى ومن التوراة؛ ومن هنا نشأ ما لهما من حكمة. وفيلو هو المسؤول عن خلط التعاليم الفلسفية بالوحي والإلهام الشرقي)[513].

ويقول السير توماس آرنولد في موضوع تلاقح حضارات الشعوب واقتباس بعضها علوم بعض وتناقلها بين الأمم وعن أخبار رحلات فلاسفتها إلى الشرق لتعلّم الحكمة:

- (لقد كان عرب اسبانيا بالأحرى، لا عرب الشرق هم الذين أهدوا إلى الغرب اللاتيني هباتهم النفيسة في ميادين العلم والفلسفة. على أن الشيء الذي لا يمكن نكرانه بحالٍ، أن بعض المعلومات الرياضية انتقل من الشرق فأثر عن «ادلارد الباثي» الذي درس فلك العرب وهندستهم، أنه سافر إلى مصر وآسيا الصغرى فضلا عن اسبانيا في غضون النصف الأول من القرن الثاني عشر. وأثر عن «ليوناردو فيبوناشي» أول عالم جبري بين النصارى، المعاصر لفردريك الثاني وهو الذي قدم له هذا العالم رسالته الجبريـــة في الأعـداد التربيعية (Square Numbers) بأنه زار مصر وسوريا كذلك. وغاية ما يمكن أن نجيزه في موضوع تأثير سوريا، هو أن نقلدها فضل قيام مدرسة الطب في مونبلليه بسبب التجارة التي كانت قائمة آنذاك بين فرنسا وساحل سوريا)[514].

وعن تأثير أنبياء بني اسرائيل في علوم ومعارف الاغريق ذكر «دي بورج»:

- (يزخر الأدب الشعري الاغريقي بالتأملات التي تتركز حول فكرتي السفرسونيه والهبرس وهما الشطر الهليني المقابل لتعليم قواعد السلوك عند أنبياء العبريين ويمثلان الاعتراف الواعي من جانب الشعراء بوظيفتهم كمهذبين للأخلاق، للشعب الاغريقي)[515]. وزاد في وصف خط سير علوم الحضارات:

- (كانت «مليتوس» وهي مركز عظيم للتجارة الأيونية والمغامرات الاستعمارية، مسقط رأس الفلسفة الاغريقية، على اتصال بمدنية بلاد ما بين النهرين بالطريق العظيم الذي يسير من ساحل

ايجا شرقا عبر آسيا الصغرى وبمصر بالمستعمرة الملزية التي أنشئت حديثا في نوكراتيس)[516].

ويضيف فتوحي في هذا المجال:

- (يؤكد سينيكا «Seneca» بأن إبيجينوس «Epigege» قد درس علم الفلك على يد الفلكيين الكلدان)[517].

أما فيثاغورس الذي ولد على جزيرة في بحر إيجة، فقد تمرّس في تعاليم الفلاسفة الأيونيين واطلع على الرياضيات البابلية والمصرية خلال رحلاته[518]. وورد عنه:

- (وقد اعترف أفلاطون أنه استمد جزءًا من تصوراته من الصوفانية [أي مذهب الصوفيين] الدينية في «المشرق»)[519].

وعن:

- (جالينوس[520] إنه كان معاصرًا لعيسى عليه السلام، ويقال أنه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب. وتآليفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده)[521].

وذكر بريوشينكين أيضًا:

- (ولهذا الغرض رحل فيثاغورس إلى مصر، وحسب بعض المصادر أنه تعلم اللغة المصرية. وبعد ذلك ارتحل في الشرق، وتعلم لدى الكلدانيين، والسحرة الفرس)[522].

ومما يذكر عن علاقة بعض كبار الفلاسفة والعلماء بالامور الغيبية والإلهامات الروحية، ان منهم من كانت له علاقة مباشرة بآلهة أزمنتهم، كما هو الحال في علاقة فيثاغورس بالآلهة «أبولون»، إله الجمال والشعر والموسيقى والشفاء. أورد ذلك الفيلسوف اشبنغلر، إلا أنه أطلق ملاحظة توحي بنسبة وجود هذه الآلهة إلى تخيلات الفيلسوف فيثاغورس.! فيقول عن علاقته ومجموعة من العلماء اللاهوتيين بالغيبيات وما ظهر من علومهم إنها كانت نتيجة هذه العلاقات الروحية:

- (ويتوجب علينا أن نعتبر الرقم «الكلاسيكي» و«الابولي» نسبة إلى «ابولون» من مخلوقات فيثاغورس الذي أوجد دينًا أيضًا. ولقد كانت الغريزة هي التي قادت مطران مدينة بريكسن العظيم، «نقولا كوسانوس» (1450) من الايمان بالله اللامتناهي في الطبيعة إلى اكتشاف عناصر حساب التفاضل والتكامل اللامتناهي في صغره، زد على ذلك ان «يبنتز» نفسه الذي قرر وثبت، بعده بقرنين من الزمن، مناهج وترقيم حساب التفاضل، إنما قام بهذا العمل نتيجة لتأمل غيبي (ميتافيزيقي) مجرد في المبدأ الإلهي، وتأمل علاقة هذا المبدأ بالاتساع اللامتناهي، كي يدرك ويطور تصور تحليل الوضع الطبيعي (Situs)... أما «كبلر» و«نيوتن»، وكلاهما متدينان تدينًا شديدًا، فانهما كانا وبقيا مقتنعين كأفلاطون، بأنهما استطاعا أن يدركا إدراكًا بدهيًا جوّ نظام العالم الإلهي بواسطة الرقم فقط)[523].

والخلاصة أن كثيرًا من فلاسفة الإغريق واليونان قد تعلموا عن آلهة وكهنة وأحبار وحكماء وأنبياء الشرق الأوسط علومًا واسعة، وهذا أمر مثير للإنتباه، إذ كيف لمثل هذه العقول الجبارة أن تقتنع بحاجتها إلى مزيد من العلم والمعرفة وتسعى جاهدة للسفر إلى بلدان الشرق البعيدة بوسائل مواصلات بدائية مضنية ويخاطرون بأرواحهم لاكتساب مزيد من العلوم؟ بل كيف علموا بحاجتهم لمزيد من العلوم وأن هناك من هم أرقى منهم علمًا.

يعرّف فريزر الآلهة أو النبي البشري الديني بشكل قريب لما يعتقد به أهل الشرق، فيقول:

- (يسود الاعتقاد بأن كائنًا مختلفًا عن الانسان وأكثر منه سموًا ورفعة يتجسد لفترة قصيرة أو طويلة في صورة آدمية ويظهر قوته ومعرفته اللتين تفوقان قوة وعلم الانسان بإتيان المعجزات والنطق بالنبوءات من خلال الجسد الآدمي الذي تنازل واتخذه سكنًا له. ويمكن أيضًا أن يسمى هذا النوع بالإله البشري الملهم أو المتجسد، وهي تسمية مناسبة نظرًا لأن جسم الانسان يكون في هذه الحالة مجرد وعاء دنيوي رقيق امتلأ بروح إلهية خالدة)[524].

يظن البعض أن المخترعات العلمية دليل على دور الإنسان الحقيقي في تطور الحضارات وعلامة على أبداع العقل البشري المجرد، ويعدها ميزانًا يُثمن به دور العالم والمخترع ومقاميهما بين أقرانهم، وأنه لم يكن للآلهة أو الأنبياء دور يذكر في تقدم العلوم ولا ما يميزهم من مخترعات علمية، وإن ما أضفى عليهم أتباعهم من هالات التمجيد والتقديس كان نوعًا من أنواع التعصب والمحاباة، لذلك نجدهم لا يتركون مناسبة إلا وبادروا في التقليل من أدوار الأنبياء العلمية.

لكن لو تذكرنا طبائع البشر الهمجية التي عاشت ملايين السنين التي اتفقت مـع واقع طبيعة الوجود الوحشية وما تطلب ذلك من قوة عضلات وشراسة طباع، نجد أن صفات التوحش قد ترسخت في جذر نفس الإنسان ولم يكن من السهل التخلص منها أو مخالفتها، بل لا يوجد مـا يدعو للتخلي عنها طالما تنتهج جميع الكائنات آنذاك ذات السبيل والمنهج؛ هنـا ندرك حتمية وجود قوة فوقية ساعدت على إزالة حالات التوحش تلك. فماذا حصل حتى تركت تلك الأمم طباعها الشرسة وحسنت من سلوكها وانتقلت من مستوى عالم الحيوان الفوضوي إلى عالم الانسان المتمدن؟ ومن ذا الذي زرع مبادئ المحبة والتعاون في نفوسهم وعلّمهم مبادئ الإنسانية والأخلاق وأن خيرهم وصالحهم يكمنان في تكوين مجتمعات متحدة متعاضدة؟ ألم يكن ذلك التغيير بحاجة إلى معلم فوقي ليلفت الأنظار بالتدريج نحو أهمية التربية والتعليم وتحسين الأخلاق وزرع صفات التعاون والاتحاد؟ لو بحثنا في عمق التاريخ البشري، فلن نجد غير الآلهة والأنبياء بين صفحاته، فلقد وقفت تلك العصبة الخيّرة في كل زمان ومكان مستعدة لتقديم يد المساعدة ومناهج التعليم للبشر بكل مستوياتها. إن ما حصل من تغيير في أخلاق البشر وحثها على تسلق سلم الحضارات ودرجات العلم، ما هي إلا تعاليم الأخلاق التي جاء بها الأنبياء، ولولا ذلك لبقي البشر على حالة التوحش الحيوانية حتى اليوم، فالانسان عاجز عن تحسين أخلاقه وتهذيبها وتعليم نفسه،ولا بد من اكتساب كل ذلك بالتقليد والتعلّم منذ أول ساعة رضع فيها ثدي أمه؛ فإذا كان واقعه بدائيًا سيئًا همجيًا مترديًا، فلن يتعلم منه شيئ حسنًا. إن الآلهة القديمة والأنبياء هم أس أساس تربية البشر ورقي أخلاقهم ومبادئهم ونشوء حضاراتهم وإليهم يعود الفضل الأول في كل ما أوجده الانسان من مخترعات وحضارات.

ما يلفت الإنتباه عند تقليب صفحات كتب التاريخ، هو تمحور ظهور مخترعات البشر الزمني خلال العصر الحجري الحديث (عشرة آلاف سنة قبل الميلاد) تقريبا، فماذا حصل خلال تلك المرحلة حتى يعتبر ذلك التاريخ مفصلًا خطيرًا في تطور الانسان ورقيه من حالة البدائية إلى بداية ظهور الانسان المتمدن باختراعاته وعلومه وحضاراته، حيث كانت فترة مميزة تحول خلالها التنازع والتعارك على طريدة أو صيد أو بسبب مشاعر العداوة والتوحش إلى حالات توطين وتجمع قرب منابع المياه ومجاريها وبناء الأكواخ والبيوت وزراعة الأرض وريها وتربية الحيوانات وتطويع المعادن وتحسين اللغات واستعمال الكتابة وغير ذلك الكثير. لقد كان الإنسان القديم يعتاش منذ وجوده على كرم الأرض وهباتها ويقتات على ما تجود به الطبيعة من ثمار برية وحبوب وأقوات وما يقتنصه ويصطاده من طرائد وحيوانات. وخلال تلك الفترات الموغلة في التاريخ كان الانسان لا يعرف الزراعة ولا تدجين الحيوانات ولا يعرف ماهية النار، لقد كان كائنًا هائمًا في الطبيعة مثله مثل بقية الحيوانات؛ أما بعد دخوله العصر الحجري الحديث ومعرفة الزراعة[525]، جاءت النقلة النوعية للتحول في طبيعة حياة البشر ليترك حياة القنص والتجوال وينتقل إلى حياة استقرار وتكوين قرى ومن ثم إنشاء مدن مسوّرة، ومن حياة توسد الأرض وتلحف السماء إلى بناء المساكن البسيطة وتكوين العائلة وزراعة الارض وتخزين الغذاء.

نقرأ خلال فترة العصر الحجري الحديث عن تاريخ ولادة حضارات البشر بالتدريج في كل مكان، فمن ثماره ظهور الحضارات البابلية والآشورية والسومرية والكلدية في أرض الرافدين وحضارات أسر الفراعنة في مصر وحضارات الفرس والهند والصين وأواسط أفريقيا والأزتك والمايا في الأمريكيين، فجميعها دون استثناء وجدت في حدود هذا الزمن (عشرة ألف سنة قبل الميلاد). وخلالها فقط عرف الإنسان مخترعات الزراعة والري والمحراث والشادوف واستخدام النار وطوّع المعادن واستئنس الحصان والكلب والمواشي وربى الدواجن واخترع العجلة المدورة والعربة وغير ذلك الكثير.

وما يلفت الانتباه أيضًا أن زمن ظهور كبريات الديانات العالمية كان خلال هذه الحقبة أو هذا (الكور). ولو تفحصنا هذه الأديان لوجدنا غالبيتها قد تركت آثارًا كتابية بشكل من الأشكال وبلغة من لغات الأمم القديمة التي إختفت غالبيتها تقريبًا، بينما ترجم ما بقي منها كالتوراة والإنجيل والزبور والزندا فستا والكنزا ربا والفيدا وغيرها، حيث يمكن قرائتها والاطلاع عليها اليوم. بينما لا نجد أثرًا أدبيًا مماثلا عن أديان ما قبل ذلك التاريخ، إلا ما وصلنا من أساطير شفاهية ترجم ودوّن بعضها لاحقًا.

وللتأكد من هذه الدقيقة العلمية والتاريخية، دعونا نراجع مصادر كتب التاريخ وأسفارها لنرى مدى صوابها. فعن تاريخ ظهور الحضارات عموما، نقرأ:

- (لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام، وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى و«مصر» مركز الشئون البشرية التي وصل إلينا علمها... على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الآهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة، والخيل المستأنسة[526] والمركبات، وسكت النقود، وكتبت خطابات الاعتماد، ونشأت الحِرف والصناعات، والشرائع والحكومات، وعلوم الرياضة والطب، والحقن الشرجية، وطرق صرف

المياه، والهندسة والفلك، والتقويم والساعات، وصوّرت دائرة البروج، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة، واخترع الورق والحبر، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء، وصنع الخزف المطلي المصقول والأثاث الدقيق الجميل، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج، واستخدمت أدهان التجميل والحلي، وعرف النرد والداما، وفرضت ضريبة الدخل؛ واستخدمت المرصعات، وشربت الخمور)[527].

ويعقّب ديورانت على ما سبق مؤكدًا على ظهور جميع العلوم والمعارف والحضارات والمخترعات في منطقة الشرق الأوسط وليس غيرها، بالقول:

- (عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها اوربا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان، وقصارى القول أن «الآريين» لم يشيدوا صرح الحضارة ـ بل أخذوها عن بابل ومصر، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه. وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخير من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين)[528].

ونقرأ في كتاب إبداعات النار:

- (تعد الفترة من 6 آلاف إلى 3 آلاف سنة ق.م. هي العصر الحجري الجديد، وقد تعلم الناس خلال هذا العصر صناعة الغذاء وقدح النار من الاحتكاك فيما يمكن أن يكون أول تفاعل كيميائي تتم السيطرة عليه. وقد دجنوا الحيوانات واخترعوا المحراث والعجلة والشراع. وتعلموا كيف يغزلون وينسجون ويصنعون قمائن الفخار النارية. وفيما بين السنوات 6 آلاف 7 آلاف ق.م. كانت تشكل مادة جديدة بواسطة الطرق هي النحاس. ومكنت هذه المادة الناس من صنع أدوات جديدة ساعدت ـ مع تطور الزراعة ـ في نمو المجتمعات الزراعية في مواقع ثابتة. وأصبح الكثيرون من جامعي الثمار الرحّل يعملون في الأرض. وفي لحظة ما حوالي 4 آلاف سنة ق.م. بزغت الحضارة)[529].

وعن حضارة أمة الزرادشتيين وولادة نبيّها، فقد ورد عن أرسطو ما يؤيد ظهورها خلال العصر الحجري الحديث، قال:

- (يؤكد أرسطو أن زارادشت عاش قبل 6000 عام من زمن افلاطون، أما هيرميبوس الاسكندري الذي يؤكد أنه قرأ كتاب الزارادشتيين الأصل، فإنه يتحدث عن هذا المصلح العظيم بصفته تلميذًا لأغوناكس، الذي لمع قبل 5000 عام من سقوط طروادة، وبهذا يدعم إعلان هيرميبوس رأي أرسطو، لأن طروادة سقطت في العام 1194 ق.م)[530].

فيما سبق نلاحظ نقطتين، الأولى انحصار تحديد تاريخ ظهور حضارة البشر داخل إطار كور التوحيد بعد ظهور النبي آدم مع بداية العصر الحجري الحديث، والثانية تحديد مكان ظهور غالبيتها في منطقة الشرق الأوسط (آسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوب الروسيا والبحر الأسود، وغرب الهند وأفغانستان ومصر)[531]. ومثلما سبق وذكرنا، فلقد زخرت هذه المنطقة بظهور الأنبياء والآلهة والكهنة والمتنبئين من معلمي البشر الأوائل[532].

إن جميع الاختراعات القديمة يمكن تسميتها بالاختراعات البدئية الأولية، وعلى الغالب بقيت على حالها دون تطوير، مثل آلة المحراث والشادوف والسيف والفأس والعربة وما غير ذلك، إلا إنها كانت الركيزة الأساسية لما حصل من فورة المخترعات في الحقبة الثانية بعد ظهور الثورة الصناعية في أوروبا. فبعدما استمرت تلك المخترعات القديمة على ذات حالها دون تغيير أو تطوير لآلاف السنين، إذا بالعلوم والمخترعات والاكتشافات والنظريات تتفجر كتفجر عين ماء من بين صخور جبل عال خلال القرن التاسع عشر بعد الميلاد. فإذا علمنا أن التاريخ الديني يخبرنا أن الفترة بين آدم والخاتم تسمى بـ «كور التوحيد»[533]، حيث ركّز أنبياء الماضي خلالها على تعليم البشر وحدانية الخالق والموجد، وإذا علمنا أن القرن التاسع عشر يعتبر بداية كور (وحدة الجنس البشري)[534]، ويتجلى ذلك من خلال المعاهدات الدولية والاتفاقات السياسية والاقتصادية والثقافية ومن خلال تطور خطوط الاتصالات التكنولوجية وقنوات التواصل الإلكترونية والأنترنت. إذًا.. أفلا يمكن تواجد علاقة خفيّة بين كل ما حصل من تقدم علمي وصناعي وتفتح للعقل البشري في بداية كلا هاتين المرحلتين (الكورين) وبين ظهور الأنبياء والديانات؟فمما لا شك فيه أن الفترة الأولى ارتبطت ببداية ظهور كور أنبياء زمن التوحيد[535]. بينما نجد ارتباط الفترة الثانية بظهور ديانة البهائية العالمية ودعوتها الأساسية لتوحيد الجنس البشري. ومن يدري، فقد يكون توحيد البشرية هو هدف الإنسانية مستقبلًا؛ فلقد شجع الفيلسوف «كانت» على أهمية التمسك بالأمل:

- (لا يجوز لنا أن نستنتج من أن شيئًا لم ينجح حتى اليوم، أنه لن ينجح أبدًا)[536].

يؤيد هذه الفرضية أو الفكرة استغراب بعض علماء الفلك المعاصرين ظهور علوم اختصاصاتهم الدقيقة في تلك الأزمان البدائية، ويجزمون بأنها لا يمكن ان تكون وليدة المصادفة أو موروثات أجيال سبقت تلك الأمم، لكن ما يلاحظ عليهم تقربهم بشيء من الإستيحاء للإشارة إلى مشاركة قوى فوقية في دفع عجلة التقدم، وفي نفس الوقت، يحجمون عن التصريح بذلك ويعللون ترددهم بأنهم بحاجة إلى «إجراءات إستثنائية» لتقبلها. قال بريوشينكين نقلًا عن زافينياغين واصفًا روعة علوم ذلك الكور:

- (يعد الشهر النجومي المتوسط، المقدار البدئي الذي قدّره الفلكيون البابليون. أما الشهر القمري المتوسط فلم يكن قد رصد، بل حسبه الفلكيون البابليون استنادًا إلى مقادير الشهر النجومي المتوسط والعام النجومي المتوسط، الذي دخل بدوره «الماجستي»، ولكن بطريقة غير ملحوظة. ونحن استرجعنا من النص «الماجستي» مقدار الشهر النجومي المتوسط الذي قدّره الفلكيون البابليون، وهذا ما لم يفعله نيغيباور مؤلف بحث «العلوم الدقيقة في الأزمنـة القديمة» وكان قد تبين حينئذ أن الفلكيين البابليين نجحوا في الحصول على نتيجة دقيقة جدًا بل نتيجة موغلة في دقتها. ومن البدهي أن مثل هذه الدقة لم يكن لها أن تحصل مصادفة (إن إمكانية حصول ذلك ضئيلة جدًا). ولكن كيف نفسر مثل تلك الدقة؟ إننا نحتاج هنا إلى «إجراءات استثنائية» إلى فرضيات جريئة جدًا. ولا بد من ذلك. فالدقة العظيمة التي بلغها الفلكيون البابليون في قياس متوسط حركة مارس، تزيد من عمق درامية الحالة الناشئة، وعلاوة على هذا تقنعنا مرة أخرى بانها ليست «لعبة مصادفات»)[537].

ما يخطر على الذهن أن القائمون على علم الفلك الدقيق في تلك الأزمنة البدائية، لا بد وان كانوا أناسًا فوقيين غير عادين ـ لأنه كما سبق وجئنا على ذلك، أنها علوم معنوية فوقية وليست مادية حسيّة ـ وهذا يفسر بشكل من الأشكال احتمال صواب فكرة ما وصلنا مراراً وتكرارًا عن مشاركة الآلهة القدماء من خلال قوى إلهاماتهم في إيجاد أسس العلوم العجيبة، مثل هرمس وأوزوريس وتموز وغيرهم الكثير من آلهة الإغريق واليونان ومصر والصين. وطالما قرأنا أن الأجداد القدماء نسبوا جميع علومهم من طب وهندسة وصيدلة وزراعة وفلك وتنجيم وعلوم ريّ ورياضيات وغيرها إلى آلهة عاشت في أزمانهم أو قبلهم، لذلك فمن المتوقع أن يبدو مرد تقديسهم لتلك الآلهة المتفوقة عليهم بقدراتها وعلومها وإلهاماتها، هو العجز عن معرفة حقائق خصائص نفوسهم، وهذا ما أخاف الناس من شخصيات الفوقيين الذين كان بمقدورهم سبر أغوار خفايا السماء وأسرار نفوس المحيطين بهم. لذلك جاءت تسميتهم بـ «الآلهة»، لأنهم شاهدوا فيهم قوى إعجازية لا يمتلكونها.

وعن إقرار العلم بوجود قوى فوقية لأناس عاشوا في المجتمعات القديمة، نقرأ ما كتبه بريوشيكين:

- (ومن المعروف أن العلم المعاصر قلّص كثيرًا من إمكانات تأثير الكائنات الخارقة على حياتنا، بيد أنه لم ينف مثل هذا التأثير نفيـًا تامًا. ولسخرية القـدر أن الفيزياء التي كانت واحدة من أول العلوم التي أعملت فأس الدمار في اللوحة التوراتية للعالم، تتكهن الآن بوجود أبعاد إضافية لعالمنا لا يمكن من حيث المبدأ نفي وجود كائنات خارقة فيها، ترى كل شيء، وتملك جبروتًا كليًا إلى درجة ما «لكنها لا تنتهك قوانين الطبيعة»)[538].

من هذا وغيره، لا يستبعد أن جاءت بداية مصادر علوم البشر من أكثر من إله أو نبي في زمن واحد أو أزمان مختلفة ومناطق متعددة، تعاونوا بشكل غير مباشر حسب منهج فوقي واحد في مساعدة وتربية المخلوق المدلل «الإنسان» عندما ظهرت الحاجة الملحة وحان الوقت المناسب لصناعة مُخترع أو اكتشاف قانون طبيعي أو ميكانيكي يساهم في تقدم شؤون حياته ومجتمعه، كما حصل مع ايجاد أسس العلوم الفوقية العظيمة أو عند اختراع النار والقوس والقارب وفنون الزراعة وصناعة التلسكوبات والأشرعة والسفن والحبال والرحى أو نحت صخور الأهرامات وترتيبها وغير ذلك من الأعمال التي يعجز عن أدائها بشر عاديين. إذ لا يمكن تفسير حصول كل تلك الخوارق إلا بوجود مثل هؤلاء الرجال السوبر الذين أوجدوا كل تلك العلوم ووضعوا قوانينها وأسسها وبرامجها وسبل تنظيمها والنهوض بها، وكانوا حكماء في كيفية البدء بتلقين وتعليم تلاميذهم كل تلك العلوم والدقة في ترتيب مناهج محددة لاستمرار انتقال العلوم من جيل إلى جيل حتى يأتي زمن اتصالها بزمن تفجر الثورة العلمية الحديثة.

وعندما يستغرب البعض فرضية استعانة الانسان البدائي القديم بالرجال الفوقيين ويرفض فكرتها، نجدهم ـ في المقابل ويا للغرابة! ـ تقبلهم لفكرة مجيء رجال أو مخلوقات من الفضاء البعيد في قديم الأزمنة من أفلاك مجهولة أحضرت البشر إلى الأرض وقامت على تعليمهم، وما مرد ذلك إلا للخروج من مأزق معضلة:

- كيف بدأ الانسان بالتعلّم؟ لا لسبب سوى مناصبتهم عداء الأديان وتصرفات أتباعها واعتبارها أفيون الشعوب وسبب التخلف والقتال والحروب.! أو بالأحرى لصعوبة تقديم جواب السؤال:

- كيف تعلّم الإنسان؟

وطالما أثبتنا بالأدلة العلمية والعقلية أن الانسان لا يتعلم إلا بمعلم حتى ولو امتلك حواس جسده كاملة سليمة، لأن التعلّم لم يأت من خلال حاسة البصر فقط ـ بدليل ما جئنا عليه في مثال (الأصمّ والأكمه) ـ ولم يأت أيضا من خلال حاسة السمع في المرحلة اللاحقة، بسبب بدائية وفقر اللغات وتساوي مستويات البشر البدائية، حيث لا يوجد هناك ما يكتسبونه ويتبادلونه من علوم، وأثبتنا أيضا ان العقل البشري عاجز عن التفكير المجرد إلا إذا حصل على معلومات معنوية خارجية عن طريق السماع؛ وهذا أيضا غير متوفر في الأزمنة البدائية الأولى. فبذلك لا يتبقى سبيلًا لتعلّم الإنسان الأول، إلا مصدر المعلم الفوقي الميتافيزيقي الذي ملك علمًا إلهاميًا «لدنـيًا» لم يكتسبه من موجودات الطبيعة ولا من غيره من بقية البشر؛ لذا ما علينا الا الاعتراف بجهل الانسان التام قبل دخوله مرحلة الوعي، وعدم قدرته على الابداع والاختراع فيما بعد ذلك خلال العصور الحجرية، لولا وجود أولئـك المعلمين الإلهيين الذين ظهروا بأعداد تفوق الحصر في جميع أنحاء الأرض بين مختلف الشعوب وفي مختلف الأزمان. فلولاهم لبقي البشر حتى اليوم على حالة البدائية الأولى مثلما وجدناهم قبل فترات قريبة في الأمريكيتين واستراليا وجزر المحيط الهادي يسبحون في بحور الجهل والظلمات، بل ومن المرجح أن كان أوائل البشر أجهل من ذلك بدرجات كبيرة.

(17)
كبار فلاسفة وحكماء التاريـخ

(إن العقل الإنساني صغير لدرجة أنه يعجز عن فهم هذا الكون، فكيف يفهم خالق الكون؟ إنها قضية أكبر من العقل. أي عقل!)[539].

البرت اينشتاين

يبدو أن كبار فلاسفة الإغريق واليونان وغيرهم، اعترفوا بوجود مهندس موجد غيبي للعالم، يعزز ذلك أن غالبية من جاء بعدهم من علماء وحكماء اعترفوا أن ليس هناك من يجاريهم في سعة علومهم وحكمتهم أو إثبات عكس ما جاءوا به من نظريات فلسفية ومنطقية، بقي تفسير وشرح الكثير منها غامضًا حتى اليوم؛ يؤيد ذلك ما جاء على ذكره الفيلسوف فرانكفورت حينما قال:

- (كثيرًا ما تغيب عن الباحثين شجاعة اليونانيين التأملية. وقد كان لا بد للعلماء المحدثين ـ او بالأحرى، علماء القرن التاسع عشر ـ أن يسيئوا فهم تعاليم هؤلاء الفلاسفة... فليس لنا أن ندهش لرؤية المعقبين والمفسرين في عصر فلسفته وضعية يقحمون دون وعي منهم، كثيرًا من المعاني المألوفة المستحدثة في العقائد شبه المادية التي عبّر عنها فلاسفة اليونان الأوائل، ويعتبرونهم تبعًا لذلك أول العلماء. وهذا انحياز يشوه عظمة الإنجازة اليونانية، لأن التفسير المادي لتعاليمهم يأخذ كأمر مسلّم به اكتشافًا لم يكن إلا ثمرة أتعاب هؤلاء المفكرين القدامى ـ وهو التمييز بين الموضوعي والذاتي. والفكر العلمي لا يتحقق إلا على قاعدة من هذا التمييز)[540].

من ضمن تلك الأمور الفلسفية المعقدة، مسألة الاعتقاد بمفهوم (لولا وجود الطبيعة، لما وجد الاعتقاد بالله)[541]، فهو أمر له وجهان مختلفان لا بد من التمييز بينهما، فالطبيعة هي موجود مادي يجري التعامل معها بالحواس الخمسة، بل حتى أعظم حواس الجسد وهو جهاز الدماغ، هو في حقيقته كتلة مادية تتوافق مع شأن الطبيعة في حالتها المادية وتتأثر بمؤثراتها، إذ من الوارد أن يتعرض الدماغ للاصابة والتلف والجرح والضمور والمرض والالتهابات، إضافة إلى أنواع الآلام والصداع والاضطرابات، كما تقل وتزداد قدراته وفاعليته مع تذبذب وصول كميات الأوكسجين وتدفق كمية الدماء إلى خلاياه وأجزاءه، وغير ذلك الكثير من المؤثرات المادية الخارجية. بينما يلاحظ ـ طبيًا ونفسيًا ـ عدم تأثر العقل (المعنوي) بكل هذه التغييرات والمؤثرات المادية الحادثة، فهو لا يصاب ولا يجرح ولا يمرض ولا تتأثر قوة أداءه بضعف الجسد وكمال أعضاءه وقوته ونشاطه وصحته ومرضه، دليل ذلك وجود معاقين وذوي عاهات جسدية وهم على درجات علمية وعقلية عالية، وقد يكون الانسان في أشد حالات المرض، لكن عقله يبقى نشطًا وقادًا. فما يجري من مؤثرات مادية طارئة على كتلة الدماغ المادي قد تؤثر أو تقطع اتصاله بالعقل المعنوي وتحجب التواصل بينهما، وبالتالي تنقطع عملية التفكير وتزويد الدماغ بالمعلومات أو استلامها منه، ومع ذلك يبقى العقل محتفظًا بخزين معلوماته القديمة ومستواه العلمي عند حد اللحظة التي

انقطع فيها اتصاله مع الدماغ؛ دليل ذلك عودة المصابين بفقدان الذاكرة المؤقت، إلى ذات درجات المعرفة ونسبة النباهة التي كانوا عليها حال شفائهم.

ولما كانت معرفة الموجودات متعلقة تماما بوجود العقل، فلولاه ما عُرف الوجود ولن يكون موجودًا، وطالما اختص العقل بالإنسان فقط لا بغيره من بقية الكائنات، لذا كانت معرفة المعنويات والمعقولات مختصة بالانسان لوحده، فهو الكائن الوحيد الذي يتعرف على الموجودات ويتصورها بعقله حتى لو فقد حاسة من حواس جسده. فجميع هذه الأمور وما شابهها، هي أمور معنوية غير مادية احتاجت إلى العقل لتدبرها ومعرفتها، وطالما كانت معرفة الله مسألة معنوية غير مادية، لذلك كانت معرفته أو نفي وجوده مسألة مختصة بالعقل المعنوي. ذكر الياس بلكا:

- (لقد فهم كثير من المفكرين أنه لا يمكن للإنسان أن يتجنب هذه الأسئلة المهمة، يقول هينمان:

- «إن مشكلات الميتافيزيقيا قد تكون غامضة، إلا أنها رغم ذلك تظل مشكلات تحتاج إلى إيضاح ومناقشة». وحين لاحظ هؤلاء المفكرون عقم الميتافيزيقيا، التجؤوا إلى الدين وطلبوا منه الجواب. ولذلك يفرق كثير من الفلاسفة في نقدهم بين الدين والميتافيزيقيا... أما راسل ـ الفيلسوف المنطقي الكبير ـ فقد انتهى إلى الاعتراف بوجود قضايا صحيحة وحقيقية لا يمكن اختبارها أو البرهنة عليها... وبهذا الإقرار تنهار قاعدة: كل ما لا يمكنني إثباته فهو غير موجود، إما بالنسبة إليَّ، وإما مطلقًا. وكذلك العلم وحده لا يكفي للإنسان، فهو ـ يقول باسكال ـ لا يفيدني بشيء عند الحاجة أو نزول المصيبة. ولذلك اعتبر هذا الفيلسوف ـ والفيزيائي أيضًا ـ أنه قد لا يهمنا كثيرًا أن نتعمق البحث في الآراء الفيزيائية لكوبرنيكوس، لكن من المهم جدًا أن نعرف هل الروح خالدة أم لا) [542].

كما أشارت مجموعة من العلماء والمفكرين إلى ما ورد في مؤلفات كبار الحكماء وأساطين الفلسفة من إشارات عديدة لاعترافهم بوجود خالق مبدع لهذا الكون بجميع موجوداته. ومن الجدير بالذكر، أن كتب التاريخ تذكر أن نسبة كبيرة من هؤلاء الفلاسفة أخذوا الحكمة عن أنبياء وكهنة وقديسين عاشوا في أزمنتهم وتتلمذوا على أيديهم بعدما تركوا أوطانهم وهاجروا ليستقروا في بلدان الأنبياء ويتعلموا منهم، مثل وادي الرافدين وبلاد فارس وسوريا القديمة ومصر الفرعونية، أما من جاء بعدهم من تلاميذهم، فلقد أخذوا عنهم الحكمة والعلوم، من جملتهم:

- تاليس «طاليس» وهو مهندس وسياسي، وأنكساغورس، وأنكسيمانس وعمل صانع خرائط، وأنبادقليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وتبعتهم مجاميع أخرى من الحكماء، مثل:

- فلوطرخيس[543]، وهرقل الحكيم، وبقراط[544]، وديمقريطيس، وأوقليدس، وبطلميوس (صاحب كتاب المجسطي)، وزينون، وسولون، وأوميروس، وأبيقور[545] وشعراء آخرين غيرهم[546]، فجميعهم بلا استثناء عاشوا في زمن انتشار عبادة الآلهة/الأنبياء كما سبق وذكرنا[547].

يقول الفيلسوف الألماني «كانت» في تعريفه لوجود الإله:

- (لا ريب في أن شيئًا ما موجود بالضرورة. وهذا الشيء ما واحد في كينونته، بسيط في أهميته، روح بطبيعته، أزلي في أمر وجوده، ثابت لا يتغير من حيث كيفيته، كاف بذاته كفاية مطلقة بالنسبة لكل ما هو ممكن وواقعي. إنه هو الإله بعينه). ويقول أيضا:

- (إن نظام الطبيعة العرضي، الذي من الواضح تمامًا أنه كان يمكن أن يبنى بطرائق أخرى شتى، والذي تتجلى فيه مع ذلك المهارة العالية، والجبروت الكلي والرحمة، هذا النظام يقود إلى [الاعتراف] بخالقه الإلهي)[548].

ويعود «كانت» ليقول:

- (أذًا، إن العلَّية الأعلى للطبيعة من حيث يجب افتراضها بخصوص الخير الأسمى، هي كائنٌ، هو، بـ الفهم والإرادة، علَّةُ (بالتالي صانع) الطبيعة، أعني الله. ينتج عن ذلك أن مصادرة إمكانية الخير الأسمى المستنبط (العالم الأفضل) هي في الوقت نفسه مصادرة حقيقية خير أسمى أصيل، أي وجود الله. أما وقد كان واجبًا علينا أن نعمل على تحقيق الخير الأسمى، فهذا لا يستتبع فقط الحقَّ، بل الضرورة أيضا المرتبطة بالواجب كحاجة إلى افتراض إمكانية هذا الخير الأسمى الذي، بما أنه لا يتحقق إلا بشرط وجود الله، فإنه يربط ربطًا لا ينفصم افتراض هذا الوجود بالواجب، وهذا يعني أنه من الضروري أخلاقيًا أن نُقرَّ بوجود الله)[549].

وقال «تاليس» (طاليس)، وهو فيلسوف يوناني عاش في القرن السادس قبل الميلاد، إن للعالم مبدعا لا تدرك صفته العقول من جهة هويته، وإنما يدرك من جهة آثاره، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته، إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء، فلسنا ندرك له إسمًا من نحو ذاته بل من نحو ذاتنا[550]. وكان تاليس الملطي إنما تلقى مذهبه من هذه المشكاة النبوية أنبياء اليهود[551].

أما «أنبادقليس». فهو فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان في زمن داود النبي، مضى إليه وتلقى منه العلم واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ثم عاد إلى اليونان، ومن أقواله: (إن الباري تعالى لم تزل هويته فقط وهو العلم المحض وهو الإرادة المحضة وهو الجود والعزة والقدرة والعدل والخير والحق...)[552].

ومما يثري هذا البحث:

- (لقد أجرى ديموقريط (حوالي 460 - 370 ق.م.) تطويرًا شاملًا لرؤى ليكيبوس. وينقل لنا ديوجينوس اللارسي أن ديموقريط كان تلميذا لدى سحرة كلدانيين تركهم الملك كسيراكس مرشدين لدى والده عندما ضاف هذا عنده، حسب رواية هيرودوت. ومنذ طفولته تلقى ديموقريط على هؤلاء علم الآلهة، والنجوم. ويخبر ديميتريوس وانيسفين أن ديمقريط قام برحلة إلى مصر للقاء كهنتها لكي يتعلم على أيديهم علم الهندسة، وزار في فارس الكلدانيين، كما زار البحر الأحمر؛ ويضيف بعضهم أنه قابل المنشدين الصوفيين في الهند، وزار أثيوبيا)[553].

والفيلسوف اليوناني «فيثاغورس». عاش في القرن السادس قبل الميلاد. (وكان في زمن سليمان النبي بن داود، قد أخذ الحكمة من معدن النبوة وهو الحكيم الفاضل ذو الرأي المتين والعقل الرصين. يدعي أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحدسه وبلغ في الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ووصل إلى مقام المَلَك. وقال: ما سمعت شيئا قط ألذّ من حركاتها ولا رأيت أبهى من صورها وهيئاتها.. ومما قاله أيضا: (إن الباري تعالى واحد لا كالآحاد ولا يدخل في العدد ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس فلا الفكر العقلي يدركه ولا المنطق النفسي يصفه فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله وكل عالم من العوالم يدركه بقدر الآثار التي تظهر فيه صنعته فينعته ويصفه بذلك القدر الذي يخصه من صنعته...)[554]. ومما أوصى به أيضًا:

- (إني عاينت هذه العوالم العلوية بالحس بعد الرياضة البالغة وارتفعت عن عالم الطبائع إلى عالم النفس وعالم العقل، فنظرت إلى ما فيها من الصور المجردة وما لها من الحسن والبهاء والنور وسمعت ما لها من اللحون الشريفة والأصوات الشجية الروحانية)[555].

عندما تختلف كتب التاريخ في تحديد زمن وجود زارادشت، فمنها ما يقول أنه عاش قبل 5000 سنة، أو أقل من ذلك، إنما مرد هذا الاختلاف قد يكون شيوع وانتشار استعمال هذا الاسم أو هذه الكنية لدى الأمم الشرقية، باعتبار أن معناها هو الرجل العظيم أو الرجل المقدس، ولهذا كان يكنى بها أنبياء الفرس القدماء، فلقد ورد:

- (كان هناك أكثر من زارادشت: زارادشت الذي أسس عبادة الشمس عند الفرس، وزارادشت الذي ظهر في قصر داريوس غيشتاسب، وزارادشت الذي كان مرشدًا لفيثاغورس)[556]. ولقد ورد عن فيثاغورس أيضًا، انه أخذ العلم من مشكاة نبوة زارادشت:

- (يؤكد أبوليوس على أن زارادشت بالذات أعطى فيثاغورس إرشادات...)[557]. كما ونقرأ في كتاب آخر:

- (رحل فيثاغورس إلى مصر، وحسب بعض المصادر أنه تعلم اللغة المصرية. وبعد ذلك ارتحل في الشرق، وتعلم لدى الكلدانيين، والسحرة الفرس)[558].

ونقرأ:

- (ثم تعميد فيثاغورس في طيبة، وتعلم اللغة المصرية.. وارتبط بعلاقات مع الكهنة الكلدان ومع الماجي الفرس. وتعلم منهم الفلك، وكان الكلدانيون قد ابتكروا رموز دائرة البروج «الزودياك» ورموز الأرقام. «وربما كانت نظرية فيثاغورس المشهورة عن مربع وتر المثلث القائم الزاوية قد جاءت مع ما تعلمه فيثاغورس من الكهنة المصريين». ومع ذلك، فان الملك الفارسي قمبيز تمكن من غزو مصر، فأرسل فيثاغورس إلى بابل، فقضى هناك نحو عشر سنوات درس فيها أسرار بلاد ما بين النهرين. وبشكل عام ظل فيثاغورس بعيدا عن موطنه طوال اربع وثلاثين سنة، وفي خلال هذه المدة، لا بد أن يكون قد التقى بحكماء من الهند والصين، إذ يظهر عنصر قوي من التصوف الشرقي في فلسفته المتأخرة، بالاضافة إلى اعتقاد في البعث بالجسد طوره وعبر عنه في

نوع من التناسخ، وهو الاعتقاد بأن الروح قد تنتقل إلى جسد مخلوقات أخرى، بما في ذلك الحيوانات)[559].

وكذلك عن الفيلسوف اليوناني «سقراط». عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان قد اقتبس الحكمة من فيثاغورس وأرسالاوس واقتصر من أصنافها على الإلهيات والأخلاقيات واشتغل بالزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق. ونهى الرؤساء الذي كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان، فثاروا عليه الغاغة (الغوغاء) وألجئوا ملكهم إلى قتله، فحبسه الملك ثم سقاه السم. ومما قاله: إن الباري تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط، وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه، وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفًا والمسمي لكل موجود إسما، فكيف يقدر المسمى أن يسميه إسما؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفًا؟ فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله وهي أسماء وصفات، إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته... إن علمه وقدرته وجوده وحكمته بلا نهاية ولا يبلغ العقل أن يصفها ولو وصفها لكانت متناهية)[560].

ثم الفيلسوف اليوناني «أفلاطون الإلهي»، عاش في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. عرف بالتوحيد والحكمة. ومما نقل عنه في المعارف الإلهية: (إن للعالم محدثًا مبدعا أزليا واجبًا بذاته عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا كلل إلا مثالا عند الباري تعالى)[561]. ويذكر عنه أيضا إنه أول (من أشار إلى فكرة الله الواحد عند اليونان، وبخاصة في الباب السادس من «الجمهورية»، وجاء أرسطو وتناول فكرة الألوهية في الميتافيزيقيا وتكلم على المحرك الأول الذي يحرك ولا يتحرك على الاطلاق)[562]. وقال أيضا:

- إن الأشياء التي لا ينبغي للانسان أن يجهلها: أن له صانعًا وأن صانعه يعلم أفعاله، وذكر أن الله تعالى إنما يُعرف بالسلب، أي لا شبيه له ولا مثال، وأنه أبدع العالم من لا نظام إلى نظام وأن كل مركب فهو إلى الانحلال وأنه لم يسبق العالم زمان ولم يبدع عن شيء)[563]. ومما قاله عن بدء وجود النفس البشرية:

- (إن النفوس الانسانية التي هي متصلة بالأبدان اتصال تدبير وتصرف، كانت موجودة قبل وجود الأبدان وكان لها نحو من أنحاء الوجود العقلي وتمايز بعضها عن بعض تمايز الصور المجردة عن المادة بعضها عن بعض)[564].

ومما ذكره الشيخ محمد العاملي (1547 - 1621م) عن أفلاطون في تأملاته أيضًا:

- (من التلويحات عن إفلاطون الإلهي أنه قال:

- ربما خلوت لنفسي كثيرا عند الرياضيات وتأملت أحوال الموجودات المجردة عن الماديات، وخلعت بدني جانبا وصرت كأني مجرد بلا بدن عريّ عن الملابس الطبيعية، فأكون داخلا في ذاتي، لا أتعقل غيرها ولا أنظر فيما عداها، وخارجا عن ساير الأشياء، فحينئذ أرى نفسي من

الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن الغريبة العجيبة الأنيقة ما أبقى منه متعجبًا حيران باهتًا، فأعلم أني جزء من اجزاء العالم الأعلى الروحاني الكريم الشريف، وأني ذو حياة فعالة. ثم ترقيت بذهني من ذلك العالم إلى العوالم الإلهية، والحضرة الربوبية، فصرت كأني موضوع فيها معلق بها، فأكون فوق العوالم العقلية النورية. فأرى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف، وأرى هناك من البهاء والنور ما لا يقدر الألسن على وصفه، ولا الأسماع على قبول نعته، فإذا استغرقني ذلك الشأن، وغلبني ذلك النور والبهاء ولم أقو على احتماله، هبطت من هناك إلى عالم الفكرة، فحينئذ حجبت الفكرة عني ذلك النور فأبقى متعجبًا أني كيف انحدرت من ذلك العالم! وعجبت كيف رأيت نفسي ممتلية نورًا! وهي مع البدن كهيئتها، فعندها تذكرت قول مطريوس حيث أمرنا بالطلب والبحث عن جوهر النفس الشريف، والارتقاء إلى العالم العقلي)[565].

وعن فكر المدرسة الأبيقورية:

- (يقول أتباع هذا المذهب إن هذا العالم كثير الظواهر دائم التغيير، وهو لم يوجد بنفسه بل لا بد له من علة سابقة هي السبب في وجوده، وهذا الذي صدر عنه العالم «واحد» غير متعدد؛ لا تدركه العقول ولا تصل إلى كنهه الأفكار، لا يحده حد، وهو أزلي أبدي قائم بنفسه، فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحاني خلق الخلق ولم يحل فيما خلق، بل ظل قائمًا بنفسه على خلقه، ليس ذاتًا وليس صفة، هو الإرادة المطلقة لا يخرج شيء عن إدارته، هو علة العلل ولا علة له، وهو في كل مكان ولا مكان له. ولما كان الشبه منقطعًا بينه وبين الأشياء لم نستطع أن نصفه إلا بصفات سلبية، فهو ليس مادة، وهو ليس حركة وليس سكونًا، وليس هو في زمان ولا مكان، وليس صفة لأنه سابق لكل الصفات، ولو اضيفت اليه صفة ما، لكان ذلك تشبيهًا له بشيء من مخلوقاته، وبعبارة أخرى لكان ذلك تحديدًا له، وهو لا نهائي لا تحده الحدود، فلسنا نعلم عن طبيعة الله شيئًا إلا أنه يخالف كل شيء ويسمو على كل شيء، ولأن الله فوق العالم ولأنه غير محدود لا يمكنه أن يخلق العالم مباشرة، وإلا لاضطر إلى الاتصال به، مع أنه بعيد عنه لا ينزل إلى مستواه، ولأنه واحد لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتعدد، ولا يستطيع أن يخلق الله العالم، لأن الخلق عمل، أو إنشاء شيء لم يكن، وذلك يستدعي التغيير في ذات الله، والله لا يتغير ـ يقول أفلوطين ـ إن الله علة العالم، ويقول من ناحية أخرى: إن الله فوق العالم، ولا يمكن أن يتصل به أي اتصال)[566].

لقد (قام أفلوطين بصياغة فكرة فلسفية عن الله أبعد قليلًا عن إله الخير عند أفلاطون وأكثر سموًا من إله أرسطو الساكن. فالله عنده هو المصدر الأسمى للوجود ويسميه «الواحد، الخير، الأب، اللامتناهي، المعقول»، «ولم ينعت أفلوطين الواحد بتحديدات إيجابية بل حاول أن يصفه بأوصاف سلبية فالواحد أو الله هو الشيء الذي لا صفة له ولا يمكن وصفه ولا يمكن إدراكه، لأنه متعالٍ وهو الغني بذاته والمكتفي بذاته، الغني كما أنه البسيط، ومعنى البساطة أنه لا يتحلل إلى أجزاء ولا يتركب من أي أجزاء، وهو يفوق العقل ويسمو عليه كليةً، فالجوهر والوجود والحياة لا يمكن إسنادها إلى الواحد لأنها كثرة وتعدد وإن هذا يتنافى مع طبيعة الواحدة غير القابلة للانقسام والتعدد)[567].

وهناك شخصية حكيمة أخرى، يرفع بقية الفلاسفة مقامه إلى درجة "نبي" ويفضلونه على أنفسهم، رغم مكانتهم الفلسفية الرفيعة، وهذا يدعو للتفكر فيما شاهدوا فيه من درجات الحكمة والمعرفة، وهو الشاعر «سولون» الذي اشتهر بأقواله ونصائحه الأخلاقية الحكيمة، فقد قيل عن مكانته العلمية والروحية:

- (وكان عند الفلاسفة من الأنبياء العظام بعد هرمس وقبل سقراط وأجمعوا على تقديمه والقول بفضائله)[568]. ومن أقواله: (تزود من الخير وأنت مقبل، خير لك من أن تتزود منه وأنت مدبر)[569].

وكذلك: (من فعل خيرًا، فليتجنب ما خالفه، وإلا دعي شريرًا). وكذلك:

- (وسئل ما الحياة؟ فقال: التمسك بأمر الله تعالى. ومن أقواله: جوعوا إلى الحكمة واعطشوا إلى عبادة الله تعالى قبل أن يأتيكم المانع منها)[570].

وكذلك الشاعر الحكيم «أوميروس»، (وهو من كبار القدماء الذي يجريه أفلاطون وأسطوطاليس في أعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ)[571]. فقد قال:

- (إن الطبيعة كونت الأشياء بإرادة الرب تعالى

من لا يفعل شيئا من الشر فهو إلهي،

آمن بالله فإنه يوفقك في أمورك،

إن مساعدة الأشرار على أفعالهم كفر بالله

اعرف الله واعقل الأمور الإنسانية

إذا أراد الله خلاصك عبرت البحر على البادية

إن السنة توجب كرامة الوالدين مثل كرامة الإله،

رأيي أن والديك آلهة لك إن الأب هو من ربى لا من ولد)[572].

وقال الفيلسوف زينون:- (إن الباري تعالى المبدع الأول واحد محض هو هو إن فقط أبدع العقل والنفس دفعة واحدة ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسطهما وفي بدء ما أبدعهما أبدعهما جوهرين لا يجوز عليهما الدثور والفناء)[573].

وقد تطرق توينبي معربًا عن رأيه في وجود صلة بين الانسان وخالقه منذ عصور ما قبل التاريخ، حينما قال:

- (ذلك لأن النفس اللاشعورية تتمتع ـ دون جهد ـ بنفس الانسجام مع الله؛ انسجام تؤكده براءة النفس اللاشعورية لكل المخلوقات في رحلتها السابقة للآدمية)[574].

ومن أقوال هرقل الحكيم في الذات الإلهية:

- (إن الباري تعالى هو النور الحق الذي لا يدرك من جهة عقولنا، لأنها أُبدعت من ذلك النور الأول الحق)[575].

ومن أقوال الفيلسوف فلوطرخيس:

- (إن الباري تعالى لم يزل بالأزلية التي هي أزلية الأزليات)[576].

أما الفيلسوف «فيلو»، (كان يرى أن الفلسفة اليونانية مأخوذة من التعاليم العبرية، وأن أفلاطون وأرسطو أخذا تعاليمهما من موسى ومن التوراة؛ ومن هنا نشأ ما لهما من حكمة. وفيلو هو المسؤول عن خلط التعاليم الفلسفية بالوحي والإلهام الشرقي. كان فيلو يعلم أن الله ـ وهو الذي لا يحده حد ـ يجب أن يكون فوق هذا العالم المحدود، وليس هناك لفظ ولا فكر يستطيع أن يساير أبديته، وليس يمكن للفكر أن يدرك كنهه، وهو فوق أن تدركه العقول. وليست تصل نفس الإنسان إلى الله عن طريق العقل والتفكير، ولكن عن طريق رياضة النفس والكشف، ولا يستطيع الله أن يدبر هذا العالم مباشرة لأن هذا العالم مادي محدود، وإنما لله كائنات روحانية هم سفراء الله[577] يعملون في هذا العالم ما يريده الله، ويخلقون ويحكمون، وعلاقة الله بالملائكة وعلاقة الملائكة بالعالم علاقة انبثاق كأشعة الضوء تنبثق من مركز ساطع، ويقل ضوء الأشعة كلما بعدت عن المركز[578].

ومما قاله المعلم الأول أرسطوطاليس، وهو المقدم المشهور والمعلم الأول والحكيم المطلق عندهم، في إثبات وجود الله الخالق، وقد تتلمذ على يد الفيلسوف أفلاطون لأكثر من عشرين سنة. أنه لا بد لكل متَحرك من مُحرك، وهذه السلسلة لا بد وأن تنتهي إلى من لا يحتاج إلى مُحرك. ثم يثبت أن محرك العالم واحد. وأن الباري مبدع غير محتاج لسواه. (وأن واجب الوجود حيّ بذاته باق بذاته أي كامل في أن يكون بالفعل مدركا لكل شيء نافذ الأمر في كل شيء)[579].

وقال ديوجانس الكلبي في الذات الإلهية، وكان حكيما فاضلا متقشفًا:

- (ليس الله تعالى علة الشرور، بل الله تعالى علة الخيرات والفضائل والجود والعقل جعلها بين خلقه فمن كسبها وتمسك بها نالها، لأنه لا يدرك الخيرات إلا بها)[580].

وللفيلسوف «برقلس» رأيه في حتمية وجود بارئ لهذا الكون، وأن الكون أزلي لا أول له، قال:

- (لن يتوهم حدوث العالم إلا بعد أن يتوهم أنه لم يكن فأبدعه الباري تعالى في الحالة التي لم يكن، وفي الحالة التي لم يكن لا يخلو من حالات ثلاث: إما أن الباري لم يكن قادرا فصار قادرا، وذلك محال لأنه قادر لم يزل، وإما أنه لم يرد فأراد، وذلك محال أيضا لأنه مريد لم يزل، وإما أنه لم تقتض الحكمة وجوده، وذلك محال أيضا لأن الوجود أشرف من العدم على الإطلاق، فإذا بطلت هذه الجهات الثلاث تشابها في الصفة الخاصة وهي القدم على أصل المتكلم وكان القدم بالذات له دون غيره وإن كانا معا في الوجود)[581].

وقال فرفريوس شارحًا كلام أرسطوطاليس عن وجود الكون والطبيعة، قال:

- (أن الخالق أظهر العالم من العدم إلى الوجود وإن وجد أنه لم يكن من ذاته لكن سبب وجوده من الخالق)[582].

ولنختم هذا الفصل بآراء افلاطون الأيمانية حول خالق الكون (الله) وعلاقته بخلقه ورسله وأنبيائه، وهو لا يستعمل مصطلحات الأديان الشرقية ذاتها بسبب اختلاف اللغة. فيقول أن خالق الكون ذات مجردة مقدسة ليس لها اتصال وتواصل مع الكون والمخلوقات المادية والروحية، وكلما فعله الموجد أنه أوجد الكون بإرادته وأمره، وترك للرسل والأنبياء مهمة صناعة العالم وإدارته وتربيته. ويطلق أفلاطون عليهم صفة (الديمورج) وينسب لهم خلق الخلق والموجودات بأتمها. فلقد قال تحت عنوان (الإله الصانع «الديمورج»):

- [الله أزلي أبدي، وهو منزّه عن الحركة تنزيهًا مطلقًا، وكان مع الله صورته منذ الأول، وهو كائن يدعى الديمورج «أي الصانع»، هو صورة الخير «أو صورة الله»، وكان الديمورج النموذج الحي بذاته، وهو الحاوي لجميع المُثل التي كانت الصور النموذجية لأشياء لم توجد، فهي أشبه بمخططات نموذجية لها. وكان من الطبيعي أن يتأمل الله في ذاته، لأنه تعالى خيرّ. وكان من الطبيعي أن يريد بعد ذلك صنع عالمٍ خيرٍّ على مثاله. فأوكل هذه المهمة للديمورج الذي هو الإله الصانع أو الخالق، فقام الديمورج وصنع من المادة ورتب في عالم الحس ترتيبًا متوافقًا مع الخير الأعلى، وحوّله إلى النظام الذي تسمح به طبيعته. وأول ما ظهر من تأثير الديمورج، هو نفس العالم، ثم ظهر بعد ذلك جسمه. «والمُثل في نظر أفلاطون هي ماهيات الكائنات والوجود الحقيقي لها». وهناك من يرى أن أفلاطون اعتقد أن الله كان يتأمل في ذاته وصنع العالم بواسطة الديمورج. ويقول البعض الآخر إنه اعتقد أن الله كان يتأمل في صورة الخير. هناك آراء مختلفة حول الديمورج وطبيعته ودوره، فقد كان غامضًا عند أفلاطون. وهناك من رأى أن أفلاطون وضع الله فوق الديمورج، وهناك من اعتبر الديمورج والله شيئًا واحدًا، وآخرون اعتبروا الديمورج صورة الله، أو أنه الله خارجًا من عزلته...الخ.يشبّه أفلاطون الله بالصانع (Demiourgos)، ووجه الشبه أن الصانع لا يخلق المادة التي يصنع منها فنه، كصانع الآنية لا يخلق الطين ولكنه يصوغه في هيئة معينة. كذلك الله أخذ كتلة العالم وكانت فوضى، فبثّ فيها النظام وهو أجمل ما في العالم. صنعه لأنه خير يخلو من الحسد فأراد أن يكون كل شيء شبيهًا به، وأظهر العالم وجعله مرئيًا وأودع فيه النفس فأصبح العالم بقضاء الله حيًا عاقلًا. ولم يصنعه على نموذج الفرد الحي، بل على مثال الحي بالذات. صوّر أفلاطون العالم كائنًا حيًا عاقلًا لا على شيء حادث، بل على مثال الله، لأنه يمثل الخير والحق والجمال. والعالم لا بد من أن يكون كذلك لأنه يتثمل بهذه الصفات وهي التي تضبط وجوده، ولذلك كان العالم واحدًا لأن صانعه واحد ونموذجه واحد، ولا يوجد خارجه ما يؤثر عليه ويفسده، وهو أبدي لا تصيبه شيخوخة أو مرض، (ولذلك أنكر أدوار العالم وانحلاله ثم عودته)، ورأى أنه كروي لأن الدائرة هي أكمل الأشياء، وهو متجانس يدور على نفسه في مكانه.][583].

وأخيرًا نمر على الفيلسوف «اسبينوزا» حينما قال:

- (لقد بينّا أن أشياء لا تحصى إطلاقا تنتج عن وجوب الطبيعة الإلهية وحدها أو «الأمران سيان» عن قوانين طبيعته وحدها، كما برهنّا على أنه لا يمكن لأي شيء أن يوجد ولا أن يُتصور بدون الله، بل الأشياء جميعا موجودة في الله؛ وعلى ذلك لا يمكن لأي شيء أن يوجد خارج الله كي يُحدد فعله أو يُرغمه على تصرف ما؛ وعليه فإن الله يتصرف بقوانين طبيعته وحدها وبدون أي قسر) [584] ويستطرد القول:

- (ينتج عن ذلك: 1 ـ أنه لا توجد أية علّة خارج الله أو في داخله لتحثّه على الفعل، عدا كمال طبيعته الخاصة. وينتج: 2 ـ أن الله وحده علّة حرّة، لأن الله فحسب يوجد بضرورة طبيعته وحدها ويتصرف بضرورة طبيعته وحدها. وعندئذ فهو وحده علّة حرّة)[585].

الخلاصة.. لاحظنا أن عظماء الفلاسفة والحكماء يخالفون علماء المادة المعاصرين فيثبتون وجود خالق عظيم لهذا الكون ولما فيه من مخلوقات، وهو الذي يبعث الرسل والأنبياء نيابة عنه لتربية وتعليم مخلوقه المفضل {الإنسان}.

الخاتمة

إن ما سقناه من دلائل وبراهين لإثبات صواب نظرية (لزوم المربي والمعلّم) أو (لا علم بدون معلّم)، تبدو وكأنها قد قلبت موازين غالبية فلسفات علوم الاجتماع Sociology وعلم الإنسان Anthropology والنفس Psychology والتاريخ القديم Ancient history وعلم الحضارات Civilations وكل ما يمت لهذه العلوم بصلة رأسًا على عقب، وبذلك يبدو أنه قد آن الأوان لدخول البشرية مرحلة جديدة لم يسبق أن دخلتها من قبل، توفّق بين الدين والعلم، ولو حدث ذلك ـ وستحدث بالفعل ـ فمن المؤكد إنها ستفتح أبوابًا جديدة وآفاق واسعة نحو علوم مادية وروحية جديدتين. كما أشار إلى ذلك الفيلسوف «كانت»قبل عشرات السنين:

- (إن عالم ما وراء المحسوس هو الذي يفتح بابًا واسعًا للأمل البشري)[586].

يتساءل المفكر «ولسن» عن سبب ما حصل خلال القرن الثامن/ التاسع عشر من ثورة علمية غيرت مجرى تاريخ البشرية، بقوله:

- (فما الذي جعل التقدم ممكنًا)[587]. ثم يستند في تفسير ذلك على آراء عدد من المفكرين، فيقول:

- (يرى هردر الألماني أن ذلك بسبب أن للإنسان ـ على خلاف سائر الحيوانات الأخرى ـ استعدادا لا متناهيًا للتعلم، وتعليم نفسه)[588].

في الحقيقة أن الجزء الأول من هذا الرأي، لهو الصواب بعينه، فالإنسان لديه (استعدادًا لا متناهيًا للتعلم) ولا حاجة لسوق الأدلة في هذا المجال فهو واقع مشهود. أما قوله في (تعليم الإنسان لنفسه)،

فهذا ما يخالف جوهر فكرة هذا الكتاب التي سعينا لاثبات عدم صوابها في أمثلة كثيرة من ضمنها ما نشاهده اليوم من أمم بدائية. ثم يعود ليكرر ما قاله الفيلسوف هيجل بأن (التقدم كان ممكنا لأن الوعي يزداد ويتفتح باستمرار)[589]. وهذا أمر صحيح أيضًا، بسبب تراكم العلوم وتطور العقل البشري المستمر؛ ولكن ما حدث خلال القرنين الماضيين ترك علامة استفهام كبيرة، حينما انتصب خط سير التطور فجأة من مستوى مسيرته الأفقية إلى حالة العمودية تمامًا، لدرجة أن اقترح مدير مكتب براءات الاختراع الأمريكي في القرن التاسع عشر على حكومته، إغلاق المكتب لظنه أن كل ما أراد الانسان اختراعه قد تم وكمل بالفعل. لذلك كان من الضروري لأجل التوصل إلى نظرة جديدة مشتركة لخير الانسانية ورخاءها وللتقدم نحو مستقبل أفضل، أن تعد البشرية عدتها لنهضة حضارية عالمية جديدة مزدوجة، مادية/روحية، وإعادة مناقشة ما كان يعتبر من المسلّمات وثوابت الأفكار التي نشأ عليها الإنسان وتشبع بمفاهيمها طوال الأزمان الماضية، حتى تسلك سبل الحوار الحر المثمر بين حكمائها من أصحاب الفكر والفلسفة لوضع أسس نظريات وقوانين نافعة وعلوم ثابتة جديدة تتوافق مع التحولات الاجتماعية الجارية في عموم مجتمعات البشر حينما انطلقت شرارتها في منتصف القرن التاسع عشر، فشرارة الحقيقة لا تقدح إلا من تصادم الأفكار والنقاشات الحرّة المنزهة عن الميول والرغبات والأهداف والمسلمات المسبقة، وقد سبق ولاحظنا خلال فصول الكتاب، كم كانت أسس بعض أفكارنا وما سبق ودرسناه في مدارسنا وجامعاتنا، قديمة بالية وواهية. إن المستوى العلمي للمجتمعات والشعوب المتقدمة هذا اليوم، ليست هو الهدف المرتجى ولا هو مبتغى الانسانية من ثمرة وجودها النهائي، فالاعتماد على الفكر المادي الصرف لصياغة وشائج لحمة وسداة المستقبل لأحفاد البشرية يبدو أعوجًا أفلجًا، مثل طير امتلك جناحًا ماديًا قويًا، بينما بقي جناحه الروحاني ضعيفا هزيلًا لا يقوى على تحريكه، ومن المؤكد أن هذا العجز سيستفحل ليوصل الانسان باعتباره (هدف الوجود وغايته) إلى تدمير جميع ما سعت أجيال البشرية على تشييده عبر التاريخ، وقد يكون الخراب الشامل هو قدر البشرية المحتوم إذا لم يسارع ذوو الشأن وأولو الأمر من السياسيين والحكماء لتصحيح مسارها والتوفيق بين هاتين القوتين. لذا كان لا بد من تكاتف العقول للبحث عما يبعث روح القوة في جناح الروحانيات بعدما أهمله المعاصرون منذ ظهور الثورة العلمية المادية في أوروبا خلال عصر الأنوار، حتى يتمكن طير الانسانية من التحليق في سماء الأمن والسلام والرخاء ويرتفع عن أتربة الاختلاف وأطيان التناحر والحروب المتربصة بشعوب الأرض لتخريب منجزاتها التاريخية والعلمية؛ ولا يغيب عن الأذهان إن الأفكار مهما سمت وترقت وزاد جمالها، فهناك من يتربص للنيل منها وتخريبها، لما تسببه من أضرار بمصالحه، فكم من حكومة وأدت في المهد أفكارًا مفيدة رأت فيها ضررًا لمصالحها السياسية، وكم من سلطة غاشمة قتلت أجلَّ علمائها وأقدر فلاسفتها وعباقرتها للحفاظ على موروثاتها البالية، وكم من شركة عالمية أخفت أدوية ناجعة تهدد منتجاتها وأرباحها، ناهيك عن تجار الحروب والسلاح الذين يقتلون في المهاد بوادر كل فكرة سلام قد تقلل من نسب أرباح تجاراتهم الشيطانية، بل والأدهى من ذلك كم من مؤسسة ثقافية أو دار نشر تطبع وتوزع كتبًا ومنشورات تحث على القتل والإرهاب والفساد الفكري والأخلاقي لرفع مستوى انتشار روح الكراهية والتعصب دون اهتمام لما تنشره من رذيلة وفكر إرهابي بين أجيال المستقبل.

فبعدما مرّ الانسان بجميع مراحل التطور خلال مجمل التاريخ البشري منذ ظهوره على وجه الأرض، تدخل البشرية اليوم مرحلة النضوج العقلي والروحاني، ودليل ذلك الفرق الشاسع بين مستوى أفكار البشر قبل عشرات السنين لا أبعد وبين مستواه الحالي. لذلك، لا بد من البحث عن فكر إنساني جديد، يأخذ بيد مراهق البشرية الجامح لدخول مرحلة النضوج الروحاني، فجميع المؤشرات تدل على أن حضارة العالم المادية، تسير بخطى حثيثة نحو التردي والاضمحلال لا محالة، إلا إذا نزلت رحمة من علا السماء وظهر فكر إنساني روحاني جديد يوفق بين قوى العلوم المادية وقوى العلوم الروحانية، أساسه وحدة الجنس البشري ونبذ التعصبات واتحاد عموم البشر والإقرار بمساواة حقوق المرأة مع الرجل تحت راية دولة عالمية واحدة بلسان ولغة واحدة. لقد انتبه الفيلسوف «كانط» بعبقريته الفذّة لهذه النقطة الجوهرية حينما قال:

- (نحن ككائنات بشرية علينا واجب العمل معًا لإبداع وتحقيق غاية دستور مدني مثالي يقيم العدل بين الناس. ومن أجل هذه الغاية أيضًا، نحن مطالبون بأن نلتمس نظامًا يضمن السلام الدائم بين الدول)[590].

إن ما يتوفر اليوم من علوم راقية ومعارف مذهلة، أدخلت البشرية إلى مرحلة جديدة من التقدم الفكري في مجال علوم الطبيعة بعدما اجتازت مراحل الرضاعة والطفولة والصبينة والتي استعصى اجتيازها بقدرات الانسان الذاتية، حيث كان يستعين على الدوام بقدرات الآلهة والأنبياء الفوقية، فبفضل تلك المساعدات الكريمة، تدرج طفل البشرية في الرقي والنمو ودخل عصر النضوج معتمدًا على تراكمات معارفه السابقة، وها هو اليوم ينطلق في مجالات الاكتشاف والاختراع بسرعة الأنترنت والصواريخ... لكنه في نفس الوقت يدخل مرحلة انتقالية خطيرة قد تنهي كل ما سعى لبناءه، مرحلة (أكون أو لا أكون)، فجميع شعوب الارض تقف أمام وحش المادية المفترس الذي أرضعته وأطعمته حتى قويت أنيابه وبانت مخالبه وبرزت كامل تجسمات قوى عضلاته، وها هو يقف بكامل الاستعداد جاهزًا ينتظر لحظة غفلتها المناسبة ليلتهم حضارتها بتمامها ويزيلها لمرة واحدة والى الأبد. لقد صوّر الأستاذ هوستن سميث هذه المرحلة بأجمل تصوير حينما قال:

- (دعْ حلقة واحدة من هذه السلسلة تهمل وظيفتها ـ يعني دعْ جيلًا واحدًا يتخلف عن أداء مهمته بنقل حكمة الآباء والأجداد إلى الذرية ـ فسترى أن مغامرة الإنسانية ستصاب بنكسة وعودة ملايين السنين إلى الوراء، بحيث أن عليها أن تبدأ كل التجربة من الصفر من جديد)[591].

لذلك كان من الضروري الالتفات نحو جناح الروحانيات الضعيف والعمل على تغذيته وتقويته بعدما أهمل في العقود والقرون العلمية الأخيرة، حتى يهذب الإنسان أخلاقه من جديد ويحدد مسيرته العقلانية ليقف في وجه وحش المادية. فمن ذا الذي يملك هذا الدواء الناجع؟ ومن ذا الذي يبتغي حقًا وباخلاص وصفاء نوايا سلامة الجنس البشري ويضحي في سبيل إنقاذه؟ نحن بحاجة إلى طبيب وحكيم حقيقي يوفق ويوائم بين قوى الروحانيات والماديات. يؤيد «كارل ساغان» ذلك بقوله:

- (والواقع أن العصر الراهن هو مفترق طرق هام أمام حضارتنا وربما أمام نوعنا البشري)[592].

كان هناك على الدوام رافدان ساهما في تطور العقل البشري، الأول باب العلم والمعرفة المادية، والثاني باب الأخلاق والروحانيات، ومع ذلك أهملت البشرية مؤخرًا الرافد الأخير ولم تمنحه ما يستحق من أهمية بسبب استمرار حقبة مرحلة المراهقة، ولم تلج باب علوم الروحانيات مثلما ولجت باب العلوم المادية من أوسع أبوابها. والسؤال الذي يطرح نفسه:

- متى ستلتفت البشرية للجانب الروحاني وتطرق بابه؟ أليست هناك أخطار جمّة متوقعة من هذا العرج الواضح والشلل النصفي في مسيرتها المادية؟ ألا يحتمل أن يفتح عالم الروحانيات عند اتحاده بعالم الماديات أبوابًا من العلوم والمعارف الجديدة العذراء لم يسبق للبشرية دخولها، ومن خلالها قد تنتقل حضارة الانسان إلى عصر نوراني بكر جديد مجيد يتوافق مع تفجر عقول أبنائه الابداعية الرشيدة. لقد أدرك الفلاسفة والحكماء اليوم حاجة البشر لمبادئ روحانية جديدة غير ما نشأت عليها، وتنبهوا أن العلوم المادية والمخترعات التقنية ليست هي الهدف النهائي لأجيالها وزاهر مستقبلهم، وقد حان الوقت لنبش عتيق تربة الأفكار البالية واقتلاع جذور زؤان ترسباتها المضرة وما تيبس منها، دينية كانت أم مادية دون تحفظ أو تأسي عليها. إن الخط البياني لقياس مقدار تقدم العلوم والمعارف كان في قديم الأزمنة يرتفع بنسبة لا تكاد تبدو للعين المجردة، فعلوم الانسان وحضاراته القديمة كانت متقاربة المستويات إلى درجة أن قال بعض علماء الأنثروبولوجيا أن القدماء كانوا يقتبسون علوم بعضهم البعض. فماذا حصل حتى ظهرت طفرة العلوم في القرن التاسع عشر وراح العالم يتغير ويتقدم بصورة مذهلة لتظهر كل هذه المخترعات والمكتشفات وكأنه انقلب رأسًا على عقب! بل إن نبوءات الإنجيل والقران القديمة جاءت دقيقة في وصف هذه الحالة الانفجارية حينما قالا:

- (ولكننا بحسب وعده ننتظر سماوات جديدة، وأرضا جديدة)[593]، وكذلك:

- (ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا)[594]. وكذلك ما ورد في القرآن:

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾[595]. إن ما حدث من تقدم فجائي في أحوال علوم البشر عمومًا، لا يتفق عقلًا ومنطقًا مع قانون الطبيعة في الاستمرارية والتدرج كما يصفها الفيلسوف هيجل وغيره من الحكماء، بل هي حالة انفجارية مختلفة تمامًا عما كانت عليه قديمًا تنافي وتخالف ما أفصح عنه كولن ولسن حينما قال:

- (لم يشر الكتاب المقدس إلى أية عمليات خلق جديدة لاحقة)[596]. ثم أكمل معللًا ذلك:

- (ويرى آخرون في العلم مفتاحا لهذا التقدم)[597]. نعم أن العلم هو السبب الرئيس للتقدم، ولكن السؤال:

- ما هو سبب هذه الطفرة العلمية العجيبة، والبشرية كانت تمضي بخطى رتيبة بطيئة منذ وجودها قبل مئات الألوف من السنين؟ لقد كان الإنسان هو الإنسان والعقل البشري متواجد منذ القدم، واختراعات أهل حضارات الكتابة القديمة في مجال علوم الطب والفلك والكيمياء والهندسة والحساب والبناء والري والزراعة وغيرها الكثير، كانت موجودة منذ قديم الزمان؛ فما هو سرّ هذا الانفجار والتطور العلمي العظيم؟ وأخيرًا، حاول "ولسن" الاستنجاد برأي كارل ماركس عسى أن يجد بعض الحل ليشفي غليله في كشف هذا السر العظيم، حينما قال:

- (ورأى آخرون أن السر يكمن في التقدم الاقتصادي)[598].

وهنا أيضا نجد في هذا التعليل ثلمة واضحة، لأن التقدم الاقتصادي يعتمد على العلم، وازدياد كميات العلوم والمعارف كانت بنسب تدريجية متسلسلة في العقل البشري وداخل المجتمعات منذ بدء ظهور الانسان. فلماذا لم ينشط تقدم اقتصاد الأمم في سابق العصور ـ رغم مرور أزمان طويلة من الاستقرار والرخاء حتى وصفت بعض مراحلها بالأزمان الذهبية ـ بينما نشاهد ظهور عملاق الاقتصاد يأخذ مكان الصدارة فجأة! أما إذا قلنا إن ما حصل من تصاعد في نسبة كميات العلوم كان أمرًا طبيعيًا، فهذه النسبة كانت على مر التاريخ متدرجة وبطيئة الحركة، فماذا حصل ليحدث هذا الإنفجار العلمي والتقني؟ وأين كان العقل البشري حينما لم يجد من قبل سبلًا لاستغلال موارد الطبيعة ويستحوذ على ثمارها؟ ومن أين جاء الأمل الواعد بمستقبل البشرية للأستاذ ولسن حينما ذكر:

- (وكانت الراسمالية الغربية تضاعف من ثروتها، وتغزو بقية الكرة الأرضية، وبدأ الطب يكافح الأمراض الوبائية، ويعمل على تحسين وسائل الرفاهية في الحياة، رافعا من متوسط عمر الانسان، على الأقل بالنسبة لأعضاء المجتمع الموسرين. ومن ثم أصبح بالإمكان التطلع إلى المستقبل في ثقة وشوق. وكان تدهور الاعتقاد في الدورة الألفية Millennius يعني أن المجتمع يمتلك مدى غير محدد من المستقبل يستطيع فيه الاستمرار في تطوره. فالإنسان يستطيع أن يصنع وجوده)[599]؟

من المؤكد إن ما قدمه «ولسن» سبق وشاركه به بقية كبار الفلاسفة، ومع ذلك خيبت هذه التعليلات أمله في العثور على بذرة الحقيقة والصواب، وكل ما حاول وصفه كانت أعراض جانبية لحقيقة السبب الجوهري، ومع ذلك نجده متفاءلًا حينما توقع:

- (فردوس يتحقق في المستقبل هنا على الأرض ويصنعه الإنسان بجهده)[600]!

إن تجاذب وتشادد قوتي الماديات والمعنويات، تسحبنا إلى فكرة وجود مبدأي الخير والشر التي ناقشها عالم الأنثروبولوجيا فريزر ودفعه لتقديم أسئلة فلسفية عن تصارع قواها، حينما قال:

- (1/ هل ستكون الغلبة في آخر الأمر يا ترى للقوى التي تؤدي إلى تحقيق مزيد من التقدم أو لتلك التي تهدد بتدمير كل ما تم إنجازه بالفعل؟

2/ وهل ستكون اليد الطولى للطاقة العارمة المتدفقة من الأقلية التي تستطيع أن تدفعنا إلى آفاق أعلى واسمى، أو للأغلبية الساحقة الخاملة من الناس قد تشدنا بكل ثقلها إلى أسفل وتهوي بنا إلى

أعماق بعيدة الغور؟)[601].

مثل هذه التساؤلات كانت وما تزال عقبة كأداء أمام عقول كبار الحكماء والفلاسفة والمفكرين لتقديم أجوبة مناسبة لها، فلقد قال الفيلسوف «كانط» في ذات المجال:

- (إن ابتكار دستور مدني مثالي للدولة، يمثل بالنسبة للنوع الإنساني «مشكلة» يجب أن يجد الناس حلها بأنفسهم... نحن ككائنات بشرية علينا واجب العمل معًا لإبداع وتحقيق غاية دستور مدني مثالي يقيم العدل بين الناس. ومن أجل هذه الغاية أيضًا، نحن مطالبون بأن نلتمس نظامًا يضمن السلام الدائم بين الدول)[602].

ما يثير الغرابة في مقولة الفيلسوف كانط، هو عدم تقديمه حلولًا مناسبة لأحوال مجتمعات البشر المتردية، وبدلًا من ذلك، راح يتمنى الحلول ويتوسلها من عموم الناس، كما سبق للفيلسوف آرنولد توينبي أن ترجى ذلك من مهاجري الزنوج الأمريكان حينما قال:

- (فلعل المهاجرين الزنوج الأرقاء الذين قابلوا المسيحية في أمريكا، يُنجزون معجزة أعظم من ذلك ببعثهم الميت إلى الحياة. ولعلهم بحدسهم الروحي الشبيه بحدس الأطفال، وعبقريتهم في التعبير تعبيرًا فنيًا جميلا عن مشاعرهم الدينية الانفعالية، يوفقون في إشعال النار في رماد المسيحية الخامد الذي نقلناه اليهم نحن الغربيين، إلى أن تتأجج النار المقدسة مرة أخرى في قلوبهم. فربما أمكن بهذه الطريقة جعل المسيحية تنبض بالحياة مرة ثانية؛ إن كان مكتوبًا لها أن تكون العقيدة الحية لحضارة تحتضر. فإن قدّر أن يتم ذلك على أيدي كنيسة زنجية أمريكية؛ لاعتبر ذلك أعظم مراتب الاستجابة الديناميكية التي قام بها إنسان حتى الآن لتحدي النقمة الاجتماعية)[603].

ما يثير الإستغراب في مثل هذا التصريح، أنه إذا لم يكن بمقدور فلاسفة حكماء وعظماء مثل كانط أو توينبي وفريزر والعشرات غيرهم، تقديم حلول ناجعة لمشاكل الأخلاق البشرية وروحانيتها، فهل من المنطق ان يتمكن عامة الناس فعل ذلك؟ إن مجرد إعلان هذا العجز والتصريح به، لهو بالضرورة من أكبر الأدلة على الحاجة الملحة لشخصية فوقية ميتافيزيقية أعظم مقامًا وأسمى درجة من مستوى فيلسوف أو حكيم، أو حتى من آلهة أو نبي من أنبياء الأمم القديمة، شخصية تقدم لأجيال اليوم المغرورة بمخترعاتها المادية والتقنية أكسير إنقاذ يتناسب مع مستوى مجتمعاتها المتقدمة علميًا. فإذا قارنا بين مستوى تعقيدات مجتمعات البشر قديمًا ـ بل وحتى قبل عشرات السنين فقط ـ وبين تعقيدات ومشاكل الحال الحاضر، لتأكدت الحاجة الملحة لظهور «مخلص» جديد بشريعة أخلاقية واجتماعية جديدة أرقى وأسمى من جميع ما سبق وظهر في جميع العصور، لأن الوضع الاجتماعي العالمي الحالي للبشرية، هو أكثر تعقيدًا وترديًا من جميع أحوال المجتمعات القديمة بتمامها.

إن التطور والتقدم الإيجابي السريع في كميات العلوم والمعارف والمخترعات المادية التي حصلت منذ زمن وجود الأستاذ فريزر حتى اليوم، ساهم بتقدم الكثير من المفاهيم العلمية والفلسفية الجديدة، وهذا الفارق بين العصرين هو الذي أعجز الفلاسفة المحدثين عن التوفيق بين المفاهيم الروحية والمادية وحجب بتوالي تفجراته رؤية تلك الروح الخلاقة التي أشعلت هذه الثورة الفكرية والمعنوية في عقول البشر. لذلك نرى هؤلاء الفلاسفة يأملون من الأجيال القادمة الإجابة على هذه الأسئلة

الفلسفية المعقدة وتقديم حلول لها. والحق يقال أنه حتى فلاسفة الطبيعة عاجزين اليوم عن تقديم حلول ناجعة أو إجابات مناسبة، بدليل خلو الساحة العالمية من أية مناهج اجتماعية أو برامج أخلاقية تتمكن من إيجاد تغيير واضح في حياة الشعوب، بل وما زالت جمرات نيران الحروب تغطيها طبقات رماد خفيفة تلتهب كلما هبّت عليها ريح خفيفة. والسبب لأنهم جميعًا ينتهجون في بحوثهم مبادئ العلوم المادية التقنية رافضين موائمتها وتنسيقها مع مفاهيم الفكر الروحي.

إن الإجابة على أسئلة فريزر وتحقيق أماني توينبي وكانط وغيرهم، أصبحت ممكنة النوال مبدئيًا في هذا اليوم، إذا وجهنا النظر نحو القانون الطبيعي الذي تجري عليه سنن الكون لنستمد منه نوعًا من الإجابة العلمية والعقلية، فالترتيب المادي البديع لكل موجود، يخضع لقانون البداية والرقي ثم النهاية والفناء. فكل شيء يبدأ صغيرًا ثم ينمو ويكبر وينضج ويعطي ثمرة وجوده وكماله في النهاية، ثم تأتي مرحلة الإضمحلال والموت والفناء، بدءًا من الإنسان وبقية الكائنات إلى أكبر النجوم وأصغر الحشرات والطفيليات. لذا فطالما كان لكل شيء درجة نضوج وغاية وثمرة، نلاحظ في المقابل، إن ثمرة وجود الانسان هي الوحيدة التي لم تظهر بعد، بل لم يدخل مرحلة النضوج والإثمار حتى اليوم، وهي (مرحلة العقلانية والحكمة الكاملة)، ناهيك عن دخوله مرحلة النضوج الروحي الذي بقي مستواه متذبذبًا بين دنو وارتقاء، كما شاهدها أحد الحكماء ببصيرته الثاقبة حينما قال:

- (لذلك فما زال أمام الحياة الحاضرة ـ التي نمثلها نحن بني الانسان وأحفادنا من بعدنا ـ الكثير من الوقت لتتطور إلى ما هو أعلى)[604]. كل ذلك يعني أن من شمائل مرحلة النضوج الروحية ومواصفاتها القادمة، هو السلام العالمي والرخاء الممدود والهدوء والروية والتعقل والتفكير والتأمل والحكمة والاختراعات السلمية المفيدة ـ كما هو متوقع من كل إنسان عاقل حكيم ـ وهذا النضوج الروحي والأخلاقي التدريجي سيوصل الانسان مستقبلًا إلى مرحلة راقية يستنبط فيها أحكاما وقوانين تقاوم وتتصدى لأفعال الشرور وتحدها وتوقفها بجديّة وحزم، فحالة السلام والأخاء هي الأصل والغاية من وجود الانسان؛ أما حالة الحرب والنزاع والقتال فهي أمر مرحلي رغم مواكبتها المتقطعة لتاريخ الانسان منذ قديم الزمان. وطالما دعى الأنبياء والعقلاء والفلاسفة إلى السلم والسلام والإبتعاد عن استعمال العنف والقوة وتجنب استخدام السلاح وضرورة التوجه نحو استخدام أقواس الحجة والبيان وسهام الدليل والبرهان؛ إلا أن البشرية كانت وما تزال تفضل استعمال القوة والعنف في حل نزاعاتها، وهذا يعني أنها ما زالت بعيدة عن مرحلة النضوج، ومن الممكن تسمية المرحلة الراهنة بمرحلة المراهقة التي من سماتها الفوضى والعنجهية والتخريب، ومن المؤكد أن هناك مستقبل قد يطول أو يقصر زمن وفوده ـ وهذا أمر مقدر بيد الانسان نفسه ـ ستدخله البشرية لا محالة لتتم خلاله مرحلة النضوج الفكري والروحي، حينما ستتمتع بالسلام والهدوء والراحة والاستقرار ويهنأ البشر بحياتهم ويطمئنوا على مستقبل أولادهم وأحفادهم. والمتوقع من تلك المرحلة المستقبلية، ثورة جبارة في العلوم والمعارف والروحانيات ومبادئ الأخلاق، أعظم بكثير مما هي عليه الان، لدرجة أن لا توجد نسبة بينهما، ولا غرو أن يعتبر الزمن الحالي بمثابة عصر جاهلية بالنسبة لزمن المستقبل، كما أطلق عليه الفيلسوف كانط مصطلح (مجتمع مدني عالمي يقيم الحق الشامل)[605].

أما جواب السؤال الثاني الذي طرحه الأستاذ فريزر عن مصير البشرية ولمن ستكون اليد الطولى في الانتصار، للأخيار أم الأشرار؟ فمرة أخرى واستنادا إلى ذات قانون تدرج الرقي والنضوج والفناء، فإن الغالبية المحرومة من الدراسة والتعليم، وكذلك شريحة الأشرار القليلة نسبيًا التي يخشى فريزر وبقية علماء الاجتماع والانثروبولوجيا سيطرتها على مقاليد مصائر شعوب العالم، ويطلق على مرحلتها الفيلسوف كانط (لا اجتماعية النزعة الاجتماعية)، فسوف تدخل هي أيضا مراحل النمو والنضوج والتعقل بالتدريج، طالما تعيش مجبرة داخل مجتمعات بشرية تخضع لقانون الترقي العام وتتأثر بمؤثراته، ولا بد أن ستطغي على أجيالها عوامل التطور وأجواء السمو الأخلاقي لتساهم أيضًا في رقي البشرية مهما تأخر الوقت عليها، ولن تبقى على ذات الحالة المشوهة، كما أوضح كانط رؤيته التأملية في هذا المجال، حينما قال:

- (فحينما يسعى الناس لإحراز التفوق والتميز على الآخرين، يُتعِسون أنفسهم ويجعلون أنفسهم أشرارًا؛ ولكنهم في هذه العملية، يطورون من قدراتهم التي ستنتقل للأجيال التالية وتثري كلًا من الطبيعة البشرية والتاريخ الإنساني)[606].

إن معضلة وجود مبدأيّ الخير والشر، أو بمعنى آخر، تدني ورقي مستويات الأخلاق، هي مسألة قديمة قِدم التاريخ البشري، ورد ذكرها بوضوح في كتاب زرادشت (الأفستا) وبقية كتب الأديان، واهتم بها الفلاسفة والحكماء وعلماء الاجتماع والكهنة وحاولوا إيجاد تفاسير منطقية لها، ولما لم يجدوا حلًا لها، لعلاقتها الصميمية بالنفس البشرية، ركنوا إلى تفاسير مبهمة غير واضحة هي بذاتها بحاجة إلى أدلة علمية وعقلية.! ولأنهم رواد موجة العلوم الطبيعية، ولإتسام فترتهم بضعف العلوم الدينية والروحية والأخلاقية وإنزواء رجال الدين عن المشاركة في تقديم أية تفاسير مقنعة وافية لها تكشف حقيقة أسرارها، لذا سادت العلوم الطبيعية على الفكر العام دون معارضة روحية مؤثرة ومما غدا مستقبل البشرية متوشحًا بالظلمات والشرور.

إن المستقبل مضمون في انتصار الخير والسلام والنضوج العقلي والروحي على أنصار دعاة الشرور. وبغير هذه النتيجة تكون هندسة الوجود الإعجازية العجيبة وتنظيمها وترتيبها البديع ناقصًا مشوهًا لا قيمة ولا معنى له، بل ويمكن القول أنه لم تكن هناك ضرورة في الأساس لوجود العالم والكون ومخلوقاته والبشر تحديدًا، بل ولا لزوم حتى للطواطم والشيوخ والآلهة والأنبياء، ولا موجب حتى لوجود ذات الإله.

وهذا يجرنا إلى نقطة جوهرية تنتشر بين غالبية علماء الاجتماع من الذين يتناولون أحوال المجتمعات البشرية بمقاييس المفاهيم المادية وينسبون أصل فكرة ظهور الأديان ومعرفة الله لحالة خوف الإنسان من الموت، كما قال فريزر ويرددها الكثيرون غيره:

- (عامل الخوف من الموتى، الذي أعتقد أنه أكبر قوة تقف وراء نشأة الدين البدائي)[607]. فإذا تذكرنا أن المعتقدات الدينية والعبادات القديمة كانت موجودة في زمن وجود إنسان نياندرتال، ولا يوجد ما يمنع تصوّر وجود أصولها وبداياتها قبل ذلك، فآثار التعبد وجدت في قبور الأقدمين حتى جاوزت أعمارها المائة ألف سنة، وإذا تذكرنا كيف مرّ الانسان في أول وجوده بمرحلة عدم الإدراك والوعي حيث لم يكن باستطاعته تفسير وفهم سرّ حالة الموت ناهيك عن إدراك سرّ حالة

الحياة في الأساس، بل لم يكن باستطاعته التفكير بالموت ولا بمعناه، إذ لم تكن تعني له حالة الموت أمرًا مميزًا، فهو حدث طبيعي مكرر يراه في كل وقت وفي كل مكان وهو نتيجة حتمية وطبيعية لغالبية صراعاته مع الحيوان أو مع بني جنسه؛ لهذا فالقول أن حالة الموت نبهت الانسان وأبهرته وأوجدت فيه مشاعر الخوف والرعب وهي التي دفعته للتفكير في أمور الغيب وما وراء الطبيعة، لا يمكن توافقها مع مرحلة اللاوعي الأولى ولا حتى مع مراحل الطفولة البدائية التي لحقت بها لسبب مهم هو عدم نضوج العقل والوعي الانساني آنذاك. فمثلما هي حالة الطفل الصغير خلال فترة عجزه عن معرفة مكامن الخطر وبوادره، ومثلما كان من الضروري بقاءه تحت عين رعاية وحراسة والديه والمحيطين به، وطالما كان الانسان الأول غير قادر على التعمق في التفكير لمستويات فلسفية بمختلف مستوياتها، فالقول أن تأمله حالة الموت هي التي خلقت لديه مشاعر الخوف والرعب ودفعته للتفكير في إبتداع فكرة القوة العليا والإله، لهو نوع من التجاوز على العقل الرصين وعلى أدلته العلمية والتجريبية، وبالتالي هو نوع من تخطي حلقات تطور اجتماعية وحضارية لازمة عديدة.! ففكرة (الإله) هي فكرة معنوية غير محسوسة لا تجتاز الفاصل بين عالمها المعنوي لتهبط إلى العالم المادي حتى يمكن للعقل البشري التقاطها بحواسه والتعامل معها دون وجود أفكار معنوية أولية مكتسبة مسبقة تحفزه على التفكير، كما جئنا على توضيح ذلك بالتفصيل خلال مجمل هذا الكتاب.

مصادر الكتاب

1 ـ أبداعات النار. عالم المعرفة 266. 2001م. تأليف: كاتي كوب، هارولد جولد وايت. ترجمة د. فتح الله الشيخ.

2 ـ أبو كريفا العهد الجديد ج 1. د. ابراهيم سالم الطرزي. الطبعة الأولى.

3 ـ ابيقور. سلسلة أعلام الفكر العالمي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. تأليف بيار بويانسي. تعريب: د. بشارة صارجي. الطبعة الأولى 1980م.

4 ـ أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية. الأعلام من الفلاسفة. دار الكتب العلمية. بيروت. إعداد الشيخ كامل محمد عويضة. الطبعة الأولى 1994م.

5 ـ ابن رشد. عباس محمود العقاد. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

6 ـ أدب الكـالا.. أدب النار. د. خزعل الماجدي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

7 ـ أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ. سلسلة التراث الروحي للانسان. دار الشروق 1997. خزعل الماجدي.

8 ـ أديان العالم. حبيب سعيد. دار التاليف والنشر للكنيسة الأسقفية ـ القاهرة.

9 ـ أديان العالم. هوستن سميث. تعريب: سعد رستم. الطبعة الثالثة. 2007م. دار الجسور الثقافية.

10 ـ ايران في عهد الساسانيين. أرثر كريستنسن. ترجمة يحيى الخشاب. راجعه عبد الوهاب عزام. دار النهضة العربية.

11 ـ الإنجيل.

12 ـ الإنسان وقواه الخفية. كولن ولسن. ترجمة سامي خشبة. الطبعة الثانية 1978م. دار الآداب بيروت.

13 ـ الإنسان نشوؤه وارتقاءه. جان شالين. تعريب: د. الصادق قسومة. الطبعة الأولى 2005. دار بترا.

14 ـ الإنسان. محمد رياض. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

15 ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة. تأليف دكتور عبد المحسن صالح. عالم المعرفة 15، سنة 1979م.

16 ـ الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان. كلود ريفيير. ترجمة وتقديم: أسامة نبيل. 1964. الطبعة الأولى 2015م. المركز القومي للترجمة.

17 ـ أساطير الأولين ـ تأليف ميخائيل أفندي. طبع في مطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت سنة 1894.

18 ـ إسحاق نيوتن والثورة العلمية. تأليف جيل كريستيانسن. تعريب مروان البواب. الطبعة الأولى. 2005م. سلسلة علماء عباقرة. مكتبة العبيكات.

19 ـ أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة. س. بريوشينكين. ترجمة د. حسّان مخائيل اسحق. الطبعة الأولى 2006م. منشورات دار علاء الدين.

20 ـ أعاجيب الكون السبع. الدكتور جيانت نارليكار. دار الحرف العربي. تعريب وتعليق: الدكتور داود سلمان السعدي. الطبعة الأولى. بيروت.

21 ـ أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشية. د. خليل عبد الرحمن. الطبعة الثانية 2008م. روافد للثقافة والفنون.

22 ـ أصل الأنواع. تشارلز داروين. ترجمة: مجدي محمود المليجي. الطبعة الأولى 2004م. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة.

23 ـ أصل الدين. فيور باخ. دراسة وترجمة د. أحمد عبد الحليم عطية. الطبعة الأولى. 1991م. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

24 ـ أصل الأشياء. بدايات الثقافة الإنسانية. يوليوس ليبس. ترجمة كامل اسماعيل. عن دار المدى للثقافة والنشر. الطبعة الثانية 2006م.

25 ـ أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية. الكاتب الأب سهيل قاشا.

26 ـ البدائية. أشلي مونتاغيو. ترجمة د. محمد عصفور. عالم المعرفة 53. 1982م.

27 ـ بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. ترجمة: الدكتور محمد الشحات. الناشر مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة.

28 ـ بلاد ما بين النهرين. تأليف ل. ديلا يـورت. ترجمة محرم كمال. مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر. الطبعة الثانية. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997.

29 ـ بخور الآلهة دراسة في الطب والسحر والاسطورة والدين. الدكتور خزعل الماجدي. الطبعة الأولى لعام 1998. الأهلية للنشر والتوزيع. المملكة الأردنية الهاشمية.

30 ـ دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني. فراس السواح. الطبعة الرابعة 2002م. منشورات دار علاء الدين.

31 ـ دائرة المعارف العربية للبستاني.

32 ـ دراسات في الحضارة. د. لويس عوض. دار المستقبل العربي. الطبعة الأولى 1989.

33 ـ هكذا تكلم زرادشت. تأليف فريدريك نيتشه. ترجمة: فيلكس فارس. مؤسسة هنداوي.

34 ـ هنا بدأ التاريخ. تأليف: س. ن. كريمر. ترجمة وتلخيص: ناجية المراني. الموسوعة الصغيرة 77.

35 ـ وهم الإله. ريتشارد دوكنز. الطبعة الثانية. ترجمة بسام البغدادي.

36 ـ ويكيبيديا. المراجع المؤيدة حرق مكتبة الاسكندرية.

37 ـ الحياة اليومية في العراق القديم. تأليف د. هاري و. ف. ساكز. ترجمة: كاظم سعد الدين. دار المأمون للترجمة والنشر. بغداد 2010.

38 ـ الحضارات القديمة. الجزء الأول. إشراف ف. دياكوف / س. كوفاليف. ترجمة: نسيم واكيم اليازجي. الطبعة الأولى. منشورات دار علاء الدين.

39 ـ الحياة الروحية في بابل. الانسان ـ المصير ـ الزمن. كلشكوف. ترجمة عاكف حمودي. منشورات دار المدى. الطبعة الأولى 1995.

40 ـ الحياة بعد الموات. د. ريموند مودي. المترجم: موريس جلال. مكتبة الفكر الجديد. الطبعة الأولى 2008.

41 ـ حياة المسيح. تأليف عباس محمود العقاد. تاريخ النشر 2005م. شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

42 ـ حِكم النبي محمد. ليو تولستوي. ترجمة سليم قبعين. كلمات عربية للترجمة والنشر.

43 ـ طب وسحر. للدكتور بول غليونجي. أستاذ بكلية طب جامعة عين شمس. المكتبة الثقافية. 1999.

44 ـ كانط. ألن و. وود. ترجمة: بدوي عبد الفتاح. المركز القومي للترجمة. الطبعة الأولى 2014.

45 ـ الكون. دكتور كارل ساغان Carl Edward Sagan. عالم المعرفة 178. ترجمة: نافع أيوب لبّس. مراجعة: محمد كامل عارف. 1993.

46 ـ كوكب الأرض. كارل ساجان. عالم المعرفة 254. ترجمة د. شهرت العالم. مراجعة: حسين بيومي.

47 ـ كيف وجدت الآلهة. دراسة في المادية التاريخية. جون كيرتشر. ترجمة: إبراهيم جركس. شيكاغو 1929.

48 ـ كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد والتوحيد. خزعل الماجدي. المركز الثقافي العربي. الطبعة الأولى 2014.

49 ـ الكشكول البهاء العاملي ج 1. ج 2. www.al - mostafa.com

50 ـ الكلديون/الكلدان منذ بدء الزمان. عامر حنا فتوحي. الطبعة الثانية.

51 ـ لص في الليل..THIEF IN THE NIGHT وليام سيرز. ترجمة سيفي سيفي. 2013م. Published by George Roland.

52 ـ لغز الحياة. الدكتور مصطفى محمود. أخبار اليوم. قطاع الثقافة.

53 ـ ما وراء التاريخ. تأليف وليام هاولز. ترجمة وتقديم: الدكتور أحمد أبو زيد. بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. القاهرة ـ نيويورك. 1965.

54 ـ ما قبل الفلسفة الانسان في مغامراته الفكرية الأولى. هـ. فرانكفورت. ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا. المؤسسة العربية للدارسات والنشر. الطبعة الثانية 1980م.

55 ـ مهزلة العقل البشري للدكتور علي الوردي. ط 2. الطبعة الثانية 1994. دار كوفان لندن.

56 ـ موسى والتوحيد. سيغموند فرويد. ترجمة جورج طرابيشي. الطبعة الرابعة. دار الطليعة ـ بيروت. 1986م.

57 ـ موسوعة شبكة المعرفة الريفية.

58 ـ الملل والنحلل. لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. مكتبة المصطفى الإلكترونية.

59 ـ منابع تاريخ الأديان. فيليب بورجوه. ترجمة فوزية العشماوي. المركز القومي للترجمة. الطبعة الأولى 2015.

60 ـ من الفوضى إلى الإنسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان. ط 1. 2008. منتدى مكتبة الاسكندرية.

61 ـ منجم العمران، لمؤلفه ياقوت الحموي الرومي.

62 ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جفري بارندر. عالم المعرفة 173. ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام. مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي. 1993.

63 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. دكتور جواد علي. الجزء الأول.

64 ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. ج 1. طه باقر. ط. 2. 1955م.

65 ـ مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر). خليل شحادة. مراجعة الدكتور سهيل زكار. دار الفكر. 2001م.

66 ـ مشروع للسلام الدائم. كانت. الطبعة الأولى 1952. ترجمة الدكتور عثمان أمين. مكتبة الإنجلو المصرية.

67 ـ مختصر دراسة للتاريخ. آرنولد توينبي. ترجمة فؤاد محمد شبل. مراجعة: محمد شفيق غربال. 2011. المركز القومي للترجمة.

68 ـ مغامرة العقل الأولى. دراسة في الاسطورة ـ سوريا وبلاد الرافدين ـ فراس السواح. الطبعة 11. 1996.

69 ـ نقد العقل العملي. إمانويل كنت. ترجمة: غانم هنا. الطبعة الأولى 2008. المنظمة العربية للترجمة.

70 ـ نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. ترجمة: أسامة إسبر. مراجعة الأب بولس وهبة. المنظمة العربية للترجمة.

71 ـ عالم تسكنه الشياطين. كارل ساجان. الفكر العلمي في مواجهة الدجل والخرافة. ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم. مراجعة وتعليق: محمد غريب جودة. الطبعة الأولى 2006. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

72 ـ علم الأخلاق. سبينوزا. ترجمة جلال الدين سعيد. دار الجنوب للنشر ـ تونس.

73 ـ علم الأديان. خزعل الماجدي. الطبعة الأولى 2016م. مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع.

74 ـ علم الغيب في العالم القديم. وضعه شيشرون فيلسوف الرومان وخطيبهم. ترجمة: د. توفيق الطويل. الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز.

75 ـ فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسون. المشرف على التحرير: جون جرانت. ترجمة فؤاد كامل. عالم المعرفة 159. 1992م.

76 ـ الفولكلور والميثولوجيا. عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد الأول.

77 ـ فجر الاسلام. أحمد أمين. 1933م. مؤسسة هنداوي 2011م.

78 ـ القران الكريم.

79 ـ قصة الأنثروبولوجيا. فصول في تاريخ علم الإنسان. تأليف دكتور حسين فهيم. 1986م. عالَم المعرفة 98.

80 ـ قصة الحضارة، ويل ديورانت، المجلد الأول. مكتبة مصطفى الإلكترونية.

81 ـ قصة الفلسفة. ويل ديورانت. منشورات مكتبة المعارف بيروت. الطبعة السادسة 1988م. ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع.

82 ـ رينان. حياته، آثاره، فلسفته. تأليف أندريه كريسون. ترجمة: ميشال أبي فاضل. الطبعة الأولى 1977م. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

83 ـ رموز ومعجزات أرنست دوبلهوفر. ترجمة ودراسة د. عماد حاتم. الطبعة الأولى 2007م. منشورات دار علاء الدين.

84 ـ رسالة بطرس الرسول الثانية.

85 ـ شرح الكتاب المقدس ـ العهد الجديد. للقس أنطونيوس فكري.

86 ـ تاريخ العرب قبل الاسلام. الدكتور طه باقر.

87 ـ تاريخ اللغات السامية. الدكتور اسرائيل ولفنسون. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1914م. الطبعة الأولى. مطبعة الاعتماد.

88 ـ تاريخ وقواعد الحضارات. تأليف: فرناند بروديل. ترجمة: سفير. د. حسين شريف. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

89 ـ تاريخ البشرية. آرنولد توينبي. الجزء الأول. نقله إلى العربية: الدكتور نقولا زياده. الطبعة الثانية 1983م. الأهلية للنشر والتوزيع.

90 ـ تاريخ الحضارة. شارل سنيوبوس. تعريب: محمد كرد علي. إدارة مطبعة الظاهر بالقاهرة.

91 ـ تاريخ الحضارات العام. الشرق واليونان القديمة. المجلد الأول. موريس كروزيه. تأليف أندريه إيمار وجانين أوبوايه. نقله للعربية فريد م. داغر وفؤاد ج. أبو ريحان. الطبعة الثانية 1986م. منشورات عوديات. بيروت ـ باريس.

92 ـ تدهور الحضارة الغربية. أسوالد اشبنغلر. ج 1. ترجمة أحمد الشيباني. منشورات دار مكتبة الحياة.

93 ـ التوراة.

94 ـ تراث الاسلام. إشراف سير توماس أرنولد. تأليف جمهرة من المستشرقين. تعريب جرجيس فتح الله المحامي. دار الطليعة للطباعة والنشر.

95 ـ تراثنا الروحي. من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة. بروفيسور سهيل بشروئي ومرداد مسعودي. ترجمة محمد غنيم. دار الساقي. الطبعة الأولى 2011م.

96 ـ تراث العالم القديم. و. ج. دي بورج. ج 1. ترجمة: زكي سوس. مكتبة الاسكندرية.

97 ـ الخالدون المائة. أعظم 100 شخصية في التاريخ. The 100: A Ranking of the most influential Persons in History مايكل هارت. ترجمة: أنيس منصور. المكتب المصري الحديث.

98 ـ الغيب والعقل. دراسة في حدود المعرفة البشرية. أليابس بلكا. الطبعة الأولى 2008م. المعهد العالمي للفكر الاسلامي. الطبعة الأولى 2008م.

99 ـ الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين.. ج 1. سير جيمس فريزر. ترجمة د. أحمد أبو زيد. الجزء الأول. الطبعة الثانية 1998م. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

نبذة عن المؤلف

سيفي سيفي

باحث ومترجم عراقي، مهتم بدراسات تاريخ الأديان في الشرق الأوسط، عمل في صحيفة بغداد أوبزرفر، وفي مؤسسات صحفية عربية، وتنقل بين دول عربية عديدة قبل أن ينتهي به المطاف مقيما في النرويج. تخرج من الإعدادية المركزية 1968م بغداد. ودرس القانون في جامعة بيروت العربية، ثم انقطع بسبب الحرب الأهلية في لبنان.

له مؤلفات وتراجم لكتب من أبرزها:

لص في الليل ـ لوليم سيرز.

الطاهرة أعظم امرأة إيرانية ـ لمارثا روت

الطاهرة ـ كلارا انجيل.

السجين والملوك ـ لوليم سيرز،

وله مؤلف بعنوان: قرّة العين «الطاهرة» والبابية.

Contents

Notes

[←1]

هكذا تكلم زرادشت.. صفحة 11.

[←2]
الكون. كارل ساغان. صفحة 20.

[←3] وهم الإله. ريتشارد دوكنز. صفحة 210.

[←4]

تدهور الحضارة الغربية. أسوالد اشبنغلر. صفحة 125.

[←5]

بداية الكون من الأفلاك الى البشر. جون فايفر. صفحة 264.

[←6] ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 484.

[←7]

ينبغي أن يكون واضحًا أن عدوانية الذكور، التي ربما كانت وظيفية جدًا في العصر الحجري، تهدد الآن البقاء البشري في العصر النووي. (نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 54).

[←8] أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 572.

[←9] قصة الحضارة. ويل ديورانت.ج 1. صفحة 74.

[←10]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 22.

[←11]

إن قصة الحياة على الأرض يمكن أن تكون فريدة من نوعها في مجرة درب اللبانة كلها، فالأرض تتكثف من الغاز والغبار الموجودين بين المجرات من 4.6 مليار سنة تقريبا. ونحن نعرف من سجل الأحافير أن الحياة نشأت بعد ذلك فورًا، وربما قبل 4 مليارات سنة، في مستنقعات ومحيطات الأرض الوليدة. (الكون. كارل ساغان. صفحة 44).

[←12]

لا يزال كوكبنا حتى الآن على الأقل العالم الوحيد الذي نعرف عنه أن المادة الفضائية تحولت فيه إلى مادة حية وواعية، ولا بد أن يكون هناك الكثير من عوالم مماثلة مبعثرة عبر الفضاء. وهكذا فإن الكائنات البشرية التي ولدت في الأصل من النجوم... (المصدر السابق. صفحة 25).

[←13]

وقد أكدت جميع البحوث والدراسات المنجزة.. أن جميع الكائنات الحيّة التي تكوّن المحيط الحيويّ من الكوكب الأرضي لم تظهر دفعة واحدة ولا تلقائيًا، ولم تكن نشأتها منذ البداية على النحو الذي هي عليه الآن، وإنما هي حاصل ترقّ طويل المدى استغرق تدرُّجه من التاريخ دهورًا. (الإنسان نشوؤه وارتقاؤه. جان شالين. صفحة 19).

[←14]

كل عملية تطور تشمل مراحل من الانفرادية والرأسمالية والتنافس، وفي نهاية المطاف يتجمع الأفراد ضمن نظام منسجم واحد. فإن تطور الحياة على وجه الكرة الأرضية يثبت أن قبل مليارات من السنين، قد سكنت الجراثيم الكرة الأرضية، وتكاثرت وبدأ التنافس على الموارد الطبيعية مثل الغذاء ومناطق المعيشة. وفي أعقاب هذا التنافس، ظهر كيان جديد متناسب بصورة أفضل مع ظروف البيئة، وهو مستوطنة من الجراثيم، وهي في الواقع مجموعة واحدة من الجراثيم التي تعمل كجسم واحد. ووفقا لنفس المراحل بالضبط، قد تطورت المخلوقات وحيدة الخلية إلى كائنات متعددة الخلايا حتى تكوّن أجسام حية من النباتات والحيوانات والبشر. (من الفوضى إلى الانسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان. صفحة 45).

[←15]

تاريخ البشر واحد على أساس وحدة الفكر الإنساني، أما التمايز بين الثقافات، فهو وليد ظروف تاريخية معينة. فالمجتمعات قد اعتبرت على الدوام بمثابة وجود متواصل متجانس مؤلف من طبقات تطورية وأقسام موازية، يسير فيها التطور حتما في خط مستقيم، ولا بد من جميع المجتمعات أن تمر بها. يقوم إذن جوهر نظرية التطور على الافتراض بأن تاريخ الجنس البشري قد عرف شكلا موحدا في نشأته، وفي تجربته، وفي تقدمه، وأن اختلاف درجات هذا الشكل، هي في حقيقة الأمر درجات للتطور ذاته، بحيث تكون كل درجة وليدة سابقتها ومساهمة في تشكل تاريخ ما بعدها، أي المستقبل. إن هذه التجربة الإنسانية الواحدة، تقوم على افتراض وجود وحدة سيكولوجية Psychic unity of mankind يشترك فيها الناس جميعا على اختلاف ثقافاتهم. (قصة الأنثروبولوجيا. حسين فهيم. صفحة 104).

[←16]

الكون. كارل ساغان. صفحة 32.

[←17]

إن حجم الكون وعمره خارج إدراك الإنسان العادي. ففي مكان ما بين اتساع الفضاء وخلود الزمن يضيع كوكبنا المعروف بالأرض. (المصدر السابق. صفحة 19).

[←18]

قال أفلاطون: إن الزمان والسموات ظهرا في نفس الآن واللحظة. (فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسون. صفحة 81).

[←19]

قد يكون الكون، في واقع الحال، لا نهائيًا أو غير محدود Bounedless، ولكن المسافة التي يمكن أن نسبر غورها، بأحسن ما لدينا من المَراقب، تبلغ حوالي 10000 مليون سنة ضوئية. وقد تصل الكتلة المحتواة في كرة بهذا الحجم إلى عدة آلاف من مليون مليون مليون كتلة شمسية. إننا نعيش على كوكب سيار ضئيل، يدور حول نجم هو عضو في مجرة تحتوي على مائة ألف مليون نجم مشابه. (أعاجيب الكون السبعة. الدكتور جيانت نارليكار. صفحة 290).

[←20]

جرت أخيرًا مراقبة حلقات الحطام المحيطة بالنجوم الفتية «حديثة النشوء» وقد تكون هذه الحلقات في مرحلة التجمع والاندماج التي تنتهي إلى تشكل كواكب جديدة، الأمر الذي يوحي بوجود عدد كبير جدًا من هذه الكواكب بين نجوم مجرة درب اللبانة. (الكون. كارل ساغان. صفحة 16).

[←21]

لقد شكلت قوى الطبيعة الحياة، بحيث أن كل خلية يجب أن تكون ايثارية تجاه الآخرين لكي تبني جسمًا حيًا. إنها كونت قانونية تكون بموجبها المادة اللاصقة التي تحافظ على تماسك الخلايا والأعضاء كجسم واحد وهي العلاقة الإيثارية القائمة فيما بينها. من هنا يتبين أن القوة التي تخلق وتدير الحياة في الطبيعة هي قوة الإيثار، قوة العطاء والحب، الرغبة بخلق حياة مبنية على أساس قانون الإيثار، الوجود المنسجم والمتوازن بين جميع أجزائها. (من الفوضى إلى الانسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان. صفحة 46).

[←22]

إن ما يحدث بين نجمين من جاذبية حينما يحدث بين فردين من بني الانسان نسميه عاطفة. (لغز الحياة. دكتور مصطفى محمود. 108).

[←23]

إن الأنانية الإنسانية هي القوة الهدامة الوحيدة في العالم، القوة الوحيدة التي تخل التوازن في النظام الشامل للطبيعة. (من الفوضى إلى الانسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان. صفحة 49).

[←24]

لا بد من وجود الانسجام التام بين جميع خلايا الجسم. توجد في نواة كل خلية مادة وراثية متشابهة؛ على كل خلية أن تكون واعية بما يدور بالجسم كله، وأن تعرف ما يحتاج إليه الجسم وما الذي يمكنها أن تقوم به من أجله. لو لم يكن ذلك، لما استطاع الجسم أن يبقى. (المصدر السابق. صفحة 39).

[←25]

إن قصة الحياة على الأرض يمكن أن تكون فريدة من نوعها في مجرة درب اللبانة كلها، فالأرض تتكثف من الغاز والغبار الموجودين بين المجرات من 4.6 مليار سنة تقريبا. ونحن نعرف من سجل الأحافير أن الحياة نشأت بعد ذلك فورًا، وربما قبل 4 مليارات سنة، في مستنقعات ومحيطات الأرض الوليدة. (كتاب الكون. كارل ساغان. ص 44).

[←26]

وقد مرّ زمن قبل الحياة ذاتها كانت الأرض فيه عارية ومهجورة تماما. (المصدر السابق. صفحة 35).

[←27]

إن أبسط عضوية مؤلفة من خلية واحدة هي أعقد بكثير من أدق ساعة جيب، ومع ذلك فإن ساعات الجيب هذه لا تستطيع تركيب ذاتها بشكل عفوي، أو تتطور في مراحل بطيئة وذاتيا. (المصدر السابق. صفحة 42).

[←28]

كان لا بد لنا من أن نمر بالطور الحيواني قبل ان نصل إلى حالة الإنسانية وهذا هو نفس ما يحدث لأي فرد منا قبل أن يولد، وكذلك وهو في فترة طفولته الأولى المبكرة. فلم يتمكن الإنسان من المشي والتفكير واستخدام الآلات إلا لأن بليونا من السنين . أو ما يقرب منها . قد مهدت له سبيل ذلك. (ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 19).

[←29]

وعموما فقد وجد أن الحياة تنشأ بشكل غير متوقع في مركبات الكبريت في الفجوات ذات الحرارة المرتفعة جدا في قاع محيطات كرتنا الأرضية. (الكون كارل ساغان. صفحة 16).

[←30]

ومن المرجح بشدة أن أول كائنات حيّة كانت غير ملائمة، وكانت قدرتها تقل كثيرا عن أحط الميكروبات الموجودة اليوم . ربما كانت قادرة فقط على استنساخ نفسها بفجاجة. (كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 92).

[←31]

وقد أكدت جميع البحوث والدراسات المنجزة.. أن جميع الكائنات الحيّة التي تكوّن المحيط الحيويّ من الكوكب الأرضي لم تظهر دفعة واحدة ولا تلقائيًا، ولم تكن نشأتها منذ البداية على النحو الذي هي عليه الآن، وإنما هي حاصل ترقّ طويل المدى استغرق تدرُّجُه من التاريخ دهورًا. (الإنسان: نشوؤه وارتقاؤه. جان شالين. صفحة 19).

[←32]
وتجمعت دلائل جديدة توحي أن المذنبات تدفع دوريا بعض محتوياتها بشكل رذاذ إلى داخل النظام الشمسي مما يؤدي إلى انقراض الكثير من أنواع الكائنات الحيّة على الأرض. (الكون. كارل ساغان. صفحة 16).

[←33]

وأقدم ما وصل إلينا مما عثر عليه إلى الان من تراث الأقدمين، هو ما قاله الفيلسوف الإغريقي «انكسمندر» «610 ق.م.» أن نشأة الكائنات الحية هو نتيجة تأثير الشمس على الارض، وتميز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة، وأن الأرض كانت في البداية طينية ورطبة أكثر مما هي عليه الان، فلما وقع فعل الشمس، دارت العناصر الرطبة في جوفها، وخرجت منها على شكل فقاقيع، وتولدت الحيوانات الأولى، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة، وكانت مغطاة بقشرة كثيفة تمنعها من الحركة والتناسل وحفظ الذات، فكان لا بد من نشوء مخلوقات جديدة، أو بسبب ازدياد فعل الشمس في الارض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها، أما الانسان فإنه ظهر بعد الحيوانات كلها، ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها، فخلق أول الأمر شنيع الصورة ناقص التركيب، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة. (أصل الأنواع. تشارلس داروين. صفحة 52). (دائرة المعارف العربية للبستاني).. أنظر أيضا كتاب (قصة الفلسفة لويل ديورانت، صفحة 83).

[←34]
كانت هذه الكائنات الحيّة الأولى مصنوعة من قطع، أو أجزاء، أو وحدات بنائية كان يتعين عليها أن تأتي للوجود وحدها . أي مدفوعة بقوانين الفيزياء والكيمياء إلى أرض بلا حياة. (كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 92).

[←35]

أثبت اكتشاف هنري بيكريل وآرنست رذرفورد لعمليات النشاط الإشعاعي في أوائل القرن العشرين، أن هناك مصدرًا مجهولًا للحرارة في باطن الأرض، إذ تنبعث الحرارة من المعادن بمعدل غاية في البطء، ويعتقد الجيولوجيون في الوقت الحاضر أن الارض اكتسبت أولا قشرة مستديمة منذ حوالي 2800 مليون سنة خلت، وإن كان من المعروف أن هناك صخورًا عمرها أكثر من 3000 مليون سنة. وأقدم الصخور المعروفة وهي صخور ما قبل العصر الكمبرّي يرجع تاريخ نشأتها إلى أكثر من 600 مليون سنة. (فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن.. صفحة 32).

[←36]

كل عملية تطور تشمل مراحل من الانفرادية والرأسمالية والتنافس، وفي نهاية المطاف يتجمع الأفراد ضمن نظام منسجم واحد. فإن تطور الحياة على وجه الكرة الأرضية يثبت أن قبل مليارات من السنين، قد سكنت الجراثيم الكرة الأرضية، وتكاثرت وبدأ التنافس على الموارد الطبيعية مثل الغذاء ومناطق المعيشة. وفي أعقاب هذا التنافس، ظهر كيان جديد متناسب بصورة أفضل مع ظروف البيئة، وهو مستوطنة من الجراثيم، وهي في الواقع مجموعة واحدة من الجراثيم التي تعمل كجسم واحد. ووفقا لنفس المراحل بالضبط، قد تطورت المخلوقات وحيدة الخلية إلى كائنات متعددة الخلايا حتى تكوّن أجسام حية من النباتات والحيوانات والبشر. (من الفوضى إلى الانسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان صفحة 45).

[←37]

وقد ظهر عنصر الجنس منذ العصور الأولى من الحياة، وقد أمكن مشاهدة هذه الظواهر في البكتريا: فتتقابل خليتان بكتريتان، وتتصلان، وبعد بضع دقائق تبدأ سلسلة طويلة من (DNA) تنتقل من إحداهما (كأنها الذكر) إلى الأخرى (كأنها الأنثى). وقد يستمر الإتحاد حوالي نصف ساعة، ثم تنفصلان، وتنقسم الأنثى مكونة خليتين جديدتين، تحوي كل منهما المواد الوراثية المشتركة المتكونة من الخليتين الأصليتين. (بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 210).

[←38]

هكذا كانت قصة الماضي كما نراها اليوم: عشرة بلايين من السنين من خلفنا تنحدر في جوف الزمن انقضت في تشكيل المادة وصياغتها: تشكيلات غير حيّة في البداية «من السحابة الأولى التي لا نظام فيها ولا ترتيب إلى المجرات والنجوم والكواكب والأقمار إلى البلورات» ثم تطورت مادة السحابة إلى أشكال أعقد وأعقد، وتدرجت من اللاحياة إلى الحياة «من البلورات إلى الجزيئات المتكاثرة إلى الخلايا إلى مجموعات الخلايا إلى الحيوانات الفقرية ذات الزعانف إلى الحيوانات ذات القشور، إلى الحيوانات العملاقة المدرعة، إلى الحيوانات ذات الدم الحار»، واستمر إزدهار الحياة، واندفاع أشكالها المتزايدة، حتى زادت أنواعها وأجناسها منذ ظهرت على سطح الأرض على الخمسمائة مليون. (المصدر السابق. جون فايفر. صفحة 295).

[←39]

أصل الأنواع. تشارلس داروين. صفحة 52.

[←40]

يكشف التشريح في الهيكل العظمي للانسان نفس فقرات الذيل التي في القرود وقد تدامجت والتحمت لإنعدام وظيفتها.. وأكثر من هذا يجد عضلات الذيل نفسها وقد تحورت إلى قاع متين للحوض.. (لغز الحياة. دكتور مصطفى محمود. صفحة 55).

[←41]

كوكب الأرض. كارل ساجان. صفحة 61.

[←42]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسون. صفحة 280.

[←43]

إذا قارنا المراحل أو العصور اللتين مر بهما الإنسان منذ عهوده القديمة إلى الوقت الحالي، وجدنا أن الإنسان القديم قد قضى حوالي ثلاثة ملايين سنة وربما أكثر في جماعات بشرية صغيرة اعتمدت في حياتها على الصيد وجمع الثمار خلال ما يطلق عليه الأركيولوجيون بالعصر الحجري القديم Paleolithic. (قصة الأنثروبولوجيا. د. حسين فهيم. صفحة 214).

[←44]

«الكور»، هو حقبة تاريخية طويلة تشمل مجموعة من حضارات البشر المتشابهة.

[←45]

إن البحوث التي أجراها ريموند دارت (Raymond Dart) ولويس ليكي (Louis Leakey) وأسرته في أفريقيا . تقصت آثار سلالة أكثر بدائية من أنماط الإنسان/القرد (Hominid)، مثل الأوسترالوبيثيكوس، وأرجعتها إلى حوالي ثلاثة ملايين من السنين. (فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 36).

[←46]

ظهر عنصر الجنس منذ العصور الأولى من الحياة، وقد أمكن مشاهدة هذه الظواهر في البكتريا: فتتقابل خليتان بكتريتان، وتتصلان، وبعد بضع دقائق تبدأ سلسلة طويلة من (DNA) تنتقل من إحداهما (كأنها الذكر) إلى الأخرى (كأنها الأنثى). وقد يستمر الإتحاد حوالي نصف ساعة، ثم تنفصلان، وتنقسم الأنثى مكونة خليتين جديدتين، تحوي كل منهما المواد الوراثية المشتركة المتكونة من الخليتين الأصليتين. (بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 210).

[←47]
وإذا حلت ببعض القبائل مجاعة أو تهددتهم مجاعة، قتلوا أطفالهم حديثي الولادة أو أكلوهم. (قصة الحضارة. ج 1 صفحة 47).

[←48]

إن الفترة الممتدة من الألف التاسع إلى الألف الرابع قبل الميلاد في العراق القديم ليست بالفترة البسيطة فهي تعادل الفترة بين ظهور سومر حتى يومنا هذا. (أدب الكالا. خزعل الماجدي. صفحة 11).

[←49]

لم تطبع فينا الطبيعة منذ ولادتنا معلومات وغرائز بنسبة كافية التي تتيح لنا العيش بتوازن. ونتيجة لذلك، لا نعرف بصورة مؤكدة ما هو السبيل للعيش بصورة سليمة. (من الفوضى إلى الانسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان. صفحة 48).

[←50]

أنظر صفحة 88 من كتاب «نشأة النظام الأبوي» للمؤرخة غيردا ليرنر.

[←51]

فالرجل من الناس وحشي في صميمه يتصدى للعالم كله تصدي العدو لأعدائه. (قصة الحضارة. ج 1 صفحة 21).

[←52]
وكانت الألفان 10 . 9 ق.م. زمنًا هلكت فيه الحيوانات جماعات: الماموث، ووحيد القرن الأوبر، والمستودون، والميغاتير، والهليبتودون، والنمور ذات الأنياب النصلية . في أوروبا، وآسيا، وأمريكا الشمالية والجنوبية. لقد أرخ عمر واحدة من أكبر مقابر الماموث في وادي نهر بيريلياخ في ياقوتيا بالعام 11830 ق.م. (أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صقحة 44).

[←53]
فحتى في أولى وأقدم مراحله (الإنسان)، حين كان لا يزال سمكة، كانت تتوافر فيه كل الملامح الرئيسية وهي: العمود الفقري والجمجمة والجهاز المخي المركزي وجهاز الدورة الدموية، بل وأيضًا بوادر الأطراف والرئتين. فلما انتقل من البحر إلى البر اتخذت هذه «السمكة» شكلا أكثر تطورًا يتمثل في البرمائيات والزواحف القديمة. (ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 20).

[←54]

إن تطور المجتمع الإنساني عبر التاريخ يوازيه تطور الأفراد من عهد الطفولة إلى عهد النمو الجسماني والاجتماعي، وقد أشير أحيانا إلى «طفولة الجنس البشري» وإلى «يفاعة» إنسان ما قبل التاريخ وأنداده الأحياء، وإلى تناولهم الساذج، غير الراشد، لعالم الواقع). (البدائية. أشلي مونتاغيو. صفحة 22).

[←55]

إن الجنين يعيد قصة التطور التي استغرقت ثلاث آلاف مليون سنة من الميكروب ذي الخلية الواحدة.. يعيدها مضغوطة في تسعة شهور.. يبدأ حياته بخلية واحدة ملقحة (الزيجوت) تأكل جدار الرحم كأي ميكروب، وتلوذ بتجويف من اللحم داخله، ثم تبدأ في الانقسام إلى خليتين ثم أربع ثم ثمان..إلخ، ثم تتلاحم لتكون نسيجًا من طبقتين أندودرم وأكتودرم، كما في حيوانات الهيدرا البدائية. (لغز الحياة. دكتور مصطفى محمود. صفحة 57).

[←56]

أبيقور. بيار بويانسي. صفحة 45.

[←57]

إن أكثر الاختبارات بدائية للسماء تكشف عن أننا مميزون، فالكون يبدو مصنوعا من أجل البشر. ويصعب التفكير مليا في هذه الظروف وتأملها دون المرور بخبرة الإثارة المصاحبة للشعور بالافتخار والوثوق. إن الكون بأكمله مصنوع من أجلنا! إذن لا بد أن نكون بشرا مهمين حقا. (كوكب الأرض. كارل ساجان. صفحة 28).

[←58]

كان جوّ الأرض هو خليط النوشادر والميثان وأول أكسيد الكربون وبخار الماء، وكانت الصواعق الكهربائية تخترق هذا الخليط، والأشعة فوق البنفسجية تصل حرة من الشمس لا تحجبها مظلة الأوزون كما يحدث الآن. كانت الظروف إذن مهيأة لتكوين هذه المركبات الفريدة التي اسمها الأحماض الأمينية.. والعلم يقول إنها ممكنة، فالزمن طويل.. آلاف الملايين من السنين.. وأمام هذه الذرات التي تتحد وتنحل على شتى الأنماط والصور في عشوائية تامة.. أمامها لا نهاية من الفرص. (لغز الحياة. دكتور مصطفى محمود. صفحة 95).

[←59]

ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 128.

[←60]

كانت هناك نظريات أكثر جرأة، ترى على أساس من التخمين أن في الإمكان وجود شعوب لا تنتمي إلى آدم 'الشعوب السابقة على آدم The Pre - Admites'. (قصة الأنثروبولوجيا. دكتور حسين فهيم. صفحة 67).

[←61]

أن أسيويين هم الذين اكتشفوا أمريكا صدفة خلال العهد الجليدي الأخير. فقبل ثمانين ألف سنة وعند نهاية العصر الجليدي البيني الأخير صار الطقس باردًا ورطبًا على جميع نصف الكرة الأرضي الشمالي، وقد غطى الجليد الذي في شكل ركام عظيم أو في شكل مجلدة كبيرة شمال أوروبا وأمريكا الشمالية بطبقات ثلجية تبلغ أحيانا ألفي متر. وقد تم ذلك خلال ما يقارب 20 ألف سنة، وقد أدت مثل هذه الكتلة الثلجية المكونة انطلاقا من الأمطار إلى انخفاض ملحوظ في مستوى البحر بلغ ما بين 150 و200 مترًا. ومن نتائج هذا الانخفاض الذي أدى إلى بروز ممرات كانت مختفية تحت مياه البحار عندما كان مستواها مرتفعًا. (الانسان نشؤوه وارتقاءه. جان شالين. صفحة 125).

[←62]
سلسلة جزر بركانية ممتدة غرب شبه جزيرة ألاسكا في شمال المحيط الهادي، مكونة من 14 جزيرة كبيرة وحوالي 55 جزيرة صغيرة.

[←63]

وبالمناسبة يعرض محمد رياض «تصورًا» لما حدث قبل مئات الألوف من السنين محاولًا تقديم حلولًا توفيقية تفسر كيفية انتشار الإنسان القديم في أنحاء الأرض خلال الفترات الجليدية القديمة، قال: . (حين تتكدس كميات كبيرة من مياه البحار والمحيطات في غطاءات جليدية هائلة المساحة والسمك فوق شمال ووسط آسيا وأوروبا وأمريكا... يترتب على انسحاب تلك المياه وتجمدها انخفاض منسوب سطح البحار مائة متر أو أكثر، تصبح معه المضايق والبواغيز التي نعرفها الآن أراضي جافة، تشكل جسورًا طبيعية عريضة الاتساع، تنتقل عليها الكائنات بما فيهم الإنسان. مثلًا البحر الأحمر كان أقل من نصف مسطحه الحالي، ولم يكن هناك خليجا السويس والعقبة ولا مضيق باب المندب ولا جزر البحر. كذلك كان هناك برزخ بري بدل مضيق جبل طارق، وفي فترة ما ارتبطت تونس بإيطاليا وأصبح البحر المتوسط بحيرتان منفصلتان، وبالمثل لم يكن هناك مضايق البوسفور والدردنيل. وكان البحر الأسود بحيرة متوسطة الاتساع، والجزء الشمالي منه كانت أرضًا متصلة بسهول أوكرانيا. أيضًا لم يكن هناك الخليج العربي، فابتداء من مضيق هرمز إلى العراق كان أغلبه أرضًا يربط الجزيرة العربية وايران. حدث مثل ذلك في كل جهات العالم، وبخاصة جسرًا أرضيًا كبيرًا يربط سيبيريا وألاسكا وأمريكا الشمالية، عبرت عليه فيما بعد مجموعات المغول الذين عمروا الأمريكتين فقط منذ نحو 20 ألف سنة). (الإنسان. محمد رياض. صفحة 37).

[←64]

(وقد تحصل الباحثون على تواريخ تعود إلى ما بين 70 ألف سنة و28 ألف سنة. وقد أرجع هيكل عظمي لطفل عُثر عليه في منطقة «ألبرتا» (Alberta) بكندا إلى ما بين 60 ألف سنة و40 ألف سنة.). الانسان نشوؤه وارتقاءه. جان شالين. صفحة 124.

[←65]

ثمة اختلاف آخر بين الحضارات والمجتمعات البدائية، مداره قلة عدد الحضارات المعروفة، في حين يجاوز عدد المجتمعات البدائية المعلومة ذلك كثيرًا. ولقد شرع ثلاثة من علماء الأجناس عام 1915 في دراسة مقارنة للمجتمعات البدائية، واقتصروا على تلك المجتمعات التي تيسر جمع معلومات كافية عنها، فأمكنهم تسجيل 650 مجتمعا ما يزال معظمها قائما حتى الآن. على أنه من المستحيل تكوين أي رأي عن عدد المجتمعات البدائية التي لابد أن تكون قد ظهرت في الوجود فعلا ثم عفى الزمن عليها منذ أن استقام الانسان بشرا سويا، ربما منذ ثلاثمائة ألف سنة خلت. إلا أنه من الجلي، أن عدد المجتمعات البدائية أكثر بكثير من عدد الحضارات... فإن المجتمعات البدائية . في حشودها . قصيرة الأجل إلى حد ما. وتنحصر في مناطق جغرافية ضيقة النطاق نوعا ما، وتضم عددًا من البشر صغيرًا نسبيًا. (مختصر دراسة للتاريخ. آرنولد توينبي. ج 1 صفحة 58 . 59).

[←66]

إن الانسان والشمبانزي يشتركان في 99,6 في المئة من الجينات الفعالة. (كوكب الأرض. كارل ساغان).

[←67]

وقد أصبح «إنسان نياندرثال» أسطورة بعد أن أصبح الدليل الأول لداروين في تفسيره لتطور الإنسان. ولكن أسيء وصفه في كثير من الكتب المبسطة عن علم الحفريات، بل وفي كل كتبه العلمية تقريبًا كذلك، حتى أصبح مرادفًا (عن خطأ) لنصف الغوريلا، أو كنج كونج صغير، وتصفه حتى الكتب العلمية الحديثة بأنه «شنيع ومنفر» و«كريه الشكل» و«رديء التصميم» ويؤكدون (خطأً) عدم مقدرته على المشي منتصبًا، وأنه كان يمشي وركبتاه مثنيتان. وكانت كل هذه الأوصاف مأخوذة أساسًا من دراسة هيكل وجد في فرنسا منذ نصف قرن . ولكن ثبت أن ذلك الهيكل كان لرجل عجوز يشكو من التهاب مزمن في المفاصل. والحقيقة أن «إنسان نياندرثال» لم يكن جميلا يسر النظر، ولكنه لم يكن بأي حال دون مستوى البشر، وكان مخه أكبر من مخنا، وإن كان كبر المخ ليس المقياس الوحيد للذكاء، فلم تكن قد اكتملت لدى ذلك الكائن بعد بعض المراكز العصبية العليا. وبالإضافة إلى هذا، فقد كان ذلك الإنسان يمشي منتصبًا، وقد جاء في تقرير حديث عنه أن مظهره ليس منفرًا على الاطلاق وأنه «إذا استكمل ووضع في أي طريق في بلد أمريكي بعد أن يستحم ويحلق ويلبس ملابس حديثة، لما لفت الأنظار أكثر من أي آدمي آخر. (بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 276).

[←68]

وقد بينت المقارنة بين معطيات التطور عند الشمبانزي ومعطيات التطور عند الانسان أن اللغة المنطوقة تصير ممكنة إذا ما تمّ نزول الحنجرة نزولا يزيد من سعة مجال رنين الأصوات في قصبة الهواء، ويحصل هذا النزول عند صغير البشر عندما يكون عمره سنة ونصفا تقريبا. أما عند الشمبانزي فإن الحنجرة تبقى مرتفعة، فلا يتم نزولها، وهو ما يحول ماديا دون قدرتها على الكلام المنطوق. وفي الطبيعة تتواصل قردة الشمبانزي فيما بينها عن طريق الحركات وتعابير الوجه والصيحات، ولا يمكن أن يحصل تراكم المعرفة عند القرد أو بين قردة المجموعة، ولا يمكن انتقال هذه المعرفة من جيل إلى آخر إلا بواسطة الكلام الكفيل وحده بحفظ التجارب المعيشة. وفي هذا الموضوع تمكن إضافة أشياء كثيرة أخرى. (الانسان نشوؤه وارتقاءه. جان شالين. صفحة 144).

[←69]

مختصر دراسة للتاريخ. آرنولد توينبي. ج 1 صفحة 354 . 355.

[←70]

ويظهر من دراسة الأسلحة وأدوات القنص البدائية لهذه القبائل بكل وضوح، أن القناص الفرد لم يكن بامكانه قط أن يصطاد مثل هذه الحيوانات الهائلة دون مساعدة أفراد قبيلته، وأن القنص الجماعي كان بناء على ذلك ضرورة حياتية. (أصل الأشياء. صفحة 64).

[←71] قصة الحضارة. المجلد الأول. صفحة 9.

[←72]
في كثير من المجتمعات البدائية تنحصر السلطة وتصريف شئون الحكم في أيدي شيوخ القبيلة وزعمائها أو في أيدي كبار السن الذين يؤلفون معا وحدة اجتماعية وسياسية متماسكة ومتمايزة عن غيرها من السكان، وذلك على أساس عامل السن وحده، كما هو الحال في المجتمعات التي يخضع تنظيمها الاجتماعي والسياسي لما يعرف باسم طبقات أو فئات العمر age . set system وفي هذا النوع من التنظيم الاجتماعي ينقسم أعضاء المجتمع من الذكور إلى عدد معين من الفئات التي تتمايز بعضها عن البعض على أساس التقارب في السن بحيث تتولى كل فئة منها وظيفة اجتماعية محددة مثل الوظيفة الحربية التي يتولاها الشبان والرجال في مقتبل العمر حتى سن الثلاثين مثلًا، ثم الوظيفة السياسية التي يتولاها الرجال بين سن الثلاثين والخامسة والاربعين، ثم الوظيفة الدينية التي يتولاها الشيوخ حتى مماتهم. وينتقل أعضاء القبيلة بين هذه الوظائف المختلفة نتيجة لتقدمهم في العمر. (كتاب الغصن الذهبي. جيمس فريزر. الحاشية صفحة 163).

[←73]
إن مهام التربية لدى الشعوب البدائية ترتقي إلى مستوى الضرورة الحياتية للقبيلة بمجموعها. (أصل الأشياء. صفحة 209).

[←74]

الايثار . تحرك داخلي في الإنسان من داخله، من صميم قلبه وإرادته، باتجاه مشاعر الآخرين كجزء منه، هو نفسه. (من الفوضى إلى الانسجام. صفحة 64).

[←75]

أصل الأشياء. صفحة 208.

[←76]

كلما كانت تركيبة اجتماعية ما، أقرب إلى مهد البشرية الأولى، كانت اقدم وأكثر عزلة، وبالتالي كانت مفاهيمها أبعد عن عالم التخصص بمفهومنا المعاصر. (أصل الأشياء. صفحة 209).

[←77]

أما الرؤيا والتعبير لها، فقد كان موجودًا في السلف كما هو في الخلف. وربما كان في الملوك والأمم من قبل... وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق. (مقدمة ابن خلدون. صفحة 625).

[←78]

أنظر كتاب شيشرون في تأييد التكهن بالغيب. صفحة 33.

[←79]

(إن الميتافيزياء إذا ما بينت يومًا فإنها سوف تتلقى فعلًا مغزى العلم الذي يمكن أن يسن بعد أن يكتمل مبنى الفيزياء الأساسية). «أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 472».

[←80]

ومن تفرعات هذه النظرة التي لم تختف حتى في أيامنا هذه ما يدعى بنظرية التلخيص، وهي التي تقول إن تطور المجتمع الإنساني عبر التاريخ يوازيه تطور الأفراد من عهد الطفولة إلى عهد النمو الجسماني والاجتماعي، وقد أشير أحيانا إلى «طفولة الجنس البشري» وإلى «يفاعة» إنسان ما قبل التاريخ وأنداده الأحياء، وإلى تناولهم الساذج، غير الراشد، لعالم الواقع. (البدائية. أشلي مونتاغيو. صفحة 22).

[←81]

إذا استسلم للنوم امرؤ دأبه الاعتدال والقناعة في حياته وطعامه، وقوته المفكرة الناطقة نزاعة إلى أمر مشروع، فياضة بأنبل الأفكار، وتكون القوة «الشهوية» التي تغذيها اللذات البهيمية لم يجهدها الإفراط، ولم ينهكها التفريط.. عندما يحدث كل هذا، تضيء القوة الناطقة المفكرة، وتصبح مهيأة لتلقي الرؤى قادرة عليها، وعندئذ تكون أحلامه هادئة صادقة موثوقا بها. هذا هو نص الألفاظ التي قالها أفلاطون تماما. (علم الغيب في العالم القديم. شيشرون. صفحة 77).

[←82]

قال أفلوطين بأن الإنسان مكون من عنصرين الأول ينتمي لعالم المادة والثاني ينتمي لعالم العقل الكلي. ولما كانت المادة هي مصدر كل الشرور فإن على الإنسان أن يسعى للتخلص من عنصره المادي عبر التأمل والزهد ليرقى بعنصره الروحاني إلى درجة الاتحاد الصوفي المنتشي مع الواحد المطلق (الله). (أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 576).

[←83]

قصة الحضارة . ويل ديورانت. ج 1. صفحة 22.

[←84]

ثمة اختلاف آخر بين الحضارات والمجتمعات البدائية، مداره قلة عدد الحضارات المعروفة، في حين يجاوز عدد المجتمعات البدائية المعلومة ذلك كثيرًا. ولقد شرع ثلاثة من علماء الأجناس عام 1915 في دراسة مقارنة للمجتمعات البدائية، واقتصروا على تلك المجتمعات التي تيسر جمع معلومات كافية عنها، فأمكنهم تسجيل 650 مجتمعا ما يزال معظمها قائما حتى الآن. على أنه من المستحيل تكوين أي رأي عن عدد المجتمعات البدائية التي لابد أن تكون قد ظهرت في الوجود فعلا ثم عفى الزمن عليها منذ أن استقام الانسان بشرا سويا، ربما منذ ثلاثمائة ألف سنة خلت. إلا أنه من الجلي، أن عدد المجتمعات البدائية أكثر بكثير من عدد الحضارات... فإن المجتمعات البدائية . في حشودها . قصيرة الأجل إلى حد ما. وتنحصر في مناطق جغرافية ضيقة النطاق نوعا ما، وتضم عددًا من البشر صغيرًا نسبيًا. (مختصر دراسة للتاريخ. آرنولد توينبي. ج 1 صفحة 58 . 59).

[←85]

لا شك أن حياة القنص أبعد أنواع الحياة عن حالة المدنية: لأن تلك المهنة تضطر العائلات إلى الإنعزال، وسرعان ما يصبح بعضها غريبًا عن بعض، ثم يصبح بعضها معاديًا لبعض، بسبب تشتتها في الغابات الشاسعة: إذ أن كل عائلة تكون محتاجة للحصول على غذائها وكسائها إلى الفضاء الواسع «أو المجال الحيوي». (مشروع للسلام الدائم. كانت. صفحة 72).

[←86]

في الثقافات القبلية يتولى كبار «شيوخ» القبيلة، الذين يجسّدون حكمة القبيلة ويتمتعون باحترام فائق وتكريم، عملية حفظ التعاليم المقدسة والأساطير المروية والحفاظ عليها. وكبار القبيلة هم، كما كانت الحال، الذين يقومون بانفسهم، ككتب حيّة تعيش وتتنفس، بنقل تعاليم القبيلة لمن يخلفونهم عن طريق الكلمة المحكية وبوسائط أخرى خلاّقة كالرقص والغناء والتمثيل. (تراثنا الروحي. سهيل بشروئي. صفحة 14/4).

[←87] قصة الأنثروبولوجيا. دكتور حسين فهيم. صفحة 82.

[←88] نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 395.

[←89]

كان للمرأة الدور الأكبر في هذا الاكتشاف، فالزراعة أهم ثورة في التاريخ البشري وهي، كما تثبت الأبحاث الأثرية الكبيرة، من ابتكار النساء، والأرجح أنها رفعت مقام النساء في كثير من المجتمعات التي حدثت فيها.. فلما اخترعت الزراعة خطا الانسان أول خطواته الجبارة نحو السيطرة على الطبيعة، والنساء اللواتي تعلمن غرس بعض هذه البذور في التربة، وبذلك حصلن على أكثر ما قد تجود به الطبيعة. (بخور الآلهة. خزعل الماجدي. صفحة 117).

[←90]

قصة الحضارة. وول ديورانت. ج 1. صفحة 32.

[←91]

من المؤسف أن نقرأ للفيلسوف تولستوي رأيا عجيبًا عن المرأة. قال: . (على الرجل أن يكد ويشتغل، وما على المرأة إلا أن تقيم في البيت، لأنها زوجة، أو بعبارة أخرى إناء لطيف سريع الانثلام والانكسار. على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان؛ بل يحجبها في البيت، والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة.. إذا قلنا: إنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طول حياتها فما مثلنا في ذلك إلا مثل من يوقد شمعة وهو يعتقد أنها تدوم مضيئة طوال الدهر.). (حِكَم النبي. ليو تولستوي. صفحة 29 ـ 30).

[←92]

قصة الحضارة. وول ديورانت. ج 1. صفحة 30.

[←93]

التابوهات (مفردها تابو) رموز مجسمة قد تكون لأشياء أو لحيوانات نالت شكل القدسية بين مجموعة من الأفراد من خلال أوامر اتفق عليها توجب أو تنهى عن اتيان أعمال محددة أو استعمال ألفاظ أو كلمات معينة.

[←94]
بعد ظهور الأدوات الحجرية، ترك لنا الانسان الأول إلى جانب أدواته شواهد على وسطه الفكري، تشير إلى بوادر دينية لا لبس فيها، وتبين ظهور الدين إلى جانب التكنولوجيا كمؤشرين أساسيين على ابتداء الحضارة الانسانية. ولا زلت إلى يوم الناس هذا، لا أرى في كل نواتج الحضارة الانسانية إلا استمرارًا لهاتين الخصيصتين للانسان؛ فكل ارتقاء مادي تكنولوجي قد تسلسل من تلك التقنيات الحجرية الأولى، وكل ارتقاء فكري وروحي قد تسلسل من تلك البوادر الدينية الأولى وتطور عنها. (دين الانسان. فراس السواح. صفحة 19).

[←95]
الطوطم، رمز مجسم مثل الجماجم والعصي أو حاجات مختلفة استعملها الانسان المميز أو الآباء والأجداد فاعتبرها الأحفاد البدائيون مقدسة تجب معاملتها باحترام ولا يجوز العبث بها.

[←96]

كان الشامان هم قادة البشر الروحانيون، ينتشرون في أصقاع الأرض البعيدة عن مراكز التجمعات البشرية، مثل الأمريكتين وقطبي الأرض ومناطق الشرق الأقصى. وذكر أن جيوش المغول التي احتلت بغداد كانت تعتنق هذه المعتقدات: (ولقد بقي المغول متمسكين بدينهم «الشاماني»). (تراث الاسلام. سير توماس آرنولد. ص 121).

[←97]

وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أي الأشياء في هذا العالم الفسيح كان أول معبود للانسان... ولسنا ندري متى حلت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء عند الديانة البدائية. (قصة الحضارة . المجلد الأول. صفحة 114).

[←98]
يكاد العلماء يجمعون الآن على وجود رابطة وثيقة بين الأساطير والطقوس. وأثبتت الدراسات العلمية لحياة الجماعات البدائية أن الاسطورة عند الانسان البدائي إنما تعني حكاية واقعية، لها مكانها الممتاز في حياته لسببين: أولهما: قداسة الاسطورة عند الانسان البدائي. وثانيهما: أن لها هدفًا عظيمًا في تصورة. (عالم الفكر . ج 3 . ع 1. الفولكلور والميثولوجيا. صفحة 18).

[←99]

إن عديدًا من الأباطرة كانوا يدّعون بشكل متكرر أنهم آلهة. (أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 430).

[←100]
الآباء: زعماء أسر بني اسرائيل قبل الخروج، ويسمون أيضا «الأنبياء». (موسى والتوحيد. سيغموند فرويد. صفحة 35. المترجم).

[←101]

فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها أدوات تستعمل في هذه الحياة الدنيا، من الأدوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الأرض دون تابوت إلى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون.. ونرى العجلات والأسلحة التي يتخذونها للأبهة والعظمة كالخناجر والخوذ من الذهب الخالص، وزنانير الفضة وآنية الطعام الذهبية، ومعدات التزيين والتبرج، والحلي، حتى الآلات الموسيقية.(أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ. خزعل الماجدي. صفحة 162).

[←102]

تظهر لنا الجماجم التي عثر عليها في أريحا، أهم مظهر ديني في مرحلة ما قبل الفخار النيوليتية، وهي جماجم محشوة من الداخل بالطين ومطلية الوجه بالجص، ومطعمة العيون بالأصداف، وقد عثر على جماجم منها تدل أشكالها على أن جزءًا من طقوس إبقاء ذكرى الأفراد بعد الموت كما يرى ذلك سيتون ليود، أما كوفان، فيرى إنها تحمل دليلًا على ما يمكن تسميته بعبادة الجماجم التي تجعل من الرأس مقرًا للروح أو وعاء للقوة المقدسة، ويمكننا أيضًا حسب الاستنتاج بأن هذه الجماجم لم تجمع من الأعداء الموتى بل إنها حفظت كأوعية لقوة مقدسة غير محدودة وعلى الأرجح فإن إجلال أرواح الأفراد الموتى كان الدافع لتوسطهم بهذا الشكل. ويرى فراس السواح أن ظهور التشخيص في مثل هذه الجماجم، ومحاولة الانسان تشكيل ملامح وجه إنساني، هو بدء ظهور فكرة الإله حيث دخل الفكر الديني مرحلة التشخيص.. وظهرت الآلهة». (المصدر السابق. صفحة 80).

[←103]

وقد تراكمت الخبرة وتزايدت بدرجة جعلت تعلمها يستلزم وقتًا أطول وأطول . وهذا أوجد لأول مرة عملًا لكبار السن الذين لا يستطيعون أداء أي عمل آخر، فيقومون بمهمة التدريس. ويرى أحد العلماء «أنه لا يمكن أن يكون قد عاش أيّ بالخبرة. لأنه في ذلك السن لا يستطيع أن يكافح ولا أن يصيد» كذلك أدى ظهور اللغة إلى نشأة فئة القسس والحكماء والسياسيين. (بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 275).

[←104]

وكان المصريون القدماء يعتقدون أيضا أن إله الشمس «رع» هو الذي خلق الملوك، وأنه هو الذي وهبهم الحياة والقوة والسلطان. ولهذا ساد الاعتقاد بأن ماء رع، وهو ذهب الآلهة وسائل الشمس المضيء، يجري في عروق هؤلاء الملوك. (الفولكلور والميثولوجيا. عالم الفكر، ج 3، ع 1. صفحة 29).

[←105]

إن الساحر يحتل مركزا عاليًا ويحظى بقدر هائل من النفوذ وحسن السمعة، بل إنه قد يرقى إلى مرتبة الرئيس أو الملك ويتمتع بسلطانه. (الغصن الذهبي. جيمس فريزر. صفحة 161).

[←106]

وضع السومريون مئات الأسماء المقدسة، وصنفوا كلا منها على أنه إله، وكتبوا هذه الأسماء مع تصديرها بعلامة لأحد النجوم، ولكل إله أو آلهة خاصية مميزة، ومناطق مسؤولية محددة، رغم أن كثيرا منها آلهة ثانوية، لكنهم يجمعونها في أسرة تلتف حول إله قوي بوصفها زوجات أو أبناء، أو موظفين أو خدما. (المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جفري بارندر. عالم المعرفة. صفحة 13).

[←107]

يتميز الإنسان بقوة التفكير، فهي أقوى قوة في الواقع. إن قوة التفكير أعلى في مكانتها من قوى الجماد مثل قوة الجاذبية والطاقة الكهربائية المستقرة والقوة المغناطيسية وقوى الإشعاع. وأعلى من القوة التي تسبب النمو والتطور على مستوى النبات، وأعلى من القوة الدافعة للحيوانات للتحرك إلى ما يسدّ احتياجاتها والابتعاد عما يؤذيها، وحتى أعلى من قوة الإرادة الأنانية للإنسان. (من الفوضى إلى الانسجام. دكتور ميخائيل لآيطمان صفحة 64).

[←108]

أصل الأشياء. صفحة 85.

[←109]

قصة الحضارة. ج 1. صفحة 73.

[←110]

الإنسان. محمد رياض. صفحة 340.

[←111]
نادرًا ما تتطور المجتمعات بشكل منتظم، فهي في ذلك تنمو في وثبات يعقبها تباطؤ، وازدهار تليه مجاعة، وسلام تعقبه حرب، وثورة بعدها ردة. (ابداعات النار. كاتي كوب. صفحة 105).

[←112]

تشكل مكتبة آشوربانيبال المصدر الأول عن الطب الآشوري، لكن تجب ملاحظة أن معظم الألواح الطبية التي عثر عليها في هذه المكتبة ما هي إلا نسخًا آشورية من أصل بابلي أو أكدي، ومع ذلك فإن وصولها منسوخة إلى عصر آشوربانيبال «وهو من أواخر ملوك الآشوريين» يعني استخدام مضامينها وتطبيقاتها ورسوخها كتقليد طبي مارسه الآشوريون ووسموه بسمات ثقافتهم وعصرهم. (بخور الآلهة. خزعل الماجدي. صفحة 167).

[←113]

من الفوضى إلى الانسجام. د. ميخائيل لآيطمان. صفحة 23.

[←114]

ليس هناك من شعب في العالم لا يعتبر أن تربية أجياله تقع في صلب واجباته الأساسية. (أصل الأشياء صفحة 208).

[←115] قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1 صفحة 115.

[←116]

عالم تسكنه الشياطين. كارل ساجان. صفحة 424.

[←117]

تراث العالم القديم. دي بورج. صفحة 223.

[←118]

إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن بابل ومصر، وان اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً، لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه. (قصة الحضارة. ج 1. صفحة 102).

[←119]

تدهور الحضارة الغربية. أسوالد اشبنغلر. صفحة 125.

[←120] بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 264.

[←121] مقدمة ابن خلدون. صفحة 724.

[←122]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 11.

[←123] كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 13.

[←124]
غيردا ليرنر (1920 . 2013)، مؤرخة، مؤلفة وأستاذة جامعية. وهي أستاذة فخرية في جامعة وسكنسون . ماديسون.

[←125]

نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 37.

[←126]

الإنسان. محمد رياض. صفحة 343/344.

[←127]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 313.

[←128]

لا يمكن إنشاء البنى الذهنية من الفراغ؛ فهي تعكس على الدوام أحداثًا ومفاهيم لكائنات بشرية تاريخية في المجتمع. (نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 281).

[←129]

الملل والنحل. صفحة 390

[←130]

الانسان وقواه الخفية. صفحة 391.

[←131] قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1. صفحة 13.

[←132]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1. صفحة 14.

[←133]

أصل الأشياء. صفحة 53.

[←134]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1. صفحة 15.

[←135] فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 5.

[←136]

أنظر دين الانسان. فراس السواح. صفحة 124 . 126.

[←137] علم الأديان. خزعل الماجدي. صفحة 37.

[←138]

دين الإنسان. فراس السواح. صفحة 124.

[←139]

قصة الحضارة. ول ديورانت. ف 3. صفحة 48. الأخلاق الاجتماعية.

[←140]

من أهم ما أعطته المنطقة (الشرق الأوسط) للعالم . أو لجزءٍ منه . الاختراعات الرئيسية الآتية: استئناس النبات والحيوان، تشغيل المعادن، الكتابة، العجلة (الدولاب)، التقويم، العلوم الرياضية والفلكية وهندسة البناء، عجلة الفخّار. والى جانب ذلك هناك احتمالات أن تكون هذه المنطقة قد أعطت العالم أيضًا معارف النسيج بواسطة النول، والقوس، والسهم. (الإنسان. محمد رياض. صفحة 342).

[←141] مقدمة ابن خلدون. صفحة 502.

[←142]

تاريخ وقواعد الحضارات. فرناند بروديل. صفحة 15.

[←143]

المصدر السابق. صفحة 14.

[←144]

فجيناتنا . كجينات الحيوانات الأخرى . لا يمكن أن «تتعلم»، فهي لا تتغير أو تتطور كنتيجة مباشرة لما تتعلمه، وإنما ظلت تتكاثر مكررة نفسها بنفس الطرق القديمة ونفس الدقة القديمة. وظلت أعمالها الأساسية، كما هي لم تتأثر بكل المعرفة التي تراكمت لدينا، ولا بالنظريات والآلات والتقاليد التي ظهرت وذهبت منذ نشأة الإنسان حتى الآن. (بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 310).

[←145]

وتنقل بعض الحيوانات جزءًا من ذاكرتها وبعض ما تعلمت إلى جنينها، ولكن ليس منها ما تتراكم لديه المعرفة بالشكل الذي يعرفه الانسان.. رغم أن صغار الحيوانات قد تتعلم، لا بد من تكرار التعليم في الجيل التالي، ثم تكراره في كل جيل يلي ذلك . كما لو كنا نملأ كوبًا به ثقب، فيجب أن تستمر في صب الماء فيه باستمرار ليظل مستوى الماء فيه ثابتًا، وبالإضافة إلى هذا فلا يستطيع أي حيوان أن ينقل كل ما تعلم إلى غيره، وإنما يمكنه أن ينقل جزءًا بسيطًا فقط من الخبرة التي اكتسبها. (المصدر السابق. صفحة 310).

[←146] نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 90.

[←147]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 13.

[←148]

رينان. صفحة 84.

[←149]

الغيب والعقل. إلياس بلكا. صفحة 53.

[←150]

المصدر السابق. صفحة 61.

[←151]

وليس أسخف من العبارة الشائعة التي تقول: «الحاجة أم الإختراع»، لأن الظروف المناخية السائدة في منطقة ما، والاستعداد النفسي لتقبل فكرة جديدة، وهجرة العناصر الثقافية والشعوب، تعتبر من العوامل الحاسمة التي تساعد على انتشار المعارف التقنية أو تحول دون انتشارها، فلا يمكن ان يكون اختراع أحذية الثلج والزحافات الثلجية قد تم في الغابات، أو أن يكون اختراع الأفران العالية قد بدأ في المناطق القطبية التي لا حديد فيها. (أصل الأشياء. صفحة 86).

[←152]
ارخميدس، ابن عالم فلك شهير، هو أيضًا (الوالد) مخترع وعالم في مجال الرياضيات والفيزياء والفلك، وله مخترعات عديدة.

[←153]

إسحاق نيوتن والثورة العلمية. تأليف جيل كريستيانسن. صفحة 22.

[←154]

المصدر السابق. صفحة 28.

[←155]

ما قبل الفلسفة. هـ. فرانكفورت. صفحة 278.

[←156]

الكلدانيون منذ بدء الزمان. صفحة 216.

[←157]

الغصن الذهبي 14. 20.

[←158]

أصل الأنواع. تشارلز داروين. صفحة 20.

[←159]

أصل الأنواع. تشارلز داروين. صفحة 17.

[←160]

المصدر السابق. صفحة 866.

[←161]

المصدر السابق. صفحة 876.

[←162]

الخالدون المائة. صفحة 47.

[←163] كانط. ألن وود. صفحة 18 و19.

[←164]

الخالدون المائة. صفحة 53.

[←165]

المصدر السابق. صفحة 49.

[←166]

المصدر السابق. صفحة 57.

[←167]

إبداعات النار. كاتي كوب. صفحة 167.

[←168]

قصة الفلسفة. صفحة 19 . 20.

[←169]

الخالدون المائة. صفحة 62.

[←170]
إبداعات النار. كاتب كوب. صفحة 37.

[←171] المصدر السابق. صفحة 32.

[←172] الخالدون المائة. صفحة 95.

[←173]

المصدر السابق. صفحة 99.

[←174]

المصدر السابق. صفحة 103.

[←175]

ابن رشد. عباس محمود العقاد. صفحة 19.

[←176]

علم الغيب في العالم القديم. شيشرون. صفحة 7 .8.

[←177]

المصدر السابق. صفحة 6.

[←178]

ابيقورس. بيار بويانسي. صفحة 5.

[←179] قصة الفلسفة. صفحة 135.

[←180]

قصة الفلسفة. صفحة 136.

[←181]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 14 . 15 . 16.

[←182]

الغيب والعقل. ألياس بلكا. صفحة 22.

[←183]

كشف الحلقة المفقودة. خزعل الماجدي. صفحة 158.

[←184]

المصدر السابق. صفحة 159.

[←185]

الحياة اليومية في العراق القديم. الدكتور هاري و. ف. ساكز. صفحة 33.

[←186]

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. طه باقر. صفحة 452.

[←187]

ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 94.

[←188]

البدائية. أشلي مونتاغيو. صفحة 15.

[←189]

شريعة حمورابي لم تكن أول أثر قانوني وصلنا من وادي الرافدين القديم، فقد سبقتها تشريعات رافدية أقدم جاءت بشكل نتف أو بضع مواد، منها إصلاحات الملك أورو أنيمكينا/أوركاجينا الاجتماعية 2351 ـ 2342 ق.م. في لجش، ثم تشريعات أورنمو 2111 ـ 2094 ق.م. مؤسس سلالة أور الامبراطورية (أور الثالثة) وتشريعات لبت عشتار 1934 ـ 1924 ق.م. خامس ملوك سلالة إيسن الأولى، ثم تشريعات إشنونا بحدود 2000 ق.م.، كما اكتشفت قوانين لاحقة، منها ما اكتشف في عهد الدولة الآشورية الحديثة، أما آخر الشرائع الرافدية المكتشفة فقد كانت (الشريعة الكلدانية) Chaldean Code of Law أو كما تعرف باسم شريعة نبوخذنصر الثاني. (الكلديون / الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 56).

[←190]

مختصر دراسة للتاريخ. أرنولد توينبي. ج 3 ص 94.

[←191]
إن أستراليا هي القارة الوحيدة التي لم تخضع لخبرة العصر الحجري الحديث، التي بدأت في الأماكن الأخرى حوالي 10000 سنة قبل الميلاد. (أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 538).

[←192]

بدأ العصر الحجري الوسيط بانتهاء أخر عصر جليدي قبل الميلاد بحوالي 8 آلاف سنة. ويقال إن انسان ذلك العصر روّض الكلب وحفر جذوع الشجر لصنع قوارب بدائية غير متقنة. كما قام بصنع أول فخار وذلك بتحميص الصلصال في الشمس، وهي عملية كيميائية تتحول فيها السيليكات اللبنة المميتة شبه السائلة إلى نسيج شبكي قوي الترابط. وقد ظهر الفخار في اليابان مبكرًا سنة 10 آلاف ق.م.، أما في الامريكتين فقد ظهر حوالي سنة 5 آلاف سنة ق.م... تعد الفترة من 6 آلاف إلى 3 آلاف سنة ق.م. هي العصر الحجري الجديد، وقد تعلم الناس خلال هذا العصر صناعة الغذاء وقدح النار من الاحتكاك فيما يمكن ان يكون أول تفاعل كيميائي تتم السيطرة عليه. وقد دجنوا الحيوانات واخترعوا المحراث والعجلة والشراع، وتعلموا كيف يغزلون وينسجون ويصنعون قمائن الفخار النارية... (إبداعات النار. كاتي كوب. صفحة 16).

[←193] مقدمة ابن خلدون. صفحة 501.

[←194]

الكلديون / الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 234.

[←195] مغامرة العقل الأولى. فراس السواح. صفحة 31.

[←196]
كان التقدم يأتي في نوبات متقطعة، وكان يأتي من جميع أنحاء العالم. (إبداعات النار. كاتي كوب. صفحة 7).

[←197] قصة الأنثروبولوجيا. دكتور حسين فهيم. صفحة 110.

[←198]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. صفحة 73.

[←199]

قصة الأنثروبولوجيا. دكتور حسين فهيم. صفحة 76.

[←200]

تستمد الحضارة الغربية الكثير من استعاراتها الرئيسة وتعريفاتها للجنس والأخلاق من التوراة... التي عرّفت وصاغت جزءًا كبيرًا من تراثنا الثقافي. (نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 331).

[←201]
تستند الحضارة الغربية إلى الأفكار الأخلاقية والدينية المعبّر عنها في التوراة، وإلى الفلسفة والعلم، كما طُوّرا في اليونان القديمة. (نشأة النظام الأبوي. غيردا ليرنر.صفحة 391).

[←202]

أصل الدين. فيور باخ. صفحة 43.

[←203]

المصدر السابق. صفحة 8.35.

[←204] كوكب الأرض، صفحة 11.

[←205] أصل الدين. فيورباخ. صفحة 43.

[←206]

سنأتي على تفصيل ذلك في الجزء الثاني من الكتاب.

[←207]

أصل الدين. فيورباخ. صفحة 44.

[←208] الإنسان. محمد رياض. صفحة 400.

[←209]

يكشف التشريح في الهيكل العظمي للإنسان نفس فقرات الذيل التي في القرود وقد تدامجت والتحمت لانعدام وظيفتها.. وأكثر من هذا يجد عضلات الذيل نفسها وقد تحورت إلى قاع متين للحوض. (لغز الحياة. صفحة 55).

[←210]

أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 395.

[←211]

أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 444.

[←212]

الغيب والعقل. إلياس بلكا. صفحة 51.

[←213]

البدائية. أشلي منتاغيو. صفحة 15.

[←214]

أبيقورس. بيار بويانسي. صفحة 46.

[←215]

عالم تسكنة الشياطين. كارل ساجان. صفحة 310.

[←216]

الغيب والعقل. إلياس بلكا. صفحة 63.

[←217]

القران. سورة يونس 31، النحل 78، الإسراء 36. والكثير غيرها.

[←218]

أنظر كذلك إنجيل متى 14:11 و9:13 و43:13. وإنجيل مرقس 9:4 و23:4 و16:7. وإنجيل لوقا 8:8 و35:14. وسفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 7:2 و11:2 و17:2 و29:2.

[←219]

التوراة. سفر حزقيال 27:3.

[←220]

الإنسان وقواه الخفية. صفحة 168.

[←221]

تشكل حقبة العصر الحجري ما يزيد عن 99% من تاريخ الانسان. ويؤلف معظم هذه الحقبة، العصر الذي ندعوه بالحجري القديم أو الباليوليتي (Palaeolithic). (دين الانسان. فراس السواح. صفحة 123).

[←222]

العمليات التي تحدث في داخل القشرة الأرضية وتؤدي إلى تبدلات تشكيلية في بنيتها.

[←223]

أسرار الفيزياء الفلكية. صفحة 43 . 44.

[←224]

لص في الليل Thief in the Night وليم سيرز.

[←225] الإنسان وقواه الخفية. صفحة 431.

[←226]

قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 99.

[←227] رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 19.

[←228]

من الطين بنى السومريون حضارتهم، وعلى الطين بشكلِ رُقم، كتبوا فاستطعنا أن نرى الماضي إلى بداية 5000 سنة تقريبًا التي تفصلنا عن الاستيطان السومري الأصلي. (الحياة اليومية في العراق القديم. صفحة 33).

[←229]

لكن فجر الكتابة الرافدية بمعنى أقدم أشكال الكتابة البدائية العراقية بشكلها العملي المتميز ككتابة متخصصة، إنما تعود إلى عصر ما بعد طور أريدو/حضارة الكلدان الأوائل، وتسمى تلك الحضارة بحضارة طوري العبيد الثالث الرابع 4300 ـ 3500 ق.م. (الكلديون/الكلدان منذ بدء الزمان صفحة 190).

[←230]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 20.

[←231]

بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 290.

[←232]

البدائية. أشلي مونتاغيو. صفحة 17.

[←233]

حمل الفينيقيون إلى البلاد التي نزلوها، أبجديتهم وحروف الهجاء ولم يخترعوا الخط، إذ كان المصريون يعرفون الكتابة قبلهم بقرون، وقد استعملوا حروفًا تدل كل منها على صوت كما هو الحال في حروف الافرنج. على أن خطهم كان مشوشًا بعلامات قديمة يدل بعضها على مقطع وآخر على كلمة برمتها. لا جرم أنه اقتضى للفينيقيين إذ ذاك طريقة أبسط لكتابة رسائلهم التجارية، فأطرحوا العلامات كلها من مقاطع وصور ولم يبقوا سوى اثنين وعشرين حرفًا يدل كل منها على صوت أو على لفظ باللسان، فاقتبست الشعوب الأخرى هذه الأبجدية... فكتب اليهود من اليمين إلى الشمال، كما كتب الفينيقيون وكتب غيرهم كاليونان من الشمال إلى اليمين، وكلهم بدلوا شكل الحرف إلا قليلًا. والخط الفينيقي على التحقيق أصل الأبجديات كلها، فالفينيقيون هم الذين علموا العالم الكتابة. (تاريخ الحضارة. شارل سنيوبوس. صفحة 39).

[←234] الكلديون/الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 194.

[←235]

المصدر السابق. صفحة 189.

[←236]

فجر الاسلام. صفحة 60.

[←237]

الكلديون/الكلدان منذ بدء التاريخ. صفحة 189.

[←238]

المصدر السابق.صفحة 189.

[←239]

ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 456.

[←240] ما وراء التاريخ. ولیام هاولز. صفحة 458.

[←241]

الحضارات القديمة. دياكوف. ج 1 صفحة 229.

[←242]

الحياة الروحية في بابل. كلشكوف. صفحة 124.

[←243]

قصة الحضارة. ج 1. صفحة 99.

[←244]

المصدر السابق. صفحة 162.

[←245]

عالم تسكنه الشياطين. كارل ساغان. صفحة 35.

[←246]

تاريخ اللغات السامية. صفحة 103.

[←247]

فجر الاسلام. احمد أمين. صفحة 59.

[←248]

المصدر السابق. صفحة 162.

[←249]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 20.

[←250]
يعتبر الإمام «عليّ بن أبي طالب» عند الشيعة بشكل عام وعند الإثنى عشرية بشكل خاص، صاحب مرتبة روحانية قدسية عالية، ولولا ورود نص قاطع في القران أن لا نبي بعد الرسول محمد(ص)، لكان هناك قول آخر. مع أن هناك أحاديث كثيرة للنبي ترفع من مقام الإمام عليّ إلى درجات سامية جدًا، إضافة إلى أن بعض علماء الشيعة لا يتحرجون من ذكر أوصاف قدسية عظيمة له.

[←251]

أنظر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب لإبن خلدون صفحة 754.

[←252]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 21.

[←253] المصدر السابق. صفحة 21.

[←254]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 21.

[←255] دراسات في الحضارة. د. لويس عوض. صفحة 100.

[←256]

ما وراء التاريـخ. ولیام هاولز. صفحة 450.

[←257]

يظهر إن التعامل بالمراسلة كان معروفا منذ أقدم العصور. فكان الخطاب يكتب على لوحة جففت في النار عادة ثم تغلف بغلاف من الطين. ولم يكن يستطيع أحد مطالعتها دون كسر الأختام مما كان يسمح بتلافي إفشاء محتوياتها. وكان يكتفى أحيانا بلفها في قطعة من القماش تثبت عليها قطعة من الطين تحمل بصمة ختم مرسلها. (بلاد ما بين النهرين. ديلا بورت. صفحة 216).

[←258]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 30.

[←259]
ومن الجدير بالذكر أن أديان العالم تطورت ضمن أطر ومضامين تاريخية واجتماعية معينة. وكان نشر التعاليم الدينية وايصالها يتم بواسطة استعمال المجاز والصور والزخارف والرموز ذات الصلة بالزمان والمكان. (تراثنا الروحي. سهيل بشروئي. صفحة 14/1).

[←260]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 23.

[←261]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 23.

[←262]

المصدر السابق.صفحة 29.

[←263]

المصدر السابق. صفحة 32.

[←264] قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 71.

[←265]

رموز ومعجزات. أرنست دوبلهوفر. صفحة 25.

[←266]

البروفيسور «يوليوس ليبس» مؤلف وباحث أنثروبولوجي ألماني، أستاذ علم الأجناس وعلم الاجتماع في جامعة «كولن» ومدير متحف علم الشعوب في المدينة نفسها. عمل في جامعة السوربون وفي متحف الإنسان. وعمل أيضا في جامعة كولومبيا. تسلم كرسي الأستاذية لمادة علم الشعوب والإجتماع المقارن، ثم تبوأ سدة رئاسة جامعة لايبزغ. زوجته البروفيسورة «ايفا ليبس»، أغنت المكتبة الألمانية بكتبها وأبحاثها عن الهنود الحمر. (أصل الأشياء. يوليوس ليبس. صفحة 6 و7).

[←267] الصدر السابق. صفحة 194.

[←268]

أصل الأشياء. يوليوس ليبس. صفحة 194.

[←269]

رموز ومعجزات، و.أصل الأشياء.

[←270]

أصل الأشياء. صفحة 196.

[←271] اللوحة منقولة من كتاب رموز معجزات. صفحة 31.

[←272]

الانسان نشوؤه وارتقاءه. جان شالين. صفحة 127.

[←273]

المصدر السابق. صفحة 320.

[←274]

التوراة. سفر التكوين 1:11.

[←275]

المصدر السابق.11:9.

[←276]

التوراة. سفر حزقيال. 5:3.

[←277]

المصدر السابق.3:6.

[←278]

والأمر الذي يكاد يتفق عليه الإجماع، هو أن اللغة في بداياتها كانت مجموعة مبهمة من التعبيرات الصوتية التي لا يفهمها سوى أعضاء المجتمع الواحد. ولما كان المجتمع الإنساني في العصور الحجرية، وفي حياة الصيد والجمع، لا يتكون المجتمع إلا من عدد صغير جدًا من الناس قد لا يزيد عن بضع «أسر» (بالمعنى الاستعاري الواسع جدًا للأسرة) تتكون من عدد من الأعضاء لا يزيدون عن مائة شخص، ولما كانت حياة الصيد والجمع تستدعي أن يكون لكل «مجتمع» من هذا النوع مساحة كبيرة تمارس فيها نشاطها الصعب بغية الحصول على الغذاء؛ فمعنى ذلك أن «المجتمعات» الإنسانية كانت مبعثرة متباعدة، ومن ثمَّ فإنه كانت هناك «لغات» بالآلاف تبعًا لعدد المجتمعات المبعثرة. (الإنسان. محمد رياض. صفحة 320).

[←279]

فجر الاسلام. أحمد أمين. صفحة 60.

[←280]

الانسان نشوؤه وارتقاءه. جان شالين. صفحة 125.

[←281] المصدر السابق. صفحة 125.

[←282]

الإنسان. محمد رياض. صفحة 389.

[←283]

نشأة االنظام الأبوي. غيردا ليرنر. صفحة 461.

[←284]

رينان. سلسلة أعلام الفكر العالمي. صفحة 71.

[←285]
في ملحمة تحت عنوان ‘انمركار وبلاد اراتا’، حيث تصف حالة من السلام والنعيم والأمن عاشها الانسان، ثم سقط من نعيمه هذا نتيجة غضب الآلهة. (هنا بدأ التاريخ. كريمر. صفحة 107).

[←286]

أبيقور (341 . 270 ق.م.) فيلسوف يوناني قديم، وصاحب مدرسة فلسفية سميت (الأبيقورية).

[←287]

أبيقوس. بيار بويانسي. صفحة 45.

[←288]

وقد عثر بين الألواح السومرية على لوح يشير إلى أول فكرة خطرت ببال الإنسان حول مثل هذا العصر الذهبي، وقد جاءت هذه الفكرة في ملحمة تحت عنوان . انمركار وبلاد اراتا. (هنا بدأ التاريخ. كريمر. صفحة 107).

[←289]

توراة. سفر التكوين 9.11/6.

[←290]

مختصر دراسة للتاريخ. توينبي. ج 1 صفحة 104.

[←291]

وقد تمت كشوف مشابهة في كهوف أخرى بعيدة، فعثر على جماجم الدببة موضوعة على مذابح خاصة، بل موضوعة أحيانا على نحت خشن يمثل جسدا لدب دون رأس. وهذا دليل لا شك فيه، في أن انسان النياندرتال . منذ ما يتراوح بين سبعين ألف إلى ثمانين ألف سنة . كان له دين. إنها فكرة تبعث على الدهشة... ولقد عاش انسان النياندرتال حياة شاقة عنيفة.. ومع ذلك فقد عبدوا آلها وقدموا اليه القرابين. (الإنسان وقواه الخفية. كولن ولسن.صفحة 158).

[←292] . كان العصر الحجري مفصولا عن عصري البرونز والحديد بعلامات تدل على حدوث الطوفان. ودلت الحسابات على أن الطوفان قد وقع في حدود عام 4000 ق.م. وهو تاريخ تحول الانسانية العظيم نحو سكنى المدن. (الإنسان وقواه الخفية. كولن ولسن. صفحة 175).

[←293]

حملتها (السفينة) بكل ما كنت أمتلك.. أسرتي كلها وأقاربي.. ماشية الحقل وحيوانات الحقل والصناع.. ثم دخلت السفين وأغلقت الباب.. وانقلب كل ما هو مضيء إلى ظلام.. واستمرت الريح والطوفان ستة أيام وست ليال، وساد الأرض اعصار، فلما أشرق فجر اليوم السابع هزم الإعصار وكذلك الطوفان.. وارتاح البحر وهدأت الريح الرديئة وتوقف الطوفان.. واستوقف جبل نتسير(بين دجلة والزاب الصغير) السفين ولم يدعها تتحرك، ولما جاء اليوم السابع، أخرجتُ حمامة وأطلقتها، ذهبت الحمامة ولكنها عادت، عادت لأنها لم تجد مكانا، فأخرجت سنونو وأطلقته، فذهب ولكنه عاد.. أخرجت غرابًا وأطلقته، ذهب الغراب ورأى الماء يختفي، وأكل ومشى في الطين ولعب ولم يعد. (بلاد ما بين النهرين. ديلا بورت صفحة 208).

[←294]

إن عملية خروج بعض الأفراد عن المجتمع التقليدي بالهجرة عملية تحتاج إلى شجاعة نادرة؛ لأنها في أقرب صورها لنا تشبه عملية النفي خارج الوطن بكل ما في ذلك من العوامل النفسية والعاطفية؛ ولذلك فإنها لم تكن كثيرة الحدوث ولم يرتبط حدوثها إلا بالموضوعات الهامة في الحياة كظهور ديانة جديدة أو النزاع على وراثة الزعامة. (الإنسان. محمد رياض. صفحة 395).

[←295]

ما وراء التاريخ. وليام هاولز.

[←296]

أديان العالم. هوستن سميث. ص 256.

[←297]

قصة الحضارة. المجلد الأول. صفحة 67.

[←298]

المصدر السابق. صفحة 67.

[←299]

قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 67.

[←300]

الكلدانيون منذ بدء الزمان. صفحة 226.

[←301]

تراث الاسلام. توماس آرنولد. صفحة 170.

[←302]

الإنسان. محمد رياض. صفحة 344.

[←303] قصة الحضارة. ويل ديورانت. مجلد 1 صفحة 13.

[←304]

لقد كف الإنسان عن أن يكون مخلوقا بسيطا وغريزيا. سواء راق له ذلك أم لا، فقد صار عليه أن يكون أكثر «محاسبة» ويقظة لكي يظل على قيد الحياة. وأصبح عليه أيضا أن يصبح، بمعنى بالغ الخصوصية، أكثر عدوانية، ليس ببساطة تجاه الناس الآخرين فقط، وإنما تجاه العالم. وقبل ذلك العصر، لم يكن هناك سوى جماعات صغيرة من الناس يحيون حياة العصر الحجري الحديث، كان حجم كل جماعة منها محدودا بقدرتها على انتاج الطعام. (الإنسان وقواه الخفية. صفحة 165).

[←305]

الحياة الروحية في بابل. كلكشكوف. صفحة 186.

[←306]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 12.

[←307]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 6.

[←308]

قصة الحضارة المجلد الأول. ويل ديورانت. صفحة 12.

[←309]
هناك الكثير من الاختراعات الأساسية التي لم يُعرف على وجه التحديد كيف ومتى وأين حدثت، فالنار واحدة من أهم وأقدم هذه الكشوف الإنسانية. (الإنسان. محمد رياض. صفحة 340).

[←310]

عندما حدث الباحث «البرت شفايتسر» زنوج غرب أفريقيا عن حرائق للغابات في أوربا، سخروا منه. إذ كيف يمكن أن تحترق الغابات الرطبة دائمًا كالاسفنج؟. (أصل الأشياء. صفحة 22).

[←311]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 15.

[←312]

أصل الأشياء. صفحة 19.

[←313]

المصدر السابق. صفحة 19.

[←314]

المصدر السابق. صفحة 22.

[←315]

أصل الأشياء. صفحة 330.

[←316]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 14.

[←317]

كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 16.

[←318]

الغيب والعقل. إلياس بلكا. صفحة 56.

[←319]

من حكماء الصين القدماء.

[←320]

أديان العالم. حبيب سعيد. صفحة 110.

[←321]

أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ. خزعل الماجدي. صفحة 36.

[←322]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. المجلد الأول. صفحة 9.

[←323] أصل الأشياء. صفحة 68.

[←324]

أصل الأشياء. صفحة 72.

[←325] الإنسان. محمد رياض. صفحة 394.

[←326]

المصدر السابق. صفحة 409.

[←327]

أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ. خزعل الماجدي. صفحة 77.

[←328]

كتاب قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1. صفحة 9.

[←329]

أصل الأشياء. يوليوس ليبس. صفحة 69.

[←330]
يعتبر هرمس واحدًا من أكثر الشخصيات غموضًا في التاريخ وقد تنازعت نسبه أمم كثيرة في روايات ومراجع مختلفة. (كشف الحلقة المفقودة. خزعل الماجدي. صفحة 212).

[←331]

تراثنا الروحي. سهيل بشروئي. صفحة 13/6.

[←332]

إشارة إلى أن الآلهة كانوا على شكل بشر مثل غيرهم.

[←333]

إشارة إلى العلاقة الدائمة بين الأنبياء والكهنة على اعتبار أن لهم اختصاصًا واحدًا.

[←334]

إشارة إلى توافقظهور الحضارات ونهوضها مع مجيء الآلهة والأنبياء.

[←335]

العظمة والجلال من صفات الأنبياء في جميع الأزمان.

[←336]

من الإشارات الواضحة على علاقة الأنبياء الروحية بالعالم الآخر.

[←337]

إشارة إلى سعة علوم الأنبياء وتفوق مستوياتهم على البشر.

[←338]
هذا هو هدف جميع الأنبياء. تربية البشر ورفع مستواهم العلمي والأخلاقي والاهتمام بالفقراء من الناس.

[←339]
إشارة إلى رفعة علوم الآلهة ومشاركتهم في تعليم البشر وتقديمهم تعاليم دينية جديدة غير ما وجده الناس عن آبائهم.

[←340]
نتذكر هنا قصة النبي ابراهيم مع تماثيل والده آزر وكيف قام على تكسيرها، كما ورد ذلك في التراث الديني.

[←341]

يتضح أن دعوة التوحيد قديمة وسمة عامة لجوهر دعوات الأنبياء.

[←342]

يتضح أنها فترة تحول العبادة من التماثيل إلى الشمس.

[←343]

من تعاليم أنبياء كور التوحيد، حيث نجدها واضحة في تعاليم السيد المسيح.

[←344]

حدث مثل هذا الاعتقاد بين الناس كثيرًا كلما عاشروا نبيًا من الأنبياء.

[←345]

كتاب اديان العالم. حبيب سعيد. صفحة 33.

[←346]

وبرغم أن الزراعة البدائية يمكن أن تكون قد اكتُشفت في أماكن مختلفة من العالم دون الحاجة إلى انتشار حضاري، إلا أن ما عندنا من الأدلة يؤكد أن الزراعة في بداياتها قد انتشرت من الشرق الأوسط في اتجاهات مختلفة من العالم. وقد حدث ذلك أيضًا مرة أخرى حينما اكتُشفت زراعة المحراث في الشرق الأوسط. (الإنسان. محمد رياض. صفحة 412).

[←347]

بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 287.

[←348]

هنا بدأ التاريخ. كريمر. صفحة 56.

[←349]

ولم يُقدر للزراعة الانتشار في كل الأمريكتين وفي أستراليا وسيبيريا، إلا بعد فترة التوسع الأوروبي بعد الكشوف الجغرافية الكبرى في القرنين السادس عشر والسابع عشر. (الإنسان. محمد رياض. صفحة 416).

[←350]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1. صفحة 53.

[←351]

الساحر أو رجل الدين البدائي.

[←352]

أصل الأشياء. صفحة 74.

[←353]

أصل الأشياء.البروفيسور يوليوس ليبس. صفحة 78.

[←354]

تاريخ البشرية. آرنولد تو ينبي. جزء أول. صفحة 76.

[←355] تدهور الحضارة الغربية. اسوالد اشبنغلر. صفحة 311.

[←356]

تاريخ البشرية. توينبي. جزء أول. صفحة 21.

[←357]

يساند ابن خلدون هذا الرأي في تصنيف البشر، بالقول:

- «وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يأكل بعضهم بعضًا وليسوا في عداد البشر». (مقدمة ابن خلدون. صفحة 70).

[←358]

تاريخ البشرية. آرنولد توينبي. جزء 1 صفحة 76.

[←359]
وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. (سورة نوح 17). وكذلك:
- مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ. (سورة طه 55).

[←360]

أن مبدأ الأسبوع وتقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع يرجع بالدرجة الأولى إلى التقويم البابلي، وقد كان العراقيون القدماء يعلقون أهمية خاصة على ملاحظة (اليوم السابع) من الشهر القمري، فيستخدمونه لأغراض التنبؤ وإستجلاء طوالع السعد والنحس، وهكذا قسموا الشهر القمري إلى أربعة أقسام متميزة، أي إلى أربعة أسابيع، ثم تطورت فكرة الأسبوع في القرون القليلة السابقة للتأريخ الميلادي، فصار الأسبوع وحدة متواصلة يجمع ما بين التقسيم البابلي ومبدأ السبت العبراني. (أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية). الكاتب الأب سهيل قاشا.

[←361] كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 106.

[←362]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 91.

[←363]

كان في العصر الساساني ثلاثة تقاويم:

- (1) التقويم القمري [355 أو 353 يومًا، وكل شهر ستة أسابيع وكل أسبوع خمسة أيام]، وهو تقويم قديم سار عليه المانوية من غير الإيرانيين.

(2) تقويم مدني ورسمي يسمى «رو ژ وهيژكيه» وهو التقويم الشمسي [12 شهرًا + الأيام الخمسة المسترقة]. وفي هذا التقويم، أهمل ربع يوم [ست ساعات] علاوة على كل 365 يوما، مما أدى إلى أن يتأخر رأس السنة يومًا كل أربع سنوات.

(3) التقويم الديني المسمى وهيژكيه، ويستند إلى السنة الشمسية أيضًا [12 شهرًا + الأيام الخمسة المسترقة، ويضاف اليه سنة، من الناحية النظرية على الأقل كل 120 سنة]. (ايران في عهد الساسانيين. آرثر كريستنسن. صفحة 577).

[←364]

الحضارات القديمة. دياكوف. ج1 صفحة 115.

[←365]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 90.

[←366]

الحياة الروحية في بابل. كلشكوف. صفحة 15.

[←367]

أساطير الأولين. ميخائيل أفندي غبرئيل. صفحة 33.

[←368]

قصة الحضارة. ج 1 صفحة 112.

[←369] أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 14.

[←370]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 92.

[←371]
للرئيس الليبي السابق محاولة فاشلة مشابهة حينما حاول تغيير أسماء الأشهر، لكنها اختفت بمجرد مقتله.

[←372] فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 92.

[←373]

المصدر السابق.صفحة 92.

[←374]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن.صفحة 93.

[←375]

يناير، آلهة عند الرومان واليونان؛ فبراير، تعني التطهير؛ مارس، آلهة الحرب؛ مايو، والدة الإله عطارد.

[←376]

الحياة الروحية في بابل. كلشكوف. صفحة 16.

[←377]

قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 73.

[←378]

بلاد ما بين النهرين. صفحة 231.

[←379]

المصدر السابق. صفحة 233.

[←380] الفولكلور والميثولوجيا. عالم الفكر. ج 3. ع 1. صفحة 27.

[←381]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 87.

[←382]

المصدر السابق.صفحة 88.

[←383]

توراة سفر التكوين 2:2.

[←384]

منابع تاريخ الأديان. فيليب بورجوه. صفحة 93.

[←385] كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 106.

[←386]
احتوت شريعة حامورابي على 310 مادة قانونية، اختفت منها 28 مادة.

[←387]

راجع كتاب بلاد ما بين النهرين، الحضارتان البابلية والاشورية. تأليف ل. ديلا بورت.

[←388]

الكلديون / الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 57.

[←389]
مسلتين أخريين هما مسلتا الملكين مانشتوسو ابن الملك شروكين «سرجون الكبير»، ومسلة حفيد شروكين الملك نرام سين حيث وضع اسمه عليهما.(الكلديون / الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 57).

[←390]

قصة الانثروبولوجيا. د. حسين فهيم. صفحة 75.

[←391] تراث الاسلام. سير توماس آرنولد. صفحة 35.

[←392] المصدر السابق.صفحة 161.

[←393]

تراث الاسلام. سير توماس آرنولد. صفحة 56.

[←394]

أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 334.

[←395]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسون. صفحة 95.

[←396]

جاليليوا هو ابن فينسينزو، مؤلف وموسيقي وملحن، ومهر بالرياضيات أيضا. ولا يستبعد أن جليليو قد ربط بين حركة أرجحة المصباح مع ما كان يسمعه من أبيه من نغمات وايقاعات موسيقية.

[←397]
الآلهة، هو اسم قديم للأنبياء، استعملته الأمم القديمة. كما جاءت الإشارة لذلك في كتاب التوراة وغيره. وسنتطرق له في أجزاء الكتاب القادمة.

[←398]

أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 564.

[←399]

هنا بدأ التاريخ. س. ن. كريمر. صفحة 48.

[←400]

طب وسحر. بول غليونجي. صفحة 40.

[←401] طب وسحر. بول غليونجي.صفحة 40.

[←402]

المصدر السابق. صفحة 45.

[←403]

طب وسحر. بول غليونجي.صفحة 46.

[←404]

المصدر السابق. صفحة 53.

[←405]

طب وسحر. بول غليونجي. صفحة 85.

[←406]

العصر يساوي ألف سنة.

[←407]

ألكسندر ليونيدوفيتش (ولد 1897 . توفي 1964م)، عالم في الفيزياء البيولوجية، وآثاري ومؤسس علميّ الهليوبيولوجيا والكوسموبيولوجيا... استحق عضوية شتى الأكاديميات العلمية. انتخب واحدًا من رؤساء الشرف لأول مؤتمر دولي للفيزياء البيولوجية وبيولوجيا الفضاء، رشح لنيل جائزة نوبل «بصفته ليوناردو دافيتشي القرن العشرين». (أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 355).

[←408]

كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 105.

[←409]

طه باقر. صفحة 270.

[←410]

المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جفري بارندر. صفحة 29.

[←411]

قصة الحضارة، ويل دورانت. ج 1 . صفحة 74.

[←412]
حينما نتناول مناقشة أفكار الأستاذ «كولن ولسن»، فما ذلك إلا لاعتباره نموذجًا لما يقوله غالبية علماء الفيزياء.

[←413]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 48.

[←414]

المصدر السابق. كولن ولسن. صفحة 84.

[←415]

المصدر السابق. صفحة 84.

[←416]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 77.

[←417]

تراث الاسلام. سير توماس آرنولد. صفحة 60.

[←418]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 84.

[←419]

المصدر السابق. صفحة 85.

[←420]

المصدر السابق. صفحة 84.

[←421]

المصدر السابق. صفحة 87.

[←422] قصة الحضارة. المجلد الأول. صفحة 13.

[←423]

المصدر السابق. صفحة 37.

[←424]

طه باقر. أنظر صفحة 286.

[←425]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 76 . 77.

[←426] طه باقر صفحة 276.

[←427]

الانسان الحائر بين العلم والخرافة. تأليف: دكتور عبد المحسن صالح. صفحة 7.

[←428]

مقدمة ابن خلدون. صفحة 714.

[←429]

مقدمة ابن خلدون. صفحة 714.

[←430]

المصدر السابق. صفحة 651.

[←431]

المصدر السابق. صفحة 520.

[←432]

مقدمة ابن خلدون. صفحة 521.

[←433] حِكم النبي محمد. ليو تولستوي. صفحة 18.

[←434] المصدر السابق. صفحة 20.

[←435]

المصدر السابق. صفحة 20.

[←436] كشف الحلقة المفقودة. خزعل الماجدي. صفحة 93.

[←437]

تاريخ الحضارة. شارل سنيوبوس. صفحة 28.

[←438]

نقلا عن طه باقر. صفحة 265، الحاشية.

[←439]

تاريخ الحضارة. شارل سنيوبوس. صفحة 30.

[←440]

أديان العالم. حبيب سعيد. صفحة 51.

[←441]

تاريخ الحضارة. شارل سنبويوس. صفحة 30.

[←442]

اساطير الأولين. ميخائيل أفندي. بيروت سنة 1894. صفحة 33.

[←443]

وقد جاء في الكارنامك أن الملكين أردشير وأردوان كانا دائما يستشيران في ساعات العسرة الحكماء ومعبري الرؤى والمنجمين. (ايران في عهد الساسانيين. آرثر كريستنسن. صفحة 578).

[←444]

ففي عام 1517 شوهد مذنب كبير في المكسيك. وبادر موكتيزوما، الواقع تحت تأثير اسطورة عودة إله الأزتيك، كويتز الكوتل، بشكل رجل أبيض البشرة يصل عبر البحر الشرقي، إلى إعدام منجّميه، الذين لم يتنبأوا بالمذنب ولم يفسروا معنى مجيئه، وأصبح موكتيزوما الذي كان مقتنعا بأن الكارثة وشيكة الوقوع، في عزلة من الناس وكئيبًا. (الكون/ دكتور كارل ساغان / صفحة 243).

[←445]

قصة الحضارة، ويل دورانت. ج 1 صفحة 233.

[←446]

المصدر السابق. ج 1 صفحة 246.

[←447]

زحل، الزهرة، المشترى، عطارد، المريـخ، القمر والشمس.

[←448]

تاريخ الحضارة. شارل سنيوبوس. صفحة 27.

[←449]

ورد في (كتاب شرح الكتاب المقدس . العهد الجديد) للقس أنطونيوس فكري: (وكان هذا نتيجة أخطاء العلماء في الحساب في القرون الوسطى حينما حاولوا تغيير التقويم من الحساب تبعًا للطريقة المصرية، طريقة النجوم، إلى التقويم الشمسي وهو السائد حاليًا). وورد أيضًا في كتاب قصة الحضارة . عصر الايمان . الحضارة اليهودية . عقل اليهودي وقلبه . القبلة . صفحة رقم 4956 (وقد شملت كتب اليهود جميع عجائب التنجيم؛ فكانت النجوم في هذه الكتب حروفًا هجائية وكتابات في السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها).

[←450]

فكرة الزمان عبر التاريخ. صفحة 84 ـ 88.

[←451]

المصدر السابق. صفحة 69.

[←452]

المصدر السابق. صفحة 74 . 87.

[←453]

كشف الحلقة المفقودة. خزعل الماجدي. صفحة 94.

[←454] المصدر السابق. صفحة 94.

[←455]

ما وراء التاريخ. وليام هاولز. صفحة 466.

[←456]
منجم العمران. الجزء الثاني صفحة 285. لمؤلفه ياقوت الحموي الرومي.

[←457]

ايران في عهد الساسانيين. صفحة 225. الحاشية.

[←458]

قال سمعان السمعاني كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلمٌ بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق التعلم. غير أن المتأخرين منهم أدركوا شأو كل علم ورقوا أرفع معارج المعارف. (كتاب اساطير الأولين . تأليف ميخائيل أفندي ص 66).

[←459]

منجم العمران، لمؤلفه ياقوت الحموي الرومي، صفحة 138.

[←460]

أخذت فكرة التقدم تسيطر على الفكر الأوروبي بصورة واضحة خلال القرن الثامن عشر الذي يطلق عليه عادة اسم «عصر الأنوار»، وقد فضلنا هذا الاسم متابعين في ذلك التسمية الفرنسية des LumieresL’Age لأنه أقرب إلى الذوق العربي من أسمائه في الإنجليزية EnlightenmentThe Age of وهو اسم يترجم أحيانا بعبارة «عصر التنوير» وهي ترجمة لا معنى لها. وأصح منها قولنا «عصر الاستنارة»، والمصطلح الذي اخترناه أقرب إلى فهم القارئ العربي من أدق الأسماء الغربية. (الحضارة. للدكتور حسين مؤنس . صفحة 243).

[←461]

تاريخ الحضارات العام. ج 1 صفحة 161.

[←462]

قصة الحضارة . ويل ديورانت . المجلد الأول صفحة 345.

[←463]

قال كازو ما ملخصه: اشتهر البابليون بالعلوم الماتيماتيقية والفلكية وهم أوّل من جزأ الواحد الصحيح إلى ستين جزءا، وقسّموا النهار إلى 24 ساعة، والساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية. ويظن أن فيثاغورس أخذ الجدول المنسوب اليه عنهم. وقد اكتشف البابليون السنة الشمسية والقمرية والكسوف والخسوف. واخترعوا علم التنجيم وكان يتوقف عليه عندهم معرفة المستقبلات. وكان عندهم الخط المسماري الموجود على ما تركوه من الآثار وأكثرها من الآجر. وكانت بناياتهم .إلا القليل .من الخزف المطبوخ الذي اخترعوه. ولهم فضل عظيم باكتشافات واختراعات عديدة. قال بوسياه:

- إن ابتداء نشأة المراصد الفلكية المنوطة بالكلدانيين كان سنة 2893 ق.م. (كتاب اساطير الأولين.ميخائيل أفندي. بيروت سنة 1894. ص 33).

[←464]

حياة المسيح. للعقاد، الصفحة 49.

[←465]

وردت أهم المعلومات المتوفرة عن مؤلف «اللاهوت البابلي» في نص من أوروك نشره ‹فان ديك›، وللأسف لم ينل هذا النص الاهتمام الذي يستحقه. والنص عبارة عن قائمة بأسماء العلماء والحكماء القدامى، وأسماء الملوك الذين عاصروهم في الأسطر 16 ـ 20 من القائمة ما يلي:. في عهد الملك (...) العالم ايساجيل ـ كيني ـ ابلا. في عهد الملك حدد ـ آبال ـ ايديا ـ العالم ايساجيل ـ كيني ـ اوبا. في عهد الملك نبوخذنصر، العالم ايساجيل ـ كيني اوبيب. وفي عهد الملك أسارحدون، العالم أيا ـ أنليل ـ داري. (الحياة الروحية في بابل. كلشكوف. صفحة 90).

[←466]

ومع ظهور الكتابة التي وجدت أولا في أوك أو آرك، حوالي سنة 3000 ق.م. ظهر مصدر جديد من الشواهد التي زودتنا بما يقرب من نصف مليون وثيقة مكتوبة على الطين، وكذلك بألواح الكتابة التي استخدمت العلامات المسمارية مما جعل من الممكن تتبع تطورهم الفكري. (المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جفري بارندر. صفحة 12).

[←467] الكلدانيون منذ بدء الزمان. ص 148.

[←468]

عاش إبراهيم عشرين عامًا في أرض الفراعنة.

[←469] قصة الحضارة. ج 1. صفحة 162.

[←470]

تاريخ الحضارات العام. الفصل الثالث صفحة 176. موريس كروزيه.

[←471]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 77.

[←472]
مختصر دراسة للتاريخ. توينبي. ج 3 ص 101.

[←473]

بعد دخول العرب للاسكندرية في 22 ديسمبر عام 640م، وتدمير أسوار المدينة، كتب بن العاص خطابا لبن الخطاب يستشيره في أمر المكتبة والكتب. وبعد عدة أيام أتى رد عمر بن الخطاب، وفيه ما معناه: «...وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة بنا إليها». وهكذا أمر ابن العاص بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية لاستخدامها في إيقاد النيران التي تُبقي على دفء الحمامات. ويذكر المؤرخ المسلم القفطي في كتابه تراجم الحكماء أن إحراق تلك الكتب قد استمر لما يقارب الستة أشهر، وأن الكتب الوحيدة التي نجت من الحريق كانت بعض كتب الفيلسوف الإغريقي أرسطو وبعض كتابات اقليدس الرياضي وبطليموس الجغرافي. ورواية إحراق العرب لكتب مكتبة السيرابيوم كما ذكرها القفطي مذكورة أيضا في كتب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار لشيخ المؤرخين المصريين تقي الدين المقريزي، والفهرس لابن النديم، وتاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان. كما يؤيد ابن خلدون في كتابه مقدمة ابن خلدون رواية إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية وذلك بالنظر لسلوك العرب في نفس العصر، ومن أمثلة ذلك السلوك إلقاء سعد بن أبي وقاص لكتب الفرس في الماء والنار، وذلك بناء على أمر عمر بن الخطاب الذي بعث لبن أبي وقاص قائلا:

- «إن يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله باهدى منه، وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله». المراجع المؤيدة حرق مكتبة الإسكندرية. (ويكيبيديا).

[←474]

وفي قمة البرج أي طبقته السابعة بني معبد أو مزار يسمى ساخورو لاستراحة الإله مردوخ بعد رحلته من السماء إلى الأرض حيث وضع فيها سرير ضخم مزين بزينة فاخرة ومنضدة من الذهب ولا يجرؤ أحد على دخول المزار العلوي سوى كاهنة أصطفاها الإله لخدمته ويحرم على هذه الكاهنة الإتصال بالرجال. (الكلدانيون منذ بدء الزمان. صفحة 85).

[←475]

الانسان وقواه الخفية. صفحة 188. راجع «فجر الضمير» برستد.

[←476]

موسى والتوحيد. سيغموند فرويد. صفحة 157.

[←477]

الغصن الذهبي. فريزر. صفحة 43.

[←478]

من كتاب «دين الانسان» فراس السواح صفحة 62. Emile Durkheim, The Elementary Forms of Religious, Life, op; cit.

[←479]

الكلديون/الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 218.

[←480] حياة المسيح.العقاد، الصفحة 49.

[←481]
الغصن الذهبي. صفحة 249.

[←482]

علم قديم يبحث عن مادة إكسيرية تحول المعادن الخسيسة إلى معدن الذهب.

[←483]

الغصن الذهبي. صفحة 333.

[←484]

ساعد البحث والجهود في محاولة استخراج الذهب من المعادن الأخرى (السيمياء) في الوصول إلى اختراعات مفيدة وتجارب بناءة. (قصة الفلسفة. صفحة 155).

[←485]

قصة الحضارة. ج 1 صفحة 63 أو 129.

[←486]

الإنسان. محمد رياض. صفحة 524.

[←487]

المصدر السابق. صفحة 523.

[←488]

بخور الآلهة. خزعل الماجدي. صفحة 23.

[←489]

كما أصبح (الكهنة) لهم على مواطنيهم سلطان لا تكاد تعرف له حدود. لقد أصبح ملوك الفرس أنفسهم من تلاميذهم، لا يقدمون على أمر ذي بال إلا بعد استشارتهم فيه، فقد كانت الطبقات العليا منهم حكماء، والسفلى متنبئين وسحرة، ينظرون في النجوم ويفسرون الأحلام؛ وهل ثمة شاهد على كعبهم اكبر من أن اللفظ الإنكليزي المقابل لكلمة «السحر»Magic مشتق من اسمهم. (قصة الحضارات . ول دورانت . المجلد الأول صفحة 345).

[←490]

كان من المعتقد «عند البابليين» في الواقع أن ظل الميت يفترق عن جسده مباشرة عقب الموت ويتحول إلى روح شريرة تسمى «أديمو» وتنضم إلى طبقة الـ «أوتوكي» الأشرار وهي لا تستريح طالما لم تدفن الجثة «إن من تبقى جثته ملقاة في الحقول يظل خياله غير مستقر في الأرض. وإن من لا يعني أحد بخياله يقتطع ما يصل إلى يده في مطافه السريع من بقايا الأطعمة الملقاة في الشارع ليأكلها». (بلاد ما بين النهرين. ديلا بورت. صفحة 171).

[←491]

وفي ظلال المعابد كانت تقوم المدارس التي تخرج الكتاب. ومن الثابت أن الكتابة وجميع المتون من كل نوع كان يعهد بها لرجال الدين وهي التي كان لها الفضل في إحياء الحضارة البابلية. (بلاد ما بين النهرين. ديلا بورت. صفحة 137).

[←492] قصة الحضارة. ج 1 صفحة 63 أو 130.

[←493]

الغصن الذهبي. جيمس فريزر. صفحة 167.

[←494]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. صفحة 63.

[←495]

الحياة الروحية في بابل. كلشكوف. صفحة 92.

[←496]

طب وسحر. صفحة 34.

[←497]

إن الشامانيين عندما تعرضوا لصدمات جسمية وعاطفية قاسية جدًا في حياتهم الباكرة، أصبحوا قادرين على شفاء أنفسهم وإعادة تكامل حياتهم بطرق تجعل القوى النفسية، بل حتى القوى الكونية أحيانًا، تحت تصرفهم. تمكنهم هذه القوى من التعامل مع كلا الأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة، فيسحبون طاقة من الأولى، ويحاربون الثانية عندما تدعو الحاجة لذلك. إن هؤلاء الشامانيين مشغولون بشكل كبير بعمليات الشفاء، ويظهر أنهم يمتلكون طاقات خارقة للطبيعة تمكنهم من الإخبار عن المستقبل وتمييز الأشياء المفقودة والضائعة. (أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 558).

[←498]

الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين. صفحة 212.

[←499]

الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين. صفحة 214.

[←500]

المصدر السابق. صفحة 228.

[←501]

الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان. كلود ريفيير. صفحة 209.

[←502]

آرنست رينان. صفحة 117. مفكر وفيلسوف ومؤرخ فرنسي (1823 ـ 1892م).

[←503]

تراثنا الروحي. سهيل بشروئي. مقدمة صفحة 8.

[←504] ما قبل الفلسفة. فرانكفورت. صفحة 275.

[←505]

دراسات في الحضارة. د. لويس عوض. صفحة 66.

[←506]

المصدر السابق. صفحة 101.

[←507]

تراثنا الروحي. سهيل بشروئي. صفحة 21/13.

[←508]

المصدر السابق. صفحة 21/12.

[←509]
قد يكون هو ذات الفيلسوف (طاليس او تاليس) الذي جاء على ذكره الشهرستاني ضمن أسماء الفلاسفة السبعة.

[←510]

أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 186.

[←511] المصدر السابق. ذات رقم الصفحة.

[←512]
تاريخ العرب قبل الاسلام. الدكتور جواد علي. (الفصل الثاني الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلي).

[←513]

أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية. صفحة 19.

[←514]

تراث الاسلام. سير توماس آرنولد. صفحة 105.

[←515]

تراث العالم القديم. دي بورج. صفحة 133.

[←516]

المصدر السابق. صفحة 134.

[←517] الكلديون/الكلدان منذ بدء الزمان. صفحة 237.

[←518]

ابداعت النار. كاتي كوب. صفحة 32.

[←519]

الحياة ما بعد الموات. ريموند مودي. صفحة 127.

[←520]

جالينوس، طبيب يوناني ومشرح وفيزيولوجي تجريبي. ولد في برجامون (هي الان في غربي تركيا). تعلم الطب، ورحل في طلبه إلى كورنث والاسكندرية، واستقر في روما حيث طبب لأربعة أباطرة متعاقبين. أجلّه الأطباء العرب، وكان أبو بكر الرازي (313هـ،925م) يلقبه بثاني الفاضلين بعد ابقراط. ألف باليونانية في الطب والتشريح، وترجمت كتبه إلى العربية ومنها إلى اللاتينية، ومن ثم دخلت أوربا في القرن الثاني عشر الميلادي، وظلت آراؤه معتمدة نحو خمسة عشر قرنا. (موسوعة شبكة المعرفة الريفية).

[←521]

مقدمة ابن خلدون. صفحة 650.

[←522]

أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 188.

[←523]

تدهور الحضارة الغربية. أسوالد اشبنغلر. صفحة 153.

[←524]
الغصن الذهبي. صفحة 244.

[←525]

يعد اكتشاف الزراعة أعظم اكتشاف قام به الانسان القديم، ذلك الاكتشاف الذي سرعان ما أدى إلى مجموعة كبيرة من الاكتشافات اللاحقة التي قلبت حياة الإنسان نوعيًا وأوصلته إلى مراحل نوعية من الحضارة والرقيّ، ويبدو أن اكتشاف الزراعة في شمال العراق جاء مبكرًا، بل يكاد العراق ينفرد دون بلدان الشرق الأدنى بأسبقية هذا الاكتشاف، فقد ظهر مبكرًا في الألف التاسع قبل الميلاد في (ملفعات) ثم ظهرت المستوطنات والقرى الزراعية بعد ذلك وهي أول قرى العصر الحجري الحديث (النيوليت) في الألف الثامن وخصوصًا قرية (حرمو). (أدب الكالا. صفحة 99).

[←526]
أن السلطة المركزية كانت تهتم مباشرة بتفاصيل إدارة أبعد المدن وأنها كانت قد نظمت ادارة لحملة البريد «العدائين» هيئت لها مرابط ومحطات بغية توصيل التعليمات وضمن تنفيذها. وقد شغلت الأسرة الكاسية عرش بابل مدى 576 عاما وأدخلوا استعمال الحصان ولم يكن كثير الانتشار في السهل من قبل. (بلاد ما بين النهرين. ل. ديلا بورت. صفحة 40 . 55).

[←527]

قصة الحضارة. ويل ديورانت. صفحة 102.

[←528]

المصدر السابق. صفحة 102.

[←529]

ابداعات النار. كاتي كوب. صفحة 16.

[←530] أسرار الفيزياء الفلكية. صفحة 78.

[←531]

قصة الحضارة. ج 1. صفحة 102.

[←532] سنأتي على أديان الشرق الأقصى وأوربا، في أجزاء الكتاب الأخرى.

[←533]

اشتركت جميع ديانات الأرض بالدعوة إلى توحيد الخالق.

[←534]

المبدأ الأساس للديانة البهائية.

[←535]
وقد كانت أديان التوحيد خطوة إلى الأمام في طريق الانسانية لأنها أبرزت وحدة الجنس البشري بنسبته إلى آدم وحواء لتحل مشكلة القوميات المتناحرة. (دراسات في الحضارة. د. لويس عوض. صفحة 28).

[←536]

مشروع السلام الدائم. كانت. صفحة 18.

[←537]

أسرار الفيزياء الفلكية. صفحة 82.

[←538] أسرار الفيزياء الفلكية. صفحة 434.

[←539]

الخالدون المائة مايكل هارت. صفحة 47.

[←540]

ما قبل الفلسفة. هـ. فرانكفورت. صفحة 279.

[←541]

أصل الدين. فيورباخ. صفحة 48.

[←542] الغيب والعقل. إلياس بلكا. صفحة 65.

[←543]

تفلسف بمصر ثم سار إلى ملطية وأقام بها. الملل والنحل. صفحة 324.

[←544]

وكان للطب المصري القديم ذيوع في الشرق الأدنى، ولم ينكر ابقراط وجالن أن بعض ما حصلا عليه من علم بالطب جاء من المصنفات المصرية التي كانا قد درساها في معبد امحوتب في ممفيس. (تراث العالم القديم. دي بورج. صفحة 37).

[←545]
قام أبيقور بتحرير الإنسان من خوفه الوهمي من الآلهة، بأنه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهم الإنسان. (كشف الحلقة المفقودة. الماجدي. صفحة 138).

[←546]

هذه التسميات قد تختلف في بعضها عن المشهور في الحال الحاضر لقدم عهد مؤلف الكتاب.

[←547]

وقيل: إن وجود الشعر في أمة يونان كان قبل الفلسفة وإنما أبدعه أوميروس، وتاليس كان بعده بثلاثمائة واثنتين وثمانين سنة، وأول فيلسوف كان منهم في سنة تسعمائة وإحدى وخمسين من وفاة موسى عليه السلام، وهذا ما أخبر به كورفس في كتابه، وذكر فورفوريوس أن تاليس ظهر في سنة ثلاث وعشرين ومائة من ملك بختنصر. (كتاب الملل والنحل. صفحة 339).

[←548]

أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 457/458.

[←549]

نقد العقل العملي. إيمانويل كانت. صفحة 219.

[←550]

الملل والنحل. صفحة 290.

[←551]

المصدر السابق. صفحة 292.

[←552] المصدر السابق. صفحة 297.

[←553]

أسرار الفيزياء الفلكية. صفحة 202.

[←554]

الملل والنحل. صفحة 302.

[←555]

المصدر السابق. صفحة 309.

[←556] أسرار الفيزياء الفلكية. بريو شينكين. صفحة 79.

[←557] المصدر السابق.صفحة 79.

[←558]

المصدر السابق. صفحة 188.

[←559]

الانسان وقواه الخفية. صفحة 203.

[←560]

الملل والنحل. صفحة 311.

[←561]

المصدر السابق.صفحة 316.

[←562]

كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد والتوحيد. صفحة 164.

[←563] الملل والنحل. صفحة 320.

[←564] المصدر السابق. صفحة. 318.

[←565]

الكشكول للعاملي صفحة 208.

[←566]

أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية. صفحة 22.

[←567]

كشف الحلقة المفقودة. خزعل الماجدي. صفحة 165.

[←568]

الملل والنحل. صفحة 335.

[←569]

المصدر السابق.صفحة 335.

[←570] المصدر السابق. صفحة 336.

[←571]

المصدر السابق. صفحة 337.

[←572] المصدر السابق. صفحة 339.

[←573] المصدر السابق. صفحة 349.

[←574]

مختصر دراسة للتاريخ. آرنولد توينبي. ج 3 ص 189.

[←575]

الملل والنحل. صفحة 332.

[←576] الملل والنحل. صفحة 324.

[←577]

الرسل والأنبياء.

[←578]

أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية. صفحة 19.

[←579]

الملل والنحل. صفحة 354.

[←580]

المصدر السابق. صفحة 369.

[←581] الملل والنحل. صفحة 381.

[←582]

المصدر السابق. صفحة 386.

[←583] كشف الحلقة المفقودة. صفحة 154.

[←584]

علم الأخلاق. سبينوزا. صفحة 52.

[←585]

المصدر السابق. صفحة 53.

[←586]

الغيب والعقل. إلياس بلكا. صفحة 58.

[←587]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 24.

[←588]

المصدر السابق. صفحة 24.

[←589] فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 24.

[←590]

كانط. ألن وود. صفحة 173.

[←591]

أديان العالم. هوستن سميث. صفحة 152.

[←592]

الكون. كارل ساغان. صفحة 13.

[←593]
رسالة بطرس الرسول الثانية 13:3.

[←594]

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 1:21.

[←595]

قرآن سورة ابرهیم 48.

[←596]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 27.

[←597]

المصدر السابق. صفحة 24.

[←598]

المصدر السابق. صفحة 24.

[←599]

المصدر السابق. صفحة 25.

[←600]

فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسن. صفحة 25.

[←601] المصدر السابق. صفحة 232.

[←602]

كانط. ألن وود. صفحة 172/173.

[←603]

مختصر دراسة للتاريخ. توينبي. ج 1 صفحة 216.

[←604]

بداية الكون من الأفلاك إلى البشر. جون فايفر. صفحة 211.

[←605]

كانط. ألن وود. صفحة 172.

[←606]

كانط. ألن وود. صفحة 171.

[←607]

الغصن الذهبي. صفحة 66.